

# سجين حجر الأوبال

إيه إيه دبليو ماسون

ترجمة أحمد عبد المنعم



# سجين حجر الأووال

تأليف

إيه إيه دبليو ماسون

ترجمة

أحمد عبد المنعم

مراجعة

هاني فتحي سليمان



# سجين حجر الأُوبال

The Prisoner in the Opal

A. E. W. Mason

إيه إيه دبليو ماسون

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ / ٢٦ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: +٤٤ ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

التقديم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٨٣٤

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٨.

صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٥.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص

هذا الكتاب مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: تَسْبُّبُ المُصَنَّفِ، الإصدار ٤، ٠٤. جميع

حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

# المحتويات

٧	- النبيذ الأحمر
٩	- جويس ويبل
٢١	٣- ذو اللحية
٢١	٤- الغاز أمام السيد ريكاردو
٣١	٥- هانو يظهر مجدداً
٤٥	٦- لوحة على الجدار
٦٥	٧- كهف المومياوات
٧١	٨- القاضي المسؤول
٨١	٩- من إيفيلين ديفينيش؟
٩١	١٠- ثلاث غرف
١٠٥	١١- آثار أقدام
١٢٣	١٢- القناع
١٣٧	١٣- وجهات نظر متباعدة
١٤١	١٤- هانو يجفل
١٥١	١٥- الفيكونت يطلي ببابته
١٥٩	
١٧٣	١٦- بلاكيت يضيف المزيد إلى قصة ديانا
١٧٩	١٧- كيف يدفع تاجر المجوهرات ضرائبه
١٩١	١٨- هانو يتناول العشاء
٢٠٥	١٩- الحقيقة الصادمة عن الأرملة تشيشول
٢١٥	٢٠- الوجه المطل من النافذة

## سجين حجر الأؤبالي

٢٢٥	- ٢١ - غاز الخردل
٢٣٧	- ٢٢ - القاضي يدخن سيجارة
٢٤٣	- ٢٣ - السيد ريكاردو يتناول الغداء
٢٥٣	- ٢٤ - الغرض من غرفة الاجتماعات
٢٦٥	- ٢٥ - خطابات إيفيلين ديفينيش
٢٧١	- ٢٦ - المكتبة
٢٨٣	- ٢٧ - إلهام مستمد من القناع
٢٩١	- ٢٨ - ليلة الأربعاء
٣٠٥	- ٢٩ - هانو يستكمل المهمة

## الفصل الأول

# النبيذ الأحمر

عندما كان السيد جوليوس ريكاردو يتحدث عن سمات «الرجل النبيل»، وهو لقب كان يتردد كثيراً على لسانه، كان يقصد رجلاً أضاف إلى أسلوبه الأنثيق معرفةً واسعة بالنبيذ الأحمر. ولم يكن بمقدوره محظوظاً بهذه الجزئية من تعريفه. هذا الحال! فالرجل النبيل يجدره أن يعرف تاريخ النبيذ العتيق وفئات الخمور السبع مرتبةً في ذهنه ترتيباً واضحاً مثلماً كانت مدينة كاليله محفورةً في قلب الملكة التيودورية. كما يجدره أن يتمكّن، بنظره واحدةٍ على التربة، من تفسير سبب إنتاج كروم العنبر على هذا الجانب من الطريق شراباً أذ من تلك الكروم التي تبعد ٥٠ ياردًا على الجانب الآخر منه. كذلك يجدره أن يُميّز، من الرشفة الأولى، الفحولة الكامنة في شاتو لاتور عن الأريح الأنثوي في شاتو لافيت. وفوق هذا، حري به أن يُدرك أنه لم يتعلّم سوى الخطوات الأولى لطفل يتعلّم المشي. ويجب لا يعتبر نفسه يمتلك المعرفة الكافية حتى يتمكّن من الاعتماد على صحة تصنيفه للنبيذ في أيٍّ مناسبة. فحتى تاجر النبيذ ربما يجادل بأن النبيذ موتون روتشيلد مصنّف على سبيل الخطأ ضمن الفئة الثانية. ولكن الخبر الذي كان يتخيله السيد ريكاردو ينبغي أن يكون مؤهلاً لأمور أهم بكثير من تلك. وكان مرجحاً أن يقول السيد ريكاردو إذا ما استدعي على نحوٍ مفاجئ لتعريف الرجل النبيل بایجاز: «الرجل النبيل هو من لديه حاسة تذوق قوية ومكانة اجتماعية مؤكدة، بالقدر الذي يكفي لتبرير تصريحه بأن زجاجةً مصنوعة من عنب بورجوازي جيد ربما تتفوق على زجاجةً مصنوعة من أجود أنواع الكروم».

كان جوليوس ريكاردو صاحب مبدأ لا يتجزأ. فكانت الالتزامات التي يفرضها على الآخرين في أفكاره، هي الالتزامات ذاتها التي يعيش بموجبها في حياته. اعتبر البقاء على معرفة دائمة ومتعددة بالأمور المرتبطة بالنبيذ الأحمر من مظاهر الشرف، ووضع خططاً لتكريس شهور الصيف من أجل تحقيق هذه الغاية. ومن ثم، في يوم سبت من أسبوع

سباقات «جودوود»، سافر بالقطار إلى إيكيس ليبان. وكانت سيارته الجميلة بانتظاره، وظل طوال خمسة أو ستة أسابيع يَنْشُد بحثاً عن شفاءً من غير علة أصابته. كان مسعاه غير مجدٍ لأن العلة الوحيدة التي كان يعانيها هي أنه رام سيئ. فتصويبه كان سيئاً لدرجة أن وجوده في المستنقعات كان يثير السخرية دائمًا، وفي بعض الأحيان كان يثير الاستياء والإهانات إذا كان مُضيّقه يرغب في صيد وفير. لهذا السبب، كانت إيكيس ليبان هي ملاذه الوحيد خلال شهر أغسطس. ولما انتهت فترة التماسنه للشفاء، شدَّ الرحال بتؤدة وأناقة عابراً فرنسا نحو بوردو، وكان يخطط لأن يصل إلى هذه المدينة بحلول نهاية الأسبوع الثاني من شهر سبتمبر. وعندما وصل إلى بوردو، أعاد تجهيز نفسه وأخذ قسطاً يسيراً من الراحة، وبعد بضعة أيام، في الليلة السابقة لموس حصاد العنب، بدأ جولةً في إقليم جيروند الضياف، متقدلاً في رحلات قصيرة من قصر إلى آخر، مستمتعاً بالكثير من الهواء النقي والصحبة المبهجة، ومتناولاً كميةً كبيرة من نبيذ الكلاريت الأحمر الذي لا مثيل له من مختارات مُضيّقِيه الخاصة، ووصل في بداية شهر أكتوبر إلى مدينة أركاشون الجميلة شاعراً بأنه كان يُشرف على زراعة الكروم في فرنسا. كان هذا روتينه المعتمد في الصيف. لكنه ما إن يدق مرأةً المباح والإثارة في مدينة إيكيس؛ فسرعان ما يرتاح وجданه أجمعه خلال زيارته الميمونة وجولاته التي اكتسبت صفة القدسية لديه في مزارع العنب. ودفعته اللمسة الجنائزية لهذه الأحداث إلى هذا الملاذ الشاعري النادر.

كان يقول في رضاً: «هذا الأمر جعلني أرى العالم من منظور مختلف. أراه وكأنه حجر أوبال هائل أقف في داخله. حجر أوبال معتم ومضيء بدرجة أدرك معها وجود عالم آخر في الخارج يثير رعب سجين حجر الأوبال ورهبته. إنه ما يُطلق عليه حجر الأوبال الناري، فمن آن لآخر يُثير شعاع قرمزي ساطع، وكأنه وميض بندقية في ليلة معتمة، الظلمة التي تُغلّفي. ومن حين لآخر، كنت أشعر بأن الأرض تحت قدمي هشة ومُنذرة بالخطر مثل هشاشة حجر الأوبال»، وهلم جراً. في الواقع، كان السيد ريكاردو بيالغ في تصوره لحجر الأوبال كما كان يُفرط في تعميقه وتفصيله إلى درجة من الملل كانت استثنائية، حتى بالنسبة إليه شخصياً. ولكن الجريمة أثارت ضجةً تخطّت المنطقة الريفية الهدائة التي وقعت فيها. فسجلات المحاكمة لا تزال موجودة، حيث يمكن قراءة تفاصيل أفعال السيد ريكاردو وصديقه هانو، المحقق الفرنسي الشهير، وكل الأشخاص الآخرين الذين انسلقوا، وانزلقوا، وتعثروا، وارتجمدوا في واحدة من أحكام القضايا التي يتذكرها هانو.

## الفصل الثاني

# جويس وبيل

بدأت المتابعة التي يواجهها السيد ريكاردو في غرفة استقبال أحد منازل لندن في الأسبوع السابق لسباقات «جودوود». كان الرجال قد صعدوا للتو من غرفة الطعام وكانوا يقفون معاً، كما تقتضي عاداتهم، على مقربة من الباب بطريقة غير مريحة. رفع السيد ريكاردو بصره، والتقطت عيناه ابتسامة مُرْحِبة مميزة من أجمل فتاة في المكان. كانت تجلس عن قصد بعيداً عن رفاقها على أريكة لا تسع سوى شخصين، وكانت تُوجّه له ابتساماتها عن قصد أيضاً. لم يُصدق السيد ريكاردو عينيه. لا ريب في أنه يعرف هذه الشابة. إنها فتاة من كاليفورنيا ذات اسم لا يقل جمالاً عن هيئتها، جويس وبيل، وكان يستمتع من أن لا يخسر بالتعرف إليها من جديد في لندن، وفي باريس، وفي البندقية. ولكن ما الذي يُميّزه، إنه مجرد شخص عادي لن يصبح يوماً شخصية بارزة، هاوٍ لمائة حرف ولا يمارس أيّاً منها، وسيط شاي متلاعِد من شارع مينسينج؛ ما الصفات التي يملكتها لتُثير اهتماماً مخلوقه مبهراً مثلها خلال الساعات التي تسبق انتهاء حفل العشاء؟ كانت باهراً من قمة رأسها الصغير بشعره الناعم إلى أخصم قدميها بحذائهما الرشيق المطرّز. كان لون شعرها بنيناً داكناً، وكان مفروقاً من منتصفه ويتبدى في تمواجات رائعة على أذنيها. كانت بشرتها فاتحةً دون شحوب، وجبهتها رفيعة، وكانت تمتلك تلك المساحة التي تفصل بين عينيها الرماديتين الواسعتين التي تدل على جمال حقيقي، وكان أنفها صغيراً مائل الطرف، وكانت شفتها العليا قصيرة، وكان فمها كبيراً إلى حدٍ ما، وشفتاتها تتباشان بالحمرة. كان ذقنها صغيراً ومشدوداً، وكانت ترتدي فستاناً لامعاً يتلألأً بألوان فاتحة تمتازج وتتنفصل مع كل حركة تفعلها. كانت متأنقةً ومهندمة إلى حد أن الانطباع الأول الذي كان يؤخذ عنها أنها ليست جميلةً بقدر أنها مصقوله على نحو رائع، وصولاً إلى أدق التفاصيل غير الملحوظة. كانت تبدو وكأنها أرسلت إلى المنزل في صندوق من الورق المقوّى ووضعت

واقفةً على قدميها بكل عناء. لم يصدق السيد ريكاردو أن هذه الابتسامة موجّهة إليه. كان يعتقد أنه اعترض طريق هذه الابتسامة بمحض الصدفة، وبدأ يتلألأ حول نفسه بحثاً عن الشاب المحظوظ المقصود بهذه الابتسامة، ولكن تغيير التعبير المرسوم على وجه الشابة. في البداية، زحف تعبير ينم عن الاستياء على وجهها بسبب ترددده في التقرب منها. كان تعبير الاستياء متبوغاً بصيحة تحفيز أطلقتها مُضيّقته وهي تحدّق إليه من فوقه. احتفى تردد السيد ريكاردو. فأسرع عابراً الغرفة، وأفسحت جويس ويبل على الفور مكاناً له على الأريكة بجانبها.

قالت جويس: «يجب أن نتحدّث بصرامة تامة. وإنما فستخطف مني يا سيد ريكاردو. ثم مالت للأمام في جدية وكأنها تتحدث في مسألة حياة أو موت وقالت أول شيء تبادر إلى ذهنها.

«في زيارتي الأولى إلى إنجلترا، أخبرتني واحدة من نسائكم العظيمات، وكانت حكيمّةً كعادة نسائكم العظيمات، أني إذا أردت التحدث إلى رجل بعينه، فستحين لحظتي عندما يختلط رجال آخرون بالنساء. وقالت إن هناك دائمًا بعض ثوانٍ عندما يقفون في حياء وإحراج وسط مجموعة سخيفة، متسائلات عمن يجدر بهن الترحيب به، ومن لا يجدر بهن الترحيب به. في تلك اللحظة، إذا ما وجّهت إلى أحدهم الفتاة أدنى نظرة تشجيع، فسيلاقي بنفسه تحت قدميها لما تبقى من الليل. ولكن كادت الخطة تُفسد الليلة، رغم أنني منحتك ابتسامة تشجيع شديدة الصراحة والوضوح.»

ردَّ عليها السيد ريكاردو بقوله: «اعتقدت أنه لا بد من وجود شاب في وسامه أدونيس يقف خلفي.» فتردّدت مُضيّقته التي لم تكن قد انتهت من مطاردته بعد.

لا ريب في أن السيد ريكاردو كانت له معايير محددة فيما يتعلق بقضاء الأمسيات. فلم يكن ميالاً إلى الانطلاق والرقص في الملاهي الليلية. لذا، كان يعتمد عليه في لعب البريدج حتى نهاية الحفل. ورغم أنه، للأسف، كان يقول بين الحين والآخر ضاحكاً: «أين سنذهب الآن للحصول على المتعة والإثارة؟» أو يلقي دعابةً مدمرة على هذه الشاكلة، فإن أسلوبه في اللعب كان عاديًّا من غير جرأة أو ابتكار. ولكن كان واضحًا لُضيّقته أنه جاهز الليلة لقضاء الوقت في شيء أفضل. ابتعدت المُضيّقة، وتنهَّدت جويس ويبل في ارتياح.

وقالت: «أنت تعرف واحدةً من صديقاتي، ديانا تاسبورو.» أجابها السيد ريكاردو في تواضع: «إنها عطوفة بما يكفي لأن تؤمئ لي من على الطرف الآخر لقاعة الرقص عندما تتذكّر من أكون.»

بدا بعضُ من التألف على مُحييًّا جويس ويبل.

وقالت: «ولكك ستذهب بالطبع للإقامة معها في قصر سوفلاك، عندما تذهب للبحث عن النبيذ في الخريف..»

جفل السيد ريكاردو. لم يتخيل أن يسمع عبارةً تسيء بهذا القدر لرحلة حجه المجلَّة عبر منطقَي ميدوك وجيروند.

رد ببعض الفتور: «لا. سأقيم في المنطقة نفسها، ولكن مع الفيكونت كاساندر دو ميراندول.»

كان يملك كل الحق في نطق الاسم بتجليل واضح. فلا ريب في أنه اسم يقع ضمن أشهر أسماء الخمور، كما أنه يحمل لحمةً من عصر الحملات الصليبية. ولكن كان السيد ريكاردو صادقاً، وبعد أقل صراع ممكِن مع خياله، أضاف قائلاً: «ولكنني لم أتعرف بالفيكونت بعد يا آنسة ويبل. ثمة مرض انتشر في المنزل الذي كنت سأقيم فيه، ونُقلَّت إقامتي إلى منزل آخر طبقاً لعادات الضيافة التي يتبعها الناس هناك.»

قالت جويس: «فهمت». بدا جلياً أن جويس ويبل أصيَّبت بخيبة الأمل، بل وبالحزن الشديد أيضاً. ثم قالت: «بما أنني التقىتك في منزل ديانا، فأنا واثقة بأنك ستأخذ راحَة من رحلتك في قصر سوفلاك.»

هز السيد ريكاردو رأسه نفياً. وقال: «ولكنني سأقيم على مسافة تقل عن ميل واحد منها، وإذا كان بمقدوري فعل أي شيء من أجلك، فمن المؤكد أنني سأفعله. في حقيقة الأمر، لم أر الآنسة تاسبورو أو عمتها منذ ستة أشهر على أقل تقدير.»

قالت جويس: «لا. لقد قضينا الصيف بأكمله في بياريتز.»

واصل السيد ريكاردو حديثه في سذاجة: «لم أقم من قبل في قصر سوفلاك، ولكن هذا لا يعني عدم رغبتي في ذلك. القصر يبدو رائعاً من الخارج. منزل زهرى فاتح من طابق واحد على شكل حرف E كبير، به برجان دائريان صغيران ملحقان بالمبني الرئيسى وشرفة كبيرة مرصوفة بالحجارة في الجهة الخلفية منه تُطل على نهر جيروند...»

لم تكن جويس ويبل تهتم بوصفه للمنزل الريفي ذي اللون الزهري الفاتح، فصمت السيد ريكاردو. كانت جويس ويبل منحنية للأمام ساندةً مرفقها على ركبتها وذقنها مستقرة على راحة يدها، وارتسم تعبير قلق على وجهها.

قال السيد ريكاردو مُغيِّراً دفة الحديث: «نعم، في الواقع، هذا شيء غريب نوعاً ما.»

سألته جويس ويبل وهي تُدبر وجهها نحوه: «وما الغريب في الأمر؟»

«الغريب أن عائلة تاسبورو قضت فصل الصيف بأكمله في بياريتس. فإن كان الناس يُحدّدون أوطانًا لأرواحهم، فستكون لندن وطن الآنسة ديانا الروحي». كانت ديانا تاسبورو، الثرية من وراثتها لكرום سوفلاك، وإرثها من عمتها المطيبة المرافقة لها، قلب ومحور واحدة من تلك المجموعات المحفوظة التي ينقسم لها شباب لندن. كانت المجموعة مؤلّفةً من أشخاص، أغلبهم في منتصف العمر، ممن حقّقوا التميّز أو كانوا في الطريق إلى تحقيقه. صحيح أن ديانا اصطادت الأسماك في أنهار اسكتلندا، واصطادت الحيوانات في ميدلاندز، ولكن لندن هي وطنها ومقر مجموعة أصدقائها الكبيرة.

قال السيد ريكاردو: «هل كانت مريضة؟»

«لا. كانت تراسلني، ولم تذكر شيئاً عن أي مرض. أنا أيضًا متّحيدة مثلّك. كانت ديانا عطوفة للغاية معي عندما جئت إلى إنجلترا للمرة الأولى ولم أكن أعرف أحدًا. أكره أن يصيّبها أي مكروه؛ أعني أي مكروه حقًا».

نطقت جويس الكلمة ببطء، ليس لأنها كانت تشكي في أنها الكلمة المناسبة لاستخدامها، بل لكيلا يستخف بها السيد ريكاردو. جفل السيد ريكاردو بشدة. وجال ببصره في أرجاء الغرفة. لم تكن صفوف الورود، وإشراقة الأضواء، والأشخاص المتألقون، متوافقة على الإطلاق مع تلك الكلمة التي نطقّت بها.

فسأل: «هل تعتقدين حقًا أن مكروهًا قد يحدث لها؟» كان يشعر بالانفعال، انفعال يشوبه بعض البهجة.

قالت جويس ويبيل: «أنا واثقة بذلك».

«وما السبب؟»

استدارت جويس بجسدها أجمعه نحو السيد ريكاردو وثبتت عينيها الواسعتين الرماديَّتين على وجهه، وقالت: «رسائل ديانا لي. أقول لك صراحةً إبني لم أتمكن من العثور في أيٍ منها على جملة واحدة، أو حتى عبارة واحدة، ربما تبدو مثيرة للقلق. أعلم ذلك لأنني حللت هذه الرسائل بعناية مرارًا وتكرارًا. وأريد أن أصدق أنني لست واهمة، أو مضطربةٌ نفسياً، لا، لست كذلك على الإطلاق. ولكني لم أقرأ خطاباً أرسلته إلى ديانا من دون أن تورثني شعوراً مروعاً للغاية. يبدو أنني أرى ...» ثم صمتت لتتصحّح ما قالت: «لا مجال للكلمة «يبدو» هنا. أنا أرى ما تخفيه تلك الخطابات المكتوبة بالحبر الأسود، وأنقل جيئهً وذهاباً بين الكلمات المكتوبة والورق الأبيض الذي كُتبت عليه، وأرى مجموعةً من الوجوه المشوّهة، وغير الكاملة، والمروعة، ودائمة التغيير. وتضمحل في بعض الأحيان

— كيف يمكنني أن أصف ذلك؟ — إلى أقراص دائيرية وردية من دون أي ملامح باستثناء عينين حبيبين. وتنمو لها في أحيان أخرى قَسَّمات بشرية مشوهة. ولكنها لا تكون كاملةً أبداً. أنا واثقة بأنها إذا أصبحت كاملة، فستكون شريرة بكل ما تحمله الكلمة من معنى. كما أنها لا تبقى ثابتةً في مكان أبداً. فهي تتحرّك جيئةً وذهاباً في كل مكان مثل» وضعت يديها على عينيها للحظة وارتجمفت لدرجة أن حجر الأقبال الأصفر الكبير على سوارها الذهبي الأملس لمع حول معصمها «مثل وجود الغرقى الذين تتارجح جثثهم على الأمواج على مدار أشهر».

لم تُعد جويس ويبل تعبأ بتأثير حكايتها على السيد ريكاردو. كانت قد نسيت وجوده تقريباً. كما أن عينيها اللتين كانتا تتنقلان في أرجاء الغرفة ما بين طاولة لعبة البريدج ومجموعة من الناس يتتحدثون، لم تكونا في الحقيقة تريان أياً من محتويات الغرفة. كانت تصوغ تجربتها الغريبة لنفسها للمرة المائة على أمل أنها ربما تعثر على تفسير لها داخل قصتها، حتى وإن جاء في صورة كلمة عابرة بمحض الصدفة.

واصلت حديثها بصوتٍ خفيض ولكنه واضح تماماً: «كما أني خائفة. أخشى أن أضطر عاجلاً أو آجلاً إلى رؤية كل هذه الوجوه القاسية كاملةً وحية، وجوه أناس أحياء..» قال السيد ريكاردو برفق حتى لا يقطع حبل أفكار جويس ويبل: «وجوه الأحياء الذين يهددون ديانا تاسبورو».

قالت جويس: «إنه أكثر من مجرد تهديد. إنهم سيؤذونها؛ أجل، إنهم يؤذونها الآن حقاً أذى ربما يكون قد فات الأوان على إصلاحه. ربما يبدو ما أقول مبتذلاً وسخيفاً، ولكننيأشعر بخوف شديد من هذه الأرواح الشرير بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ؛ إن قوى الطبيعة تتقاول في الظلام من أجل السيطرة على روحها وهي لا تدرك ذلك، ولكن سمحت قوة علياً ما بأن تصل الحقيقة إلى».

رفعت جويس يديها في الهواء على نحو مفاجئ دلالةً على اليأس. ثم صاحت قائلةً: «ولكن، كما ترى، في اللحظة التي بدأت فيها أجمع مخاوي في معًا في نمط من الكلمات، تمزّقت إلى خصلات صغيرة مراوغة للغاية ولا يمكن أن تعني أي شيء لأي أحد باستثنائي أنا».

قال السيد ريكاردو متعثراً: «لا». كانت الفكرة التي يفخر بها هي أنه مواطن في هذا العالم يملك عقليةً مفتوحة للغاية. ثمة آلاف من الأحداث الغريبة، مثل الحدس الذي يُبرر في وقت لاحق، والتي لم يجد العلم تفسيراً لها والتي لن يستهزئ بها سوى الأحمق.



لم تعد جويس ويبل تعبأً بالسيد ريكاردو.

«لن أقول أبداً إن القشرة التي تحيط بالعالم ربما لا تتشقق من أجل أحدها ويتسرب عبرها شعاع من الضوء، ربما يكون مُضللاً، وربما يكون حقيقياً؛ إما أن يكون سراباً، وإما أن يكون شعاعاً من ضوء الشمس».

بدا له أنه لا يوجد شخص قد يُفصح له عن مكنونات نفسه بهذه الطلققة أكثر من تلك الفتاة ذات الوجه الرقيق الحساس، والعينين الرماديَّتين اللتين أضفت عليهما الرموش الحريرية الطويلة المنحنية نحو الأعلى، مظهراً غامضاً لافتاً.

ثم واصل حديثه قائلاً: «في الواقع. من قد يعرف ما يكفي لينكر احتمالية أن تصل إلينا رسائل أو تحذيرات؟»

نعم». التقطت جويس ويبل هذه الكلمة. وقالت: «تحذيرات متكررة. إذا ما نحيطُ الخطابات جانبًا، وأخرجتها بعد مدة وقرأتها مجددًا، تراودني الرؤى المخيفة نفسها مجددًا. أرى نفس الحركة الموجية وتأرجح الوجه غير الكاملة في الماء».

بدأ السيد ريكاردو يُعيد بناء ذكرياته عن ديانا تاسبورو، واضعًا واحدةً هنا، وأخرى هناك، حتى يتشَكَّل لديه تصورٌ واضحٌ عن الفتاة. كانت طويلة القامة ذات شعر أشقر فاتح للغاية، وكانت بارعة الجمال ولكنها كانت تميل إلى التصنُّع في وجود غرباء. كانت لديها طريقة مميزة ترمش بها عينيها وتزم بها شفتيها أثناء الكلام، كما لو أن كل كلمة تتقوَّه بها لؤلؤة من أندر الأنواع. كانت ثمة خصلة أخرى.

قال ريكاردو: «كانت تميل إلى الانطواء دائمًا».

قاطعته جويس في الحال. وقالت: «نعم، ولكنها انطوائية هادئة. ليس الأمر وكأنها تعيش حيَاة سرية غامضة خاصة بها طوال الوقت. لا أعلم ماذا تقصد. ولكن لا يعني ذلك إلا أنها تحب قضاء الوقت مع نفسها أكثر من قضائه مع أصدقائهما. إنها — ماذا يجدر بي أن أقول؟ — تمرح من دون مرح. ألا ترى أن هذا السجن الذي فرضته على نفسها يزيد من مخاوفي؟ إنها الشخص الأخير الذي قد تتقاول قوى الشر في الخفاء للفوز بروحه وجسده».

حولَت حركة بين الضيوف أفكار السيد ريكاردو إلى اتجاه آخر. كان الوقت يتآخر. وأصبحت واحدة من طاولات لعبة البريدج خالية حقًا. كان السيد ريكاردو رجلًا عمليًا.

فسأل ريكاردو: «ما الذي يبدي أن أفعله حيال ذلك الأمر؟»

«ستكون في حي قصر سوفلاك في شهر سبتمبر، أليس كذلك؟»

«بلى».

«تقييم ديانا دائمًا حفلًا لحصاد العنبر».

ابتسم السيد ريكاردو. فقد كانت حفلات ديانا مشهورة في منطقة جيروند. طوال ١٠ أيام أو نحوها، تظل أبواب نوافذ القصر، ذي اللون الزهري الفاتح المبني في القرن السادس عشر، تشق ظُلْمة الليل حتى مطلع الفجر. وكانت الشرفة الحجرية الواسعة تزين بمجموعات من الشباب الراقصين، وكانت أصوات موسيقى رقصاتهم وضحكاتهم من حيث يوجد النهر تُسمع من قبل البحارة في زوارقهم الذين ينتظرون تغيير المد. وتَمْنَع الساعَةُ المتأخرَةُ الضيوفَ الذين يخلدون إلى النوم فيها من الاستيقاظ مبكراً في صبيحة اليوم التالي، ربما فيما عدا اليوم الأول. ولكن كانوا يظهرون بطريقة ما في تمام الثانية

عشرة في اليوم التالي يلتقطون العنبر مرتدية ملابسهم الأنيقة، ويبدون أشبه بفرقة غنائية في كوميديا موسيقية تدور أحاديثها في أحد حقول كروم العنبر في فرنسا.

قال ريكاردو: «نعم، لا ريب في أنها ستقيم حفلًا بمناسبة حصاد العنبر.»

أدانت جويس جسدها لتواجهه مرة أخرى مُغرقة إيمانها، في ظلم بيّن، بكل السحر الذي يصاحب ثقة هذه الفتاة الجميلة وعينيها الفاتنتين، وقالت: «حسناً إذن، لقد فهمت ما أريد منك بشدة أن تفعله. هذا إن أردت، بالطبع. إنه رجاء بسيط، في الواقع. ولا حق لي في الإلحاح عليك. ولكنني أعرفكم أنت عطوفون». هل رأت الرجل المسكين يجفل، وأن عليها أن تضييف الكثير من الإطراء إلى رجائها وأن تتولّ إليه بصوت يملؤه الحزن والكآبة؟ «أريد منك أن تقضي أكبر وقت ممكن في قصر سوفلاك. سيكون مُرحبًا بك هناك، بالطبع ...» ونفت الفكرة السخيفة بأنه لن يكون مُرحبًا به بحركة خاطفة من أصابعها. «يمكنك أن تراقب. ويمكنك أن تكتشف ماذا يحدث مع ديانا؛ إنْ كان هناك شخص يُشكّل خطورةً حقًا بين معارفها أم لا، وحينئذ ...»

قال السيد ريكاردو: «حينئذ، سأراسلك، بالطبع.» كان السيد ريكاردو يسعد بتلك المهام الشاقة التي تُوكِلُ إليه بثقة. ولكنه دُهش عندما اكتشف أن مراسلة جويس ويبيل بخصوص الموضوع ليست ضمن مهامه.

فقد أجابته متربدة: «لا. لا ريب في أنني أحب أن تراسلني — بطبيعة الحال، ليس بخصوص ديانا فقط — ولكن لا يمكنني أن أخبرك بمكان وجودي بحلول نهاية شهر سبتمبر. لا، ما أريد منك أن تفعله، هو أنه بمجرد أن تكتشف وجود خطب ما، أن تتدخل وتوقفه.»

اضطجع السيد ريكاردو في مقعده وقد ارتسم على وجهه تعبير ينم عن قلق شديد. على الرغم من أساليبه الشديدة التدقيق وعاداته المنهجية، كان رومانسيًا في أعماقه. كانت متعته الأساسية تتمثل في أن يلعب دور الإله لمدة خمس دقائق كي يتمكن بعض الشباب المتعثّرين في الظلام من السير بخطى ثابتة في ضوء هادئ. ولكن هذا لا ينفي أن تكون الرومانسية معقولة، حتى وإنأخذت شكلاً شديد الجاذبية كشابة مثل جويس ويبيل. ما كانت تعرضه مهمّة تليق بالبطلين، وليس برجل في منتصف العمر تقاعد عن عمله في شارع مينسينج. وبينما كان يُفتش في ذهنه عن أسماء أبطال أكثر ملاءمة للمهمة منه، فقررت إلى ذهنه حقيقة مذهلة.

فتلعلّ من فرط تحمسه، وقال: «ولكنني واثق بأن ديانا تاسبورو مخطوبة. نعم، أنا واثق بذلك. إنها مخطوبة من شاب محترم. كان يعمل في وزارة الخارجية، ثم تركها،

وبدأ يعمل في حي المال والأعمال في لندن، فلم يكن يرغب في أن يكون الزوج الفقير لامرأة ثرية.» كانت ذاكرة السيد ريكاردو تعمل بأقصى سرعة، والآن بعدما رأى مهربه يلوح أمامه، مرر يمر بين مطرقة الرفض وسندان الفشل، قال: «برايis كارتري! هذا اسمه! وهو اسم شركته. عليك أن تصفي له ما تمرين به يا آنسة ويبيل، و...»

ولكن قاطعته الآنسة ويبيل باقتضاب، وقد احمرَ عنقها بشدة واصطبغت وجنتها باللون الوردي. قائلة: «لقد سقطت طائرة برايس كارتري.»  
صُعق السيد ريكاردو وأصيب بخيبة الأمل، وقال: «سقطت طائرته؟ لم أسمع بهذا الخبر. يؤسفني ما سمعت. سقطت طائرته؟ يا إلهي!»

قالت جويس في بطء: «أعني أن ديانا فسخت خطبتها به. هذا سبب آخر يجعلني أعتقد أنه يجدر بنا فعل شيء ما من أجلها. لقد كانت تحبه كثيراً، ثم انتهت كل شيء في غضون أسبوع أو اثنين، ولم تُعطِه شيئاً لذلك. أعتقد أنه لم يعد يصلح للتدخل، أليس كذلك؟ أشعر بأنه يجب لا أتفق مكتوفة اليدين؛ ليس لأن الأمر لا يخصني، بالطبع ...» سرعان ما أصبحت جويس ويبيل غير قادرة على التعبير عن أفكارها، واشتعلت وجنتها بحمرة شديدة، ثم قالت: «لذا، إن لم تساعدني ...»

ولكن شعر السيد ريكاردو بأن موقفه شائك بدرجة لم يمر بها من قبل. لم يرُق له ارتباك رفيقته على الإطلاق، وبما أن طريق الهرب الذي كان يأمل في أن يسلكه قد أغلق، بدأ البحث في يأس عن طريق آخر، وعثر عليه.

قال موجّهاً إلى صبعه نحوها منتصراً: «وجدته.»

سألته جويس في حذر: «ما الذي وجدته؟ الحل الممكن الوحيد للمشكلة.» وكان حازماً للغاية. ولم يكن ثمة مجال للمناقشة على الإطلاق. يجب أن تتم ترتيباته كما هي. قال: «أنت الشخص الوحيد المنوط بتصحيح الأمور. أنت صديقة ديانا. وتعترفين جميع أصدقائها. يمكنك أن تذهب بي بنفسك إلى حفلها في قصر سوفلاك. إن لك تأثيراً عليها. وإن كان هناك شخص ... خطر ... ألم تكن هذه هي الكلمة التي استخدمتها؟ ... فلا أحد أفضل منك يمكنه اكتشاف من يكون؛ هذا صحيح.»

رفع بصره نحوها. ورأى وجهها يُشرق، ولحظة من شجاعة واستقلالية لاءمت تماماً قوامها المشوق النحيل ومظهرها الرقيق المهندم. بدا العزم على وجهها. إننا نعيش في عصر النساء الشابات. دع واحدةً منها، في مثل جاذبية جويس ويبيل، تنفس في البوّق، وسترى مشهدًا رائعًا لسقوط أسوار أريحا الجديدة. وهو نفسه سيُشاهد هذا المشهد

من دون ذرة ندم من منزل الرجل النبيل ذي الألقاب الرنانة، الفيكونت كاساندر دي ميراندول.

صاح في إعجاب: «أنت! بالطبع، أنت!»

وعلى نحو مفاجئ، انقلبت الأدوار. كان ثمة رضاً واضح يظهر في حركات جويس وبييل ووجهها أذهل السيد ريكاردو. كان قد استغلّ نقطة ضعف غير متوقعة في دفاعاتها. وأصبح يجدر بها هي الآن أن تتحدى برفق.

أقرت وقد علا الإحراج فسمات وجهها: «لا ريب في ذلك. نعم، ولقد طلب مني الذهاب إلى سوفلاك ... وسأذهب، إن استطعت. ولكنني لا أعتقد أني سأشتري أن أذهب.» ثم اندفعت تتحدى بانفعال، قائلة: «كم أتمنى لو استطعت الذهاب! ولكنني لن أكون موجودة. سأكون في أمريكا. لهذا السبب قلت لك إنه لا جدوى من مراسلتي، وهو نفسه السبب في رغبتي في تحميك مسئولية الأمر برمتها.» ثم نظرت نحو السيد ريكاردو في حجل وسرعان ما أشاحت بوجهها بعيداً عنه، وقالت: «كما تعلم، يجب على سندريلا أن تغادر الحفل قبل منتصف الليل.» ثم رفعت عينيها سريعاً نحو الساعة، وقالت: «وقد أوشك الليل أن ينتصف الآن.»

نهضت من جلستها سريعاً وهي تتحدى، وارتسمت على وجهها ابتسامة وقالت كلمة وداع، والتحقت بمجموعة صغيرة من الشباب يقفون بجانب نافذة حديدية محاطة بأحواض الزهور. يبدو أن هذه المجموعة كانت في انتظارها؛ فقد تمنوا لضيوفهم ليلة هانئة ورحلوا على الفور.

لا ريب في أن السيد ريكاردو قد اكتنفته حالة من الرضا بعلمه أنه لم يلزم نفسه بما ترمي إليه جويس وبييل. ولكن لم يكن هذا الرضا حقيقياً تماماً. فقد كانت القصة الغريبة التي قصّتها عليه من نوعية القصص التي تروق له؛ إذ كان لديه شغف عجيب بالأمور الغريبة. وحتى تلك اللحظة، كانت الرواية تروق له أكثر من الراوي. حاول بجدّ أن يثبت أفكاره على مشكلة ديانا تاسبورو. ولكن كانت مشكلة جويس وبييل تستحوذ على تفكيره. وقبل أن يدرك أن تصرفه لم يكن لائتاً، كان قد جعلها تتآلف وكأنها جميلة عنود من حقبة الإمبراطورية الثانية. كانت هناك، تجلس أمامه بينما تُقلّهما السيارة إلى منزله في ميدان جروسفيونور، وكانت كتفاها البيضاوان تبرزان ساحرتين من ذلك الفستان الدائري ذي الحواف الصدفية الذي ترتديه، ولا أحد يعلم كيف يبقى في مكانه، وينشر طيات واسعة حول قدميها. ولكن حتى وهي ترتدي هذا الذي أمام عينيه كما لو كانت

لوحة حية، بدأ يشك ويتساءل عما إذا كان يتحول إلى شخص عتيق الطراز ومتحيز في آرائه. ففي نهاية المطاف، هل كان بقدور جويس ويبل، بأطرافتها المستقيمة الرشيقية، ومعصميها ويديها وقدميهَا وكاحلَيَا الذين في هشاشة الزجاج، أن تبدو أكثر جمالاً في أي عصر آخر مما بدت عليه في ذلك الفستان القصير المتلائِي الذي ارتديه تلك الليلة؟ جاء صوتها ليؤكّد على أن العصر المناسب لها هو عصر الإمبراطورية الثانية حقاً. فبدلاً من نبرات الصوت العالية الحادة التي اعتاد عليها، كان صوتها ناعماً وخفيضاً ورخيمًا به بحة حزينة ضئيلة تحتاج إلى إرادة من حديد لقاومتها. ولكن كانت هناك جوانب أخرى لم تؤثر به بالدرجة نفسها. لم تسبّ لها اقتراحه في ذلك القدر الكبير من الارتباك؟ ما علاقتها ببرابيس كارتري التي تجعل وجهها يحمر بشدة عند ذكر فسخ خطبته بديانا تاسبورو؟ و... .

صاح وسط العزلة الهايئة داخل سيارته الفارهة: «يا إلهي، ما الهدف من كل ذلك الحديث عن سندريلا؟» كان الجزء المتعلّق بالحذاء الزجاجي من هذه الأسطورة الجميلة ملائماً ومناسباً للغاية. ولكن ماذا عن بقيتها؟ جاءت الآنسة جويس ويبل من الولايات المتحدة مع إحدى شقيقاتها تكبرها بعام أو عامين، وفي مثل جمالها تقريباً. تزوجت هذه الشقيقة مؤخراً، وكانت زيجّةً جيدة. ولكن قبل حدوث ذلك، وطوال عامين كاملين، كانت الأختان ويبل تمرحان حيثما وُجد المرح. كانتا قد ذهبتا إلى دوفيل ودينارد، وكذلك مرتفعات اسكتلندا التي لم يزورها السيد ريكاردو. كان قد رأى بنفسه جويس ويبل تلمع على رمال شاطئ الليدو مرتديّة منامة من الساتان ذات لون برتقالي محروق. فالسيد ريكاردو كان أحد أولئك الأشخاص المحترمين الذين يزورون الليدو من حين لآخر فقط ليقف على مظاهر ابتداله ويكون معرفة دقيقة وشاملة عنه، ثم يلقي المواعظ حول ذلك فيما بعد. لا ريب في أن جويس ويبل كانتا تبدو فاتنةً في منامتها ذات اللون البرتقالي المحروق، ولكن في تلك اللحظة، توقفت سيارة السيد ريكاردو أمام منزله قاطعةً حبل أفكاره. وربما كان ذلك أفضل.



### الفصل الثالث

## ذو الحية

بعد شهر، تحالف الحظ، أو لنقل القَدَر، إذا ما كان من الممكن استخدام هذه الكلمة الكبيرة فيما يتعلق بالسيد ريكاردو، مع جويس ويبيل. كان السيد ريكاردو يحتسي قهوته الصباحية في الساعة العاشرة في غرفة معيشته الأنثقة التي تقع في الطابق الأول من فندق ماجيستيك، وكانت خطاباته التي لم يفتحها بعد مُرتبةً في كومة بجانب مرفقه، عندما أثار انتباذه الكلمات المكتوبة على الظرف الموضوع على قمة الحزمة. كان يعرف الاسم، ولكنه لم يتمكن من تمييزه. فقد كان في مزاج لا يساعد على التفكير. كانت أشعة الشمس تملأ الغرفة عبر النوافذ المفتوحة. كان يستمتع بالجلوس دون حراك مُفكراً في هوية مرسل الخطاب أكثر من فتح الظرف واكتشاف من يكون. ولكنه تلقى منذ عدة سنوات درساً في هذه الغرفة في إيكس لبيان عن موضوع الخطابات غير المفتوحة، وتذكر هذا الدرس، ففتح الخطاب ونظر إلى التوقيع على الفور. وبدأ يهتم بالخطاب عندما قرأ اسم ديانا تاسبيرو. أخذ يقرأ الخطاب كاملاً بحماسة. في الواقع الأمر، لم يعرض الفيكونت كاساندر دي ميراندول إخراج خدمه من بوردو وفتح قلعته لاستقبال حفل حصاد العنب. قد يقضي ١٠ أيام أو نحو ذلك بين كروم العنب الخاصة به من دون أن يكون معه أحد سوى خادمه وكبيرة خدم القصر. في ظل هذه الظروف، سيكون من الأكثري راحهً بالنسبة إلى السيد ريكاردو أن يقيم في قصر سوفلاك.

سنقيم حفلً صغيراً واحداً، ولن يكتمل من دونك. ستلتقي السيد دو ميراندول على العشاء هنا، وسأطلع لأن أجد اسمك بين الحضور في شهر سبتمبر.

قرأ السيد ريكاردو كل كلمة من هذا الخطاب مرةً أخرى قبل أن يدرك أنها لم تُثر في نفسه أي شعور غريب، وعندما أدرك هذه الحقيقة المربيكة، شعر بخجل شديد. ولكن

تلك هي الحقيقة. لا يوجد أي وجه شرير ميت غرقاً وغير كامل تتلاعب به الأمواج بين البحر والورقة. لا، لا يوجد أي من تلك الوجوه! كان البحر المستخدم أرجوانى اللون ولم يكن أسود، وحاول السيد ريكاردو للحظات أن يبحث عن أي عزاء تافه في هذا الاختلاف. ولكن أمانته الفطرية جعلته يتراجع عن ذلك. فربما يكون لون البحر تفصيلةً سطحية للغاية.

خاطب السيد ريكاردو نفسه وهو يخدش الخطاب باستياء شديد: «لا توجد أي وجه ميّة غرقاً، ولا أي لحة من شر، ولا أي قرعة إنذار. ولكنني لست أقل حساسيةً من الآخرين».

ربما إذا رُكِّز تفكيره على الخطاب، فقد يتلقّى بدوره الرسالة المثيرة من العالم الآخر. لا ريب أن الأمر يستحق التجربة.

فقال: «أفضل خططي أن أغلق عيني بقوة ولا أفكّر في أي شيء لمدة خمس دقائق. ثم سأقرأ الخطاب مجدداً».

ويناءً على ذلك، أغلق عينيه بإصرار كبير. كان قنوعاً. ولم يكن يطمح في الكثير. إذا ما رأى شيئاً مستديراً وردي اللون عندما يفتح عينيه، فسيكون راضياً وسيستعيد بعضًا من كبريائه. ولكن يجب أن يمنح نفسه الوقت الكافي. وظل على هذه الحال لمدة قدرها بخمس دقائق. ثم فتح عينيه، وهبَ ليُمسك بالخطاب – ولكنه تلقّى واحدة من أكبر الفزعات التي تلقّاها في حياته. كانت على الطاولة بجانب الخطاب يد، وخلف اليد، كان ثمة ذراع. تبع السيد ريكاردو، بعينين ملتاعتين، الذراع نحو الأعلى، ثم أطلق صرخة حادة وكأنها نباح كلب وانزلق بكرسيه إلى الخلف.

طرف بعينيه، بطبيعة الحال. فقد كان يجلس أمامه على الطرف الآخر من المكتب، لص – لا يمكن وصفه بأقلّ من ذلك – ظهر على نحو مفاجئ، لا أحد يعلم من أين، لص حقيقي ذو مظهر بغيض ومخيف للغاية. كان يلف عباءة سوداء على كتفيه على الطريقة الإسبانية، وكانت لحية شعثاء خشنة تنمو على وجهه وكأنها غابة، ووضع على رأسه قبعة عالية القمة عريضة الحافة من اللباد الناعم مائة على حاجبيه. كان يجلس في ثبات تام يحدّق في السيد ريكاردو بعينين مضطربتين وكأنه يحدّق في خنفساء سوداء بغيضة.

انتابت السيد ريكاردو حالة من الرعب الشديد. فانتفض واقفاً وقببه يدق في صدره بعنف. وعثر في مكان ما في حنجرته على صوتٍ حاد مبحوح تحدّث به.



تابع السيد ريكاردو، بعينين ملتاعتين، الذراع نحو الأعلى.

قال ريكاردو: «كيف تجرؤ؟ ماذا تفعل في غرفتي أيها السيد؟ اخرج قبل أن أزج بك في السجن! من أنت؟»

عندما سمع اللص ذلك، وبحركة خاطفة مثل مصراع الكاميرا، رفع لحيته التي كانت مُعلقةً من سلكين مثنين على أذنيه حتى بررت من فوق جبهته، تاركًا الجزء السفلي من وجهه مكشوفاً.

قال الرجل المخيف: «أنا هانوسكي. قائد التشيكا (جهاز أمن الدولة السوفييتي).» وبحركة خاطفة أخرى، أعاد لحيته إلى مكانها.

غاص السيد ريكاردو في مقعده وقد أرهقته هذه الصدمة الثانية التي جاءت في  
أعقاب الأولى مباشرة. لم يستطع إلا أن يقول: «حقا! حقا!»

وهكذا جدد السيد هانو، المفتش الكبير في جهاز الأمن العام، ذو الذقن الأزرق الذي يُذَكَّر بالمثلين الهزليين، صداقته الغريبة مع السيد ريكاردو بعد انقطاع دام عاماً كاملاً. تلك الصدقة التي بدأت قبل خمس سنوات في إيفان ليبان، ومنذ أن بدأ هانو يقضي عطلاته في فندق متواضع في هذا المتاجع الجميل، فكان يؤكّد على تلك العلاقة في شهر أغسطس من كل عام. كان السيد ريكاردو يُدرك أنه يجب أن يدفع مقابل هذه الصدقة. كان قد فاض به الكيل إلى أقصى حد بسبب تحفظ هانو عندما تكون ثمة قضية مهمة ي العمل عليها، ثم يدعوه بكل جدية لعرض آرائه التي يُمْزِّقها بعد ذلك إرباً، ويُسخر منها، ويتهكم عليها، ثم يجد نفسه مُجذداً، كما هو الحال الآن، ضحية نوع من العبث الطفولي الذي يبدو أن هانو يخالط بينه وبين الفكاهة، التي لطالما كانت في كل الأحوال في غير محلها على الإطلاق بالنسبة إلى شخص جاد. وفي المقابل، كان يسمح للسيد ريكاردو بالاطلاع على الحقائق السرية المرئية للكثير من القضايا الغربية التي لطالما كانت ألغاراً مُؤرّقة للرأي العام. ولكن كانت هناك حدود للمقابل الذي كان على استعداد لدفعه، وصباح ذلك اليوم، تخطى السيد هانو هذه الحدود.

قال السيد ريكاردو بمجرد أن استعاد قدرته على الكلام: «هذا كثير. لقد دخلت إلى غرفتي تسير على أطراف أصابعك ومن دون أن تُعلن عن وجودك عندما كان تركيزي منصبًا على أمر ما. أُقر بأنك قد رصدتني في وضع سخيف، لا يماثل حتى نصف سخافة وضعك. في الواقع، أنت، يا سيد هانو، باعتبارك رجلاً في منتصف العمر ...» ثم صمت عاجزاً عن قول المزيد.

لم تكن ثمة فائدة من توببيخه. لم يكن هانو يسمعه. فقد كان واضحاً أنه مسرور بما فعل. وتملّك هذا السرور وجданه بأكمله. فقد واصل رفع لحيته الزائفة بتلك الحركة الخاطفة من يده وهو يقول لنفسه بعنف شديد: «أنا هانوسكي، قائد التشيكا»، ثم كان يُعيد تلك الستارة الضخمة من الشعر الأسود إلى مكانها الأصلي مجدداً.

«أنا هانوسكي، قائد التشيكا! أنا هانوسكي من موسكو! أنا هانوسكي، مرؤٌ  
السهوب!»

سألَهُ السِّيدُ رِيكاردوُ: «إِلَى مَتَى سَتَسْتَمِرُ فِي التَّصْرِفِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الشَّائِئَةِ؟ لَقَدْ تَسْبَّبَتِ فِي شَعُورِي بِالْإِهَانَةِ، حَتَّى وَإِنْ كُنْتُ قَادِرًا عَلَى فَهْمِ أَنَّ السَّبْبَ وراءِ تَصْرِفَاتِكَ تَلْكَ هُوَ خَفَّةُ الظَّلِّ الَّتِي ورَثَتِها عَنِ الْغَالِيْنَ». أعادَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةَ إِلَى السِّيدِ رِيكاردوِ الْكَثِيرِ مِنْ كَبِيرِيَّاهُ. حَتَّى هَانُو نَفْسُهُ أَدْرَكَ مَدِيَّ بِرَاعِتهِ.

قالَ هَانُو مُبْتَسِمًا: «آهٍ! لَقَدْ تَفَوَّقْتَ عَلَيَّ يَا صَدِيقِي. يَا لَهَا مِنْ مَلَاحِظَةِ لَاذِعَةِ خَفَّةِ الظَّلِّ الَّتِي ورَثَتِها عَنِ الْغَالِيْنَ. نَعَمْ، إِنَّهَا عِبَارَةٌ أَقْرَبُ إِلَى الْعِقَابِ. وَلَكِنْ إِلَيْكَ دَفَاعِيُّ عَنِ النَّفْسِيِّ. كَمْ قَلْتَ أَنْتَ لِي، وَكَمْ قَلْتَ أَنَا لِنَفْسِي: «يَا لِلْمَسْكِينِ هَانُو! لَنْ يَكُونَ مُحْقَقاً جِيداً أَبَدًا لَأَنَّهُ لَا يَضُعُ لَحْيَ زَائِفَةِ إِنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْقَوَاعِدَ وَلَنْ يَتَعَلَّمُهَا». وَمِنْ ثُمَّ، أَصَابَنِي الْحَزَنُ طَوَالُ فَصْلِ الشَّتَاءِ. وَبِحلُولِ الصَّيفِ، مَلَمْ شَتَّاتِ نَفْسِي. وَقَلْتَ: «يَجِبُ أَنْ أَجْعَلَ صَدِيقِي الْعَزِيزِ يَفْخِرُ بِي. يَجِبُ أَنْ أَفْعُلَ شَيْئاً مَا. سَأُرِيهِ كِيفَ يَكُونُ مُحْقَقًا أَحْلَامَهُ». ردَّ عَلَيْهِ السِّيدُ رِيكاردوُ فِي بِرُودٍ: «وَبِدَلًا مِنْ ذَلِكَ، أَرِيَتِنِي سَفَاحًا». خَلَعَ هَانُو فِي تَعَاسَةٍ أَدْوَاتٍ تَنَكُّرَهُ وَطَبَّقَهَا بِعُنَيْةٍ وَكَدَّسَهَا فِي كُومَةٍ. ثُمَّ أَمَّالَ رَأْسَهُ نَحْوَ صَدِيقِهِ. وَسَأَلَهُ: «هَلْ أَنْتَ غَاضِبٌ مِنِّي؟»

لمْ يُكَلِّفْ السِّيدُ رِيكاردوُ نَفْسَهُ عَنَاءِ الرِّدِّ عَنِ هَذَا السُّؤَالِ الْبَدِيْهِيِّ. وَعَادَ لِيَقْرَأُ الْخَطَابَ، وَلَكِنْ ظَلَّتْ دَرْجَةُ حَرَارَةِ الْغَرْفَةِ مُنْخَفَضَةً مُلَدَّةً قَصِيرَةً رَغْمَ هَذَا الصَّبَاحِ الْمَشْرُقِ. وَلَكِنْ لَمْ يَشْعُرْ هَانُو بِالْخَجلِ مِنْ نَفْسِهِ. وَبِدَأَ يُدْخِنُ سَجَائِرَ سُودَاءَ وَاحِدَةً تَلَوَ الْأُخْرَى، مُخْرِجًا إِيَّاهَا مِنْ عَلْبَةِ وَرْقِيَّةِ ذَاتِ لَوْنِ أَزْرَقٍ فَاتِحٍ، وَمُوجِّهًا مِنْ وَقْتٍ لَآخَرَ ابْتِسَامَةً غَرِيبَةً إِلَى صَدِيقِهِ الْمَنْزِعِ. وَفِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ، طَغَى فَضْولُ السِّيدِ رِيكاردوُ عَلَى اسْتِيَّاهِ. فَقَالَ حَامِلًا الْخَطَابَ عَبْرَ الْغَرْفَةِ إِلَى هَانُو: «انْظُرْ هَذَا الْخَطَابَ أَخْبُرِنِي إِذَا لَاحَظْتَ فِيهِ أَيْ غَرَابَةً».

قَرَأَ هَانُو عَنْوَانَ فَنْدَقٍ فِي بِيَارِيْزَ، ثُمَّ تَوْقِيعَ الْمُرْسَلِ، ثُمَّ الْخَطَابَ نَفْسَهُ. ثُمَّ أَعَادَ الْخَطَابَ إِلَى السِّيدِ رِيكاردوَ رَافِعًا بَصَرَهُ نَحْوَهُ.

ثُمَّ قَالَ مُتَفَاخِرًا، كَالْعَادَةِ، بِرَاعِتَهُ فِي اسْتِخْدَامِ الْعِبَاراتِ الْاَصْطَلَاحِيَّةِ: «أَنْتَ تَسْخِرُ مِنِّي، أَلِيْسَ كَذَلِكَ؟» ثُمَّ كَرَّ الْعِبَارَةَ مَرَّةً أُخْرَى. «أَجَلُ، أَنْتَ تَسْخِرُ مِنِّي». ردَّ السِّيدِ رِيكاردوَ بِلَمْحةٍ مِنْ حَدَّةِ طَبَعِهِ الْحَدِيثَةِ الْعَهْدِ: «أَنَا لَا أَسْخِرُ مِنْكَ. هَذَا تَعبِيرٌ غَيْرُ مَعْتَادٍ».

أخذ هانو الورقة إلى النافذة ورفعها أمام عينيه في ضوء الشمس. ثم تحسّس الورقة بين أصابعه، ورأى عيني صديقه تلمعان في حماس. لا ريب أن السيد ريكاردو يتعامل مع هذه الدعوة البسيطة بجدية تامة.

فقال من حيث يقف: «لا. لم أقرأ شيئاً في هذا الخطاب سوى أن سيدة تدعوك إلى قصر سوفلاك لحضور حفل حصاد العنبر. هنئياً لك، فنبذ بوردو الذي يُنتجه قصر سوفلاك مذكور ضمن أفضل أنواع نبيذ الحصاد الثاني.»

قال السيد ريكاردو: «أعرف ذلك، بالطبع.»

وافقه هانو سريعاً وباهتمام جم قائلاً: «بالتأكيد. ولكنني لم أجده أي غرابة في هذا الخطاب.»

«كنت تتحسّسه بدقة بأطراف أصابعك، كما لو أن شعوراً غريباً قد انتقل منه إليك. هز هانو رأسه نفياً.

«مجرد تساؤل دار في ذهني عما إذا كان ثمة أي شيء غريب في ملمس الورق. ولكن لا! إنه من نوعية الورق الذي توفره آلاف الفنادق لعملائها. ما الذي يؤرقك يا صديقي؟» أعاد السيد ريكاردو، بتrepid أكبر من تردد جويس وبيل، القصة التي روتها عليه عن الانطباعات غير المريحة التي تشعر بها تجاه الخطابات التي تكتبها اليدي التي كتبت هذا الخطاب. وقد أقرت جويس، حتى لنفسها، بأنها عندما تحاول تفسير هذه الانطباعات بالكلمات، فإنها تض محل حتى تتلاشى تماماً. كم ستزداد تلك الانطباعات غموضاً عندما تُروى الآن من قبل ناقل عن صاحبتها الأصلية لهذا الرجل القاسي الذي لا يثق إلا بالحقائق؟ لم يسخر منه هانو. لا ريب في أن تعبيراً ينم عن عدم الراحة قد ظهر جلياً على قسمات وجهه بينما تُقص عليه القصة، وبعدما فرغ السيد ريكاردو من قصته، جلس في مكانه صامتاً ومشوشاً خلافاً للعادة لبعض الوقت. ثم نهض من جلسته أخيراً وجلس في مقعد عند الطاولة المقابلة لصديقه.

وقال ومرفقاه مستندان على مفرش الطاولة ويداه متشابكتان أمام وجهه: «اسمع. أنا أكره القصص من هذه النوعية. لدى الكثير من الأمور لأهتم بها، حُريات وحيوات أشخاص لا يملك كل منهم إلا روحًا واحدة في هذا الجسد الواحد. لهذا السبب، يجب أن تكون حذراً للغاية حتى لا أخطئ. إذا كان خطأ قد أرتكبه أنا من شأنه أن يتسبّب في أن تخسر أنت أكثر من خمس سنوات من عمرك القصير، إذا احتفظت بها فستعيشها في مشقة وتکفیر عن ذنوبك، فلا يمكن لشيء أن يُعوضك عن خطئي في حقك. يجب أن تكون

متأكداً دائماً من الخطوة التي أخطوها، نعم، يجب أن أعرف دائماً ما سأقدم عليه قبل أن أفعل. يجب أن أقول لنفسي: «هذا الرجل، أو هذه المرأة، ارتكب فعلًا مخالفًا للقانون عن عمد»، قبل أن أتدخل. ولكن، مع قصة مثل التي أخبرتني بها، أسأل نفسي: «ما الذي استنبطته منها؟ هل يمكن أن تكون على يقين من الخطوة التي يتبعين عليّ اتخاذها؟»

صاحب السيد ريكاردو وقد شعر بالارتياح والانبهار: «لن تسخر إذن؟»

فتح هانو يديه، وقال: «أنا أسرخ – نعم – مع أصدقائي، ومن أصدقائي، كما أمل أن يسخروا هم أيضاً معي، ومني. أنا إنسان، أجل. ولكن القصص على غرار تلك التي قصتها عليّ تجعلني أتواضع، ولا أسرخ منها. أعرف رجالاً ونساءً ينظرون في كرات بلورية ويرون غرباء يتحركون في أماكن غريبة، وتكون صورهم حقيقةً أكثر مما لو كانوا يؤدون مشاهد على خشبة المسرح أمام أعينهم. أما أنا؟ فلا أرى أي شيء، أبداً! أبداً! هل أنا الأعمى بينهم؟ أم أن الآخرين مجانيين؟ لا أعرف. ولكن تؤرقني هذه التساؤلات أحياناً. وهذا ليس في صالحني. لا! فهي تجعلني أقلق على نفسي، وأبدأ بالشك في هانو! تخيل ذلك، إن استطعت!»

ثم أرخي يديه، وفتح ذراعيه عن آخرهما في إشارة هزلية مبالغ فيها. ولكن لم ينخدع السيد ريكاردو. لقد أقرَّ صديقه بالحقيقة. فثمة أوقات يشك خلاها هانو في هانو؛ أوقات يُدرك خلاها، مثلما يحدث مع السيد ريكاردو، أن ثمة شقاً حدث في قشرة حجر الأوبال. خفض هانو عينيه مجدداً نحو هذه الكتابة التي كانت مفزعه للغاية بالنسبة إلى شخص واحد فقط، ولم تكن ذات أهمية تذكر بالنسبة إلى الباقيين.

وقال: «لقد فسخت خطبتها، هذه الشابة؛ الآنسة تاسبورو». ولكنه نطق اسمها تاسبورو. «هذا أمر غريب كذلك». ثم جلس مطرقاً للحظات. وأردف قائلاً: «ثمة ثلاثة تفسيرات يا صديقي، وعلينا أن نختار من بينها. وإليك أولها. الآنسة ويبيل تخدعك لغاية لا نعلمها. وغرضها إثبات مصادقتها بعدها حدث خطب ما. ذلك كي تتمكن من أن تقول: «لقد استشرفت الأمر، وحاولت تفاديه. لقد حذررت السيد ريكاردو». ما رأيك؟ هل فكرت في هذا الاحتمال؟»

أومأ برأسه بتمهل وثقة لصديقه الذي لم يفكر في أي شيء من هذا القبيل. ولكن أقلقت هذه الفكرة السيد ريكاردو بدرجة ما أو بأخرى. فقد كان، في واقع الأمر، يشعر بالقلق أثناء عودته إلى منزله بعد الحديث الذي دار بينهما. كان قلقاً بسبب ذلك المبرر الذي ساقته جويس ويبيل عن عدم قدرتها على التدخل. «يجب على سندريلا أن تغادر

الحفل قبل منتصف الليل.» هل يلائم هذا المبر شابةً تمتلك بئراً نفطياً في كاليفورنيا؟ لا، من المؤكد أنه لا يلائمها!

ولكن رفع هانو، وكأنه قرأ أفكاره، يده محدّراً. وقال: «دعنا لا نستبق الأمور. لا يزال ثمة تفسيران آخران. التفسير الثاني؟ الآنسة وبيل امرأة تعاني هيستيريا ومن ثم لا بد أن تثير ضجة. فهي حمقاء، مثلما الحال مع جميع من يعانون هيستيريا.»

في هذه اللحظة، هز السيد ريكاردو رأسه، بالثقة نفسها التي هز بها هانو رأسه منذ لحظات. إن تلك الشابة الأنثى، التي جعلت من النظام علامتها المميزة، بعيدة كل البعد عن عالم الهيستيريا. كان السيد ريكاردو يفضل التفسير الأول. فقد كان أكثر احتمالاً وأكثر إثارةً بكثير. ولكن يجب ألا يتجلّ.

فسأل: «ماذا عن تفسيرك الثالث؟» أعاد هانو الخطاب إلى ريكاردو ونهض من مقعده ضارباً فخذيه بيديه.

«ربما كانت تتقول الحقيقة. ربما أثارها التحذير عبر تلك الكلمات المكتوبة بخط اليد، رغم أن من كتبتها لا تعلم شيئاً عن التحذيرات التي ترسلها.»

استدار هانو ليواجه النافذة. وظل واقفاً مكانه لبعض الوقت يراقب المنتجع الصغير الجميل، حمامات السباحة التي أقيمت بجانب المتنزه، والказينو الأنثيق هناك، والفيلات والفنادق التي تلمع وسط الشوارع الخضراء. ولكن كان ذهنه مشغولاً للغاية. ولم ير شيئاً من كل ذلك وكأنه يُحدّق في جدار. كان السيد ريكاردو قد رأه على هذه الحال من قبل، وكان يدرك أنه من الأفضل عدم مقاطعته على الإطلاق في أوقات مثل تلك. وطفى عليه شعور بالمهابة. وشعر بأن أرضية حجر الأوبال أصبحت هشة للغاية تحت قدميه.

أدار هانو رأسه نحو صديقه، وقد لانت عريكته.

وسأله: «هل يبعد قصر سوفلاك ٣٠ كيلومتراً عن بوردو؟»

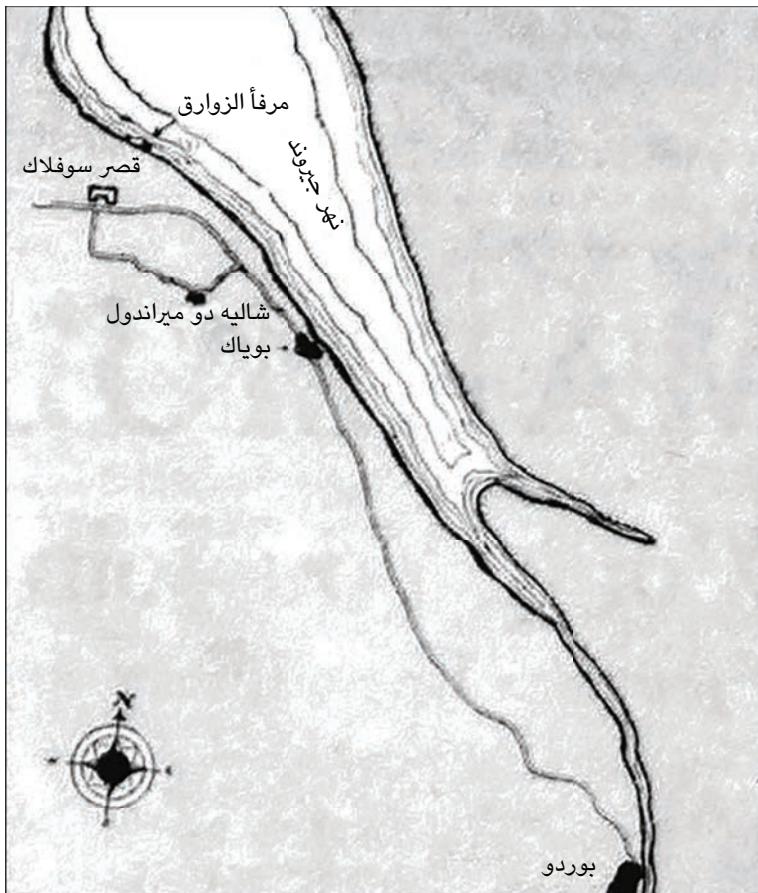
أجاب السيد ريكاردو: «٣٨,٥ كيلومتراً». كانت الدقة أهم سماته.

استدار هانو مجدداً ليواجه النافذة. وبعد دقيقة، وبهزة كبيرة من كتفيه، نفض كل الحيرة عن نفسه.

وصاح قائلاً: «أنا في عطلة. دعنا لا نفسدتها! تعال! اجعل خادمك الأمين تومسون يحرم حاجيات هانوسكي الخاصة بي ويعيدها على نفقتك إلى مسرح أوبيون الذي استعرتها منه بالأمس. وسنذهب أنا وأنت في سيارتكم الرائعة إلى بحيرة بورجييه حيث سنتناول غدائنا، ثم سنذهب في مغامرة على متن زورق بخاري كأي سائحي عاديّين.»

## ذو اللحية

كان يبدو عليه المرح وخفة الظل. ولكنه كان قد خرج عن النهج المقدس لعطلته، وطوال ذلك اليوم، بذل جهداً كبيراً لإبعاد بعض فترات التأمل العميق، كما توقع السيد ريكاردو.



خريطة الطريق من بوردو إلى قصر سوفلاك.



## الفصل الرابع

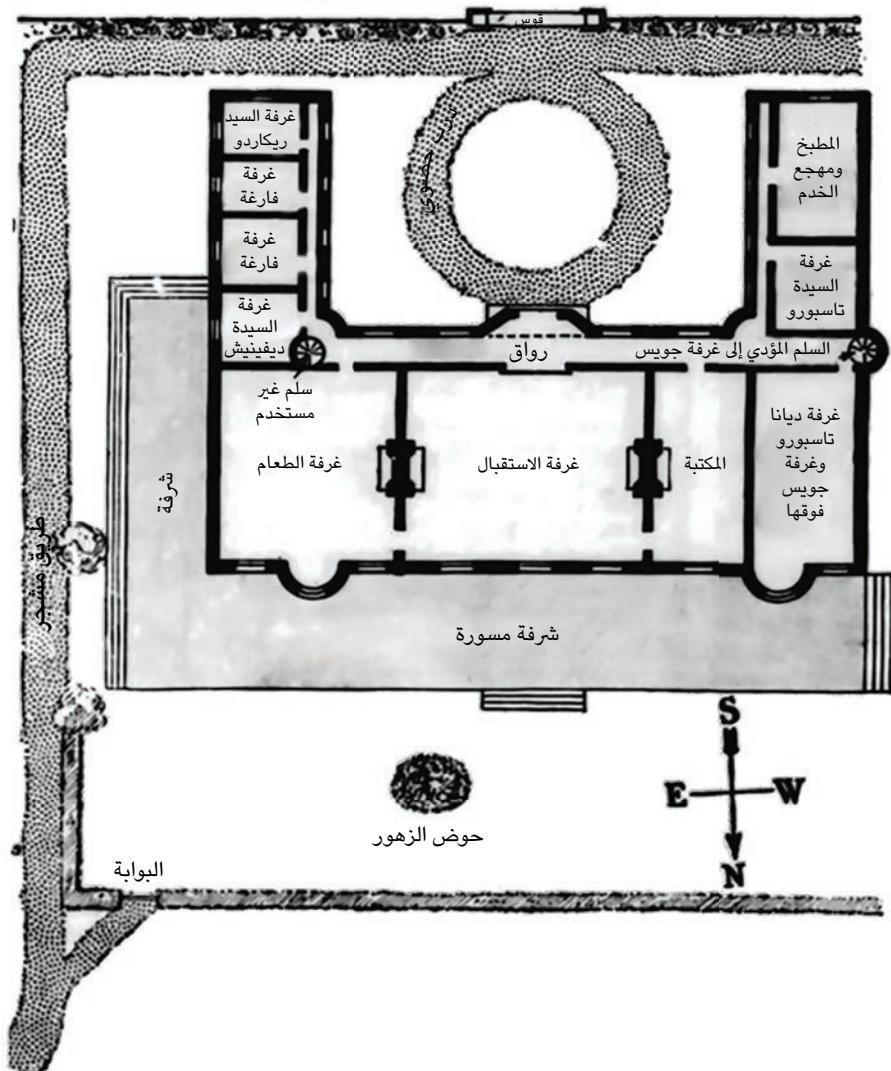
# ألغاز أمام السيد ريكاردو

أقام السيد ريكاردو في بوردو في دعوة وراحة؛ فقد كان يقضي يوماً هنا وليلةً هناك، ووصل إلى قصر سوفلاك في تمام السادسة من مساء يوم الأربعاء الموافق الحادي والعشرين من سبتمبر. من المهم ذكر ترتيب اليوم في الأسبوع. طوال آخر ميل إلى القصر، قاد سيارته على طول طريق خاص يميل قليلاً نحو الأعلى. كان المنزل واقعاً عند قمة هذا المنحدر، وكان ذا شكل رباعي مبنياً من الحجر بلون زهري فاتح ويُبرز البرجان القصیران الدائريان عند كل طرفٍ من طرفي المبني الرئيسي، ويمتد الجناحان الطويلان حتى يصلاً إلى الطريق. كانت واجهة الشكل الرباعي مساحةً مفتوحة، يُرى في منتصفها قوس عالي لا يحيطه أي شيء، كما لو كان قوس نصر قديماً من عصر الرومان. كان هذا الجانب من المنزل مطلّاً على جهة الجنوب الغربي، وكانت الأرض تمتد منه في منحدر مغطى بكروم العنبوصولاً إلى مراجع طويلة وشاسعة. وعند نهاية هذا السهل العشبي، كان يُرى تل واضح المعالم يمكن مشاهدته من منزل صغير أبيض اللون فوق قمته من بين ستار من الأشجار. بينما كان السيد ريكاردو يقف مولياً ظهره إلى قصر سوفلاك كي يُمدد ساقيه بعد قيادة السيارة لمدة طويلة، رأى طريقاً ثانياً يبدأ عند نهاية المنحدر المغطى بكروم العنب، ويهبط المنحدر، ويمر عبر مجموعة من المباني الريفية ومرأب تلتقي عنده كروم العنب بالمراعي، ولكن على الجانب الآخر من الطريق، ثم تصعد مجدداً نحو المنزل الأبيض الصغير.

لم يكن أحد من الضيوف قد وصل، ولم يكن في المنزل أحد سوى العمة الوصيفة، السيدة تاسبورو، وكانت نائمة. أعد كوب من الشاي للسيد ريكاردو بواسطة الخادم الشاب جولس أماديه في غرفة استقبال الضيوف الكبيرة التي تفتح على الشرفة الحجرية التي تُطل على نهر جيروند الشاسع وشاطئ بحر الشمال المكسو بالضباب. بعد أن احتسى الشاي، خرج السيد ريكاردو إلى الشرفة. كانت ثمة أربع درجات صغيرة تؤدي نزواً إلى

## سجين حجر الأولاد

الطريق إلى بوردو ←



خریطة قصر سوفلاک.

حديقة امتنجت فيها المروج الخضراء بالزهور، وعن يمينه، كان يقف صف من الأشجار التي زُرعت حديثاً تنحدر حتى تلتقي بالسياج النباتي عند نهاية الحديقة مخفياً المنزل واحجاً رؤية العدد الهائل من أقبية النبيذ حيث يُخزن النبيذ وحيث توجد الأحواض الضخمة.

سار السيد ريكاردو عابراً المرج متوجهًا نحو السياج، وعبر بوابةً ومنها إلى أرض مستنقع، ورأى عن يمينه قليلاً مرفأً صغيراً به رصيف يرسو إليه زورق، أحد قوارب الإبحار الثقيلة الوحيدة الصاري التي تُستخدم في التجارة عبر النهر. وكان ثمة قبطان وأثنان من العمال مشغولين في تفريغ حمولتهم من خزين المنزل. بدأ السيد ريكاردو، الفضولي بطبيعة، تحقيقه. كان القبطان رجلاً ضخم الجثة ذات الحياة سوداء مسروراً للغاية لقبول سيجارة وأخذ استراحة من عمله.

وقال: «نعم يا سيدي، هذان ابني. إننا نتوارث المهنة. لا، لم أتملك هذا الزورق بعد. السيد ويستر، مندوب الآنسة، اشتري الزورق وكلّفني بإدارته، وعندما أدفع مقابلة كاملاً، سيصبح ملكي. هل سيحدث هذا قريباً؟» فرد القبطان ذراعيه تعبيراً عن اليأس. وقال: «من الصعب أن تصبح ثرياً في جيروند. إننا نقضي نصف حيواتنا في انتظار المد. كما ترى يا سيدي! ولكن بالنسبة إلى هذا المد اللعين، كان يمكنني أن أنهي عملي هنا، وأبدأ رحلة العودة إلى بوردو في وقت لاحق من الليل. ولكن لا! يجب أن أنتظر ارتفاع المد ولا يمكنني التحرك حتى السادسة صباحاً. آه، حياة القراء صعبة يا سيدي.» كان يمتلك نصيباً وافراً من شقة الفلاح الفرنسي على نفسه، ولكنه كان جالساً على حائل الأمواج المتین في الزورق، وببدأ يربت على الخشب ويداعبه كما لو كان أعز شيء إلى قلبه. واستطرد قائلاً: «هذا الزورق جيد. سيدوم لسنوات طوال، وربما أتمكن من تملكه في وقت أقرب مما يعتقد الناس.»

لعت عيناه القريبتان من بعضهما تحت حاجبيه الأسودين الكثين في كآبة. لم يكن الرجل يملك شفقة ببني جلدته على النفس فحسب، بل كان يملك شحّهم كذلك. واستنتاج السيد ريكاردو أن الرجل لم يكن ذكيّاً للغاية. فالرجل الذكي لا يستعرض مهاراته أمام الأغراب. ولكن انتبه القبطان إلى أن ابنيه توقيفاً عن العمل أيضاً. فخطب القبطان على حائل الأمواج.

وصاح غاضباً: «أيها الوغدان العديما النفع، إن هذا الرجل النبيل لا يتحدث إليكما. وأصلا العمل! هراء! إنكم لا تصلحان إلا لإدارة عجلات مجداف لو بوتي موس في الحادائق العامة.»

ابتسم السيد ريكاردو. فكان قد تسّكّع في الحدائق العامة في بوردو بالأمس القريب. وكان قد رأى لو بوتي موس، ذلك القارب الصغير الجميل على شكل بجعة، طافياً على المياه تُحييّه الزيينة. وكانت به عجلتا تجذيف صغيرتان يديرهما صبيان صغيران، وخلال أيام الأحد والمرجانات، كان القارب يخرج في رحلات بحرية صغيرة في ظلال النخيل وأشجار الكستناء.

عاد الصبيان الصغار إلى عملهما، وسار السيد ريكاردو مبتعداً عن المرفأ الصغير. ولاحظ، دون أن يولي اهتماماً خاصاً للظروف، الاسم المكتوب على حنایا القارب: لا بيل سيمون. ربما لم يكن ليلاحظ الاسم من الأساس، ولكن كانت الكلمات الأولى من الاسم مطموستين وكانت الكلمة الثالثة مدهونةً بدهان أبيض حديث جعلها واضحةً وضوح الشمس. دفعه فضوله أن يسأل: «هل غيّرت اسم الزورق؟»

نعم. أسميه «لا بيل ديان». مجاملة بسيطة، كما ترى. ولكن رفض السيد ويبستر ذلك، وقال إنني لا بد أن أغيره. والسبب أن الآنسة ربما تعتقد أنها حمقاء إذا ما لاحظت ذلك في أي وقت. هذا ليس معناه أن الآنسة تلاحظ أي شيء هذه الأيام، ولعنت عيناه السوداوان بين جفونه نصف المغمضة. ثم قال: «ولكنني غيّرته على أي حال.»

استدار السيد ريكاردو مغادراً. سار السيد ريكاردو عائداً على طول الدرج الواسع، والتقطت عيناه خلف حدود الأشجار، على الجانب البعيد من المنزل، شاليها صغيراً من طابقين يُرى بمفرده وسط مساحة مفتوحة تحيطه بوابة صغيرة بيضاء وحديقة مليئة بالزهور البهجة. ولكن دقت الساعة السابعة وعاد السيد ريكاردو إلى غرفة الاستقبال دون استكشاف هذا الشاليه. ولم تكن ثمة إشارة على وصول الضيوف. رن الجرس طالباً جولس أمادييه الذي جاء واصطحبه إلى غرفة نومه التي تقع في نهاية الجناح الشرقي. كانت غرفة أنيقة واسعة ذات نافذتين، واحدة على الواجهة تطل على منحدر كروم العنبر، والمرعي، والتل المقابل الذي تكسوه الأشجار، وكانت الأخرى على الجهة الأخرى تُطل على الدرج وتُعطي مشهدًا غير كامل للشاليه الصغير خلفه. ارتدى السيد ريكاردو ملابسه بعناية فائقة، تلك العناية التي لم يكن ليتنازل عنها حتى لو مُنح مملكة تارتاريا، وكان لا يزال يضع اللمسات الأخيرة على ربطة عنقه التي على شكل فراشة، عندمارأى، من فوق المرأة، شاباً صغيراً يرتدي سترة العشاء ويعبر الدرج في طريقه نحو القصر. أصبح الهدف من وجود الشاليه واضحًا الآن بالنسبة إلى السيد ريكاردو.

فقال: «منزل ضيوف للشبان العزاب. تومسون، أعطني حذائي ولبيسة الأحذية من فضلك.»

سار السيد ريكاردو على طول الرواق الطويل، وذهب عندما لاحظ مساحة الأرض الشاسعة التي يشغلها المنزل، وعدد الغرف الفارغة المفتوحة الأبواب، ثم استدار ناحية اليسار عندما وصل إلى نهايته، ووصل إلى غرفة الاستقبال التي كانت تقع في منتصف المبني الرئيس تماماً. عندما وقف أمام باب الغرفة، كان البهو ومدخل المنزل واقعين خلفه مباشرة. ظل واقفاً في مكانه لبعض لحظات ينصت إلى ما تقوله الأصوات واجتاحته انفعال غريب. هل يمكنه أن يحل لغز خطابات جويس ويبيّل بلمحه كاشفة واحدة؟ هل سيجول بيصره في أرجاء الغرفة ويحدد إلهامه الشخص الشرير الذي احتجز ديانا تاسبورو في عزلة بياريتز طوال شهور الصيف؟

قال لنفسه في حزم: «الآن». وبطريقة مسرحية، فتح الباب على مصراعيه وخطا سريعاً إلى داخل الغرفة. وأصيب بخيبة أمل. لا ريب في أن الصمت خَيْم للحظات، ولكن دخوله المفاجئ كان هو السبب في ذلك. لم يجفل أحد، وعادت الأحاديث التي انقطعت لستمرة من جديد.

أسرع ديانا تاسبورو الخطى نحوه بجمالها الأَحَادِيز المعروفة عنها في فستانها ذي اللون الأخضر الفاتح.

قالت ديانا في سرور: «كم سعدت بحضورك يا سيد ريكاردو. أنت تعرف عمتي، أليس كذلك؟»

صافح السيد ريكاردو السيدة تاسبورو.

«ولكنني لا أعرف يقيناً إذا ما كانت السيدة ديفينيش غريبة كذلك.»

كانت السيدة ديفينيش شابةً في حوالي الخامسة والعشرين من عمرها، طويلة القامة، سوداء الشعر، ذات بشرة لامعة، وعيينين سوداويين صافيتين. كانت متألقةً أكثر من كونها جميلة، وضخمة، وذَكَرَت السيد ريكاردو بالشهوات العاصفة الجامحة. ومرّ بخلده أنه إذا اضطر لتناول وجبة معها بمفرده، يجب أن تكون في وقت الشاي وليس العشاء. مددت يدها اليمنى إليه في حالة من اللامبالاة، ووقعت عينا السيد ريكاردو على يدها الأخرى مصادفة. لم تكن السيدة ديفينيش ترتدي خاتم زواج، ولا أي مجوهرات تدل على أي ارتباط.

قالت مبتسمة: «لا، لا أعتقد أننا التقينا من قبل.» وشعر على نحو مفاجئ بحماسة انتصار، من المؤكد أن هذا لم يرجع إلى صوتها؛ فهو لم يكن سمعها تقول كلمةً واحدة من قبل قط، ربما يرجع ذلك إلى حركة ما من يدها، أو إلى حركة من جسدها عندما استدارت

لتواصل حديثها، وربما يرجع ذلك إلى بطء إدراك السيد ريكاردو، ولكنه شعر بذلك على أي حال. لقد حلَّ مشكلة جويس وبيبل سريعاً. السيدة ديفينيش هي القوة المهيمنة التي تزعج ديانا تاسبورو. كانت هي الشخص الشرير. صحيح أنه لم يلتقطها من قبل، ولكنه رآها، وفي ظل تلك الظروف الكئيبة التي حسمت المسألة أخيراً.

قال: «ولكني أعتقد أنني رأيتكم من قبل، منذ تسعه أيام تحديداً في بوردو.» وكاد يُقسم أنه رأى الرعب، رعباً صافياً خالصاً، يحدُّق فيه من أعماق عينيها. ولكنه لم يستمر إلا للحظات. ثم تفَحَّصت السيد ريكاردو من قمة رأسه، بشعره الرمادي المصفَّف بعناية، إلى أخمص قدميه وضحتك.

وسأله: «أين؟»، ولم يُحبها السيد ريكاردو. كان سؤالاً مباشرًا وجريئاً. وكان يشعر بحرج شديد من إجابته. فإن فعل، قد يتهم نفسه بميله للتصرُّفات غير السوية. كما قد يبدو صبيانياً كذلك.

فقال: «ربما كنت مخطئاً». وضحتك السيدة ديفينيش مجدداً، ولكن بطريقة ليست مريحة.

جاء إنقاذ السيد ريكاردو من وضعه العصيب هذا في صورة مضيافته الشابة التي وضعت يدها على ذراعه.

وقالت: «يجب الآن أن تتعرَّف إلى الشخص الذي كان من المفترض أن يكون مُضيِّفك. السيد الفيكونت كاساندر دي ميراندول».

كان السيد ريكاردو قد جفل من الشخص السابق الذي تعرَّف إليه. ولكنه صُعق هذه المرة. وفكَّر في جميع أنواع الصليبيين، ولكنه لم يستطع تخيل هذا الشخص تحديداً يقتحم أسوار عكا. كان رجلاً طويلاً القامة، وبديتاً، وضخم الجثة، ذا وجه طفولي متورٍ، ومدُور، ومليء بالبثور، وكان فمه صغيراً للغاية على نحو لا يتناسب مع حجمه، وكان ذا شفتين حمراوين غليظتين، وكان أصلع إلى حدٍّ.

قال بصوت رفيع حاد: «سأعتبر أن زيارتك لي قد تأجلت فحسب.» ومد نحو السيد ريكاردو يداً رخوة ومبَللة. قرر السيد ريكاردو من فوره أنه يُفضل أن يتخلَّ عن حبه السنوي تماماً على أن يحل ضيّفاً على سليل الصليبيين هذا. فهو لم يلتقي في حياته بشخصية مُنْفَرَة لهذه الدرجة. ربما كان الرجل خفيف الظل، ولكنه لم يكن كذلك. فقد جعل السيد ريكاردو يشعر بالانزعاج، واعتبر ملمس يده الرخوة شيئاً مقززاً. أخفى راحة يده بচعوبة عندما وجَّهته ديانا تاسبورو ناحية الرجل الذي رأه يعبر الدرب قادماً من الشالية.

قالت ديانا بابتسامة ساحرة: «هذا السيد روبن ويستر، مدير أعمال، وصاحب فضل علىٰ فأنا مدينة له بازدهار كروم العنب.»  
أنكر السيد ويستر أي فضل على سيدته بأدب جم. وقال: «لم أخلق التربة، ولم أزرع الكروم، ولم أبتعد أي معجزات، يا سيد ريكاردو. وظيفتي بسيطة ومتواضعة، ولكن كرم الآنسة تاسبورو جعله متعمّةً وليس تعبيًّا.»

ربما بدا إنكار الفضل متواضعاً أكثر من اللازم، ولكنه زاد من جاذبية بساطة أخلاقه. كان متوسط الطول ذا شعر أبيض وعيين زرقاء لامعتين. لم يكن شعره الأبيض دلالةً على كبر سنه. فقد قدر السيد ريكاردو أن عمره يتراوح ما بين الخامسة والثلاثين والأربعين، ولم يتمكن من تذكر رؤية رجل أكثر منه أناقة. كان حليق الوجه أنيق الملبس، مع مسحة من الرقي. كان يراعي الدقة اللغوية في نطقه، الأمر الذي بدا مأولاً بالتناسب إلى السيد ريكاردو دون سبب وجيه، وغمرت السعادةُ السيدَ ريكاردو لأنّه عثر على شخص لطيف وودود لهذه الدرجة.

فقال: «إنني لأطلع غداً لرؤيّة شيء مميز في حفل حصاد العنب لأنّه تحت إشرافك يا سيد ويستر.» ثم سمع صوتاً ينادي عليه عبر النافذة الطويلة المفتوحة على الشرفة.  
«الآن ترحب بي يا سيد ريكاردو؟»

كانت جويس وبيل تقف عند النافذة تُبرّز معالم جسدها خلفيةً من أنوار المساء. ولم يكن ثمة أثر للقلق الذي كان يغطي وجهها خلال لقاءهما الأخير. كانت ترتدي فستاناً لاماً من الدانتيل الفضي، وكان وجهها مشرباً بالحمرة، وتبتسم له في سعادة. قال السيد ريكاردو وهو يتقدّم نحوها مُتحمّساً: «لقد أجلّت عودتك إلى أمريكا في نهاية المطاف..»

أجابته: «أجلتها لشهر واحد، وكاد ينتهي. سأغادر غداً قاصدةً شيربورج.»  
قال دو ميراندول بأنّاقة: «هذا إذا سمحنا لك بالرحيل،» جملة لن ينساها السيد ريكاردو.

قدّم السيد ريكاردو لامرأتين شابتين من سكان المنطقة، ورجلين شابين من بوردو، لم يُنطق اسم أي منهم بطريقة تكفي لأن يُميّزهم عن غيرهم. ولكنهم كانوا مجرد ضيوف في هذه الأمسية، ولم يشغل السيد ريكاردو بالله بهم.

صاحت السيدة تاسبورو على نحو مفاجئ في عصبية: «من الذي ننتظر الآن يا ديانا؟»

أجبت ديانا: «نيافة القدس يا عمتي..».

قالت العمة: «يُجدر بك أن تقنعي أصدقائك بأن يراعوا المواعيد». كان توببيخا دون مواربة. جفل السيد ريكاردو وصُعق. كان هذا هو اللغز الثالث الذي يفاجئه. كان يعتقد أن السيدة تاسبورو خاضعة تماماً لمن تتفق عليهما، وصيغة تدرك تماماً أن واجباتها لا تشمل التدخل، رمز صامت للاحترام. ولكن كان ثمة تدخل منها وحديث مليء بدللات التسلط. ما أدهشه بالقدر نفسه هو رد ديانا الضعيف.

«أنا آسفة يا عمتي. من النادر أن يتأخّر القدس عن موعد العشاء، جُل ما أخشاه هو أن يكون قد تعرّض لحادث. أنا واثقة بأنني أرسلت السيارة له قبل الموعد بوقت كافٍ..» هزّت السيدة تاسبورو كتفيها، فلم يُهدئ ذلك من غضبها. نقل السيد ريكاردو بصره بين المرأتين. المرأة العجوز بثوبها الرث العتيق الطراز الجالسة على مقعد ضخم كملكة متوجّة، وابنة أخيها الجميلة بملابسها العصرية المتواضعة وكأنها فتاة قروية. كان ثمة انعكاس للأدوار أثار حيرة السيد ريكاردو. ألقى ببصره ناحية جويس وبيل، ولكن انفتح الباب، وسمع صوت جولس أماديه يُعلن: «نيافة القدس فاوربيه..».

دخل إلى الغرفة رجل ضئيل الجسم يرتدي زي الكهان، ذو وجه متورّد، وملامح غليظة، وعينين رماديتين ضيقتين لامعتين يلوح منهما المكر، في جو من التعجل والقلق. وقال رافعاً يد السيدة تاسبورو إلى شفتيه ليُقبّلها: «لقد تأخرت يا سيدتي. لا أعرف طريقة للتعبير عن أسفني سوى الركوع على ركبتي». كان من الواضح أنه يعتبرها مُضيّقتة. ولكن عندما تعرفي ما مررت به، ستغفررين لي. لقد سُرقت كنيستي».

صاحت جويس وبيل بصوت غريب: «سُرقت!» كان صوتها ينم عن الفزع وليس الدهشة. لم تكن حادثة السرقة متوقعة، ولكن بعدما وقعت حقاً، لم تعد مُستبعدة.

قال الرجل الضئيل ملوحاً بيديه: «نعم يا آنسة. يا له من تدنيس للمقدسات!» قاطعته السيدة تاسبورو قائلة: «فلتقص علينا ما حدث وقت تناولنا العشاء..» كانت السيدة تاسبورو بروتستانتية. عندما تكون في وطنها، كانت تحضر قداسات يلقي فيها الموعظ رجل يرتدي رداء جنيف الخاص بالقساؤسة البروتستانت. لم تكن حادثة سرقة كنيسة تخص الروم الكاثوليك أمراً ذا أهمية كبيرة بالنسبة إليها، ولا يجب تأخير وجبة العشاء بسببه.

قال القدس فاوربيه: «معك حق يا سيدتي، لقد نسيت آداب السلوك.. وبالطبع، توفر له وقت كفى بالكاد من أجل توجيه التحية إلى بقية الحضور قبل الإعلان عن بدء العشاء.



«لقد سُرقت كنيستي. يا له من تدنيس للمقدسات!»

مر ما تبقى من تلك الأمسية دون أحداث تُذكر كشأن أغلب الأمسيات في المنازل الريفية. ولكن السيد ريكاردو، الذي شهد قوة ملاحظته لدرجة أعلى من المعتاد، لاحظ خلال الأمسية بعض الأمور الغريبة. كان من بينها، على سبيل المثال، شكوى القس فاوربيه. لم تُسرق أي أموال، ولا أي أوعية مقدسة من كنيسته، فيما عدا رداءً من الكتان الناعم، القميص الذي ارتداه عندما احتفل بالقداس الإلهي، وذي كاهن قرمزيًا صغيراً ورداءً كهنوتيًّا أبيض يرتديه مساعد الكاهن الشاب الذي يهز المبخرة.

صاح الرجل المُسن: «أمر لا يُصدق! ثق بأنها أشياء عالية القيمة. لقد تبرأت بها الراحلة الغالية السيدة دو فونتاج للكنيسة. ولكن لا بد أنها أفسدت على الفور وفقدت كامل قيمتها. من قد يُقدم على تدنيس المقدسات مثل هذا مقابل ربح زهيد؟»

قال الفيكونت دو ميراندول: «لقد أبلغت الشرطة بالطبع.»

«أقول لك سيد الفيكونت إنني لم أكتشف السرقة إلا منذ ساعة. جميعكم تعرفون» وأضافت لحة من المرح وجهه «إذا لم تكونوا وثنين، وأنتم لستم كذلك، فإن الغد هو عيد سان ماتيو، وهو أكثر يوم مقدس في رُزْنَامَة الكنيسة. ذهبت إلى غرفة ملابس الكهنة لأطمئن على أن هذه الملابس المقدسة سليمة، ولكنني لم أجدها. ولكن، سيدة تاسبورو، يجدر بي ألا أفسد عليك أمسيك بالخوض في هذه الأحداث المؤسفة». ثم غير الموضع إلى حكايات مسلية عن نقاط ضعف أعضاء أبرشيته.

جعلته مقاطعة صغيرة أن يتوقف عن الحديث على نحو مفاجئ لبعض لحظات التفتت خلالها جميع الأعين نحو مصدر المقاطعة. كانت السيدة ديفينيش مصدر المقاطعة. لم تكن تشارك في أي محادثة، فيما عدا الإجابة عن الأسئلة العشوائية التي توجّه لها، وظلّت جالسةً تشغّلها أفكار سرية تخصّها. ولكنها ارتعشت على نحو مفاجئ، وبعنف شديد لدرجة أن الصرخة الحادة القصيرة التي قد تخرج من أفواه الناس رغمًا عنهم عندما يشعرون بالبرد الشديد، خرجت من بين شفتيها. نكّرها الصوت بما يحيط بها، فنظرت إلى الجالسين أمام الطاولة متذكرة. التقت عيناهما بعيني جويس ويبل، فصاحت جويس فجأةً بصوتها الغريب الحاد العالي النبرة:

«لا جدوى من إلقاء اللوم علىَ يا إيفيلين. لست أنا من يُوزِّع البرودة هنا». ثم استعادت السيطرة على نفسها بعد فوات الأوان، فاحمرّ وجهها، وبدأت هي الأخرى تنتقل عينيها سريعاً بين الجالسين حول الطاولة. كانت هذه هي الإشارة الأولى التي تصل إلى السيد ريكاردو، فتحت تلك الأحاديث السلسة، ثمة أعصاب متورّة لدرجة فقدان السيطرة على النفس بسبب شواغل سرية. لاحظ القدس فاوربيه ذلك قبل السيد ريكاردو. فوقَه عينيه سريعاً نحو إيفيلين ديفينيش، ومنها إلى جويس ويبل. وظهر التأهب والتحفز على وجهه، رغم وجود ذلك الأنف الطويل المتديّل.

وقال ببطء مخاطباً جويس: «يا آنسة، لست أنت من توزعين البرودة. من إذن؟» لم يُصر على الحصول على إجابة، ولكن بعد بعض لحظات، عادت ثرثرة الجيران لتنطلق مجدداً كما لو أنها يغطون على ارتباك جويس ويبل، ولاحظ السيد ريكاردو أن الرجل رسم علامه الصليب على صدره في الخفاء.

حتى تلك اللحظة، كان فضول السيد ريكاردو وانفعاله يزدادان. ولكن بعد ربع ساعة، لم لحظةً عابرة من الشغف هزت أعماقه بسبب وحشيتها الشديدة. غادر الرجال طاولة العشاء مع النساء كما تقتضي العادات الفرنسية، وانقسموا إلى مجموعات صغيرة.

كانت جويس وبييل جالسةً على كرسي قصير بجانب المدفأة واضعةً ساقاً فوق الأخرى، وإحدى قدميها النحيلتين بحذائهما الفضي تتأنجح باستمرار، بينما كان روبن وبيستر جالساً على أريكة بجانبها يتحدث إليها بصوت خافت وبتركيز تام، الأمر الذي بدا وكأنه لا يرى أحداً آخر في الغرفة في تلك اللحظة. كان الفيكونت دو ميراندول يثرثر مع السيدة تاسبورو والقس. وكانت إيفيلين ديفينيش تقف بجانب النافذة في مجموعة مع ديانا والشابين الفرنسيين. انطلقت من هذه المجموعة فجأةً عبارة سمعها كل من في الغرفة.

«كهف المؤميات».

كان أحد الشابين الفرنسيين هو من قالها، ولكن كانت إيفيلين ديفينيش هي من أسلحت في الحديث عنها. كهف المؤميات معرض شهير في بوردو. تحت البرج العالى في جبل سان ميشيل في الميدان المفتوح أمام الكنيسة، يوجد كهف تحت الأرض توجد به حثٌ مُحنطة بجودة نادرة على الأوضاع نفسها التي دُفنت بها، تُرى مصطفةً على مساند حديدية أمام العالم بأكمله ليشاهدها مقابل بضعة بنسات.

صاح القس: «هذا شأنٌ. يجب دفن هؤلاء المساكين على نحو لائق. هذا كابوس، ذلك الكهف، وتلك المرأة العجوز التي تعرّى أجساد معروضاتها على ضوء الشموع!» هز كتفيه في اشمئزاز ونظر نحو جويس وبييل. وقال: «أنا كذلك يا آنسة، أصبحت أشعر بالبرد أنا أيضًا».

ضحك إيفيلين ديفينيش. وقالت: «ولكننا جميعنا زرنا هذا المعرض أيها القس. أقر بأني مذنبة. ذهبت إلى هناك منذ ثمانية أو تسعة أيام. وأعتقد أن السيد ريكاردو رأني هناك».

كانت تتحدى ذلك الرجل التعس، بابتسامة ساخرة، أن ينكر هذا الاتهام. ولكنه لم يستطع، للأسف. فلطالما كان شغفه بالغرائب يتعارض مع احترامه للقيم المجتمعية.

قال ببطءٍ ناقلاً وزنه من إحدى قدميه إلى الأخرى: «هذا صحيح. لقد سمعت الكثير عن المكان، وزرت بوردو مرات عدة دون أن أراه. ولكن بعدما رأيته، أصبحت أتفق مع القس». واستعاد ثقته وشعر بأنه رجل فاضل وبدا ذلك أيضاً على هيئته. فقال: «إنه معرض شنيع، ويجب أن يُغلق».

ضحك إيفيلين ديفينيش مُجدداً مُشككاً فيما قال. قال السيد ريكاردو مخاطباً نفسه: «يا لها من شابة بغيضة، إنها جريئة ولا تحترم أحداً». وشعر بالراحة عندما حولت بصرها بعيداً عنه. ولكنه لاحظ أن عينيها تجوبان المكان ببطء حتى استقرّتا عند جويس وبييل، وظللت تحدّق فيها للحظات، بنظره نصف متوازية خلف جفونها، ولكنها

لم تكن متوازيةً بما يكفي لإخفاء الكراهية التي تنموا ببطء من مجرد شرارة بسيطة في أعماقها إلى لهيب نار مستعرة. لم يشهد السيد ريكاردو من قبلٍ في حياته تعبيرًا خالصاً عن المشاعر مثل هذا. شعور نهم للعقاب والأذى. وبدا أن العينين السوداويين لا يمكنهما الابتعاد عن تلك الفتاة الفاتنة بفستانها الفضي. ارتسمت على شفتي إيفيلين ابتسامة مقيدة وهي تثبت نظرها على قدم جويس المتأرجحة بحذائها اللامع، ثم ترفعه على طول ساقها النحيلة المتوازية خلف الفستان الحريري، وصولاً إلى ركبتيها المثنية. استوعب السيد ريكاردو بلحمة من الوحي الفكرية القاسية التي تسبّبت في تلك النظرة والابتسامة. قال لنفسه: «آه، من المؤكّد أنّ التقىها في وقت الشاي وليس العشاء». قالها في ألمٍ عندما تذكّر تلك الوجبة التي تخيلَ تناولها وحده مع إيفيلين ديفينيش والتي استحضرتها مخاوفه أمام عينيه.

عبرت ديانا تاسبورو الغرفة متوجهةً نحوه. وقالت متسللةً: «ستلعب لعبة الويست مع عمتي، والقس، ودو ميراندول، أليس كذلك؟ لا بد أن تلعبوا الويست لأن القس لم يلعب البريدج من قبل». فبدأ يعصر ذهنه ليتذكّر كيف تُلعب الويست، واقتيد إلى طاولة لعبة الورق بينما يفعل.

لا ريب في أن السيد ريكاردو جمع بعض النقاط الجيدة حتى تلك اللحظة، ليس لأنه وضع بطاقتين تحملان الرقم اثنين معاً، بل لأنّه أدرك أنّ بطاقتين تحملان الرقم اثنين ربما يجب وضعهما معاً. ولكن حينذاك، كانت الساعة تُشير إلى التاسعة والنصف، تخلّي عن يقظته، ولم يتمكّن من ملاحظة أهم حدث في تلك الأمسية بأكملها. كان مستغرقاً تماماً في محاولاته لاستعادة ذكرياته عن لعبة الويست، التي زادت مشاركة الأعضاء الأصغر سنّاً في المجموعة من صعوبتها.

كانت غرف الطعام، والاستقبال، والمعيشة في قصر سوفلاك مرتبةً في جناح واحد، مع وجود غرفة الاستقبال في المنتصف، وكانت جميع الغرف ذات نوافذ تطل على المساحة المؤدية إلى الشرفة الواسعة. بمجرد أن جلس المسنون إلى طاولة لعبة الورق، دخلت ديانا غرفة المعيشة وجّهت الموسيقى على الجرامافون. وفي غضون دقائق، كان جميع الشباب يرقصون في الشرفة. كان الباب بين البهو وغرفة المعيشة موصداً، وكانت الليلة دافئةً وكانت جميع النوافذ مفتوحة. لذا، كانت الموسيقى بالحننها المُلْهِج تصل إلى سمع لاعبي الورق مصحوبةً بالإيقاعات المتناغمة لأحذية الراقصين على الأرضيات، الأمر الذي شتّت انتباه السيد ريكاردو عن اللعبة. كان القمر بدراً في ذلك الوقت، ولكن كانت

تحجبه طبقة رقيقة من السحب البيضاء تسلل من بينها ضوء سماوي فضي رقيق أغرق الحديقة والنهر الشاسع من خلفها في جو ساحر أشبه بعالم خيالي. على الشاطئ البعيد، كان ضوء يتلاألأ هنا وهناك عبر الضباب، وبالقرب من المنزل، كان صاف الأشجار الطويل، الذي أصبح في سواد الطقوسوس وسكون المعدن، يحمي الشرفة وكأنها موقع قرابين سري قديم. ولكن بدلاً من مشاهد تقديم القرابين، رأى السيد ريكاردو وميض الأكثاف البيضاء، والتطریزات اللامعة على فساتين الفتيات الخفيفة، والراقصون يظهرون ويختفون، ينزلقون ويدورون، الأمر الذي جعله يرتكب العديد من الأخطاء لدرجة أن زملاءه في اللعب كانوا مسرورين بانتهاء اللعبة. دخل روبن ويبيستر من ناحية الشرفة. وقال: «أرجو أن تسمح لي بالانصراف يا سيدة تاسبورو. فالصباح يبدأ معه عند انبلاج الفجر، ولا تزال ثمة بضعة ترتيبات يتبعُنَّ علىَّ أن أفرغ منها قبل أن أنا». «

قال الفيكونت دو ميراندول وهو ينهض من مقعده فجأة: «وأنا كذلك. إن نبيذ ميراندول لا يمكن أن يُقارن بنبيذ قصر سوفلاك، للأسف. ولكن يجب أن أوليه الكثير من الرعاية». كان ينظر عبر النافذة إلى الخارج في ترقب. وقال: «أمل أن تُمطر السماء، ولكن ليس بغزارة، ل ساعتين أو نحوهما خلال الليل، فهذا سيفيدنا يا سيد ويبيستر. نعم، ساعتان من الأمطار الخفيفة، أرجو أن تدعوا أن يتحقق ذلك أيها القس».

صافح السيد روبن ويبيستر يد السيد ريكاردو، وقال: «لقد قلت إنك تود زيارتني غداً. أنا أعيش في الشالية خلف الدرب. وهو مكتبي أيضاً. ستتجدني هناك أو عند أقربية التبنة».

خرج بعد ذلك عبر النافذة، وخرج السيد دو ميراندول عبر الباب نحو مدخل المنزل الأمامي حيث كانت سيارته في انتظاره. جاء جولس أمادييه حاملاً صينية مرطبات، ورفعت السيدة تاسبورو صوتها في فظاظة.

وصاحت: «ديانا! ديانا! هل يمكن أن تأتي على الفور لتجهيز مشروب القدس الليلي؟!» ولكن لم يكن القدس ليتورع عن إفساد هذا الوقت الممتع على الفتاة. فقال: «يمكنني أن أُعد مشروبي بنفسني يا سيدتي. دعي الآنسة ترقص، كما سيمكنني أن أُصب جرعةً من ال威يسكي الممتاز الخاص بك في كأسٍ أكبر من تلك التي كانت ستتصبها الآنسة».

عندما تحرك متوجهًا نحو الطاولة، وقف جويس ويبل قاطعةً الطريق عليه. وقالت ضاحكة: «وأنا كذلك، بما أنني لا أعرف أي شيء عن النسب الصحيحة، سأضع مزيداً من ال威يسكي في كأسك أكثر مما قد تفعل أنت متحجّجةً بجهلي».

استحوذت جويس ويبيل على البو فيه، قولهً وفعلاً. كان البو فيه في أحد أركان الغرفة ووقفت أمامه موليةً ظهرها إلى رفاقها. وأعدّت ليموناده للسيدة تاسبورو، وويسكي مع الصودا للسيد ريكاردو، ومشروباً حاراً للقس. عاد الشباب إلى الغرفة. وقدّمت لهم جويس ويبيل جميعاً البيرة، والمشروبات، والخمر الواحد تلو الآخر، وكانت تضحك في مرح طوال الوقت معلنةً أن لها مستقبلاً باهراً بوصفها نادلة. دخلت ديانا الغرفة قادمةً من غرفة المعيشة، وكانت آخر من ينضم إلى المجموعة.

وقالت: «أريد براندي مع الصودا والكثير من الثلج». وشعر السيد ريكاردو مرةً أخرى بنبرة التردد في صوتها، وبالضحكة التي تهدّد بالتحول من السرور إلى الهيستيريا. ألقت جويس نظرةً سريعة خلف ظهرها.

وصاحت: «أنا حقاً من يوزع البرودة، في نهاية المطاف»، وفي حالتها أيضاً، كانت الكلمات والضحكات التي أطلقها مشحونةً بالانفعالات، ولا ريب أن الكأس التي كانت تحملها اصطدمت بالدورق وهي تملؤها، كما لو أن يديها ارتعشت.

كان الجميع قد بدأ يتفرق حقاً، وفي غضون دقائق قليلة، ساد الصمت في قصر سوفلاك، وعاد السيد ريكاردو إلى غرفته الخاصة وفتح نافذتي الغرفة. وعندما نظر عبر النافذة الجانبية، رأى نوراً لا يزال مضاءً في إحدى غرف الطابق الأرضي من الشاليه. لا بد أن السيد روبن وبيستر لا يزال يعمل في مكتبه. وعندما نظر عبر النافذة الأمامية، جال ببصره في أرجاء أراضي الريف الشاسعة الخالية التي يعمها الهدوء. وكان كل ما تمكّن من رؤيته من المنزل الأبيض فوق التل هو ظل أسود. فلم يكن ثمة أي من نوافذه مضاءة. ملأ السيد ريكاردو زنبرك ساعته، ودخل فراشه. وكانت الساعة تُشير حينئذ إلى الحادية عشرة إلا ١٠ دقائق.

## الفصل الخامس

# هانو يظهر مجدداً

لم يكن السيد ريكاردو يستطيع النوم ملء جفونه في فراش غريب، ورغم أنه غط في النوم سريعاً، فإنه استيقظ قبل شروق الشمس شاعراً بقلق غامض. مد يده إلى مفتاح المصباح المثبت في الجدار فوق رأسه بمنزله في ميدان جروسفيتور، وانزعج كثيراً عندما لم يجده في هذا المكان. وبدأ يتذكر تدريجياً أين يقيم. إنه ليس في منزله. إنه في قصر سوفلاك، وعندما اكتشف أن سبب قلقه هو وجوده في مكان لا يألفه، غادره القلق. ولكنه استعاد كاملوعيه.

كانت لديه وسائله الخاصة لعلاج هذه الحالة المؤسفة. لم يكن إحساء الأغنام يصلح في حالته. فقد أحصى معظم الأغنام في منطقة المنحدرات الجنوبية في إحدى الليالي التعيسة، ولكن عندما فاته إدحاه، اضطر أن يُعيد الكَرَّة وأن يحصلها جميعها من جديد، وأبقاءه انزعاجه من هذا الإهمال مستيقظاً حتى الصباح. كانت الطريقة الفضلى التي يتبعها هي أن يفتح ستائر غرفته حتى يتذوق الهواء النقي عبر النوافذ المفتوحة، الأمر الذي كان عادةً ما يجعله يغط في النوم سريعاً. فجرّب هذا العلاج على الفور.

أول ما فعله هو أن أضاء المصباح المجاور للفراش ونظر إلى ساعته. كانت الساعة تُشير إلى بعض دقائق قبل الثانية صباحاً. ثم نهض من الفراش وأزال جميع ستائر النافذة الجانبية. ولاحظ أن النور لا يزال مضاءً في هذه الساعة المتأخرة من الليل في الشاليه خلف الباب، ولكنه انتقل إلى الطابق الأول وليس المكتب.

فكَرَ في نفسه: «لقد أنهى السيد ويبر عمله وسيخلد إلى النوم الآن»، وكان معجبًا باجتهاد الشاب.

تأكد في اللحظة التالية من صحة تخمينه. ففي الوقت الذي كان ينظر فيه صوب الشاليه، ارتعش النور ثم انطفأ. تمنى السيد ريكاردو أن يحصل مدير الأعمال الشاب على قدر من الراحة أكبر مما يمنح نفسه، ثم انتقل إلى نافذته الأمامية.

فتح الستائر عن آخرها فأصدرت حلقاتها المعدنية أزيزًا، ثم رفعها باستخدام رافعتها. كان الريف يمتد أمامه إلى ما لا نهاية في هذا الاتجاه، وكان الهواء منعشًا. كان القمر قد غرب تاركًا خلفه ليلاً مظلماً وصافياً، وسماءً مُرصّعة بالنجوم. ولكن لم تكن بروية الهواء ولا الأفكار التي تعصف برأس السيد ريكاردو هما ما أبقتاه متسمراً في مكانه. عندما ألقى نظرته الأخيرة عبر هذه النافذة قبل أن يدخل فراشه قبل ما يزيد على ثلاثة ساعات، لم يكن ثمة أي ضوء يصدر من المنزل الأبيض فوق التل. أما الآن، فقد كان ثمة صاف طویل من النوافذ مضاءً من طرف المنزل حتى طرفه الآخر، كانت أشبه بمستويات صغيرة تلمع بوضوح جعلت واجهة المنزل تظهر كاملة، وسقط الضوء على الأشجار عند كلا الطرفين، مما أبرز معالمها بوضوح في الظلام. كان المبني مضاءً وكأنه قصر.

سأل السيد ريكاردو نفسه: «ما الذي يعنيه ذلك؟ من في هذه المقاطعة الريفية قد بيده أمسيته في هذه الساعة المتأخرة؟ هذا أمر شديد الغرابة.»

لم تكن ثمة إجابة على تساؤلاته، وبدأت قدماه تشعران ببرودة ألواح الأرضية المصقوله، فعاد إلى فراشه وأطفأ المصباح. ولكن كان فضوله قد استثير بشدة. ومن مكانه متkickًا على وسادته، كان قادرًا على رؤية ذلك الضوء الذهبي يشق الظلام. لم يتمكن من منع نفسه عن رؤيته، ولا عن التفكير فيه.

قال لنفسه: «لن تصلح هذه الطريقة. يجب أن أجرب الطريقة الثانية.»

كانت الطريقة الثانية هي قراءة كتاب. ولكن يجب أن يكون كتاباً يستحق القراءة، وليس مجرد وسيلة للدخول إلى عالم الأحلام. إذا ما أخرجت فكرة النوم من ذهنك تماماً، واستغرقت في قراءة كتاب، فسرعان ما ستغط في النوم. وستُفْيق فجأة وقد ملأ ضوء النهار السماء، وكوب من الشاي بجانب سريرك، ومصباح يحترق دون داع. كانت مشكلة السيد ريكاردو أنه لا يوجد كتاب في غرفته. لا بأس، سيكون عليه أن يذهب إلى المكتبة ويُحضر واحداً. فأضاء مصباحه مجدداً. وخرج من فراشه ووضع قدميه في حذائه، وأدخل جسده في روب ياباني من الحرير المنقوش بالزهور، ثم أمسك بعلبة ثقاب في يده وسار بخفة عبر المرات. أصبح يعرف خريطة المرات، وكان عود ثقاب واحد كافياً لأن يصله



وفي ذلك السكون، ورغم صخب خفقان قلبه، سمع صوت مفتاح يدخل في رتاج الباب.

إلى باب غرفة الطعام. كانت النوافذ على الطراز الفرنسي في الغرف الثلاث في الجناح بلا ستائر. عبر هذه الغرفة والبهو ودخل إلى المكتبة من دون الحاجة إلى إشعال عود ثقاب آخر. تذكر وجود مفتاح إضاءة في غرفة المكتبة بالقرب من النافذة الطويلة بجانب الباب. كان يتلمس بيده محاولاً الوصول للمفتاح عندما مرّ شيء أسود في الشرفة الخارجية سريعاً أمام الواح النوافذ الزجاجية واختفى. جفل السيد ريكاردو لدرجة أنه أسقط عليه الثقاب على الأرض. ثم وقف في الظلام وقلبه يدق بسرعة كبيرة في صدره دون أن يجرؤ على التحرّك. وفي ذلك السكون، ورغم صخب خفقان قلبه، سمع صوت مفتاح يدخل في رتاج الباب.

ويجب هنا أن نعرض الحقيقة. كانت ردة فعل السيد ريكاردو الأولى هي أن يهرب على الفور. ولكنه أجبر نفسه على قبول أن هذا التصرف ليس مناسباً. كما أن فكرة المر الطويل الذي يجب أن يعود أدراجه عبره ثبّطت همته. فوقف مكانه، وسرعان ما اختفت ارتجافة الذعر التي أصابته. وتمالك أعصابه من جديد، حينئذ لم يستطع أن يعود ليفعل ما كان بصدق فعله، أن ينتقي كتاباً ويعود بهدوء إلى فراشه. فلطالما كانت فرصة الدخول في مغامرة تثير حماسته.

فتح النافذة الطويلة بحدٍ شديد وخطا خارجها إلى رصيف الشرفة. ومن بعيد، ارتعش ضوء نجم على سطح مياه نهر جيرون. وبالقرب منه عن يساره، برز البرج المستدير ضحاماً، وتسللت من جهة الأمامية بعض أشعة الضوء. تحرك السيد ريكاردو بحدٍ إلى الأمام انطلاقاً من الزاوية التي صنعها البرج مع جدار المنزل، حيث تسلل الضوء عبر حواف ستارة مُسدلة على نافذة طويلة في واجهة البرج. كان ثمة شخص ما مستيقظ في الغرفة خلف هذه النافذة. شخص ما انسel بخفة كالثعبان إلى داخل الغرفة وفتحها بمقاتحها. لم يكن السيد ريكاردو يعرف ما يجدر به فعله. فقد سمع عن الكثير من الأمور الغريبة التي تحدث في المنازل الريفية، بما في ذلك منازل إنجلترا. وكان عليه أن يتوقع المزيد منها في تلك الأجواء الفرنسية المرحة!

قال السيد ريكاردو لنفسه: «لا أريد أن أكون طرفاً في علاقة غير شرعية. ومن جانب آخر، من يعلم ما المتاعب التي تحدث خلف هذا الباب ذي الستار؟ ربما هناك شخص مريض! ربما هناك جريمة تُرتكب! في أسوأ الظروف، قد يقول لي الشخص خلف هذا الباب ألا شأن لي بما يحدث. وفي أفضلها، قد أقدم له يد المساعدة». ظل واقفاً في مكانه يحاول أن يقرّر ما يجدر به أن يفعل. ولكن كانت لطبيعة العاطفية اليد العليا. فتقديم وطرق برفق على إطار الباب الزجاجي، فانطفأت الأنوار على الفور. ولكن حدث ذلك بسرعة بدت لحظيةً لدرجة أن الطرق على الباب وانطفاء الأنوار لم يبدوا حركتين متتاليتين، بل بدوا كوجهين لحدث واحد.

انتاب السيد ريكاردو شعور قوي بعدم الارتياح. هناك شخص داخل هذه الغرفة سمع صوت أقدامه على حجارة أرضية الشرفة. وتوّقع هذا الشخص، في ترقب شديد، أنه قد يطرق على النافذة، فاستعدَّ بأن أرهف السمع ووضع أصابعه على مفتاح الإضاءة. ولكن من يكون؟ لم تتمكن عيناً السيد ريكاردو من اختراق هذه الستائر، ولم يكن لديه مبرر لتكرار الطرق على الباب. عاد في صمت إلى غرفته من دون حتى أن يختار كتاباً من

المكتبة. ومن غرفته، راقب نوافذ المنزل على قمة التل وهي تنطفئ الواحدة تلو الأخرى متلاشية في ظلمة الليل. وغطّ على الفور في نوم عميق، سواء كان ذلك بسبب الانفعالات التي مر بها، أو بسبب التحركات والهواء المنعش، ولم يحرك ساكناً حتى الصباح.

على الرغم من ارتدائه أكثر ما يملك من الملابس أناقة، فإنه لم يكن مستعداً لغادرية غرفته حتى تمام العاشرة. كانت كروم العنبر تعج بتحركات أجسام الفلاحين المنحنية وهم يجتثون النباتات، وكان المنزل خالياً كحاله عندما وصل بالأمس. سار السيد ريكاردو نحو الشاليه. كان المكتب يُطل مباشرةً على حديقة الدهور الصغيرة، ولكنه كان خالياً أيضاً. فعبر مساحةً من العشب الخشن ليصل إلى أقبية النبيذ. كان العنبر يُنقل إلى بابها في عربات يدوية صغيرة، ثم تُحمل إلى معاصر النبيذ فوق الأحواض. كان روبن وبيستر يقف في غرفة ضخمة في الطابق الأول يراقب حركة المعاصرة وهي تتحرّك إلى الأمام والخلف على مداخلها. نظر صوب السيد ريكاردو مبتسمًا ومد نحوه يده اليسرى التي أمسكها السيد ريكاردو، أو بالأحرى لسها، في غطرسة. فقد كان مدققاً في مثل هذه الأمور. ربما لم يكن شخصيةً مهمة، ولكن يجدر بمديره كروم العنبر الشاب ألا يعاملوه كما لو كانوا سادةً وهو أجير لديهم.

قال روبن وبيستر سريعاً: «أرجو أن تعذرني على أنني مددت لك يدي اليسرى.  
أرأيت؟»

كان يضع يده اليمنى داخل معطفه المزدوج الصدر، وكان معصمه مستقرّاً على أحد الأزارار. ثم سحب يده خارجاً وأظهر أنها ملفوفة بضمادة.

فقال السيد ريكاردو: «لقد ظلمتك.»

ردّ روبن وبيستر مبتسمًا: «أدركت ذلك.»

«هل أصبحت بشدة؟»

«بل هي إصابة طفيفة. لقد جئت إلى هنا مبكراً هذا الصباح، قبل أن يصل أي أحد، للتأكد من جاهزية كل شيء، وبينما كنت أجريب المعاصرة، علت يدي داخلها. ولكنه ليس جرحاً خطيراً يحتاج إلى طبيب.»

ومجدداً، لفت دقة الشاب اللغظية غير المعتادة انتباه السيد ريكاردو وشعر بأنها مألوفة، ولكنه لم يتمكن من تحديد أين سمعها من قبل.

قال ريكاردو: «لقد استيقظت قبل الجميع إذن. إنك لم تحصل على ما يكفي من النوم ليلة أمس.»

راقب روبن وبيستر الكتلة الحديدية الضخمة وهي تتحرك إلى الأمام والخلف على مداحلها هارسةً العنف تحتها. ثم قال: «هل تعلم أننا مزرعة العنف الوحيدة التي تستخدم المعاصر الميكانيكية؟ نعم، لقد ظللت مستيقظاً حتى ساعة متأخرة ليلة أمس. لا ريب أنك رأيت أنوار مكتبي مضاءً عندما ذهبت إلى فراشك.»

قال السيد ريكاردو: «ثم رأيت النور مضاءً في غرفة نومك بعد ذلك ببضع ساعات.» هدرت المعاصرة مرةً أخرى وهي تتحرك جيئهً وذهاباً. قال روبن وبيستر معلقاً: «كانت الساعة تُشير إلى الثانية صباحاً تقريباً عندما أطفأت الأنوار.»

قال السيد ريكاردو: «كان ذلك في تمام الثانية.»

سار السيد ريكاردو مبتعداً وقضى صباحاً ممتنعاً في التجول في أرجاء أراضي الضيعة التي تبلغ مساحتها ٣٥٠ فداناً. كانت الشمس ساطعة، وثمة خطوط من السحاب الأبيض متداشة هنا وهناك في السماء الزرقاء. كانت مياه جيرونود الشاسعة مُرصعةً بسفون شراعية راسية في انتظار ارتفاع المد ليحملها إلى مصب النهر، ومن وقت لآخر، كانت تمر سفينة بخارية تبحر المياه تاركةً خلفها ذيلاً عريضاً من زبد البحر وتتصدر محركاتها هديراً يأتي حافتاً من بعيد في طريقها نحو ميناء بوردو. سار السيد ريكاردو نحو المرفأ الصغير. كان المرفأ خاليًا، كما من المفترض أن يكون. فقد أبحر زورق لا بيل سيمون مع المد الداخلي في السادسة صباحاً. ولا ريب في أنه الآن على وشك الوصول إلى بوردو. ولكن بينما كان يستدير مبتعداً، راوده الشك في أن الزورق لم يكن يفعل شيئاً من هذا القبيل. ففي تلك اللحظة كان ثمة زورق أتى من جهة الرواقد السفلية للنهر، يعبر أمام الحديقة وأشعة الشمس تنعكس عن مقدمته، وكان قريباً من الضفة بما يكفي ليرى كلمة واحدة من اسمه بارزةً بوضوح على ألواح الخشب المتتسخة. شعر بالحيرة. وفجأة أنه لا ريب في أن زورق لا بيل سيمون ليس الزورق الوحيد في النهر الذي غير اسمه. ولكن! لم تكن أيّ من تخمينات السيد ريكاردو تافهةً بالنسبة إليه. وعلى الفور، سار عائداً إلى المنزل، وسرعان ما عاد مجدداً حاملاً نظارته المقربة الباهظة الثمن ووضعها على عينيه. كان الزورق قد أصبح أمامه مباشرةً في تلك اللحظة. وتمكن من قراءة أن الاسم الواضح هو «سيمون»، وكانت ثمة كلمات أخرى تسبقه لم يتمكن من تبيينها بسبب حمو ألوانها. لا ريب في أن هذا الزورق هو «لا بيل سيمون» الذي كان قبطانه يشعر بالضيق بالأمس لأنّه لم يكن ليتمكن من بدء رحلته نحو بوردو إلا في السادسة صباحاً. ولكنه انطلق قبل بدء المد متوجهاً ناحية الجزر. ما المأمورية المفاجئة التي جعلته يخرج في عتمة الليل؟

فكَّر السيد ريكاردو للمرة العشرين منذ وصل إلى قصر سوفلاك: «يا له من أمر غريب!» ولكن كان أكثر الأمور غرابةً سيحدث له تالياً.

عاد السيد ريكاردو إلى غرفته، واغتسل ومشط شعره. وكان موعد الغداء هو الثانية عشرة والنصف. وكانت لا تزال ثمة ١٢ دقيقة على الموعد. فخرج ليسير على طول الطريق المحفوف بالأشجار وفي طريق عودته، سمع صوت سيارة تقترب من مدخل المنزل الأمامي. فصعد إلى الشرفة ولحق به روبن ويبيستر هناك. ثم دخل الرجلان غرفة الاستقبال عبر النافذة. كانت السيدة تاسبورو تجلس على عرشها تطالع جريدةً ووصلت من فورها من بوردو. كانت ديانا جالسةً إلى الطاولة في منتصف الغرفة وأمامها صينية عليها أكواب تمزج مشروب الكوكتيل بنشاط. في تلك اللحظة، انفتح الباب المؤدي إلى البهو على مصراعيه، واندفع جولس أماديه إلى داخل الغرفة بعينين جاحظتين.

وصاح: «سيدي!»، وكرر صياغه: «سيدي!»، ثم دفعته يد ببطء جانبها. ثم تقدم وانحني رجل قصير وعربيض يرتدي معطفاً صباحياً، وحزاماً ثلاثي الألوان حول خصره، ويُمسك قبعة رام في يده.

وقال: «سيداتي وسادتي، أنا هيربستال، مُفوَض الشرطة. أرجو ألا يكون حضوري مزعجاً لكم».

كان صوت المفوض الجاد البارد أثناء حديثه أشد بداية مقلقة على الإطلاق. ولكنه لم يكن السبب الذي جعل السيد ريكاردو يطلق صرخة قصيرة حادة. فما نزل عليه كالصاعقة هو أن رأى عبر الباب المفتوح هانو واقفاً في البهو. منذ بضعة أيام، كان قد ترك المحقق يتشرَّس في إيكيس ويجرِب دعاباته المؤسفة على أصدقائه. ولكنه هنا الآن في قصر سوفلاك بغض العمل. كانت ملامح وجهه الجامدة الخالية من أي تعبير دليلاً كافياً على ذلك. كان هانو قادرًا على رؤية السيد ريكاردو بوضوح، ولكن لم تبدُ عليه أي إمارات تدل على أنه يعرفه. كان لطيفاً من المفوض هيربستال أن يرجو من الحضور ألا يقلقاً. ولكن كان السيد ريكاردو يعرف أن ثمة خطباً ما. بما أن هانو موجود هنا بغض العمل، فلا بد أن شخصاً سيقلق كثيراً. جال المُفوَض هيربستال ببصره في أرجاء الغرفة. وبدت عليه إمارات الارتياح. ثم التفت ناحية الباب، واستجاب هانو لإشارته وخطا إلى داخل الغرفة بخطاه الصامتة. انحنى هو أيضاً، ولكن لم يكن ثمة أي من إمارات الارتياح باديةً على وجهه.

قال هيربستال: «كما ترى. الأمر برمته خاطئ. المكان هادئ تماماً هنا. وهو ليس المكان الذي يجدر بنا البحث فيه!»



وقال: «سيداتي وسادتي، أنا هيربستال، مُفْوَض الشرطة. أرجو ألا يكون حضوري مزعجاً لكم.»

قاطعه هانو قائلاً: «اسمح لي». ثم تقدّم وانحنى مُجَدّداً أمام السيدة تاسبورو، ولكن بطريقة متهكّمة إلى حدّ ما، كما اعتقد السيد ريكاردو. وقال: «أظن أن السيدة لا تشرب الكوكتيل. إنها تنتمي إلى عالم أكثر تنظيماً». أخذت المرأة العجوز كلماته على أنها إطاء، أو ملاحظة غير ضرورية على سنها. واختارت المرأة التفسير الثاني. فقد رمقت هانو بنظرات جامدة ثم التفت ناحية المفوض، وقالت: «من هذا الرجل؟»

اندهش هيربستال، وصاح: «سيدي، هذا الرجل هو السيد هانو الشهير من جهاز الأمن العام في باريس.»

لم يعنِ الاسم أي شيء بالنسبة إلى السيدة تاسبورو. ولكن كان الاسم معروفاً بالنسبة إلى روبن ويستر. فقد سمعه السيد ريكاردو يشهق بحدة ثم يسأل بنبرة متحيرة: «ما الذي جاء به إلى هنا؟» وبينما كان السيد ريكاردو ينظر نحوه، أضاف ضاحكاً: «عندما أجد نفسي في مكان واحد مع رجال الشرطة، أبدأ في سؤال نفسي عمّا إذا كنت قد ارتكبت جريمةً ما.»

طوال تلك الفترة، لم يرفع هانو عينيه عن وجه السيدة تاسبورو.

وقال بلياقة: «إني أستفسر عما إذا كانت السيدة تشرب الكوكتيل لسبب ما. ثمة خمسة أكواب على الصينية، وإذا كانت السيدة لا تشرب مشروب الكوكتيل، فاثنان من ضيوفها لم يحضرا بعد.»

لم يفعل السيد ريكاردو شيئاً سوى أن هزَّ كتفيه. فها هو صديقه العزيز في أسوأ أحواله. إنه يهوى الأسلوب الاستعراضي. ويجب على الجميع أن يهُلّوا لمدى فطنة ملاحظاته. لم يكن السؤال المباشر - «هل ضيوفك جميعهم حاضرون؟» - ليؤدي الغرض. صاغ السيد ريكاردو عبارةً واحتفظ بها كي يستخدمها في المستقبل. لا بد أن يكون هانو مركز الاهتمام. لم تكن ديانا أكثر انبهاراً من السيد ريكاردو. وهزَّت خلاط الكوكتيل بين يديها وأصدر الثلوج خشخشةً في داخله وكأنه حفنة من الحصى. وأجابت: «هذا صحيح. اثنان من المقيمين في المنزل غائبان، ولكن التأخر عن موعد الغداء ليس بجريمة. لا ريب في أنه سيُحل وقتٌ يحقق فيه المحققون بشأن أمور من هذا القبيل.»

قاطعها المفوض في هدوء: «أيتها الآنسة. ليس هذا وقتاً مناسباً للسخرية. أرجو أن تتذكري أن ثمة طرفين لأي جريمة. الجرم والجندي عليه». حتى هذه اللحظة، كانت المرأة تميلان إلى اعتبار زيارة الشرطة انتهاكاً لخصوصيتها. ولكن كانت كلمات المفوض مقلقةً للغاية ولا يمكن الاستخفاف بها. أطلقت السيدة تاسبورو صرخة خوف قصيرةً وغاصت للخلف في مقعدها، وسقط صولجان سلطتها الصغيرة من يدها للحظة. أما ديانا، فتسمرت في مكانها كالملوولة. وقفت في مكانها ولا يزال خلاط الكوكتيل بين يديها، وعيناها مثبتتان في رعب على هانو، والدم ينسحب ببطء من وجهها حتى أبيضت شفاتها.

وكررت ما قال بصوت مرتعش: «الجندي عليه؟»

قال هانو مُشفقاً على حالها: «دعينا لا نتعجل بافتراض أن المتاعب وصلت إلى هذا المنزل. ثمة ضيفان غائبان ...»

قالت ديانا: «إيفيلين ديفينيش ...»

سألها هانو: «هل هي امرأة؟؟؟»

«نعم.»

«ومَن الثاني؟؟؟»

«جويس ويبيل.»

ارتعش جسد هانو ارتعاشة غير ملحوظة. ولم تبحث عيناه عن عيني ريكاردو، ولكنه ظل صامتاً لبرهة من الوقت. وكان صمته ملحوظاً أكثر من ارتعاشة جسده. سأل روبن ويبيستر سريعاً: «هل تعرف هذه الشابة؟» فرمقه هانو بنظره فضولية، كما لو أنه يتساءل عن سبب طرح هذا السؤال.

ثم أجاب: «لا، يا سيدي. لم يخالفني الحظ. من يكون هذا الرجل؟» قالت ديانا موضحة: «هذا السيد روبن ويبيستر، مدير أعمالى.» أومأ هانو برأسه وانحنى مبتسمًا لروبن ويبيستر. ثم قال: «والآن! هل رأى أيٌ من الحاضرين في الغرفة أيًّا من هاتين المرأةين صباح اليوم؟»

وعلى الفور، بدأ كلُّ من ويبيستر، والسيد ريكاردو، وديانا، والصيدة تاسبورو في تبادل النظرات الخاطفة القلقة.

«هل رأيتهمَا؟»

«لا!»

«وأنت؟»

«لا!»

لم يرهما أحد، وتحوَّل القلق الباردي على كل وجه فجأة إلى ارتياع. قالت ديانا في عجلة: «كنا جميعُنا مشغولين صباح اليوم.» بدا أنها تحاول إقناع نفسها بعدم وجود أسباب حقيقة للقلق. «إنه اليوم الأول من حصاد العنبر، لذا، كان هناك الكثير من الهرج والمرج. واستيقظت كلُّ من في المنزل مبكراً، وكان الخدم مرتبعين.» قال هانو: «أعي ذلك جيداً. ربما كانت صديقتاك لا تزالان بين كروم العنبر الخاصة بك. من المعروف أن الشابات دائمات البحث عن طرق جديدة للتسلية بحماسة قد تُنسِّيهن مواعيد الوجبات. ولكن من المستبعد أنهما غادرتا المنزل قبل تناول إفطار صغير أولاً، بناءً على ما قلتَه عن هذا اليوم المرهق للغاية.»

عبرت ديانا تاسبورو الغرفة على الفور ودقَّت الجرس. استجابة جолос أماديه للاستدعاء بسرعة مريبة.

وأمرته ديانا: «هل يمكنك أن ترسل ماريَان إلي؟» ثم احتفى جолос أماديه. قال هانو مبتسمًا: «آه! إنه يتنصت عبر الباب، هذا الرجل. ولكننا نفعل جميعنا ذلك، كلُّ بطريقته. إننا نطرق بأسماعنا لنتنصَّت على المحاديث الخاصة التي تبعد عنا بضعة

أقدام. حتى أنا، هانو، إذا ما وجدت خطاباً مفتوحاً ملقاً على طاولة، فسأقرؤه، إذا ما تمكنت من المناورة وصولاً إليه. لا، لا داعي للوم جولس أماديه!»  
كان يتحدث باستخفاف، وبسبب استخفافه الشديد، كاد قلب السيد ريكاردو يتوقف.  
كان هانو والمفوض متهمين للغاية في تشجيعهما، ودقيقين للغاية في تعاملهما، الأمر الذي لم يدع مكاناً في قلبه للشك في أنهما يخفيان أمراً مريعاً حتى اللحظة الأخيرة.  
قال هانو: «أعتقد أن مارييان هي خادمتك».

فكّر السيد ريكاردو في مدى غرابة أنه في أوقات الكوارث، تتكشف طبيعة الأمور تماماً لدرجة لا أحد قد يندهش من أكبر التغييرات التي تطرأ عليها. كان هانو حالياً قد وجّه اهتمامه كاملاً نحو ديانا. لم تعد السيدة تاسبورو، الدائمة التبكي والشكوى، ذات أهمية. حتى إنها لم تستأذن من فقدان أهميتها. وأصبحت ديانا الآن، التي كانت بالأمس الوصيفة المطيبة، السيدة وصاحبة القصر بلا منازع.

أجبته ديانا بابتسامة شاحبة: «ماريان، يا سيد هانو، امرأة فرنسيّة بكل ما تحمله الكلمة من معنى. هي زوجة جولس أماديه، وبما أن القصر يظل فارغاً طوال جزء كبير من العام، فهما الخادمان الدائمان الوحيدان لدينا. خلال هذا الشهر أو الشهرين، تحصل على مساعدة إضافية من القرية، ولكن دون قناعة تامة منها، وهي تكره كل مساعدتها، ولن تسمح لأي منهم أبداً بالاقتراب من سادتها أو أي من ضيوفهم».

انحنى هانو وابتسم بودجم. وقال: «آه، يا آنسة، إذا ما وصف لي كل من أطلب مساعدته الشخصيات بمثل هذا الوضوح، كنت سأحصل على ستة أشهر من العطلة كل عام بعد أن أنهى كامل العمل الذي كان يستغرق مني اثنى عشر شهراً».

يا للمجاملات! متى سيتعرّف هذا الزيف التافه وتكتشف الحقائق المدمرة؟ سمع صوت حذاء ثقيل يصطدم بأرضية المر المقصولة، ودخلت مارييان الغرفة، وكان التحدي باديأً على جميع ملامحها العنيدة. كانت امرأة في منتصف العمر وضفت على وجهها أجمعه مساحيق تجميل منذ وقت ليس بعيد. أدارت المرأة ظهرها لهانو والمفوض هيربستال. لم يكن ثمة شك في أن جولس أماديه قد أخبرها بكل ما عرفه من تنصّته.

سألت مارييان: «هل أرسلت في طلبي يا آنسة؟»

قالت ديانا مستفسرة: «نعم يا مارييان. في أي ساعة من الصباح أوصلت القهوة إلى السيدة ديفينيش والسيدة ويبل؟»

أجبت مارييان: «في تمام السابعة».

«هل كانتا في غرفتيهما؟»

«نعم يا آنسة! إنه يوم ممیز، أليس كذلك؟ في يوم كهذا يستيقظ الناس من نومهم ويبعدون يومهم مبكراً. كانت السيدة ديفينيش قد خرجت من المنزل بالفعل.»  
«وماذا عن جويس وبيل؟»

«كان وضعها مختلفاً. كان ثمة تنبيه مثبت على باب غرفة الشابة مفاده أنها لم تتم جيداً وأنها لا تزيد إزعاجاً. فحملت قهوتها وعدت أدراجي، ونويت أن أعد لها قهوة ساخنة جديدة عندما ترن الجرس لطلبتها.»

«هل رنت الجرس؟»

طرح هذا السؤال بوضوح تام، ولكن صمت ماريان سمعها عنه. فلم تلتفت نحو هانو أو تنظر إليه. كرر السؤال في صبر، وفجأةً أحمر وجه ماريان، وشبكت ذراعيها أمام صدرها، وصاحت بصوت أشبه بتعيق غاضب: «يا آنسة! لا أعلم ما تفعله الشرطة في هذا المنزل. ما شأنهم بما إذا استيقظت امرأة في وقت أبكر من المعتاد أو أصيّبت أخرى بصداع نصفي؟ أجعل عليهم يذهبون ليغثروا على ملابس الكاهن المسروقة! آه! على الأقل سيؤدون عملاً ذا فائدة.»

كرر هانو سؤاله: «سألتك، هل رنت الآنسة وبيل الجرس في غرفتها بعد؟».

قالت ماريان: «وأجبت أنا، عبر صمتي، بأنني لن أجيب عن أسئلة السيد». أذنّتها ديانا برفق: «هذا لا يصح يا ماريان. يجب أن تجيبي عن أسئلة السيد». استدارت ماريان متوجّهةً لتواجهه هانو.

وقالت: «حسناً إذن، إنها لم ترن جرسها، ثم صاحت مجدداً في غضب: «ولكن ... اللعنة ... يا لها من أسئلة تُطرح بينما غداء الآنسة كله يحترق ويتحول إلى رماد ...» قاطعها هانو وقد غَيَّر طريقة لتصبح أمراً بدلاً من صابرة: «سأطرح عليك سؤالاً آخر. هل نامت السيدة ديفينيش في فراشها؟»

فاجأ السؤال جميع من في الغرفة، ولكن لم يُفاجأ أحد أكثر من ماريان. أطلَّ من عينيها بعض الاحترام وهي تنظر إلى هانو. وقالت بصوت أكثر وداعية.

«سيدي! كما أخبرتك سابقاً، هذا يوم مزدحم بالنسبة إلى الجميع. ومن المحتمل أن السيدة ديفينيش فَكَرَت في ذلك؛ فهي تعرف أن جميع الشباب يكُن في مثل هذا اليوم عديمات الفائدة وعاظلات عن العمل. ربما قالت لنفسها: «يا للمسكينة ماريان، يجب أن أسعدها اليوم».»

هانو يظهر مجدداً

قال هانو مؤكداً: «يعني هذا أنها لم تنم في فراشها».

صاحت ماريان وقد بدأ وجهها في الاحمرار مجدداً: «لا، يا سيدى، لم تفعل. أعني أنى عندما دخلت غرفتها هذا الصباح، كان الفراش مرتبًا».

تقبل هانو تصحيحاً راضياً، ولكن فكر السيد ريكاردو أن كل من يعرفون إيفيلين ديفينيش لن يتذقا مع ماريان على هذا التفسير على الإطلاق. لم تكن إيفيلين ديفينيش امرأة عطوفاً قد تفكّر فيما إذا كانت ماريان قد أنهكتها العمل أم لا. ولم يتمكّن من تخيلها تقفز من فراشها في الصباح الباكر لمساعدة الفلاحين في جمع العنب. لم تكن القصة برمتها مقنعةً على الإطلاق.

قال هانو: «أعتقد أن كون الفراش مرتبًا يكفي». كان يتحدث بجدية شديدة، وكان حريصاً على ألا يتحدد بانفتاح نظر نحو هيربستال، ونظر هيربستال نحوه بدوره وأمال رأسه.

وقال: «نعم. نعم. لا يمكننا أن نراعي المشاعر الرقيقة طوال الوقت. أؤكّد لك ذلك يا سيد هانو!»

كان المفوض، رغم كونه قاضياً، سعيداً بإظهار الاحترام للرجل العظيم القادم من باريس.

كانت ديانا تتحرّك باستمرار. فلم تكن تشعر بالقلق فحسب، بل كانت متّحيرةً كذلك.

وصاحت في عصبية: «أرجو ألا تُبقينا متربّين هكذا لمدة أطول. فوقوع البلاء خير من انتظاره..»

حتى في تلك اللحظة، تردد هانو للحظات. لم تبدُ عليه الراحة. بدا وكأنه قد انتابه هاجس بأنه على وشك أن يُلزم نفسه بتحقيق سيكشف عن هاوية من الشر الفظيع حتى هو نفسه يخشى الاقتراب منها.

قال أخيراً: «حسناً. في تمام السابعة من صباح اليوم، شوهدت سلة غسيل تطفو على سطح مياه نهر جيروندي مع ارتفاع المد، من قبل صبيين من قرية سان إيزان دوليت، وهما ألبير كرودو، في الرابعة عشرة من عمره، وشارل مارتان بعمر الثالثة عشرة وخمسة أشهر. تُطل قرية سان إيزان دوليت على الضفة نفسها من النهر التي يطل عليها قصر سوفلاك، ولكنها أقرب من مصب النهر بنحو ستة أميال. هذه التفاصيل مهمة. حمل تيار النهر سلة الغسيل حتى وصلت إلى الشاطئ، وكانت الأمواج في ذلك الوقت بطيئةً

للغایة، وتمگن الصبيان بسهولة من تتبعها. رست السلة برفق في خليج صغير في منطقة منعزلة تبعد حوالي نصف ميل عن القرية. كانت الضفة المكسوّة بالعشب ذات انحدار بسيط، وكان ثمة مرج رفيع، وسياج شائك خلف المرج، والقرية تقع على بعد مائة ياردۀ خلفه. سحب الصبيان السلة خارج الماء بصعوبة. فقد كانت أتقلّ مما تحتمل عضلاتهما. ووُجداً أن السلة مربوطة بإحكام بحبل سميك، وكان مربوطة في الحبل في قاع السلة قطعة من شبكة ذات خيوط دقيقة، يا لها من مصادفة غريبة، فقد بدا وكأن وزناً كان موضوعاً في الشبكة لإغراق السلة، وكان الوزن ثقيلاً للغاية على الشبكة مما أدى إلى تمزقها وتحررها. كان الصبيان متّحدين لهذا الاكتشاف، فقطعاً الحبل بسكين جيب، وعندما رفعوا الغطاء، صدما برؤية جثة ملفوفة في قطعة من الكتان الفاخر. وعندما رفعوا حافة قطعة الكتان، وجدوا فتاة عارية تماماً، وركبتهاا مضمومتان نحو ذقنهما. وشعرها بربع شديد مَنَعْهما من فحص الجثة عن قرب. فأعادا قطعة الكتان إلى مكانها، وبينما أسرع أحدهما، شارل مارتان، إلى قرية سان إيزان دوليت ليُنْقُل الخبر، أغلق البير كرودو السلة وجلس جوارها ليحرسها. ثم نُقل الجثمان الذي كان لا يزال مكوّماً داخل السلة إلى المشرحة في فييلبانش». كانت هذه المدينة الصغيرة التي ذكرها هي مقر الإداره المحلية للمنطقة. ثم استطرد قائلاً: «كنت في بوردو بالمصادفة أهتم بمشكلة ما، قد تكون حادثة السلة هذه، أو لا تكون، ضمن تطّوراتها». في هذه اللحظة، تلقى هانو نظرة لوم شديدةً من السيد ريكاردو، مما جعله يبذل جهداً لتخفييف إهماله لوجود صديقه.

يُجدر بي أن أضيف أنه عمل يمّعني من الاستعانة بأي نصّ، مهمّاً بلغت قيمته. وشعر بالرضا عندما رأى السيد ريكاردو يستعيد اعتداته بنفسه. ثم قال: «شّرفني السيد هيربستال بأن اتصل بي هاتفيّاً لإبلاغي بهذا الكشف ودعاني لمساعدته. أجرى الطبيب الشرعي، الطبيب برون، فحوصاته في حضورنا. كانت الجثة تعود لشابة أولت عنايةً خاصة، عنايةً خاصة للغاية، بجمالها ومظاهرها. لا يوجد أدنى شك في صحة الأدلة التي بين أيدينا في حادثة مثل تلك. ولكن كان كل شيء، اللون الأبيض الخفيف لبشرتها، ولعنان شعرها، يُشير إلى أنها كانت امرأة تملك ما يكفي من الوقت والرغبة في الاهتمام بنفسها بعنايةٍ تامة».

قاطعته ديانا بصوت خفيض: «هل كانت ميتة؟»  
«طبقاً لما قاله الطبيب برون، كانت متوفّةً منذ حوالي ست ساعات.»  
قالت ديانا: «هل غرقـت في هذه السلة؟ يا له من أمر مرـيع!» وارتـجـف جـسـدهـا وغـطـّـ وجهـها فـجـأـةـ بـيـديـهاـ.



وشعر الصبيان بربع شديد منعهما من فحص الجثة عن قرب.

أجابها هانو: «لا يا آنسة، لم تغرق. لقد تلقت طعنَةٌ نافذةٌ في القلب. لم يكن ثمة أي أمارات تنم عن الألم على وجهها، ولا أي تعبير عن الخوف. إنها لم تكن تدري بما يحدث؛ فهي كانت هادئة تماماً». وبعدهما استخدم كامل قدرته لتأكيد كلمات التهدئة التي قالها، الأمر الذي يبرع فيه تماماً، واصل حديثه في هدوء قائلًا: «ولكن ثمة تفصيلة واحدة مُحِيرة ومخيفة في هذه الجريمة. غير كونها جريمةً بالتأكيد. بعد موتها، نُشرت يدها اليمنى من عند الرسخ».

عمت موجةً من الرعب جميع الحاضرين في الغرفة. ما الغرض من التمثيل بجثة المرأة بعد قتلها؟ إنه تعبير عن كراهية ووحشية شديدة، انتقام لا يهدأ حتى بعد الموت.

انطلقت صرخة من بين شفتي ديانا المرتعشتين. وكانت السيدة تاسبورو تبكي وتنئ. وصاح روبن ويبيستر، وقد كسا الغم والاضطراب وجهه: «لماذا؟ لماذا بحق السماء؟» السيد ريكاردو فقط هو من بقي صامتاً، وخوف مريع ينمو داخل ذهنه. فغاص في مقعده وظل يُحْدِق في الأرض.

في الوقت نفسه، واصل هانو حديثه، قائلاً: «لم تكن هناك أي علامات تمكناً من تحديد هوية الشابة، فلم تكن ترتدي أي أساور في رسغها، ولا سلسلة حول رقبتها، لا شيء على الإطلاق. ولكن فكر السيد هيربستال والطبيب برون في أنه من المحتمل أن نتوصل إلى المزيد من المعلومات في قصر سوفلاك؛ فمن عادة الآنسة أن تقيم حفلًا منزليًا بمناسبة حصاد العنب. لذا، جئنا إلى هنا على الفور، وهذا نحن قد اكتشفنا أن ثمة ضيفة مفقودة. أرجو من السيد ريكاردو، فهو أحد معارفي، أن يستقل معي السيارة إلى فييلبلانش، وأأمل، ولكن من دون ثقة كبيرة، ألا يتعرف إليها. وحتى يعود، يجب أن أطلب منكم ألا تغادروا المنزل.»

ولكن لم يرد السيد ريكاردو. فقد كان لا يزال جالساً دون حراك يُحْدِق في الأرضية، وبدا وكأنه لم يسمع أياً مما قيل.

قال هانو مصراً: «هل ستأتي؟ إنها مهمة عصيبة، أعلم ذلك تماماً.»

ولكن لم يقل ريكاردو شيئاً، ولم يغيّر من وضعية جسمه. ارتعشت كتفا روبن ويبيستر في قلق. ثم قال متربّداً: «لا ريب في أنه واجبى أنا أكثر من أي شخص آخر.» وقبل أن يتمكّن من قول المزيد، قاطعه هانو. «لا! أشكرك على تطوعك، ولكنني أريد السيد ريكاردو.»

ثم في نهاية المطاف، عشر السيد ريكاردو على صوتٍ يتحدث به، ولكنه خرج من بين شفتيه كثيّراً ورتيّباً، وبدا وكأنه ليس صوته.

قال دون أن يرفع عينيه عن الأرضية: «قبل أن أذهب، أعتقد أنه يجدر بأحدهم أن يطرق باب غرفة الآنسة ويبيل لنتأكد من أنها ستبغي.»

وعلى الفور أصبح السيد ريكاردو محط أنظار كل الحضور الحزين، ولكنه لم يكن سعيداً بذلك هذه المرة. فلم تكن النظارات الموجّهة نحوه تحمل أي ود. لم يكن أي منهم قد فكر في جويس ويبيل خلال تلك الدقائق العصيبة الأخيرة. فقد ربطت قصة هانو نفسها مباشرةً باختفاء إيفيلين ديفينيش لدرجة أن الرحلة المقترحة لتحديد هوية جثمانها كانت مجرد إجراء شكلي. ولكن أصبح هناك فجأةً اقتراح جديد، غامض ومزعج.

صرخت ديانا بحدة: «لا، لا!» لم تكن تعارض اقتراح السيد ريكاردو، بل كانت ترفض السماح بتحميل لغز آخر على أعصابها المعدية.

قال السيد ريكاردو من دون أن يرفع عينيه عن الأرضية: «أعتقد أنني محق». وأقنع سلوكه الجميع بطريقة ما بأنه محق. التفت هانو نحو ماريانا التي كانت واقفة على مقربة منه طوال تلك المدة، وأوهما لها برأسه. فأسرعت على الفور إلى خارج الغرفة تاركة الباب مفتوحاً خلفها، ولم يُضف أحد أي كلمة. كانوا يسمعون صوت حذائهما يدق على درجات السلالم الحجرية القريبة من مكانهم، ثم صوت الطريق العالى على الباب. ظلت المجموعة في غرفة الاستقبال تتنصّت في ترقب أن ينفتح الباب، وأن يسمعوا صوت جويس وبييل الودود الواضح. ولكنهم لم يسمعوا إلا صوت الطريق يتكرر، ويعلو أكثر، ولكن لا مجيب. رفع السيد ريكاردو رأسه في حيرة، وكسر حاجز الصمت.

قال: «هل تنام الآنسة وبييل في الطابق العلوي؟»  
أجابته ديانا: «نعم.»

إذن، فغرفتها واحدة من الغرفتين في البرج!  
فسألتها: «وماذا عن السيدة ديفينيش؟»  
«في الجناح المقابل لجناحك.»  
«فهمت.»

إذن، أي نافذة تلك التي طرق عليها في الثانية من صباح اليوم، والتي رأى خلفها نوراً مضاءً ثم انطفأ على الفور؟ لم يكن ليمر وقت طويل قبل أن يعرف. سمع صوت ماريانا وهي تطرق مجدداً على الباب، وتندى باسم جويس وبييل، ثم عادت إلى الغرفة تجر أذيال الخيبة، وصدرها يعلو ويهبط، وملامح وجهها تتم عن الخوف.

تلعثمت قائلة: «باب غرفة الآنسة موصد بالقفل، ولا يوجد مفتاح في القفل.»  
وجّه هانو سؤالاً إلى ديانا، قائلًا: «هل تملكين مفتاحاً آخر لهذا الباب؟»  
«أي مفتاح سيفتحه. جميع الأقفال متشابهة.»  
«ستبقون جميعكم هنا إذن.»

اندفع هانو إلى خارج الغرفة. ولم يسمع أحد خطوات أقدامه على الدرج الحجري، ولكنهم سمعوا صوت مفتاح يفتح مزلجاً، وعم الصمت مجدداً. ولكن لم يعد الصمت محتملاً.

«جويس! جويس! آه!»



لم يسمع أحد خطوات السيد هانو على الدرج الحجري.

خرج الاسم من بين شفتني روبن ويبستر في صرخة قصيرة تنم عن التعasse. كانت الصرخة أشبه برجاء لها أن تُحبب، وأن تظهر بكمال شبابها المتألق بينهم، وكانت في الوقت نفسه تعبيراً عن يقينه بأنها لن تفعل. رأى السيد ريكاردو ديانا ترفع عينيها ببطء نحو روبن ويبستر وتثبتهما على وجهه المرتعش القلق بنظرة مدققة غريبة، ولم تمر لحظات قبل أن يعود هانو إلى الصالون.

وقال جزعاً: «الغرفة فارغة، وأغطية الفراش مبعثرة ومحرورة على الأرض. ولكن يبدو أن ذلك مُتَعَمِّد. لم تنم السيدة ديفينيش ولا الآنسة ويبل في فراشيهما في قصر سوفلاك ليلة أمس.»



غرفة جويس فارغة، وأغطية الفراش مبعثرة ومحروقة على الأرض.

تغير التعبير على وجهه فجأة. وصاح وهو يندفع نحو الأمام: «مهلاً! مهلاً!» كان قد رأى ديانا تاسبورو تترنّح وكأنها شتلة في مهب الريح. وشحب وجهها بشدة. كانت تتقول بصوتٍ واهن: «هذا رهيب! رهيب!» وصل هانو إليها في اللحظة المناسبة ليمنع سقوطها على الأرض. ثم تركها تنزلق من بين ذراعيه وتستقر على أرضية الغرفة دون حراك.



## الفصل السادس

# لوحة على الجدار

انحنى هانو، ورفع كتفي ديانا، ثم وقف منتصباً في نهاية المطاف حاملاً إياها بين ذراعيه برفق كما لو كانت طفلة كبيرة.

وقال في أسف: «كنت قاسياً، نعم، ومن حقكم أن تنتقموا عليّ. ولكن، للأسف، تجعل مهنتي المرء قاسياً. فهو يرى قدراً كبيراً من قسوة البشر. ولكنني سأحاول أن أعدل من أسلوبي الآخر. سأحمل هذه الشابة المسكينة إلى غرفتها».

لم يتأثر السيد ريكاردو بهذا الأسف. فقد كان شكه في هذا المحقق من جهاز الأمن العام يزداد عندما يُظهر المشاعر الرقيقة. وكان ينسد منها بعد ذلك وكأنها زوج من القفازات. كان يتعامل برقه، وإنسانية ورفق، حتى تلك اللحظة السوداء الأخيرة عندما يتعلّق وكأنه ينتقم من يخالفون القانون. ومن ثم، شعر السيد ريكاردو بمشاعر شائكة تتحرّك على عموده الفقري صعوداً وهبوطاً عندما رأى صديقه الضخم يحمل جسد الفتاة الرقيق بين ذراعيه القويتين وكأنه يحوطها من كل جانب. هل كان الساميّ الصالح أم حيواناً مفترساً؟ صديقاً أم سجاناً؟

ولكن، بدا أن ماريان لم تشارك السيد ريكاردو أيّاً من شكوكه. فعبرت الغرفة على الفور متوجهةً ناحية النوافذ وفتحتها.

وقالت: «سيدي، هذا أقصر طريق، إذا تفضّلت. يا للمسكينة! لقد تحملت اليوم ما يفوق قدرتها على الاحتمال».

خطت خارج الغرفة إلى الشرفة وفي إثرها هانو، واتجهت يساراً لتمر أمام نوافذ المكتبة. إذن، كانت غرفة ديانا هي التي تُطل على الشرفة بشكل قوس من الطابق السفلي من البرج. وكانت نافذة غرفتها هي التي طرق عليها السيد ريكاردو. أسرع السيد ريكاردو في إثر هانو وهو يشعر بحيرة شديدة. كان ثمة الكثير من الأسئلة تتراوح في

ذهنه بحثاً عن إجابات منذ أن بدأت مارييان الطرق على باب غرفة جويس وبييل. كانت جويس وبييل تُقيم في غرفة فوق غرفة ديانا، وخرجت جويس وبييل في وقت ما من الليل من غرفتها واختفت. وكان من المفترض أن تكون غرفتها، دوناً عن بقية الغرف، هي المضاة في تلك الساعة غير العتادة. ولكن، لماذا لم تحاول ديانا أن تعرف من الشخص الذي طرق على نافذة غرفتها قبل أن يطلع الفجر؟ هل كانت هي أيضاً خارج المنزل ليلة أمس؟

رأى السيد ريكاردو طرف ذيل معطف هانو بينما كان يمر حاملاً جسد الفتاة ويعبر بين مصراعي الباب الزجاجي لغرفة البرج. لم يكن السيد ريكاردو واثقاً بأنه سيتلقى معاملة متحضرة إذا تبعه. ولكنه تبعه على أي حال. تسلل إلى داخل الغرفة في حذر عندما كان هانو يضع ديانا برفق في فراشها في عمق الغرفة، فخرج على الفور من بقعة الضوء حتى صار من الصعب رؤيته.

قال هانو وهو يبسط كتفيه: «أحضرني كوبًا من الماء يا مارييان. أعتقد أن الآنسة لم تُصب بضرر. انتظري، حتى الآن، لا يزال جفناها يرتعشان».

أسرعت مارييان إلى الحوض، وصبت كوبًا من الماء، بينما ظل هانو واقفاً بجانب الفراش، وكان ينظر إلى ديانا تاسبورو، ثم جال ببصره أرجاء الغرفة بنظرية قد تبدو لا مبالغية تعلم السيد ريكاردو منذ أمد بعيد لا يستخف بها أبداً. حدق في باب خزانة الملابس، والمرآة، والسيد ريكاردو، والسباحة، والمقاعد. ولكن لم تر عيناه أي شيء غريب على الإطلاق أينما نظر. ثم خرّ فجأة على ركبتيه. فقد كانت شفتا ديانا تتحركان. ولكنها كانت تغمغم:

«كنت حمقاء! ... لم يحدث شيء ... لا شيء ... وإن كنت تذكرته». خُيل للسيد ريكاردو أن رأس هانو انحنى نحو الأمام، كما لو أنه على وشك أن يهمس بسؤال ما في ذهن ديانا، على أمل أن تجيب عن السؤال بينما لا يزال ذهنه مشوشًا. ولكن ظهرت مارييان بجانبه فجأة، فتصرّف بطريقة طبيعية تماماً، وأخذ الكوب منها وأمسك به أمام شفتى ديانا.

ثم قال وهو ينھض واقفاً: «حسناً، حسناً، هكذا أفضل». ثم سار نحو السيد ريكاردو. وقال: «أنا وأنت يا صديقي، ليس من المفترض أن تكون هنا، بل من المفترض أن تكون في فييلبلانش».

ثم أمسك بذراع ريكاردو وقاده إلى الشرفة مجدداً. ولكن كان أسلوبه مختلفاً الآن. فقد كان متاهياً، ولعنت عيناه ببريق متسائل، وابتسمة بسيطة غريبة مرسومة على شفتيه.

قال بصوٍت هامس: «أؤكّد لك. ثمة أمور شديدة الغرابة حصلت في هذا المنزل. الآنسة وبيل وخطاباتها. أَحمد الله أني لم أستخف بمخاوفها». رفع السيد ريكاردو سبّابته، وقال: «لقد رأيت شيئاً ما في الغرفة». «نعم. فرائساً، وامرأة شابة فاقدة الوعي، وحُادمة، وكوبًا من الماء». «ثمة شيء آخر».

الآن هانو ذراعيه في الهواء. وقال: «لم أقض في الغرفة إلا ثوانٍ معدودة. وكنت منشغلاً خلالها».

رفع السيد ريكاردو سبّابته، وقال: «أخشى ألا يصلح هذا الأسلوب معِي». استسلم هانو بإشارة تنم عن اليأس ونظرة ملأها الإعجاب الأسف. وقال: «نعم. أُعترف، مثلاً فعلت الآنسة ديانا، بأني أحمق. كان يجب أن أكون أكثر ذكاءً. ثمة سر! ها، ها! أخف السر إن استطعت! إن السيد ريكاردو العبرقي أصبح يتتبّع كالنسن».

كان ريكاردو معتاداً على التصحيح الأحمق للعبارات الاصطلاحية المثيرة للإعجاب التي يقولها صديقه، ولكنه شعر بالفخر بنفسه على الإطراء الذي تلقاه عن نفاد بصيرته، فترك تلك الصيغة اللّغوية المؤسفة تمر مرور الكرام. أمسك هانو بذراعه وقاده بعيداً عن نطاق سمع الجميع إلى أبعد حافة للشرفة.

وقال بصوٍت خفيض: «نعم. لقد رأيت شيئاً ما في الغرفة. وسأخبرك ماذَا يكون. لوحة صغيرة. معلقة على الجدار فوق الفراش. رأيتها عندما كنت أضع الشابة المسكينة في فراشها. يجب أن تراها عندما تسنح لك الفرصة. وسترى ما رأيت. ولكن، حتى يحدث ذلك... ثم وضع إصبعه على شفتيه في إشارة ذات مغزى».

كان السيد ريكاردو متّحمساً حتى النخاع لمشاركته في هذا اللغز. فقال مطمئناً: «لن أُنبئ ببنت شفهه». ولا ريب في أن هانو شعر براحة شديدة. كاد يستدير مبتعداً عندما جذب السيد ريكاردو ذراعه هذه المرة. وقال بنبرة جديدة آمرة؛ فقد كان دائمًا ما يتوقع لأن يحظى بثقة هانو النادرة: «قبل أن تُكمل عملك، يجب أن أُنبهك. أعتقد أنك تبالغ، ربما أكثر من المعتاد. لم يكن الأمر فجأة حتى الآن. ولكن قد يتفاهم الأمّر لو لم تراقبه عن كثب».

نظر له هانو في جزع. وقال: «أنا أُبالغ!»  
«لقد فعلت ذلك مرتين صباح اليوم..»

أقى المحقق ذراعيه في الهواء في يأس، وقال: «الأمر واضح إذن. لقد أصبح هانو  
مسناً. مرتين! ضبطتني مرتين أُبالغ في الانحناء في صباح واحد..»  
قال السيد ريكاردو: «بل تتقوّس. ولكن، في أفضل الأحوال، قلت عبارةً مبتذلة.»  
«مرتين!»

«نعم..»

«هل كانت إدحاهما عندما رأيت اللوحة على الجدار؟»

«نعم..»

«ومتى كانت المرة الثانية؟»

«في وقت سابق في غرفة الاستقبال. كان أسفك على اضطرارك لسرد القصة المريعة،  
وتعاطفك، كانا جيدين للغاية بوجه عام..»

قال هانو في تواضع: «أشكرك. أخلجت تواصعي!»

قال السيد ريكاردو: «معك حق. أجل، كنت تسير سيراً حسناً حتى مرحلة ما. تلك  
النقطة عندما استخدمت كلمة وحشية، بل واستخدمتها بوحشية، لوصف اليد المقطوعة.»  
احتفى كامل المرح من عيني هانو. ورمق ريكاردو بنظرة غريبة، كما لو كان مبارزاً  
أخذه خصمه الذي يحتقره على حين غرة.

وقال: «أكمل!» كان السيد ريكاردو سعيداً للغاية بإكمال ما يود قوله. «كان يجب  
أن تُقحم في تعاطفك وأسفك الرقيق عالم الجريمة القاسي الذي تعيش فيه أثناء وجودك  
في غرفة الاستقبال الأنيقة تلك، ثم فجأة تقول كلمة فجأة بطريقة عنيفة، كما لو كانت  
لكلمة؛ «نشرت». «نشرت من عند الرسغ». صديقي، أعلم أنك كنت تبحث عن ردّة فعل،  
نعم، ردّة فعل مؤكدة من أحد الحاضرين في الغرفة..»

لم يُقر هانو بأن هذه كانت نيته. ولكنه لم ينف ذلك أيضاً. فقال عابساً: «إذا كان  
هذا ما أعتزم، فلم يفلح الأمر. تعال! حان وقت انطلاقنا إلى فييلبلانش وتحديد هوية  
جثة السيدة ديفينيش المسكينة. معك سيارتكم، أليس كذلك؟ هل هي معك؟ حسناً إذن،  
سنستقلُّها أنا وأنت وستترك سيارة الشرطة إلى المفوض هيربستال..»

ولكن، للمرة الثانية هذا الصباح، أدهش السيد ريكاردو المحقق بشدة. فقد قال في  
هدوء: «يمكنك أن تستخدم سيارتي كما يحلو لك. ولكنني لا أعتقد أننا سنُحدّد هوية  
إيفيلين ديفينيش..»

تصلَّب جسد هانو الضخم، وغمغم قائلاً: «أوه! هكذا الأمر إذن! نعم! لقد كنت أنت من أصر على إيقاظ الآنسة جويس وبيبل من سباتها العميق. نعم. منذ لحظة انتهاءي من سرد قصتي، كان يبدو عليك الخوف الشديد. حتى أنا، هانو المسن، لاحظت ذلك. لهذا السبب أردت أن نذهب أنا وأنت بمفردنا بالسيارة إلى فيلبلاش. نعم! إنها صديقتك الأمريكية التي تتوقع العثور عليها في المشرحة الباردة». ثم هزَّ كتفيه كما لو أن بروفة هذا المكان طالته هنا في تلك الشرفة التي تغمرها أشعة الشمس. «فلنذهب! وستُخبرني بسبب اعتقادك هذا في الطريق.»



## الفصل السابع

# كهف المومياوات

خرج الرجلان من المنزل المنكوب وهبطا التل متوجهين نحو الأبنية الريفية والمرأب، وكان هانو مستغرقاً في أفكاره وشعر السيد ريكاردو ببعض الاندهاش من رؤية الفلاحين يؤدون مهام يومهم، وكيف أن العالم يعج بالحركة. فقال: «لا يبدو الأمر طبيعيّاً». أفاق هانو من تأملاته وردَّ عليه: «في نهاية المطاف، ربما يكون كلانا مخطئاً. ثمة الكثير من الأبنية في منطقة جيروند». ولكن كان يبدو أنه لا يصدق الكلمات التي قالها على الإطلاق، وبمجرد أن انطلقت السيارة الضخمة بسلامة على الطريق الذي يمر بين كروم العنب، التفت نحو رفيقه بنشاط.

بدأ السيد ريكاردو يتقوّه ببعض الأعذار. فقد كان يساوره شك في أن إعجابه بالأمور الغريبة والعجيبة ليس لائقاً برجل في مثل عمره المتقدم ومكانته الاجتماعية المرموقة. ولكن كان يتبعين عليه زيارة كهف المومياوات رغم كل ذلك.

قال وهو يصبح في انفعال صادق: «لطاماً أردت زيارته، وقد فعلت ذلك منذ ١٠ أيام.»

وصف لصديقه كيف أنه سار حتى وصل إلى البرج العالي فوق جبل سان ميشيل المقابل لأبواب الكنيسة في الميدان الكبير. عند قاعدة البرج، وجد كشك تذاكر، ولكنه كان مُغلقاً، وبجانبه كان ثمة درج حلزوني يهبط نحو الظلام. فنظر من أعلى نحو أسفل الدرج، لكنه سمع فجأةً بالقرب منه صوت امرأة عالياً يصيح: «هيا اهبط أيها السيد! ويمكنك أن تدفع لي فيما بعد. سأبدأ عملي الآن.»

فأطاع المرأة، وتحسّس درجات السلالم بقدمه والجدران الجانبية بيده. كان ثمة بضع خطوات تفصله عن ذلك الدرج الحجري العتيق، ولكنه كان يلتف، وبعدما أصبح ضوء النهار في ظهره، لم يستطع رؤية أي شيء على الإطلاق.

«خطوة أخرى أيها السيد. حسناً إذن!»

كان ثمة من أمسك بذراعه ووجهه نحو درج قصير عن يساره. لم تُشعل المرأة، الحريصة مثل الطبقة التي تتنمي إليها، شمعتها المصنوعة من الشحم لتضيء معروضاتها المروعة حتى جمعت حولها مجموعةً صغيرةً من المترجين عند نقطة الانطلاق. كان السيد ريكاردو يدرك في غير وضوح أنه يقف عند حافة مجموعة من الناس. كما انتابه كذلك شعور بوجود مساحة شاسعة. ولكن عندما اشتغل عود الثقب، وسطع ضوء الشمعة الخريصة الأحمر الذي يتضاعف منه الدخان،رأى أن المكان عبارة عن موقع تنقيب ضيق وبائي. كان المكان لا يزال مظلماً بدرجة لم تمكّنه من تمييز أي شيء في بقية المجموعة، فيما عدا أنها كانت مكونةً من كلا الجنسين. ولكن سقط الضوء على وجه المرشدة، وشعر بخيبة أمل بسبب ظهرها مثل تلك التي أصابته بسبب ضيق الكهف. كان يتوقع رؤية عجوز شمطاء تشبه الساحرات. ولكن رأى بدلاً من ذلك امرأةً عمليةً في منتصف العمر ذات وجه على شكل تقافة تبدو عليها سيماء الوقار مع ذلك الشال الأسود الذي تضعه على كتفيها.

مررت وسط حاجز حديدي يحمي صف معروضاتها الكثيرة، وبدأت تلقي محاضرها الأولى. كانت هناك مومياوات في مصر بالطبع، ولكن لم تكن أي منها، بدايةً من مومياء توت عنخ آمون إلى الأقل منها شهرة، تضاهي مومياواتها. كانت مومياوات مصر من صنع أيدي البشر، محشوةً ومعالجةً مثل الحيوانات المحنطة التي توضع على الطاولات. كانت مومياواتها هي المومياوات الحقيقية الطبيعية الوحيدة في العالم، ومصدر فخر لمدينة بوردو العظيمة.

«سيداتي، سادتي، ظلت هذه المومياوات على حالها منذ العثور عليها في جبانة عتيقة في المدينة في مكان قريب من هنا. وقد حفظتها على هذه الحال مواد كيميائية من التربة لا توجد في أي مكان آخر. انتبهوا أيها السادة والسيدات!»

حظّت عينا السيد ريكاردو من محرّجهما في محاولة منه للنظر فوق أكتاف الأنس المحظوظين الذين اتخذوا أماكنهم في الصفوف الأولى. مررت القائمة على هذا المتحف الغريب ببطء على طول صف جثث الموتى المعلقة المستندّة واقفةً وكأنها في استعراض أزيلي. كانت الجثث واقفةً وقد وضعـت مازرٌ حول خصورها، وكان لون بشرتها مخضراً، وكانت رقيقةً مثل ورق البرشمان. ظلت قطع بالية مسوّدةً من أكفانها ملتصقةً بها، وخصلات من شعرها الأسود متسللةً من جمامتها، وبعضها لا تزال تمتلك أعيناً خضراء

شاحبة تُحدّق من محاجرها. كانت المرشدة ترفع شمعتها وتنزلها لتشير إلى التفاصيل البارزة، ومنح الضوء الأحمر، بظلاله المترعة، الجثث مظهراً يوحى بالحياة والحركة. قالت المرشدة بصوتٍ عملي واضح: «ترون هنا امرأةً وطفلًا على كتفها. كانوا قد دُفنا معاً خلال الوباء! وترون هنا رجلاً قُتل بطعنة سيف»؛ كشف ضوء الشمعة عن جرح كبير في صدره. استطردت قائلة: «لا تزال رئاته موجودتين. اسمعوا!!

مددت يدها داخل الجرح وطرقت بأصابعها الرئتين اللتين أصدرتا صوت خشخšeة وحقيقاً أشبه بصوت أوراق الأشجار الجافة. ارتعش السيد ريكاردو في استمتاع، وشعر بدرجات تجري صعوداً وهبوطاً على طول عموده الفقري وفي باطنِي قدميه. ثم سأل نفسه: «ماذا بعد؟» متسائلاً عما إذا كان سيتحمّل المزيد عندما وقفت المرشدة فجأةً أمام الجثة الأخيرة في الصف. كانت مديرية عروض بارعةً احتفظت بالمومياء المميزة في نهاية العرض. وقبل حتى أن تنطق كلمتها الأولى لتشرح ما يراه الجميع، انتشر بينهم جميعاً شعور بالاشمئزاز والزعزع، فقد ظلت أمارات الألم المروعة ظاهرةً على المومياء بوضوح رغم كل تلك القرون التي مرت على دفنها.

رأى السيد ريكاردو جثمان شاب، كان فمه مفتوحاً عن آخره وكأنه يلهث طلباً للهواء، ورأسه منحنياً إلى الأمام وكأنه يحاول النهوض بدفع كتفيه، وإحدى ركبتيه مضومة نحو صدره كأنه يدفع غطاء تابوت.

قالت المرأة ببعض الفخر: «لقد اتفق الأطباء على هذه المومياء. من المفترض أن الصبي كان مصاباً بالتخشب، أو كان ضحيةً لمعاملة وحشية. لقد أصبحنا نعيش في عصر أكثر لطفاً، حمدًا لله! لقد دُفن حيًّا، واستيقظ داخل القبر. فظل يصرخ، كما ترون، ويشهق طلباً للهواء. وأصبت بشدة عضلات الساق، التي رفعها معذبًا لدفع جميع تلك الأقدام التي تعلو من التربة، ما جعل من المستحيل فردها مجدداً. فثبتت على هذا الوضع. يا له من مسكيٍّ!»

ظللت تُعدّ لبعض لحظات مزايا العيش في العصر الحالي الأكثر لطفاً، بينما كان انعكاس الضوء الأحمر لشمعتها يرتعش صعوداً وهبوطاً على المومياء المعذبة، حتى صاح رجل بصوتٍ أ Jegش: «كفى، يا إلهي! هذا يكفي!»

ولكن المرأة لم تتحرك، تقديرًا منها لنجاح عرضها، على ما يبدو. ثم أطفأت شمعتها بسبابتها وإبهامها من دون أن تقول شيئاً، وظللت المجموعة لبرهة من الزمن واقفةً في مكانها دون حراك وفي صمت تام في ظلمة الكهف المعتمة لدرجة أن الوارد الجديد سيعتقد



كانت المومياء المميزة هي المعروضة المروعة الأخيرة.

أن الكهف فارغ أثناء هبوطه الدرج الحلزوني. ثم انكسر حاجز الصمت في خفوت شديد بجانب مرافق السيد ريكاردو، عبر تنهيدة جعلت الدم يتجمد في عروقه عندما سمعها. لم تكن التنهيدة تُعبّر عن الشفقة ولا الرعب، بل اشتياق شديد لأن يفرض هذا العقاب مجدداً.

«أوه! أوه!»

كانت صيحةً خافتة تنم عن رغبة بدائية ووحشية، رغبة في إيذاء من لم يتعرّض للإيذاء بعد، رغبة في عقاب من لم يتعرّض للعقاب بعد، همسة حملت أسفًا على أنَّ مثل هذا العقاب لم يعد ممكناً.

حاول السيد ريكاردو أن يتذكر من يقف بجانبه. كان لديه انطباع بأنها امرأة، ولكنه لم يستطع التيقن من ذلك، وبينما كان يفكّر، سمع صوت المرشدة من جديد. «سيدةٌ، ساداتي، كان هذا كل شيء. إذا استدرتم إلى الخلف، فسترون شعاعاً من الضوء يأتي من جهة الدرج. وأنت إليها السيد الذي جاء أخيراً، الرسم هو ٥٠ سنتيمتراً. سأعطيك التذكرة عند كشك التذاكر».

كان أعضاء المجموعة يُسرعون صاعدين الدرج مسرورين أن الجولة انتهت. واحتُجز السيد ريكاردو عند قمة الدرج ليدفع نصف الفرنك ويحصل على تذكرةه. ولكن كانت عيناه على المجموعة الصغيرة من الناس whom يتفرقون، ومن بينهم، رأى فتاةً تتأيّد بنفسها عن الآخرين وتسير بمفردها. كانت ترتدي ملابس مميزة دُهش أن رآها على زائرة لهذا العرض الجنائزي. كان ثمة أمر غريب بشأنها، وتساءل عما إذا كانت هي من تنهدت بجانبها. كان يرغب بشدة في استجوابها بشأن ذلك. ولكنه شعر ببعض الانزعاج عندما تعرّف إليها بعد تسعه أيام في غرفة استقبال قصر سوفلاك.

هل كانت إيفيلين ديفينيش؟ لا ريب في أن التناقض الكبير بين ذلك الكهف المعتم وتلك الصحبة الكئيبة فيه وتلك الغرفة التي يغمرها ضوء الشمس التي تُطل على ساحل جيروند، قد أثّر على حكم السيد ريكاردو. كان من الحال أن تكون تلك المرأة التي تنهدت في الكهف هي نفسها تلك الفتاة الأنيقة التي كانت متعدّلة العين في غرفة الاستقبال. ونفّض عن ذهنه هذه الشكوك حتى تلك اللحظة بعد العشاء مباشرةً عندما تحدّثه أن ينكر أنهما وقفوا معًا في المجموعة نفسها داخل كهف المومياوات. كانت قد أشاحت بعينيها بعيداً عنه على الفور. وكانتا تبحثان عن جويس وبيبل التي كانت مستقيمة على مقعدها التصوير. ولع فيهما غضب شديد، وظلتا تحدّقان صعوداً من القدم النحيلة في حذائهما الفضي المطرز إلى الركبة بكرابية جارفة. لا ريب في أن إيفيلين ديفينيش كانت تفكّر في تلك اللحظة في المومياء المشوّهة لذلك الشاب في كهف المومياوات! كانت تخيل جويس وبيبل في مكانه وركبتها تدفع في عذاب يائس غطاء التابوت. نعم، كانت إيفيلين ديفينيش هي من تنهدت. إذن، بما أن الفتاتين اختفتا من قصر سوفلاك، وواحدة منها قُتلت، فلا ريب في أن القتيلة هي جويس وبيبل.

كانت تلك هي القصة التي رواها السيد ريكاردو أثناء قيادة سيارته عبر ريف فيلبلانش الذي تغمره أشعة الشمس. كان هانو ينصت له باهتمام تام، ولكنه هز رأسه في النهاية.

وقال: «يا صديقي، لم تكن امرأة هي التي نشرت تلك اليد اليمنى، حتى وإن استحوذت عليها كل الكراهة في العالم.»

ردد عليه السيد ريكاردو بكياسةٍ وصبرٍ وتعالٍ في الوقت نفسه: «ولكن لا ريب في أن معها شركاء يساعدونها. ألم تراودك هذه الفكرة؟!»

ضرب هانو جبهته في تعبير مبالغ فيه نوعاً ما عن اليأس.

وصاح: «هذا صحيح تماماً! لقد أصبح هانو مسنّاً. كيف كنت سأحل هذا اللغز وحدي؟! من حسن حظي أنك هنا، رئيس الأركان الذي يخبر القائد بما عليه أن يفعل، العقل المدبر لكل شيء. أنا أعتمد عليك. أخبرني بما تفّكر فيه. أمامك وقت كافٍ لتفعل!» كانت السيارة تقترب من شارع فيلبلانش الطويل الذي تصفّف منازل صغيرة بيضاء متربة على جانبيه.

«عندما كانت السيدة ديفينيش ترمي الرقيقة جوييس ويبل بهذه النظرة القبيحة، من كان بجانب جوييس ويبل؟ إلى من كانت تتحدث؟»

أعاد السيد ريكاردو بناء غرفة الاستقبال في مخيّلته، بأتاثها والحاضرين فيها. ووضعهم جميعاً في أماكنهم، ثم صاح: «أنا أعرف. كان جالساً بجانب جوييس ويبل، وربما كان يجلس على مسافة قصيرة خلفها. نعم، من المؤكد أنه كان خلفها بمسافة قصيرة. فقد كان يميل إلى الأمام من فوق ظهر مقعدها؛ كان روبن ويستر.»

قال هانو: «أها! ذلك الشاب الوسيم ذو الشعر الأبيض ولحة التحدّق في حديثه. ذلك الذي يملك وسامه أبوallo وأسلوب معلمة، أليس كذلك؟ كان هو إذن. الرجل نفسه الذي صاح فجأة: «جوييس! جوييس!» عندما اكتشفنا أنها اختفت. هذا غريب بالفعل! حسناً، سنعرف بعد قليل إذا ما كنت محقاً.»

توقفت السيارة أمام المشرحة. وسرعان ما أدرك السيد ريكاردو أنه مخطئ تماماً. فقد كانت الجثة التي ترقد على سرير المشرحة، ملفوفةً بحرص في ملءة كتانية نظيفة، وعيناها مغمضتان، ويبدو السلام على وجهها، هي جثة إيفيلين ديفينيش.

هبطت المفاجأة على السيد ريكاردو كالصاعقة، ولكنه شعر براحة أكبر. لقد كان يهتم لأمر جوييس ويبل أكثر مما كان يدرك هو نفسه. ونحّي جانباً، ولو للحظة على الأقل، كل الأمور الغامضة المتعلقة بها، وكذلك الاحتمال الذي أشار إليه هانو في إيكنس بأنها قد تكون اختلقت قصتها الغريبة حول خطابات ديانا تاسبورو لغرض لا يعلمه أحد إلا هي. كان سعيداً بأنها ليست المرأة الراقدة أمامه على السرير الحجري.

قال هانو وهو يحاول أن يستشف مشاعر صديقه من وجهه: «إنها السيدة ديفينيش، أليس كذلك؟»

«نعم». التفت هانو إلى المفوض هيربستال الذي انضم إليهما، وقال: «الأمر كما اعتقدت. فلنواصل العمل. فنحن نؤخر السيد ريكاردو عن غدائه.»

تقدّمهم عامل المشرحة، ومرروا بممر عاري طلي باللون الأبيض، إلى غرفة في الجزء الخافي من المشرحة. كانت الغرفة مليئة بالخزانات، وكانت السلة التي لا تزال مبللةً ب المياه النهر موضوعة على الأرض.

قال هانو: «أريد رؤية قطعة الكتان التي كانت المرأة المسكينة ملفوفة فيها». فتح العامل إحدى خزاناته، وأخرجها وأعطياها إلى هانو. لاحظ السيد ريكاردو أن أحد أطراف قطعة القماش مقطوع من قمته وحتى قاعدته، وأنها كانت ملطخةً بالدماء. حمل هانو قطعة القماش نحو النافذة وقلبها ونفضها بقوة ثم لفها حولها مجدداً. عندما عاد إلى الغرفة مجدداً، كانت ملامح وجهه متغيرة. كان عابسًا ومهموماً. كان من الواضح أنه لا يحب المهمة التي أدامها منذ قليل.

قال وهو يضع قطعة القماش بحرص على أحد المقاعد: «أعتقد أن قطعة القماش هذه ستكون على جانب كبير من الأهمية.»

ثم اتجه ناحية السلة وفتحها. لم يستطع السيد ريكاردو أن يرى من حيث يقف ماذا يوجد في داخلها. فسار على أطراف أصابعه حتى أصبح بجانب هانو. كانت السلة مغطاةً بنوع ما من قماش القنب القوي الأبيض، والذي كانت بعض أجزائه ملطخةً بالدماء. انحنى هانو لي Finch داخلها عن كثب بسرعة متحسساً البطانة المبللة عند الأركان. وقال: «إنه ممزق هنا». وضع إصبعه داخل الشق، ثم تصلب وجهه. فنهض واقفاً، وقلب السلة على جانبيها وانحنى لينظر عن كثب إلى نسيج الخوص عند أحد أركانها بالقرب من قاعدتها.

قال محدثاً هيربستال: «انظر!» كان يشير إلى وتد مصنوع من معدن أصفر يبرز من بين شرائط الخوص. أعاد السلة لتقف على قاعدتها مجدداً، وغاصت يداه داخلها وظلتا تعملان لبعض لحظات بـك شديد. وعندما وقف منتصباً من جديد، كان يمسك في يده سواراً ذهبياً صغيراً. وكان مفتوحاً. كان ثمة وتد صغير صمم لينزلق داخل تجويف، حيث يمسك به نابض ويثبته، وعند القفل كان هناك حجر أو بالناري كبير. شهق السيد ريكاردو في دهشة بينما ينظر إليه.

وسائل: «هل يمكنني فحصه؟» وأعطاه إياه هانو الذي كان يمسك بطرفيه بين أصابعه بحدٍ شديد.

سأل هانو: «هل تعرفه؟»

أجاب السيد ريكاردو وال hairy مرتبطة على وجهه: «لقد رأيته من قبل.»  
«أين؟»  
«في لندن.»

انتقلت بعض الدهشة من وجه السيد ريكاردو إلى وجه هانو.  
ولكنني اعتقدت أنك لم تر إيفيلين ديفينيش قبل الأمس.»  
قال السيد ريكاردو: «هذا صحيح. عندما رأيت هذا السوار كان في معصم جويس وبيل. إنه يخصها.»  
«يخصها!»

ظل هانو ينقل بصره بين ريكاردو والسوار، والسوار وريكاردو.  
ثم قال ببطء: «هذا عجيب.» ثم قلب السوار الذهبي ونظر إلى ما في داخله. ولكن لم يكن ثمة أي كتابات. ثم طلب ورقةً ولف السوار في داخلها بحرص ووضعها فوق قطعة الكتان المطبقة.

وقال: «ربما تكون ثمة بصمات أصابع عليه قد تساعدنا.» وظل واقفًا يحدق فيه مجددًا، كما لو أنه، رغم أنه داخل الورق، يمكنه إجباره على البوح بسر وجوده داخل السلة. ثم انحنى مجددًا فوق السلة، وغاص داخلها، وفحص كل شق بين أشرطة الخوص به. ولكنه لم يكن يخفي أي أسرار أخرى. عاد هانو ليقف منتصبًا.  
وقال: «سيدي المفوض، ستتولى أنت أمر قطعة الكتان والسوار وتُخضعهما لفحص دقيق.» ثم التفت نحو ريكاردو وقال: «في الوقت نفسه، سنعود أنا وأنت إلى قصر سوفلاك. سأطلب منك أن تتوقف عند مكتب السيد تيدون، قاضي التحقيقات، ولكننا لن نستغرق سوى بضع دقائق. فلا يوجد ما أخبره به سوى أننا في بداية قضية مظلمة ومرعبة للغاية.»

خرج من المشرحة بخطوات بطيئة ثقيلة فقدت خفتها بالكامل. للمرة الثالثة شعر السيد ريكاردو بتقهقر صديقه وتردد.

قال هانو وهما يستقلان السيارة، وكان يُجيب عن سؤال السيد ريكاردو الذي لم يطرحه: «هذا صحيح، أنا آخذ لمحَّة عن الأشياء التي لا أحب أن أراها. ثم أفحصها كاملةً

قبل أن أصل إلى النهاية. كنت سأقول للسيد تيدون لو استطعت: «سيدي، هذه القضية لا تناسبني». ولكنها قضية تناسبني. لقد استدعوني إلى بوردو لأتوى قضية اختفاء بعض الأشخاص، كانت في ظاهرها قضية سهلة، عادية، مملاة، يمكن حلها بالقليل من التركيز. ولكن اختفت صديقتك الآنسة ويبيل أيضًا. هل حالة الاختفاء هذه قائمة بذاتها؟ أم أنها ترفع بقية حالات الاختفاء إلى مستوى مؤامرة كبيرة مريعة؟ لا أعرف!» ضرب بقبضته المضمومة بطانة المبعد بجانبه.

وصاح بقوه: «ولكني يجب أن أعرف. هذا عملي». ومن تلك اللحظة حتى انتهاء التحقيقات الطويلة المضنية، لم يلحظ السيد ريكاردو أي تردد على هانو.

قال ريكاردو متربدًا: «ثمة سؤال أود طرحه عليك.

رد عليه هانو: «اطرحه يا صديقي، فثمة الكثير من الأسئلة التي أود طرحها عليك.

«هل كانت اليد المقطوعة موجودة في السلة؟»

هز هانو رأسه نافياً. «لا! أمر مثير للشفقة. نعم، الكثير من الشفقة. فلكي نحل هذه القضية، علينا أن نكتشف لم قُطعَت، وأعتقد أنه من بين كل الأسئلة التي علينا الإجابة عنها، هذا السؤال هو الأكثر أهمية على الإطلاق.»  
ثم توقفت السيارة أمام مبني المحافظة.



## الفصل الثامن

# القاضي المسؤول

كتب القدر، الذي لا تهمه راحة المخلوقات مطلقاً، على السيد ريكاردو، الذي يولي اهتماماً خاصاً براحة، ألا يتناول وجبة غداء تستحق الذكر في هذا اليوم غير العادي. بينما كان هانو يدخل بهو مبني المحافظة، مرّ به رجل توقف فجأة ملتفتاً إليه باهتمام. وسأل: «هل أنت السيد هانو؟»

رد عليه هانو ناظراً إليه: «نعم». «يا للحظ الحسن! أنا آرثر تيدون، قاضي التحقيقات، كنت الآن في طريقي إلى قصر سوفلاك لأبحث عنك».

ظل الرجلان يتحدثان بجدية لبعض دقائق في ظل المرسقوف، بينما جلس السيد ريكاردو في السيارة وشعر بأنه سيفقدوعي بسبب عدم تناول أي طعام. ثم ظهر الرجلان تحت أشعة الشمس واقتربا منه.

قال هانو، وهو يتنهّى جانباً ليُفسح الطريق بينهما: «هذا صديقي، السيد ريكاردو؛ السيد تيدون، قاضي التحقيقات».

كان آرثر تيدون رجلاً طويلاً القامة ونحيلًا، في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره، وكان ذا وجه نحيل بشوش مدبر الذقن. كان حليق الوجه فيما عدا شاربًا رفيعاً يمتد إلى كلتا وجنتيه، وكانت ملابسه تحمل طابع الأنوثة الحضرية.

بدأ تيدون حديثه في ود قائلاً: «أعرف اسم السيد ريكاردو بالطبع وصلته بالشهرة هانو قضية إيكيس منذ بضعة أعوام. أعتبر نفسي محظوظاً أن العناية الإلهية أرسلتكم معاً إلى هنا مجدداً في هذا الوقت المهم. أنا أدعوكما لأن توليانني بعضاً من اهتمامكم في مكتبي».

كان السيد ريكاردو متخيّراً بين أهميته والجوع الذي يفتك بمعده. فمن جانب، كانت أماته قصة تثير اللعاب وتحقق العدالة، ولغز جويس وبيل، ومعاناة ديانا تاسبورو،

وكانت كل هذه الأمور يجب أن تُروى على الفور. ومن جانب آخر، ألن يحكي كامل هذه القصة على نحو أوضح بعد تناول الغداء، وتدخين سيجار كبير وطويل وسميك لكي يقصها بأسلوب درامي؛ أن يصمت لثانية بينما تخرج من فمه دائرة مثالية من الدخان والعيون تراقبها متأنلاً وهي تصعد لأعلى في الهواء وتتبدّل، وتتبعها زفراة حارة تتم عن دقات قلبه المتسارعة، وكثلة من الرماد الأبيض تنفضها أصابعه القصيرة يختم بها الجمل؟ من الصعب تجاهل ملحوظات فن السرد البارع تلك، وكان من الأصعب أن يتوجه فراغ معدته، ولكن كان القاضي قد فتح باب السيارة حَّقاً، وأجبر السيد ريكاردو قدمه على أن تخطو خارجها.

تقدّمها تيدون إلى غرفة ضخمة مستطيلة أنيقة الأثاث بجانب المدخل الرئيس. كانت ثمة نافذتان طويتان تُطلان على الشارع، وطاولة قصيرة موضوعة بينهما، وبجانب الحائط، كانت ثمة طاولة أصغر جلس إليها مساعد القاضي يكتب.

قال تيدون: «سألق جرس الاستدعاء عندما أنهى لقائي مع السيدين يا سوساك». نهض المساعد على الفور وكانت خيبة الأمل باديةً على وجهه، وخرج من الغرفة وعيناه مثبتتان تماماً على هانو لدرجة أن أنفه اصطدم بألواح الباب.

صاح السيد تيدون ضاحكاً: «يا للمسكين سوساك! لقد انفطر قلبه. لا تحدث أمور مهمة في هذه المنطقة؛ كانت سرقة ملابس الكاهن هي الحدث الأهم. ثم تأتي هذه القضية المفزعـة. ثم فجأة، يرى السيد العظيم هانو من النافذة ومعه صديقه الشهير السيد ريكاردو يصلان بالسيارة أمام الباب، ثم يُرسـل خارج الغرفة. نعم، يا له من مسكـن!» وضع تيدون قبعته على طاولة جانبية وأسند عصاه الخشبية إليها، ووضع مقعداً أمام طاولته ليجلس عليه ريكاردو، ومقعداً آخر من أجل هانو، ثم وقف خلفه يواجههما. وقال مرةً أخرى ضاحكاً، ولكن كان صوته يحمل نبرة اعتذار هذه المرة: «هل فهمـتمـا ما أعني؟ إنـنا نـستـخدـمـ هنا جـمـيعـ الأسـالـيبـ السـيـئـةـ السـمعـةـ، مثلـ أنـ يكونـ الضـوءـ خـلـفيـ ويـسـطـعـ فيـ وجـهـيـكـماـ. جـمـيعـ منـ يـخـضـعـونـ لـلـتـحـقـيقـ يـدـرـكـونـ الـحـيـلـةـ الـقـدـيمـةـ وـيـحـضـرـونـ تعـبـيـرـاتـ لـهـزـيمـتهاـ. ولـكـنـيـ أـرـاعـيـ تـرـتـيـبـ الأـثـاثـ لـأـنـهـ يـجـعـلـ الضـوءـ يـأـتـيـ منـ فـوـقـ كـتـفـيـ الـيـسـرىـ، وـلـاـ يـكـونـ ثـمـةـ ظـلـ سـاقـطـ عـلـىـ الـوـرـقـ بـيـنـماـ أـكـتـبـ.»

تساءل السيد ريكاردو عما إذا كان قاضي التحقيقات يُثـرـشـ بشـأـنـ تلكـ الـطـرـقـ المتـجاـوزـ لـجـعـلـهـمـاـ يـشـعـرـانـ بـالـرـاحـةـ، أمـ أنـ هـذـاـ يـرـجـعـ إـلـىـ شـعـورـهـ بـالـعـصـبـيـةـ لـأـنـهـ مضـطـرـ إلىـ موـاـكـبـةـ مـعـضـلـةـ عـلـىـ هـذـهـ الـدـرـجـةـ غـيـرـ الـمـعـتـادـةـ مـنـ الـخـطـورـةـ. بـعـدـ ذـلـكـ، جـلـسـ مـباـشـةـ

على المقعد الوثير خلف الطاولة ناقلاً بصره بين ضيفيه، ثم انحنى نحو الأمام بحركة سريعة، وضم يديه، اللتين كانتا داخل قفاز أصفر فاتح، أمامه.

قال مبتسماً: «سأكون صريحاً تماماً معكم، وأُخبركم باعتراف. أنا من باريس كما تعرفان، وهناك لدى الكثير من الأصدقاء المهمين، وفي وقت ما، وبلا أدني شك، يمكنني أن أساعد أولئك الذين ساعدوني». كان يتحدث وهو ينظر نحو هانو مباشرة: «وأريد أن يحين ذلك الوقت سريعاً. فيما يتعلق بمهنة القضاء، أعلم جيداً أنه يجدر بي أن أنجح أولاً في مدة اختباري في الأقاليم. ولكن هذه المنطقة المتربة لا تناسبني على الإطلاق،وها قد حانت فرصتي لأهرب منها بمساعدتكم. سيتردد صدى هذه القضية في ربوع فرنسا، بفضل شهرة نبيذ قصر سوفلافاك، ومكانة الضحية الاجتماعية، وغموض وفظاعة الجريمة، كل ذلك سيجعل ذلك أمراً مؤكداً بلا ريب. حسناً إذن! لا بد أن أحصل على مجرم، وعلى دليل إدانة لا يدع مجالاً للشك». ضغط يديه معاً بقوة، ثم شهق شهقةً سريعة وخاطفة، وقال في سرور ضاحكاً من نفسه على شدة رغبته في ذلك: «نعم، دليل لا يدع مجالاً للشك! ساعداني في ذلك، ومن ثم سأنتقل إلى بوردو؛ فهي مدينة يمكن للمرء أن يعيش فيها برحاء. ومن بوردو إلى باريس، وهذه خطوة مؤكدة! لقد أصبحت أتخيل نفسي هناك حقاً. إن باريس ...» ثم التفت نحو السيد ريكاردو باحثاً عن طريقة للتعبير عن أفكاره، وقال: «أنت تملك تعبيراً اصطلاحياً عن ذلك في لغتك ...»

صاح هانو ملحاً نفسه في الحادثة قبل وقت طويل من تجهيز السيد ريكاردو عبارةً ليعطيها إلى تیدون: «بالطبع يملكه». يا للعبارات الاصطلاحية! من أفضل من هانو قد يُمدّ بها؟

صاح وهو يهز رأسه في أدب: «باريس! إنها وطنك الروحي..»  
أجابه القاضي: «بالضبط». وأوْمأ الرجلان أحدهما للأخر في رضاً تام. قال السيد تیدون: «لا ريب في أن اللغة الإنجليزية تملك تعبيرات جيدة». وأوْمأ إلى السيد ريكاردو مرةً أخرى في أدب.

«حسناً، بعد توضيح الأمور. فلنبدأ العمل، ثلاثتنا، من أجل تحقيق قناعة لا ريب فيها أمام محكمة الجنائيات. جيد! سيد ريكاردو، هل رأيت جثة الضحية الشابة؟»

«نعم يا سيدي..»

«وهل تمكّنت من تحديد هويتها؟»

«نعم. إنها السيدة إيفيلين ديفينيش؛ واحدة من ضيوف قصر سوفلافاك.»

«جيد! هذا تقدُّم جيد. مَاذَا تعرِف عنْهَا؟»

أجابه السيد ريكاردو: «لا شيء. كان لقاؤنا ليلة أمس هو لقاءنا الأول. لم أسمع باسمها من قبلٍ على الإطلاق. ولكنني لاحظت أنه على الرغم من تقديمها لي على أنها سيدة متزوجة، لم تكن ترتدي خاتم زواج.»

حدَّق القاضي تيدون في وجه شاهده في حنكة، وقال: «هذا أول طرف خيط لدينا. حسناً، أنت تفترض أن إيفيلين ديفينيش امرأة ذات حياة غير قوية.»

جفل السيد ريكاردو في ذعر. ثم بدأ يفكّر. هل قال صراحةً إنه لم يفترض ذلك؟ لقد شعر ببعض الانزعاج بعدهما أدرك التخمينات غير المسئولة التي يُدفع للتصديق عليها. فأجاب بحذر: «لا أملك أدنى قدر من السلطة يؤهّلني لأن أفترض مثل هذا الافتراض. النساء ينسين خواتمنهن على أحواض الحمامات.»

«هل قد يحدث ذلك مع خاتم زواج؟»

«ربما تخلصت منه منذ أمد بعيد وطلقت من زوجها.»

«ولكنها لا تزال تحفظ بلقبه؟»

«ربما كان ديفينيش هو اسم عائلتها هي. لا أعرف. ولكن لا ريب في أن الآنسة تاسيورو تعرف.»

كان الضجر في نفس السيد ريكاردو يزداد بسبب طرح تلك الأسئلة عليه، وبسبب القصور الذي سببَ حدثه.

لاحظ القاضي ذلك، فقال: «أتمنى لو تمكّنت من إعفاء هذه الشابة من الإزعاج قدر إمكانني. أحمرّ وجه السيد ريكاردو بفعل هذا التأنيب، وهو يسمع القاضي يقول: «لا ريب في أنك صديقها. يمكنك أن تخبرني بكل شيء».»

فَكَرَّ السيد ريكاردو بحذر شديد في إجابة عن هذا السؤال. كانت عبارة «كل شيء» تعني التفاصيل الصغيرة الغريبة، كما كان يُحب أن يطلق عليها. على سبيل المثال، المخاوف التي أثارتها خطابات ديانا في نفس جويس ويبل. التخاطر اللاوعي الذي كان قائماً بلا ريب بين عقل الكاتبة وعقل القارئة، والكلمات المكتوبة في الخطاب التي تعمل بمثابة خط التلغراف. ولكن ليس عدلاً في مثل هذا السياق العصي على العقل افتراض أن ديانا كانت تتعرّض أثناء كتابة هذا الخطاب لتهديد خطير جعلها تكون حریصةً للغاية ألا ينفلت منها أي تلميح عنه. لا، لن يذكر الخطابات في إجابته من الأساس. كما أنه من المؤكد أن ديانا قضت شهور الصيف في بياريتز وليس في لندن. حسناً، هذا أمر غير مهم.

ثالثاً، فسخت ديانا خطبتها من حبيبها. ولكن قد تفعل أي فتاة ذلك. فربما رأت الفتاة رجلاً على أنه بطل مغوار منذ أسبوع، ولكنها أصبحت تراه اليوم مصدر إزعاج لا ينتهي. هذه طبيعتهن. قد تصلاح هذه المعلومة نيمياً تتراوّلها الصحف، ولكنها لا تصلاح دليلاً على جرم. رابعاً، تملك ديانا لوحة معلقة على الجدار فوق فراشها كان السيد ريكاردو يتوق لرؤيتها. ولكنه لم يرها، وعلى أي حال، هذه قضية هانو، وليس قضيته هو. الأمر الخامس والأهم على الإطلاق، كان هو، السيد ريكاردو، ضيف ديانا، ولن يكفي ١٠ ألف شخص على شاكلة آرثر تيدون يودون الانتقال إلى باريس في أسرع وقت ممكّن لأن يجعلوه يذمها. وبناءً على ذلك، أطري على مكانتها الاجتماعية، وأصدقائها الكثُر، وحبها للرياضة.

سأله القاضي على الفور: «وهلرأيت أي تغيير طرأ على هذه الشابة ليلة أمس؟»  
شعر السيد ريكاردو ببعض الحيرة. فكرَ العباره ببطء: «ليلة أمس؟» وهزَ رأسه وبدأ يصف رعبها ودهشتها المتزايدين هذا الصباح عندما اكتُشف احتفاء صديقتها، وقال: «لقد فقدت الوعي في نهاية المطاف. واصل السيد هانو إلى حملها إلى غرفتها». قال هانو على الفور مؤيداً: «نعم يا سيدي. كانت مصدومة بشدة. لقد أقيمت الأخبار السيئة دون مقدمات. فقدت الآنسة ديانا وعيها.»

كان السيد تيدون يدُون ملاحظةً من وقتٍ لآخر بينما السيد ريكاردو يتحدث. وبدأ يطرق الطاولة بمؤخرة قلمه الرصاص في عدم رضاً. كان لا يزال بعيداً كل البعد عن تلك القناعة غير القابلة للشك التي ستحقّق له أمنيته.

ثم قال: «ماذا عن تلك الشابة الأخرى، الآنسة ويبيل؟» كان قد نطق اسمها فييل «هل كنت تعرفها قبل الأمس؟»  
«نعم.»

شعر السيد ريكاردو بارتياح أكبر. فلم يكن ثمة أمر أكثر أهمية بالنسبة إليه من لغز اختفائه للكشف عنه. أخبر القاضي بكل ما يعرفه عنها. وأعطاه كامل تاريخها الذي يعرفه، وأضاف: «ولكنني لم أتوقع رؤيتها في قصر سوفلاك. لا! فمنذ شهرين، التقىتها في لندن، وأخبرتني أنه من غير المرجح أن تتمكن من الحصول، وأنها يجب أن تعود إلى أمريكا، واستخدمت عبارةً غريبة: «يجب على سندريلا أن تغادر الحفل قبل منتصف الليل». هذه عبارة من الغريب أن تتفوه بها شابة تملك بئر نفط في كاليفورنيا. لم أفهم ما تعنيه.»

قال تيدون: «أنا مثلك. هل لها أقرباء؟»

«شقيقة متزوجة.»

«في أمريكا؟»

«نعم.»

«هل هي مخطوبة؟»

«لا أعتقد ذلك.»

زاد الإحباط البادي على وجه القاضي أكثر فأكثر. ثم قال في وجوم: «لا ريب في أننا يجب أن نجري تحقيقاً في إنجلترا، ولكننا سنحتاج إلى طرق الكثير من الأبواب. سيستغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل أن نحصل على إجاباتنا، وعندما نحصل عليها ...» ونهض واقفاً فارداً يديه في القفار، وقال: «هل يحدِّر بنا أن نبدأ العمل؟ هل عملت على قضية أصعب من تلك يا سيد هانو؟»

لم يطمئنَّه هانو. وأراد أن يضيف المزيد من التعقيبات إلى القضية. فقال: «لقد زادت صعوبتها بعدما اكتشفت السوار.»

صاح القاضي بحدة: «أي سوار؟ أي سوار؟»

«سوار جويس وبيبل الذي عُثر عليه في السلة منذ نصف ساعة.» قص هانو كيفية اكتشاف السوار، وكيف أن السيد ريكاردو حدد أنه يخص جويس، وأنه حدثه بطرح سؤالين لم يتمكن الرجالان الآخران من الإجابة عنهما.

«هل انزلق السوار من اليد المقطوعة دون أن يلحظه أحد؟ هل وضع في السلة عن عمد حتى يُعثَر عليه بعد بحث وتوجَّه أصابع الاتهام نحو جويس وبيبل؟ من يدرى؟» هز القاضي كتفيه في يأس، وقال: «لا أحد يعلم في الوقت الحالي.» ولكنه نظر نحو هانو واختفى العبوس عن وجهه وجعلته ابتسامة أمل وسيمًا، وقال: «ولكن دعنا لا ننسى أن معنا السيد هانو. وسنعرف كل شيء خلال بضعة أيام.»

أومأ الرجالان أحدهما إلى الآخر مرةً أخرى في ود مهذب رآه السيد ريكاردو أنه سخيف للغاية في ظل تلك الحيرة والفوبي. بعدما انتهت الإيماءات، تحرك القاضي ليدور من حول حافة الطاولة.

وقال ساماً لضيفيه بالانصراف: «وحتى يتحقق ذلك، هذا كل ما عليكم إخباري به ...»، ولكن قاطعه السيد ريكاردو.

فقد صاح في خوف دون أن ينهض من مقعده بينما كان الرجالان الآخران واقفين: «ولكن هذا ليس كل شيء يا سيدي.»

توقف القاضي فجأة. وقال: «الم يكن هذا كل ما تريد قوله؟»  
«لا، لم أخبرك بأنني استيقظت في تمام الثانية من صباح اليوم.»

حدث تغيير كبير في الغرفة لدرجة أن جوها نفسه تغير، وتغيرت تعبيرات وجهي الرجلين الآخرين في الغرفة. فقد كانوا منذ ثانية متحيرين وياشسين، ولكنهما أصبحا الآن يقطّين ومنتبهين. وأضحت الأجراء مشحونة. ولم يختلف حال السيد ريكاردو عن رفيقيه؛ فقد كان يقع على عاته الآن رواية القصة، وبالنسبة إلى هذين العقلين المدربين جيداً، يجب أن تكون قصته هي أشعة الشمس التي تُبدد الضباب. لم يستخدم سوى الكلمات البسيطة، وقالها بصوتٍ ثابت النبرة وواضح، وساعده في ذلك أن رفيقيه كانا يستمعان إليه محبوسي الأنفاس، وشعر للحظة غير مسبوقة بمثل ما يشعر به الفنان عندما يحقق نجاحاً. أخبرهما عن أرقه، ونظره في ساعته، ورفعه للستائر. وتخيلاً معه أنوار الطابق الأول وهي ترتعش في منزل روبن وبستر، والأنوار التي سطعت من نوافذ المنزل الأبيض فوق التل. وخرجما معه إلى الشرفة المظلمة وطرقوا الباب الزجاجي لغرفة البرج. ورأيا معه الأنوار خلف الستائر وهي تنطفئ على الفور، وعادا معه إلى غرفة نومه، وشاهدا معه أنوار النوافذ فوق التل وهي تنطفئ الواحدة تلو الأخرى. حتى بعدهما أنهى السيد ريكاردو قصته، ظل مستمعاه الاثنان واقفين في مكانهما لبرهة من الوقت، دون أن يتحرّكاً أو يتحدثاً، وكأنهما تعرضاً لصمة.

كان هانو هو من كسر حاجز الصمت، قائلاً: «وغرفة البرج التي تتحدث عنها؛ آه، أذكر جيداً تعاملك بلطف، ولكن، للأسف! لا مجال هنا للطف أو التحفظ؛ هي الغرفة التي حملت الآنسة ديانا تاسيورو إليها صباح اليوم.»

لم يجد السيد ريكاردو بدأ من الاعتراف. فقال: «نعم. إنها غرفتها». فضرب القاضي، من منطلق سخطه بسبب مدى صعوبة هذه القضية، سطح طاولته براحة يده اليمنى واستدار فجأة نحو النافذة خلفه. ووقف في مكانه ينظر إلى الشارع. ثم رفع يده إلى المزاج وبدأ يعيث به، وكان جسده يميل إلى الأمام والخلف، كان على وشك الجنون.

قال بصوتٍ خفيض مبحوح: «أؤكّد لك أمراً واحداً يا سيد هانو قد يساعدك. المنزل فوق التل هو منزل السيد دو ميراندول الذي التقى ليلة أمس يا سيد ريكاردو. إنه طالب شغوف، وعضو في الكثير من المجتمعات الثقافية، ومن المعട أن تظل الأنوار ظاهرةً عبر نوافذه حتى الفجر. ولكن ...» ثم استدار ليواجه الغرفة، وقال: «مهمتنا الأولى واضحة، أليس كذلك؟ العثور على تلك الفتاة جويس وبيل، إذا أمكننا ذلك. أنا أوكّل هذه المهمة لك

يا سيد هانو، وأثق تماماً بأنك ستؤديها على أكمل وجه. اعثر عليها من أجلي، سواء كانت حية أم ميتة.»  
«حية!»

خرجت تلك الكلمة من بين شفتي هانو في صورة صيحة عالية وعنيفة لدرجة أن صداتها تردد في أرجاء الغرفة. ووقف منتصباً، وعيناه تقدحان شرراً، وجسده الضخم من قمة رأسه حتى أخمص قدمييه أصبح تجسيداً للتحدي والإنتقام. حتى إن السيد ريكاردو، الذي رأى الكثير من حالاته المزاجية، جفل من فرط حماسته. كانت صيحته ملتهبة. إنه لا يعتقد بأن جويس وبييل ماتت. كان مستعداً لقتال الموت نفسه من أجلها، مثلاً فعل هرقل في المسرحية. حتى تيدون نفسه تأثر بمظهره.

فصاح مبتسماً: «جيد. هذه هي الروح المطلوبة. حية إذن! أنا أعتمد عليك. نعم، حية بالطبع. ففي نهاية المطاف، إننا لا نعرف شيئاً. ربما كانت العدالة تحتاج هذه السيدة الشابة». وتسللت نبرة قاسية إلى صوت تيدون.

ثم وقف منتصباً مثلاً فعل هانو مواجهاً له صامتاً. وتساءل ريكاردو عما إذا كان الرجلان ليسا على الجبهة نفسها. لا ريب في وجود لمحنة من التهديد في سلوك القاضي، ولمحنة من البطولة في سلوك المحقق. كان القاضي ي يريد «دليله القاطع»، وألا يجب نسيان ذلك. وعلى الجانب الآخر، ربما لم تكن فورة غضب هانو سوى تعبير عن شغفه في حل القضية على أكمل وجه، وتقديم جميع الجناة إلى العدالة. حتى هانو رأسه في احترام لا ريب فيه.

وقال: «سأبدل أقصى ما في وسعي..»  
دق تيدون الجرس، فدخل شرطي وقاد الزائرين إلى مدخل مبني المحافظة. نظر هانو نحو نوافذ مكتب القاضي التي كانت تعلو رأسه بقليل.  
وقال بنبرة تنم عن الاحترام فاجأت صديقه: «إنه رجل ذكي للغاية. تذكر كلماتي هذه! رجل ذكي للغاية! تذكر أنني قلت ذلك.»

ومجدداً، هل كانت هذه الكلمات تتبع عن احترام، أم عن اعتراض؟ لم يستطع السيد ريكاردو أن يقرّر، في الواقع، لم يتتوفر له الوقت الكافي ليقرّر. فقد أقدم هانو على ارتکاب مخالفة يتأنى منها الناس الحساسون الشديدو التدقيق. لقد أعطى لسانق السيد ريكاردو أمراً من دون أن يستأنذه.

فقد صاح وهو يدخل السيارة: «إلى قصر سوفلاك.»

فقال السيد ريكاردو معتراضاً: «هذه الرولز رويس سيارتني أنا». رد عليه هانو في بساطة: «حتى وإن كانت فورد. سيكون عليك أن تُقلنِي إلى قصر سوفلاك.»

قفز السيد ريكاردو على مقعده، وقال في برود: «أخشى أنك لا تفهم ما أقول.» قال هانو ضاحكاً: «بل أفهم!» ودفع إصبعه الضخم البدين بين ضلوع ريكاردو. وقال: «نعم، نعم، أنا أفهمك. إنه ذلك القاضي البارع هو من لا يفهمك. آه! آه!» وهز إصبعه في صدر ريكاردو كما لو كان يوبخ طفلاً سيء الخلق، وقال: «أنت تُخفي أسراراً عني؛ نعم، نعم. أنت تنتقي ما تقول وما تُخفي؛ نعم، نعم. ولكنني، هانو، أقول، لا، لا! لقد طرحت علينا سؤال، وعلى الفور أصبحنا نُشبّه عنزة جبل ذاهلة فوق تل.» قاطعه السيد ريكاردو شاعراً بالذنب: «محض هراء. لم أكن أُشبه عنزة الجبل. ولم أكن كذلك قط.»

واصل هانو حديثه: «كان السؤال كالتالي: «هل لاحظت ليلة أمس أي تغيير طرأ على الآنسة الفتاتنة تاسبورو؟» ولم تستطع أن تجيب السؤال. هذا يعني أنك لاحظت تغييراً يا صديقي؛ وستخبر هانو الفيل الفضولي العجوز عن هذا التغيير.» قال السيد ريكاردو: «أنا لا أمانع إخبارك، ولكن التغيير الذي لاحظته لا يمت بصلة للقضية.»

«دعني أنا أقرّر ذلك. من يعلم.»

«حسناً إذن. في لندن، كانت ديانا تاسبورو هي السيدة طوال الوقت. وكانت السيدة تاسبورو هي التابعة، مجرد وصيفة لا تملك أي سلطة. أما في سوفلاك، انقلب الأمور. أصبحت السيدة تاسبورو هي سيدة القصر، وأصبحت فظةً للغاية، وكثيرة المطالب للغاية، وأصبحت ديانا وصيفةً خاضعة خانعة. وأنهلي هذا التغيير.»  
«أوه!»

اعتدل هانو في جلسته داخل السيارة.

وقال: «ولكن هذا تغيير مهم يا صديقي، تغيير مهم للغاية. دعنا نحاول فهمه. لقد منح شيء ما المرأة المسنة سلطةً على ابنة أخيها. ربما عرفت شيئاً منحها هذه السلطة، أليس كذلك؟ ربما كان الأمر ابتزازاً عائلياً يحدث بكل هدوء وأناقة، أليس كذلك؟» أجابه السيد ريكاردو: «لا.» كان واثقاً بأن هذا التفسير ليس صحيحاً. واستغرق بعض لحظات ليُكون الكلمات التي تمكّنه من التعبير عمّا يشعر به. ثم قال: «أعتقد أن

ديانا كانت مشغولةً بفكرة ملكت وجданها. فكما ترى، لم يكن ثمة أي منافسة بين ديانا والصيّدة تاسبورو؛ لا يوجد أي صراع على السلطة. فقد امتلكتها ديانا من دون معارضة، وقبلت الصيّدة تاسبورو دون معارضه. يبدو لي أن ديانا تخلّت عن هذه السلطة لأنها لا تستحق العناء، وأنها تسبّب لها الكثير من المشكلات، ولأنها تتداخل بطريقة ما مع الأمر الذي يستحوذ على وجданها. واستغلّت الصيّدة تاسبورو ذلك واستحوذت على كامل السلطة. لطالما كانت ديانا انطوائةً إلى حدٍ ما، وبذا لي ليلة أمس أنها لم تلاحظ حتى إنها لم تعد الملكة، بل أصبحت الوصيّفة.»  
«آه!»

جاء هتاف هانو تعبيرًا عن الفهم وليس الدهشة. ثم أضاف في هدوء: «هذا التغيير أثار اهتمامي للغاية.» ثم عاد ليسند ظهره مجددًا في مقعده ويجلس صامتًا حتى توقف أمام المر المسقوف الوردي في قصر سوفلاك. حينئذ، عادت له الحياة مجددًا. وقال وهو يقفز إلى خارج السيارة:

«سأكون ممتنًا لك لو دخلت المنزل قبلي وأخبرت الجميع بعودتنا. ربما تكون الآنسة تاسبورو أول من تلتقيه. لقد سبّبت قدرًا كبيرًا من المعاناة لهذه الشابة. وربما تصدم إذا وجدتني واقفًا أمامها مجددًا على حين غرة.»

كانت ثمة أوقات يُظهر فيها هانو قدراً مدهشاً من الرقة. فحدث السيد ريكاردو نفسه بفخر قائلًا: «في نهاية المطاف، أحدثت صداقتنا الطويلة تغييرًا فيه نحو الأفضل.» وافق ريكاردو على خطبة هانو بلا تردد، واتجه نحو باب المنزل بمفردته. ولكنه لم يكدر يصل إلى منتصف الطريق المؤدي إليه حتى استدار ورأى أن هانو قد دخل في محادثة مع سائق ريكاردو. اتّخذت أفكار ريكاردو مساراً مختلفاً وانتقادياً.

فكان يفكّر في تلك اللحظة: «لقد استولى على سياري، والآن سائقي! إنه يتصرف وكأنه يمتلكهما! لا ريب في أنني لست إقطاعيًّا، ولكن حتى الحرريات الدنيا لها حدود.» أراحته سخريته قليلاً، ولكنه استدار مرة أخرى عندما وصل إلى الباب الأمامي. وكانت المحادثة عند المر المسقوف لا تزال قائمة. واتضح للسيد ريكاردو أن هانو أرسله إلى المنزل قبله، ليس من منطلق رقة مشاعره، بل ليُوفر لنفسه الفرصة كي ينفرد بسائقه في محادثة خاصة. لذا، انتظر في الشرفة حتى لحق به هانو، وكانت قَسَمات وجهه تنم عن الكثير من العجرفة والاستياء. ولكن لوح هانو بيده في حالة من اللامبالاة.

«أعرف، أعرف يا صديقي. لقد كانت حيلة. نعم، إن أخلاقي في حالٍ يُرثى لها. ولكن يجب أن تتقبّلني كما أنا. فكما تقول العبارة الاصطلاحية، كل إماء بما فيه ينضح.»

## الفصل التاسع

# مَنْ إِيْفِيلِينْ دِيفِينِيشْ؟

ظل هانو مشغولاً طوال نصف ساعة مع المفوض هيربستال ومساعده مورو، في غرفة خُصّصت لهم. ترك السيد ريكاردو بمفرده، وبدأ يدخل في متاهة من الشكوك، والتخمينات، والظنون، والجهل، وتناول غداءه وجلس في المكتبة أمام النافذة. في منتصف المسافة بين الشرفة وسياج الشجيرات عند الجزء الأدنى من الحديقة، وقف شرطي عند حافة حوض زهور مستدير. كانت ثمة ثلاثة كومات صغيرة من التراب على سطح حوض الزهور، كما لو أن حيوان خُلد كان يحفر هناك، وعندما فُكَر جوليوس ريكاردو في هذا الحيوان النشيط شعر بالانزعاج وهبط عليه إلهام. فأخذ ورقةً من على حامل الورق ليرسم جدولًا يُنظم فيه أفكاره. رسم خطًّا فاصلًا من قمة الورقة إلى قاعدتها يقسمها نصفين، ووضع الحقائق، التي عرفها حتى تلك اللحظة، على اليسار، ووضع التساؤلات والشكوك على اليمين. بعد نصف ساعة من اللهاث وإمعان الفكر، كتب الخلاصة الآتية، وفوقها كتب العنوان التالي: «قضية قصر سوفلاك»:

### قضية قصر سوفلاك

(١) ثمة جريمة. فالنساء الشابات لا يطعنن أنفسهن في القلب، ويقطعنن أيديهن، ويضعنن أنفسهن في سلال، ويلقين السلال بجثثهن وكل شيء في النهر دون مساعدة. هذه حقيقة. (٢) الضحية امرأة شابة تُسمى إيفيلين ديفينيش، وهي امرأة متزوجة أو كانت متزوجة، ولكنها لا ترتدي خاتم زواج.

من المهم اكتشاف تاريخ إيفيلين ديفينيش السابق في أسرع وقت ممكن.

(٣) حتى هذه اللحظة، لم يُكتشف أو يُرجح دافع للجريمة.

(٤) حتى هذه اللحظة، لم يُعثر على اليد المقطوعة.

السؤال (أ): لم قُطعت اليد بعد الوفاة؟ أو لم قُطعت من الأساس؟

(٥) اختفت ضيفة أخرى من قصر سوفلاك في الليلة نفسها، فتاة أمريكية تُسمى جويس ويبيل، وعثر على سوار ذهبي كانت ترتديه في السلة مع جثة إيفيلين ديفينيش. وهو أمر غير عادي.

السؤال (ب): هل كانت جويس ويبيل حاضرةً أثناء وضع جثة إيفيلين ديفينيش في السلة، وانفكَ السوار من يدها وقع في السلة دون أن تلاحظه في تلك اللحظة المريعة؟

(٦) أكدت لي ملاحظاتي أن إيفيلين ديفينيش كانت تضمر شرًّا تجاه جويس ويبيل، وكانت ستُسر لو رأتها ميتة. وفقًا لتلك الملاحظة، فإنه من المحتمل أن تُقتل جويس ويبيل بيد إيفيلين ديفينيش لأن تُقتل إيفيلين ديفينيش بيد جويس ويبيل.

(٧) عندما انفلتت من إيفيلين ديفينيش نظرة كراهية كشفت عن مشاعرها تجاه جويس ويبيل، كان روبن ويبستر يجلس بالقرب من جويس ويبيل بطريقة تنم عن الحب.

(٨) عندما اكتُشف اختفاء جويس ويبيل، خرجت من بين شفتي روبن ويبستر صرحةً تنم عن الحزن واللوعة.

النقطتان (٧) و(٨) ربما تشـكـلان دافعًا لقتل جويس ويبيل بيد إيفيلين ديفينيش، إن كانت الفتاتان تتنافسان على الشاب. ولكن لا يوجد دافع لقتل إيفيلين ديفينيش بيد جويس ويبيل؛ فقد كانت جويس ويبيل هي المنتصرة.

(٩) بما أن فراش إيفيلين ديفينيش كان مرتبًا، ولم يكن ثمة أي ضوابط في المنزل، فيبدو أنها خرجت من المنزل وقتلت خارجه.

ولكن متى حدث ذلك؟ الأنوار التي رأيتها مضاءً في المنزل الأبيض فوق التل كانت في الثانية صباحًا، وفسرها لي قاضي التحقيقات.

(١٠) يبدو أن جويس ويبيل لم تنم في غرفتها أيضًا، وأصبح ضروريًا وضع موقفها في الاعتبار في هذه القضية.

(١١) يمكن تفسير حديثها الأول معي في لندن عن الخطابات التي تصلها من بيانا، كما قال هانو، كالتالي:

(أ) كانت تريد أن تجهزني لما سيحدث في قصر سوفلاك لغرض لا يعلمه أحد سواها.

(ب) كانت امرأةً هيسطيرية.

من إيفيلين ديفينيش؟

(ج) كانت تقول الحقيقة.

فيما يتعلّق بالنقطة (أ)، قد يتقدّمها تيدون قاضي التحقيقات. ولكنّه يريد فناعةً لا ريب فيها.

فيما يتعلّق بالنقطة (ب)، لم تكن امرأةً هيستيرية.

فيما يتعلّق بالنقطة (ج)، لا يمكن الاستهزاء بالمخاطر. هذه حقيقة.

(١٢) من المفترض أن تكون جويس ويبل فتاةً أمريكيةً ثريةً. ولكنّها وصفت نفسها بأنّها سندريلا.

(١٣) ربما اختطفت.

لماذا؟

(١٤) ربما هربت.

لماذا؟

(١٥) لا تزال هناك ديانا تاسبورو للتفكير في أمرها. لقد بدّت ذاهلةً ومرعوبةً عندما علمت بمقتل إيفيلين ديفينيش واختفاء جويس ويبل.

النساء المجرمات ممثّلات بارعات. جميع السلطات الشرطية متّفقة على ذلك.

(١٦) تدل طاعتها العميماء لعمتها أن لديها حاجساً كبيراً. حقاً.

(١٧) إنها تضع لوحةً فوق فراشها أوحت لها نو بفكرة.

تذكرة. يجب أن أرى هذه الصورة في أقرب وقت ممكن.

(١٨) كان ثمة نور مضاء في غرفتها في الثانية والنصف صباحاً. وعندما طرقت على زجاج الباب، انطفأ النور على الغور.

أمر مثير للشك للغاية.

(١٩) في ضوء الصعوبة الكبيرة لهذه القضية، يجب الكف عن إلقاء أحكام، ولكن يجب وضع بعض الأسئلة في الاعتبار.

نعم، مثل (أ) لماذا قُطعت يد إيفيلين ديفينيش؟

بينما كان السيد ريكاردو يكتب هذه الكلمات الأخيرة العديمة الجدوى، سمع صوت هانو يصدر من فوق رأسه.

قال: «ها نحن ذا! كفنا عن إلقاء الأحكام! اطمئن. ماذا يمكننا أن نفعل عندما لا تكون ثمة أحكام للكف عنها؟ ويجب وضع بعض الأسئلة في الاعتبار. أتفق معك تماماً في ذلك.»



قائمة السيد ريكاردو.

احمرَ وجه السيد ريكاردو غضباً، ورفع عينيه نحو هانو في غطربة، وقال: «لقد دُونت هذه الملاحظات لإرشادي أنا وحدي..»  
«إنها أمامي، وهي قيمة وكأنها كُتبت لإرشادي أنا..»  
«لقد قرأتها من فوق كتفي دون أن تستأذن..»  
قال هانو في هدوء وهو يمد يده ويجمع الأوراق: «لم أكن أقصد ذلك. هل تسمح لي؟ بالطبع تسمح! يا له من سؤال!»  
لا ريب في أن السيد ريكاردو كان ينوي عرض هذا المُلْحِص السريع لأفكاره غير المحسومة على هانو في وقت ما. فقد أدرك أن محقق جهاز الأمن العام يحتاج إلى أكبر

قدر ممكн من المساعدة من أصدقائه قبل أن يتعقّل في تلك المعضلة الصعبة. كما أنه كان سعيداً بملحوظاته. فقد كان شكلها مع ذلك الخط الفاصل يحمل نكهّة أدبية. ثمة بعض الصفحات من رواية روبيسون كروز و تحكم على «المزايا» و«العيوب» بناءً على معايير العدالة نفسها. ولكن هذا لم يمنع شعوره بالتوتر بينما كان يراقب هانو وهو يقرؤها. كان قد تعرّض للسخرية والحط من قدره بطريقة قاسية من قبل. وكان مسروراً لما رأى صديقه يقرأ الملاحظات ببطء وعلت وجهه نظرهُ جادة. وبعدما فرغ هانو من القراءة، طبّق الورق وأعاده إلى ريكاردو وابتسمة تقدير تكسو شفتّيه.

وقال: «يحدرك أن تضعها في جيبك، وأن تحفظ بها في مكان آمن حتى لا يراها أحد سوانا. أؤكد لك يا سيد ريكاردو أنك تقريباً كتبت في هذه الأوراق أهم سؤال على الإطلاق.»

كان السيد ريكاردو من جانبه يشعر بأنه لم يكتب سؤالاً واحداً مهماً، بل الكثير من الأسئلة المهمة، ولا يمكن استخدام كلمة «تقريباً» في طريقة كتابته لها. فقد كانت أسئلة مباشرة، وموجزة، وبليغة. ولكن، لا ريب في أن هانو لم يكن ليقرّأ أبداً بتميز أحد عليه. فقد كان ذلك بعيداً كل البعد عن طبيعة تفكيره. كان ريكاردو معتاداً على تجاهل هذا العيب في شخصية صديقه الحق، فابتسم بطف.

وقال: «لا ريب في أنك تقصد السؤال عن سبب قطع يد إيفيلين ديفينيش بعد وفاتها». ولدهشة ريكاردو، هز هانو رأسه نفياً بقوّة، وقال: «لا، إنه سؤال مهم، في الحقيقة، نعم، ولكنه سؤال بَدَهي للغاية.»

أخرج السيد ريكاردو ملاحظاته من جيبه وبدأ يدرسها بتدقيق شديد. ثم قال: «إذن، لا بد أنه السؤال عن تاريخ إيفيلين ديفينيش الماضي.» ولكنه كان مخطئاً هذه المرة أيضاً.

«لا. السؤال الذي طرحته أكثر ذكاءً من ذلك. بالنسبة إلى ماضي السيدة ديفينيش، فإنه يندرج ضمن الأمور الروتينية. من المؤكد أنه يحدرك بما أن نعرف عنه معلومات موثوقةً على الفور، لقد تعافت الآنسة تاسبورو من صدمة الأخبار السيئة التي أخبرتها بها، وأصبحت قادرةً على استقبالنا.»

فتح هانو مزلاج الباب الفاصل بين المكتبة وغرفة الاستقبال وعبره مع ريكاردو مسرعين. ولكن كانت الغرفة فارغة، وتوقف هانو فجأة. كانت النوافذ المطلة على الشرفة

مفتوحة، واقترب منها هانو بخطواته التي لا صوت لها ونظر عبرها إلى الخارج بحذر. ثم عاد إلى السيد ريكاردو بابتسامة غريبة مرسومة على شفتيه.

وقال بصوٍتٍ منخفض: «كان من الأفضل أنني لم أقرأ ملاحظاتك بصوٍتٍ عالٍ يا صديقي. ما الذي تحدّثنا عنه؟ نعم، يد إيفيلين ديفينيش المقطوعة وماضيها، هذا كل ما تحدّثنا عنه».

بدا جلياً أنه أصبح مطمئناً؛ فقد رفع صوته قليلاً لأعلى مما اعتاد عليه.

«لا ريب في أننا سنجد تلك الشابة في الشرفة،» ثم خطأ عابراً النافذة.

ادرك السيد ريكاردو سبب قلق هانو عندما تبعه. فقد كانت ديانا تجلس على مقعد حديقة بجانب نافذة المكتبة المفتوحة، ومن المؤكد أنها سمعت كل كلمة قالها. ولكنها رفعت رأسها من دون أن تبدو عليها ذرة إخراج. على الرغم من شحوب وجهها، تمكّنت من استعادة حسن تعاملها، ورسمت على وجهها شبح ابتسامة. ولكن عينيها كانتا لا تزالان تُطلُّ منها تلك النظرة التي لا تخطئها العين، نظرٌ مرضٌ عضال أو ضيق لا مثيل له.

قالت: «أعتذر عما بدر مني من حماقة صباح اليوم يا سيد هانو.»

«أبداً يا آنسة، أنا من يجب أن يعتذر. إن هذا الخبر المفاجئ القاسي عن اثنتين من أفضل صديقاتك، إداهاماً ترقد جثةً مشوهةً في مشرحة عامة، والأخرى اختفت، من شأنه أن يفقد أي أحد وعيه.»

كان هانو يتحمّل بطريقة رسمية أصبحت ضمن طباعه، ولكن كان السيد ريكاردو يرى أنه يكرر الخطأ الذي اعتذر عنه سابقاً. ردّت عليه ديانا ببعض التردد: «أنت تقول اثنتين من أفضل صديقاتي يا سيد هانو. ولكن في مثل هذه الأمور الشديدة الخطورة، من الأفضل أن نتحرّر الدقة. سأعترف لك بأنه عندما أخبرني مساعدك بأن الفتاة التي ماتت هي إيفيلين ديفينيش، وعلى الرغم من أنني سأبدو متبلدة المشاعر؛ فقد أحسست براحة غامرة. فجويس واحدة من أعز صديقاتي.»

ردّ عليها هانو برفق: «من قد يلومك يا آنسة؟ دعونا نُقر بأننا بشر رغم كل شيء.»

«مساعدك، السيد ...»

تدخل هانو عندما لم تستطع تذكّر الاسم، قائلاً: «مورو.»

«نعم. أخبرني السيد مورو في الوقت نفسه بأنك تريدين رؤيتي. ألم تجلس؟ وأنت أيضاً يا سيد ريكاردو.» التفت نحوه للمرة الأولى خلال هذا اللقاء، وعلى الرغم من الابتسامة الشاحبة على شفتيها، كانت تُطلُّ من عينيها نظرةً قاسية كالحديد عندما التقت أعينهما.

قال ريكاردو ببعض الارتباك: «هذا إن لم أكن أعيق حديثكم». لم يكن ثمة شك في سلوكها العدائي تجاهه. كانت تراه متطفلاً يتعلّق بذيل محققه المحبوب ويدسُّ أنفه في أمور شديدة الأهمية يجب ألا يعرفها شخص تافه مثله. ردَّت عليه ببرود: «السيد هانو هو من يمكنه أن يحدِّد مَن يعيق المحادثة ومن لا يعيقها». ثم هبَّ هانو لنجدته الرجل المسكون.

وقال بنبرة احتجاج لطيفة لم تُحب عليها ديانا تاسبورو: «لقد ساعدني السيد ريكاردو صباح اليوم في أكثر من اتجاه».

جرَّ الرجلان مقعدَي حديقة حديديَّين بالقرب من أريكة ديانا وجلاسا. ردَّ عليها هانو برفق: «مَن قد يلومك يا آنسة؟ فهمت من حديثك أن تلك السيدة الشابة ديفينيش ليست من صديقاتك المقربات، ولكنها حلت ضيافةً عليك هنا، ولا ريب في أنك تعرفي شيئاً عن ماضيها».

التفت نحوه وقالت: «بالطبع». ولكنها ظلَّت صامتةً لدقائق على الأقل تنظر إلى هانو متأنِّلةً وإلى السيد ريكاردو وكأنه غير موجود، ثم تنظر إلى هانو مجدداً.

تابعت ديانا حديثها في اندفاعه مفاجئةً: «أريد منك أن تصون ذكرها قدر الإمكان. فقد لاقت الأمرَّين خلال السنوات الأخيرة من حياتها. وهذا هو السبب الذي دفعني لأن أطلب منها الإقامة معي في سوفلاك هذا العام. إنها ابنة دينيس بلاكيت، رجل مال ذي مصالح واسعة وثروة هائلة، وصديق جيد للغاية، على ما أعتقد، وكحال الكثير من الرجال الذين يكونون أصدقاء جيدين للغاية، كان عدواً لا يعرف الرحمة. لا أعتقد أن إيفيلين كانت حسنة الحظ منذ بداية حياتها».

سألتها هانو: «هل كان يكرهها؟

«بل على النقيض، كان يعشقها. تُوفيت والدتها عندما كانت في السادسة أو السابعة من عمرها، وهي طفلة وحيدة نشأت وسط المرببات والخدم الذين كانوا مكرّسين للتلبية جميع نزواتها وإلا يُطردون من عملهم. جعلها دينيس بلاكيت معبودته. فقد أطلق على يخته اسمها، وكذلك على مُهرته المميزة، وعلى بقرته من نوع جيرسي الفائز بجوائز، وعلى نوع من زهور الأوركيد من ابتكاره، وحتى عندما كانت طفلةً صغيرةً، كانت تجلس على رأس مائتها. كان يُطري على جمالها في وجهها. كان كل ما تقوله مميِّزاً، وكل ما تقوله ذكيًّا. لم يكن كل ذلك أقصى تعبير منه عن عشقه لها. كان ثمة شيء ما عجيب، حتى هذه الكلمة لا تعبر عمّا أعني! كان ثمة شيء غير طبيعي. نعم، كان دينيس بلاكيت، رغم

صرامتها العملية، يتصرّف بسخافة في وجود إيفيلين. سأضرب لك مثلاً. وقد رأيته يحدث بنفسه، فقد أقمت في منزله ذات مرة ...» ثم صمتت ديانا فجأة. وعادت تقول: «ولكنك تريد بالطبع أن تحدّث عن الزواج وليس عن هذه التفاهات».

قال هانو برجاء صادق: «لتحدّث عن الزواج بعد ذلك، نعم. ولكن تحدّثي عن هذه التفاصيل أولاً، من فضلك. أنتِ ترين أنها تفاهات يا آنسة. أما أنا، فلا أفعل. هذه التفاهات تساعدني على صُنْع صورة للشخصية. وكيف ستنتمّك من التوصل إلى الحقيقة في قضية غامضة للغاية مثل تلك إلا إذا درسنا شخصيات المتورطين فيها، فما كانوا عليه في الماضي هو ما أصبحوا عليه حالياً».

قلما رأى ريكاردو هانو متلهفاً ومُصرّاً بهذه الدرجة مثلاً هو الآن. فجلس منحنياً مسنداً مرفقيه على ركبتيه، وكان وجهه بملامحه القوية ووضعيته جسده المنتبه يطالبان أن تبدأ ديانا حكايتها، فقال: «أخبريني بالمثال من فضلك». «أومأت ديانا برأسها موافقةً وواصلت حديثها قائلة: «حسناً، إليك المثال. كان دينيس بلاكيت يمتلك منزلًا ضخماً في مورفين على لسان مول البحري. كان المنزل يحتوي على سلم عالٍ ذي درجات قصيرة عريضة من خشب البلوط الأسود الدامع. كان يهوى ... لا، فكلمة يهوى أقل كثيراً من التعبير عن شعوره ... كان شغوفاً برؤيه إيفيلين مرتديةً أجمل ملابسها وهي تهبط هذا السُّلم برقه. كان يقف عند قاعدة السُّلم في بهو المنزل، ويُصحّح لها خطواتها، كما لو كان مدرب رقص. وإذا ما خطت خطوةً غير سليمة أو أومأت بإيماءة غير مريحة، كان يرسلها إلى قمة الدرج مجدداً ليُعيد الكرة من بدايتها. لا ريب في أنها كانت تُسر العين؛ فقد كانت رشيقه، ويانعة، وشابة، وكانت تلمع في ملابسها الجميلة وسط الخلفية السوداء، ولكن جعلني المشهد برمته - ماذا يجدر بي أن أقول؟ - غير مرتاحه. رأيت أن كل ما يحدث خطأ. هل تفهم ما أقصد؟»

أجاب هانو: «نعم».

«عليك أن تفهم أيضاً أن إيفيلين كانت ستثبت كمالاً بأجنحة فضية لو لم تنشأ مغروبة، وعنيدة، ومستعدةً لدفع ثمن حماقاتها أيّاً كانت الطريقة التي تُسدد بها هذه الحماقات. كان عيد ميلاد إيفيلين الحادي والعشرون في شهر أغسطس. أحضر دينيس بلاكيت جمعاً غفيراً من أصدقائه في مورفين للاحتفال بهذه المناسبة. ظل المنزل مزدحماً بالناس طوال أسبوع كامل قبل موعد عيد ميلادها. كانوا يصطادون الطيور في النهار، ويرقصون في الليل، ويقيمون احتفالات مبهجة. كنت حاضرة، ولم أتخيل أن رجلاً قد يكون سعيداً وفخوراً بدرجة تصاهي سعادة وفخر دينيس بلاكيت. وفي صباح يوم ميلاد

إيفيلين. أرسلت رسالة إلى كل ضيف من ضيوفه عند موعد الإفطار، ولكن لم يره أحد، وبحلول عصر ذلك اليوم، كان المنزل فارغاً ولم يبق سواه. ففي ساعة متأخرة من الليلة السابقة، تسللت إيفيلين برفقة جولييان ديفينيش، شاب كان يدين بكل شيء إلى بلاكيت، إلى المרפא الصغيرة في اللسان البحري، وأبحرا في قارب صغير إلى أوبان وأخذوا أول قطار إلى لندن، حيث تزوجا.»

قاطعها هانو قائلاً: «ولم يغفر لها السيد بلاكيت هذه الخيانة قط.»

«البطة. قلت لك إنه عدو لا يعرف الرحمة. وطرد إيفيلين من حياته كاملة. وظل يعيش بمفرده في منزله الضخم في مورفين حتى أواخر فصل الخريف. ثم عاد إلى لندن، وبدأ العمل من أجل تحقيق هدف واحد، وهو تدمير ديفينيش. آه، لم يكن الأمر صعباً، ولم يستغرق مدة طويلة. إذا ما تاجرت مع ديفينيش، فلن تُناح لك فرصه التجارة مع دينيس بلاكيت. إذا ما اهتممت بأي من أعمال ديفينيش، كنت ستجد أسهمك تترنح من يوم إلى آخر حتى تنتهي تماماً. وبدأ المنزل الصغير الفاخر في حي مايفير يتلاشى شيئاً فشيئاً. ثم انتقل إلى أحد الأكواخ الحمراء في سربيتون. وهذا أيضاً يتلاشى، وأصبحت شقة مكونة من ثلاثة غرف في سيدنها姆 هي منزل الفتاة ذات الفساتين اللامعة ودرج خشب البلوط في مورفين. وبالطبع، نشبت بينهما شجارات لا تنتهي، وكان كل منهما يلقي باللوم على الآخر. وفي خلال عام، كان ديفينيش قد أفلس وأطلق النار على رأسه.»

أضاف هانو: «حتى هذا لم يكن كافياً». كانت هناك نبرة من الإعجاب المتردد في صوته. لطالما عاش وسط عقول المجرمين المتقلبة والماروغة، لدرجة أنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن احترام الإتقان، حتى لو كان إتقاناً في القسوة.

وافت ديانا على ما قال: «نعم، هذا لم يكن كافياً. راسلت إيفيلين والدها. كانت قد أصبحت فقيرة معدمة. وجاءها الرد من قبل موظف وخطاب مكتوب بالآلية الكاتبة. إذا ما قبلت العرض، فستحصل كل ثلاثة أشهر على ١٢٥ جنيهًا لما تبقى من حياتها. كان هذا منذ ثلاث سنوات. كان العيش في أوروبا بالنسبة إلى إيفيلين أرخص من العيش في إنجلترا. فസافرت، والتقيتها للمرة الأولى منذ حفل عيد ميلادها في اسكتلندا، هذا الصيف في بياريتز.»

«هل كانت — أرجو أن تعذرني على هذا السؤال — وحيدة؟»

«وحيدة تماماً.»

«ولقد التقيتها مصادفة في كازينو، أليس كذلك؟»

بدا أن ديانا كانت على وشك أن تقول «نعم»، ولكنها عادت لتفكير للحظات ثم أجبت: «لا، دعني أتذكر. من المؤكد أنني لم أتقها في كازينو. أظن أنها التقينا في ملعب جولف. كانت تقطن في سكن في حي رخيص من المدينة، وطلبت منها أن تقيم معي ثم أحضرتها معي إلى هنا».

قال هانو بانحناءة يسيرة من رأسه: «كان هذا كرماً كبيراً منك يا آنسة. والآن، أخبريني عن صديقتك المقربة الحقيقية، الفتاة الأمريكية، جويس ويبل».

لَوَّحت ديانا تاسبورو بذراعيها فوق رأسها دلالةً على إحباطها. وقالت: «قد يبدو الأمر غريباً يا سيد هانو، ولكن ما أعرفه عن صديقتي المقربة الحقيقية أقل بكثير مما أعرفه عن تلك المرأة التي تربطني بها معرفة سطحية. ما أعرفه عنها هو أنها وشقيقتها وحيدتان في العالم، وأنهما جاءتا من أمريكا منذ عامين، وأنهما تمتلكان بئر نفط في أرضهما في كاليفورنيا، وأن شقيقتها تزوجت مؤخراً وعادت إلى أمريكا، ولا أحد في العالم يعرف عنها أكثر مما أعرف. لطالما كانت جويس كتومةً فيما يتعلق بحياتها؛ حتى معي. كانت تحمس كثيراً للحديث عن أي شيء تفعله وتراه هنا، وعن الأشخاص الذين تلتقيهم. ولكن لم أكن أستطيع حملها على التحدث عن حياتها أو وطنها».

وافقا هانو قائلاً: «نعم، هذا غريب»، ولم يُثقل ديانا بالمزيد من الأسئلة. ثم نهض من مقعده وقال في امتنان: «يُجدر بي أنأشكرك يا آنسة. فإن ما أخبرتني به سيفيدني كثيراً. ثمة أمر بسيط أريد أن أوصيك به في المقابل. يُجدر بك أن ترسل برقيات إلى أمريكا وإلى هذا السيد القاسي بلاكيت ...» ثم قطع وصيته لها لكي يقول: «أتعلمين، أحس بتعاطف كبير مع هذا الرجل العنيد؟ لقد كرس حياته من أجلها، ولم يتلقَ في المقابل إلا الخيانة أولاً، ثم هذه النهاية المأساوية. سيكون من الأفضل أن يسمع الخبر منك قبل أن يعرف من الصحف. لذا، أوصيك يا آنسة بأن تستقل سيارتك وتذهب إلى سوفلاك بعيدون عن الصحف. لذا، أوصيك يا آنسة بأن تستقل سيارتك وتذهب إلى بوياك أو مكتب التلغراف الأقرب أياً كان، وترسل الرسائل بنفسك. فهذا سيمنحك آنسة شيئاً تشغل به وقتها».

حدَّقت به ديانا بعينين ذاهلتين. ثم برقت عيناهما واندفع الدم سريعاً إلى وجهها. فعلق هانو مبتسمًا. قال: «آه، يبدو أنك سعيدة بأنني طلبت منك توقي هذه المهمة». ردَّت عليه في ارتباك يملؤه الحماس: «سعيدة، لا، بل مسرورة — نعم — كثيراً. لم أعد أطيق الجلوس بلا جدوى في هذه الشرفة أنظر إلى نهر جيرون، وهذا الحراس بجانب



«أُخبرني عن صديقتك المقربة الحقيقة، الفتاة الأمريكية، جويس ويبل.»

حوض الزهور، من دون أن أفعل شيئاً والأفكار تدور في رأسي بلا توقف! هذا مريع! أشكرك! سأحضر قبعتي». نهضت من مقعدها وقد عادت الحياة تدب في أوصالها، وعَدَت عبر النافذة المفتوحة إلى داخل غرفة الاستقبال.

سار السيد ريكاردو إلى نهاية الشرفة مشغولاً بأفكار تتصارع داخل رأسه. كان يُحس بكراهية ديانا واحتقارها له، ومن ثم أصبح يميل لأن يراها بطريقة سيئة. من جانب آخر، كان شخصاً متشكلاً بطبعته، وأثار ارتياحها الطاغي أفكاراً معينة داخل ذهنه. ومن ثم، كان متحيراً بين أن يحدّر هانو من خلال أن يطرح عليه سؤالاً غير مباشر على غرار: «هل من الحكمة أن تدعها تذهب من دون حارس يكون معها في السيارة

حراستها؟ أو أن يهنت على مراعاته الرقيقة. ولكن تغلبت طبيعة السيد ريكاردو عليه، فقال مشجعاً هانو بمجرد أن انضم إليه: «كانت هذه لفتة رائعة منك يا صديقي». أجابها هانو: «نعم، كانت هذه لفتة رائعة مني».

«من شأن الخروج بالسيارة في الهواء الطلق أن يُفيدها كثيراً».

قال هانو مبتسماً: «نعم، نعم، ولن يكون في المنزل سوانا، وهذا سيُفيدها كثيراً أيضاً». التفت السيد ريكاردو نحوه ذاهلاً. إذن، كان هذا هو الهدف الذي قام من أجله بكل هذا التظاهر ببرقة المشاعر! ولكنه لم يقل شيئاً لانتقاد هذا الخداع. بل وقف مكانه مشدوهاً. فقد كان ينظر داخل غرفة الاستقبال ورأى رجلًا يتحدث إلى ديانا. كان الرجل يقف مولياً ظهره إلى النافذة الطويلة، والقسم الأكبر منه يختفي في ظل الغرفة؛ لذا كان من السهل أن تخطئه العين. ولكن لم تراود السيد ريكاردو أدنى ذرة من شك.

قال هاماً: «لقد حضر في نهاية المطاف».

سأل هانو وهو يتجه ناحية النافذة: «من تقصد؟»

«هناك، انتظر! إنه قاضي التحقيقات، السيد تيدون».

قال هانو ببطء وبصوت جاف: «آه! أنت ترى أنه السيد تيدون، أليس كذلك؟» وفي تلك اللحظة، استدار الرجل ليواجهه.

لم يكن الرجل قاضي التحقيقات على الإطلاق، بل كان السيد روبن ويبيستر، مدير كروم العنبر. سار الرجل نحو النافذة.

وقال: «سيد هانو، إذا كنت في حاجتي، فسائل الآنسة تاسبورو إلى بوياك. يمكن أن يستمر العمل في الأحواض من دوني. هناك مشرفون خبراء في العمل». ثم نظر إلى ذراعه المعلقة في رقبته بحامل و قال: «أعتقد أنه لا يجدر بي أن أقود سيارة بسبب يدي المصابة. ولكن بعد الصدمة التي تلقّتها الآنسة تاسبورو هذا الصباح، لن أطمئن لأن تقود السيارة بنفسها دون مرفق. لا أريد وقوع أي مأساة أخرى في قصر سوفلاك».

ردد هانو بأسلوب في غاية الود واللطف: «أفهم ذلك جيداً يا سيد ويبيستر. عليك أن توصل هذه الشابة إلى بوياك وتتساعدها في إرسال البرقيات. وبالنسبة إليك، أرجو ألا تعتقد أني وقح. لا، ولكنني سمعت صرختك القصيرة الملتاعة صباح اليوم. يجب ألا نفقد أعصابنا، أليس كذلك؟ سنحاول أن نعثر لك على صديقتك ذات الاسم الجميل». وربت على كتف روبن ويبيستر بود.

قال ويبيستر متظاهراً بالاطمئنان: «لن أفقد أعصابي». ولكن كانت قسمات وجهه تفصح ألمه وحزنه. ثم صاح بصوت خفيض: «ولكن، با الله عليك، أسرع! أسرع! لقد أصبح

كلَّ من في هذا المنزل على شفا الانهيار». ثم تمالك أعصابه سريعاً، واحمرَّ وجهه كحال الرجال عندما يُضيّطون وقد فضحتهم انفعالاتهم.

قال هانو في جدية: «أخشي أيضاً أن تسبّب لك يدك المجرورة ألمًا مبرحاً».

ردَّ روبن ويبيستر بهزة من كتفه: «إنها تتبع حقاً، مثلاً تفعل جميع الجروح ولكن لن يستمر ذلك إلا ليوم أو يومين. إذا كانت هذه هي أكبر مشكلتنا، فلا حاجة بنا للتفكير فيها». ثم تحول إلى موضوع آخر، وقال: «أرجو أن تتحدث إلى السيد المفوض هيربستال ليسنح لنا بإخراج السيارة من المرأب».

تراجع هانو في دهشة، وقال: «بالطبع سأفعل، على الرغم من أنه لا حاجة لذلك. فلن يعارضك السيد هيربستال. لك كامل الحرية في الذهاب أينما تريده، وكذلك الآنسة تاسبورو».

بعد ذلك، دخل بخطى سريعة إلى المنزل ثم إلى الغرفة في الجناح حيث يجلس المفوض يكتب تقريره. عاد إلى الشرفة مرة أخرى برشاشة تُناقِض تماماً تذمره من تقدمه في السن، ووجد السيد ريكاردو غارقاً في التفكير.

قال: «كنت أفكِّر. يبدو أن الآنسة تاسبورو لا ترحب بوجودي. ومن الأفضل أن أحزم حقائبي وأعود إلى بوردو».

ولكن لم يكن هانو على استعداد لسماع كلمة واحدة من هذا الحديث، فقال: «اسمع! ليس هذا وقتاً مناسباً للحفظ على الكرامة! أنا أحتجزك هنا، أنا، هانو. وسأوضح ذلك للآنسة تاسبورو بنفسى. دع العزيز تومسون يضع ياقطة ورقية واحدة في حقيبتك، وسأعتقلك بعنف لا مثيل له. عليك أن تحزم حساسيتك في حقيبتك، ولا شيء آخر. أعتقد أنك فهمت ما أعني. ياقطة ورقية واحدة؛ اعتقال. أنت مفيدي لي، هل تقدّر ذلك؟» استخدم نبرة استفسارية طبيعية وصادقة تماماً. نعم، كان مندهشاً من أن السيد ريكاردو قادر على مساعدته. ولكن تلك هي الحقيقة. تفحص صديقه ولم ير شيئاً قد يفسّر هذه الحقيقة الاستثنائية.

فكَّرَ ما قال: «نعم، لقد قدم السيد ريكاردو يد المساعدة لهانو حقاً».

ابتسم السيد ريكاردو في تواضع. كان يشعر براحة غامرة لأنَّه لم يُسمح له بأن ينسحب من تلك المحنَّة المأساوية التي لا تمر ساعة منها دون حدوث أمر شائق، الغموض الجديد الذي يود سبر أغواره. فقال لنفسه بمعنويات مرتفعة: «ها أنا ذا أطارد مجدداً مجرمين نحو هلاكم. إنهم يصطادون في الأرضي الوسطى. فليفعلوا!!»

قال بخجل مصطنع: «إن مساعدتك لـكلمة كبيرة. كنت محظوظاً أنني استطعت كشف بعض الحقائق الغربية أمام ناظريك ...»

قال هانو: «بل فعلت أكثر من ذلك». ثم غرق في تأملات مضطربة.  
ابتهج السيد ريكاردو، وسأل قائلاً: «ماذا فعلت أيسيا؟ ماذا على سبيل المثال؟»  
خرج هانو من تأملاته، وقال: «على سبيل المثال، نعم»، أدخل ذراعه داخل ذراع  
ريكاردو وقرب عينيه منه. وقال: «على سبيل المثال، ما الذي جعلك تخلط مذن قليل بين  
التعس روبن وبستر وقاضي التحقيقات؟ إن لهما البنية نفسها تقريباً. ربما كان شعر  
أحدهما رمادياً قليلاً، بينما شعر الآخر أبيض، ولكنه لن يبدو أبيض تماماً في ظلمة  
الغرفة. نعم، نعم. ولكنك قفزت إلى تخمينك بثقة تامة، وتمسكت به. واقتنعت بأن هذه  
هي الحقيقة. السيد تيرون موجود في هذه الغرفة. والآن، ما الذي جعلك واثقاً لهذه  
الدرجة؟ هل يمكنك أن تخبرني؟ فـ«جيداً» وهـ«ذراع ريكاردو ليساعدك على التفكير  
على نحو أفضل.

راجعت السيد ريكاردو جميع التفاصيل في ذهنه. نعم، لا ريب في أنه كان واثقاً تماماً.  
هل هي الملابس؟ لا، السيد تيدون يرتدي معطفاً أسود، وروبن ويبستر يرتدي معطفاً  
بنيّاً. ليس الأسود بالطبع. إذن، ما السبب الذي جعله واثقاً لهذه الدرجة؟  
قال أخيراً: «لا، لا يمكنني أن أخبرك بالسبب.»

واصل هانو حديثه قائلاً: «ولكن لم يحدث أى شيء أكثر تنبئها من صحيحتك تلك  
منذ صباح اليوم. فمن دون هذه الصيحة، لم أكن لأرى ...»  
«ترى ماذا؟»

جَعَدْ هانو أنفه مبتسمًا. وقال: «ماذا رأيت؟ سأخبرك يا صديقي. في هذه القضية، أنت حامل الجرثومة. أنا أصاب بالعدوى التي تنقلها إلى من دون أن تدربي.» سحب السيد ريكاردو ذراعه بعيداً في حدة، وقال: «هذا تشبيه غير لائق على الإطلاق.» ثم صمت. لم يكن هانو يسمعه. كان يرفع يده ويومئ برأسه نحو المنزل. فقد شق الصمت صوت هدير سيارة.

فصاح هانو: «لقد ذهبنا. فلنسرع.»

## الفصل العاشر

# ثلاث غرف

أسرع هانو عابراً غرفة الاستقبال إلى البهو حيث كان يجلس مساعدته مورو. وألقى إليه أمراً دون أن ينظر نحوه أو يتوقف عن السير.

قال: «أحضر المفاتيح يا مورو.» ثم تبعه مورو وريكاردو، لينحرف يساراً ثم يميناً مجدداً في نهاية الممر، ويدخل إلى الجناح حيث ينام السيد ريكاردو. كان المفوض هيربستال قد أعد لنفسه مكاناً في منتصف هذا الجناح. فتح هانو الباب.

وقال: «سيدي المفوض، أقترح الآن أن نزور غرفتي نوم الفتاتين.»  
نهض المفوض على الفور. وقال: «أنا رهن إشارتك.»

كانت إيفيلين ديفينيش تقيم بغرفة في الجناح نفسه ولكنها كانت أقرب إلى ظهر المنزل. تقدمهم مورو نحوها وأخرج مفتاحاً من جيبه وفتح الباب. وقف هانو على عتبة الباب مانعاً إياهم من الدخول.

وقال: «يبدو أن ثمة قليلاً من الأدلة التي يمكنها أن تُقيّدنا في هذه الغرفة.»  
من خلفه، انحنى السيد ريكاردو محاولاً أن يحصل على رؤية أفضل ولكن دون جدوى. ولكنه لمح غرفة نظيفة ومرتبة وكان الخادمة خرجت منها الآن. كانت النافذة مغلقةً وتُطل على طريق تحفه أشجار داكنة. كان ثمة غطاء فراش من الحرير الرمادي مرسوطاً على السرير. كان كل مقعد حيث من المفترض أن يكون. عبر هانو الغرفة متوجهاً نحو النافذة. كانت نافذة على الطراز الإنجليزي، ولم يكن إطارها مغلقاً بمزلج. رفع الإطار السفلي من النافذة ونظر خارجاً. كانت الشرفة تمتد حول طرف المنزل وحتى حوالي ربع طول الجناح، وكانت أرضيتها تمتد من تحت النافذة وحتى حافة الطريق الذي تحفه الأشجار الداكنة. لم تكن هناك أي علامات على سطحها الجاف. أغلق هانو النافذة

واستدار نحو الغرفة مُجذّداً. كانت ثمة خزانة مُعلّق بها بعض الفساتين، وصندوق ذو أدراج يحتوي على المزيد من أدوات الحمام الخاصة. التفت هانو نحو ريكاردو.  
وقال: «هل تذكر لون الفستان الذي ارتديه السيدة ديفينيش ليلة أمس؟»  
«كان أخضر.»

سأله هانو وهو يقف بجانب الخزانة المفتوحة: «هل تراه هنا؟»  
«لا.»

يُجدر بنا أن نزن الجرس لاستدعاء مارييان.

رن هانو الجرس، وبينما كان في انتظارها، فحص المكتب الصغير بجانب النافذة الذي كانت تستقر على سطحه نشافة حبر ودواة حبر ذات صينية من الأقلام وحقيقة مستندات صغيرة. كانت نشافة الحبر نظيفة كحال الأرضية خارج النافذة. كان مظهر الأقلام يدل على أنها لم تُستخدم منذ أمد بعيد. فتح هانو حقيقة المستندات. كانت تحتوي على بعض إيسالات دفع من متاجر في بياريتس، ودفتر شيكات من مصرف لندن. فحص هانو دفتر الشيكات. كانت بعض الشيكات موجهة إلى «صاحب الحساب نفسه» بمبالغ صغيرة. أعاد هانو كل شيء إلى مكانه الأصلي وابتسم في أسى إلى السيد ريكاردو.  
وقال: «لا يوجد خطاب من صديق! هذا صحيح! كانت هذه الشابة وحيدة وفقيرة.

لقد دفعت مقابل هذه الرحلة عبر البحار عشية عيد ميلادها.»

كانت ثمة طاولة زينة يغمرها ضوء المصباح الكهربائي، وكانت تلك هي قطعة الأثاث الوحيدة التي يبدو عليها قليل من عدم الترتيب. كان غطاء علبة مسحوق تجميل زجاجية كبيرة مفتوحاً، كانت فرش الشعر، ذات الظهر المصنوع من صدف السلحف ومنقوش عليها الحروف الأولى من اسم إيفيلين قبل زواجهها - إ. ب. - باللون الذهبي، منتشرة هنا وهناك. وكانت مروحة ورقية ملقة بإهمال، ووعاء صغير مفتوح الغطاء يحتوي على أحمر شفاه جاف، وقلم أحمر شفاه من دون غطاء. أومأ هانو برأسه وزمَّ شفتيه بينما كان يفحص هذه الفوضى. ثم التفت نحو الباب قبل أن تفتحه مارييان مباشرة.

وسأل: «ماريان، هل يمكنك أن تخبريني بملابس المفقودة من خزانة ملابس هذه المرأة المسكينة؟»

هرَّت مارييان كتفيها. وقالت: «ليس هذا شيئاً عسيراً؛ فهي لم تكن تمتلك الكثير من الملابس، تلك المسكينة الوديعة! من بين جميع التعبيرات غير المناسبة التي سمعها السيد ريكاردو في حياته، كانت كلمة «وديعة» لوصف كائن تحرّكه أهواه ومفعم بالحقد الأسود مثل إيفيلين ديفينيش، هي الأسوأ. كانت سخافتها مذهبة.

قالت مارييان وهي تتحسس صف الملابس المعلقة في الخزانة: «سيدي، ثمة أشياء مفقودة؛ الفستان الذي ارتدته السيدة ليلة أمس، وعباءة». قال هانو مندهشاً: «آه! عباءة!»

«أجل يا سيدي، عباءة من الساتان البني، مطرزة بأناقية بفرو الأرمن الأبيض، وبياقة كبيرة وأساور وحواف من الأرمن الأبيض أيضاً. حصلت السيدة على هذه العباءة قبل أن تسوء أحوالها. فمن المؤكد أنها لم تكن لتتمكن من شراء عباءة بمثل جمالها في وضعها الحالي.»

قال هانو: «أشكرك». ثم جال ببصره لمرةأخيرة في أرجاء الغرفة وأضاف قائلاً: «والآن، سذهب إلى غرفة الآنسة الأمريكية. من المرجح أن تتمكنني من مساعدتنا هناك أيضاً يا مارييان.»

رفعت مارييان يديها. وقالت: «بالنسبة إلى الآنسة ويبل، أيها السادة! الأمر مختلف تماماً! إنها ستسفر من هنا إلى أمريكا مباشرة؛ لذا فقد أحضرت جميع حاجياتها. إذا كنتم مغرمين بالملابس الفاخرة، فسترون الكثير منها، أعدكم بذلك. هذا بالإضافة إلى صناديق لم تُفتح قط. يا إلهي! وأذندة وجوارب! وكوفيات وعباءات! أوه، يبدو أنك تُحب الملابس الفاخرة يا سيدي. بالنسبة إليّ، وأسأكون صريحةً معك، لا أحترم كثيراً الرجل الذي يذهب هنا وهناك ليشاهد الملابس النسائية.»

فكَّر السيد ريكاردو، إذا كان هناك شخص وديع، فسوف يكون هانو من جهاز الأمن العام في باريس. وقفت مارييان واضعةً يديها على فخذيها، وبدأ أنها فهمت المساعدة المطلوبة منها على نحو خاطئ تماماً. كان مستاءً تماماً من اقتحام الشرطة قصر سوفلاك بهذه الطريقة. كانت قد رأت سيدتها الشابة المحبوبة تفقد الوعي، كما لو أنها تلقت لكمَّة من شخص عديم الشفقة. تسائل السيد ريكاردو عمَا إذا كان سلوكيها العنيف يخفي عدم خوف مما قد يُسفر عنه هذا التحقيق. ولكنها جعلت هانو الضخم الجثة يعبس وكأنه رجل منحل عاجز. ولكن، كان هانو يبدو ضعيفاً للغاية، لدرجة أن مفوض الشرطة، الذي أحمر وجهه من رؤية كرامة الرجل تُهان هكذا، لم يصدق عينيه أو أذنيه.

قال: «طلبت منك أن تريني فساتين الآنسة الجميلة يا مارييان؛ لأنني أريد أن أراها ترتديها مرةً أخرى». ولكن بدا أن مارييان لم تقنع؛ فقد استدارت نحو الباب بلفة مزدرية من رأسها وسارت على طول المر عابرَةً الباب الأمامي مجدداً واستدارت عند نهاية الرواق نحو البرج.



قال هانو: «والآن، سذهب إلى غرفة الآنسة الأمريكية. ماريان، هلّا ساعدتنا؟»

كان ثمة باب في مواجهتها، وفي الركن بزاوية، كان هناك باب آخر، مع ألواح من الزجاج الخشن عند الجزء العلوي منه. فتحت ماريان مزلاج هذا الباب. كان ثمة سلم حجري حلزوني ضيق، مثبت في الجدار نفسه، يُؤدي نحو الأعلى. صعدت ماريان السلم حتى وصلت إلى بسطة صغيرة وتوقفت أمام باب آخر. على هذا الباب، كانت رسالة مثبتة بدبوس تقول:

ماريان، أرجو ألا يوقظني أحد في الصباح.

وَجَّهَ هانو سؤالاً لماريان، قائلاً: «هل هذا خط يد الآنسة؟»

نعم يا سيدى. أنا من يُعطى رجل البريد الخطابات. هذا خط يد الآنسة.»  
وافقها هانو قائلاً: «بلا أدنى شك.»

أخرج مورو مفتاحاً آخر وفتح الباب، وتبعه المجموعة كلها هانو إلى داخل غرفة كبيرة ذات نافذة واحدة واسعة تطل على الحديقة وساحل جيرون الشاسع. كانت النافذة مفتوحة، ووقف هانو عندها. كان المد قد انقلب مجدداً وأصبح في اتجاه البحر، وكان مجرى النهر مرصعاً بسفن صغيرة رأسية، وقد طوت أشرعتها ومؤخراتها موجةً نحو بوردو التي تلوح من بعيد. صبغت أشعة الغسق الذهبية لشهر سبتمبر الريف بلون جميل. في الأحاديد التي تفصل بين كروم العنب، كان الفلاحون يحنون ظهورهم ويفردونها ثم يحنونها مجدداً، وللحظات، الجم الجمِيَع التناقضُ بين السلام الذي يعم العالم في الخارج والغموض الذي يكتنف هذه الغرفة.

وكان هانو أول من يكسر هذا الصمت؛ فقد صاح وهو ينظر حوله: «أها! ثمة نقاط اختلاف أخرى في هذه الغرفة يا مارييان، إلى جانب الملابس». وكانت جميع الأشياء المرتبة في غرفة إيفيلين ديفينيش، غير مرتبة على الإطلاق في هذه الغرفة. كان الفستان الفضي الذي ارتدته جويس وبيل ملقى في إهمال على أحد المقاعد، وكانت إحدى فردئي حذائهما الفضي ملقاة في أحد الأركان، وكانت الأخرى ملقاة في منتصف الغرفة، وكانت جواربها مُكَوَّمة على مقعد آخر. كان واضحًا أن جويس، بعدما صعدت من غرفة الاستقبال، غيرت فستانها حتى حذاءها وجواربها في عجلة كبيرة.

فتح هانو خزانةً عند الجدار الأيمن من الغرفة. كانت الخزانة مليئة بالفساتين والأردية الأنثوية معلقةً في نظام.

قالت مارييان وهي تشير إلى صندوق طويل ذي أدراج عند الجدار الخلفي بجانب الباب: «هناك ملابس أخرى في الدرج السفلي.» انحني هانو وفتحه. كانت به بعض التنورات والمعاطف، ولكنها كانت جميعها مطوية في نظام. التفت هانو نحو مارييان وتحدث معها بنبرة سلطوية مفاجئة.

«لقد كنت ممتنعة للغاية يا مارييان، بكل تأكيد. ولكننا لم نأت هنا لكي نستمتع. والآن، أخبريني مباشرةً إذا ما كان بإمكانك أن تعرفي أن ثمة فستاناً ناقصاً من الخزانة أو الدرج..»

قالت مارييان دون أن تتزحزح قيد أنملة: «لا أعرف..»  
«أو أي عباءة..»

«لا أعرف. لقد أقامت الانسة في قصر سوفلاك لمدة أسبوعين، ولم أرها سوى مرة أو مرتين مرتديةً عباءةً في المساء عندما تكون خارج المنزل في الشرفة.» توجّهت نحو الخزانة وفحشت الملابس المعلقة بها. وقالت وهي تلمس عباءةً لامعة من قماش اللاميه: «نعم، كانت ترتدي دائمًا هذه العباءة.»

قال هانو: «أشكرك. لا أريد أن أُعطلك عن عملك أكثر من ذلك.»

أغلقت مارييان باب الخزانة وخرجت من الغرفة. سار هانو نحو الفراش الذي كان ظهره مستندًا إلى الجدار المقابل للخزانة وقاعدته تمتد نحو منتصف الغرفة. كانت مفارش السرير مبعثرة، وملابس النوم مُكوّمة، والوسادة ملقاة على أحد الجانبين. رفع هانو أغطية الفراش. كان الغطاء السفلي مستوىً وممتدًا بإحكام على المرتبة من دون تعريدة واحدة على سطحه.

قال المفوض: «نعم، الأمر واضح. لم ينم أحد في هذا الفراش منذ ترتيبه.»

وأشار هانو إلى السيد ريكاردو ليقترب منه.

وقال له: «دعنا الآن نستوضح المسألة التي طرحتها يا صديقي. تذهب السيدة ديفينيش إلى غرفتها. وتقف للحظات أمام طاولة زينتها لتصف شعرها وتضع مسحوق تجميل على وجهها، وتُعدّل ما تلف من هيئتها من أجل الأمسيّة. ثم تضع عباءتها من الساتان البني عليها، وتفتح نافذتها وتتسّل إلى الخارج. إلى أين كانت ذاهبة، هذا ما لا نعلم. ولكنها لم تمسّ أغطية فراشها. لا! ولم تفعل؟ إذا لم تكن تنوي العودة، فلا سبب يدفعها إلى التظاهر بأنها نامت في فراشها. وإذا فعلت، فلا يزال ثمة احتمال أقل ترجيحاً أنها كانت تنوي النوم في فراشها عندما تعود. هل هذا واضح؟»

وأفقه السيد ريكاردو قائلاً: «أجل.»

ولكن لنفكّر في حالة جويس وبيل! لقد ذهبت إلى غرفتها أيضًا. وغيرت ملابسها في عجلة، ثم ... وفتح ذراعيه على امتدادهما، وقال: «اختفت أيضًا. ولكن فراشها كان مبعثرًا. إذا كانت تنوي العودة والنوم فيه، فسألتك مجددًا، لم بعثرت؟ وإذا لم تكن تنوي العودة، فما الفائدة من التظاهر بأنها نامت فيه؟ هناك ملاحظة موضوعة على الباب تقول: «لا توقظيني يا مارييان!» إذا لم تكن تنوي العودة، فقد أخذت احتياطاتها. فلن ببحث عنها أحد حتى موعد الغداء. لم تُبعثر فراشها أكثر مما فعلت السيدة ديفينيش تَعْسَة الحظ؟ لقد أصبحت المسألة واضحةً وضوح الشمس الآن.»

لم يكن السيد ريكاردو لديه أدنى فكرة عن طبيعة المسألة الشهيرة التي من المفترض أنه طرحها، ولكنه أومأ برأسه في حماسة وتفهمٍ.

سؤال هانو: «بالطبع.»

«هل خرجت الآنسة ويبل من هذه الغرفة بمحضر إرادتها؟» ثم واصل حديثه بينما ظهر الذهول على وجه ريكاردو، قائلاً: «نعم، هذا هو السؤال.»  
قال ريكاردو معارضًا: «ولكن، لم تصدر أي جلبة.»

«لا، لم تصدر أي جلبة سمعها أحد ممن في المنزل، ولكنني ظللت أطرح على نفسي هذا السؤال. كانت تتنوي الذهاب إلى مكان ما؛ يبدو هذا جليًا من حقيقة أنها غيرت ملابسها في عجلة. ثمة ١٠٠ سؤال يدور في ذهني. هل كانت تتنوي الخروج مع ديفينيش؟ هل كانت تتنوي ملاحقتها؟ هل من المصادفة أنها كانت ذاهبة إلى حيث تتنوي الذهاب في نفس ليلة ذهاب إيفيلين ديفينيش إليه؟ ولكن السؤال الأهم من كل هذه الأسئلة هو التالي. هل ذهبت حقًا بمحضر إرادتها؟ بفرض أنها أجبت على الذهاب...»  
قاطعة السيد ريكاردو قائلاً: «أتقصد بالقوة؟»

«وبواسطة أشخاص لم يلاحظوا تلك الكتابة على الباب؛ لأنهم إما كانوا يتحركون في الظلام، وإما كانوا متجلجين. إذا ما بعثروا الفراش، فربما تمر بضع ساعات قبل اكتشاف اختفاء الشابة. ستغادر مارييان على الفراش مبغيًا. حسنًا، لا بد إذن أن الآنسة قد استيقظت مبكرًا. وربما كانت تتجول بين كروم العنب.» ثم التفت نحو رفاته فجأةً وصاح:

«ليُفُسِّرْ لي أحدكم سببًا آخر لبعثرة الفراش. وسأكون ممتنًا للغاية.»  
كانت ثمة نبرة قلق وألم عميقين في صوت هانو جعلت كل من الغرفة يشعر بالقلق. لم يكن يحاول خداع أحد في تلك اللحظة لاستعراض براعته. فكان ينقل بصره بين وجوههم في توقع للحصول على تفسير مقنع غير ذلك التفسير الوحيد الذي توصل إليه بنفسه.

«هل يمكنك أن تفعل يا سيدي المفوض؟»

«لا.»

«وأنت يا مورو! أنت!»

«لا يا سيد هانو.»

«وأنت يا سيد ريكاردو، أطرح عليك السؤال نفسه على استحياء، فأنت أول من اكتشف، من بيتنا جميًعاً، ما تعنيه هذه الفوضى المصطنعة.»

أشاح بوجهه في كآبة بعيدًا عن الفراش، ثم انحنى فوق طاولة الكتابة التي توجد أمام النافذة ولكنها تبعد عنها قليلاً. كان ثمة دفتر ورق نشاف جلدي موضوعًا على

سطحها ومغلقاً. فتحه هانو وعلى الفور سقط نصف فرخ من ورق النشاف على الأرض. التقاطه هانو. كانت حافته الداخلية متعرجة. قارنه هانو ببقية الأففرخ. وقال: «نصف هذه الأوراق مقطوعة، ولكننا لن نعثر عليها».

كانت هناك سلة للورق المهمل بجانب الطاولة ولكنها كانت فارغة. وكان هناك درج في الطاولة. ولكنه لم يكن يحوي أي ورق نشاف، بل كان يحتوي بدلاً منه على كومة من الخطابات المفتوحة والمعادة مجدداً إلى أظرفها. جلس هانو على المقدام أمام الطاولة وبدأ يقرأ الخطابات سريعاً ووجهه مستقبل النافذة وظهره مستدير الغرفة.

قال هانو مخاطباً نفسه أكثر مما كان يخاطب أيّاً من يجلسون خلفه: «آه! إن لها أصدقاء، هذه الشابة». ثم صمت للحظات، وعاد يقول: «من يكون برايس كارتر؟» جفل السيد ريكاردو عندما سمع الاسم، وصاح هانو من دون أن يدبر رأسه نحوه: «أنت تعرفه إذن يا صديقي».

رد عليه السيد ريكاردو: «لا، أعرف القليل عنه فحسب. كان خطيب ديانا تاسبورو في السابق». استدار هانو نحوه في مقعده، وقال ببطء وخطاب مفتوح في يده: «ماذا تقول؟» تذكر السيد ريكاردو بوضوح المعلومات التي أعطتها له جويس وبيبل عن هذا الشاب عندما التقاهما في لندن، ولكنه كان لا يزال يذكر بوضوح أكبر الارتباك الذي انتابها وهي تُخبره بها.

«برايس كارتر شاب كان يعمل في وزارة الخارجية، ولكنه تركها ليُجرب حظه في عالم الأعمال ويُصيّب حظه من الثراء؛ لأنّه لم يكن يود أن يكون زوجاً فقيراً لامرأة ثرية. ولكنه خُلع».

تذكّر ريكاردو تلك الكلمة الوصفية وقالها.

كرر هانو الكلمة قائلاً: «خلع؟ خلع؟ هذا تعبير اصطلاحى». وكانت الدهشة تبدو على قَسَمات وجهه بوضوح تشير أن ثمة تعبيراً اصطلاحياً لا يعرفه. «أعني أن ديانا تاسبورو فسخت خطبتها منه». «أوه!»

التفت هانو مجدداً نحو الدرج. وبدأ يبحث وسط كومة الأظرف وعثر على خطاب آخر بخط اليد نفسه، ثم خطاب ثالث، وقرأها جميعها بتمّ عن. ثم نظر خلفه نحو ريكاردو مبتسمًا.

وقال: «سأخبرك بنبوءة. هذا الشاب سيصبح ثرياً في عالم الأعمال. إنه لا يضيع وقتاً، ذلك الوغد». وتظاهر بأن الخطاب أحرق أصابعه وألقاه على الطاولة، ثم عاد يلتقطه

مجداً بحذر، وهو يقول: «إن خطابات برايس كarter كالجمر الملتهب. يا إلهي، إنها تغلي!» وضع أصابعه في سخرية في فمه ونفخ فيها، ثم اختفى تظاهره دفعة واحدة. فقدم راودته فكرة جديدة فجأة، فتسلّب جسده، وتحول من رجل إلى تمثال حجري.

وقال أخيراً: «نعم. نعم.» ثم واصل فحصه للدرج في حماسة شديدة. لم يعثر لبعض الوقت على شيء يثير اهتمامه، ثم أنسد ظهره إلى مقعده مُحدّقاً في ورقه.

«ليس من السهل قراءة هذا التوقيع. هل تعرف أحداً باسم بريفير؟»

هز ريكاردو رأسه نفياً، وقال: «هناك من يُسمى بريور.»

«حقاً؟ هو الاسم إذن. بريفير. هنري بريفير، ويمثل مختبراً للعقاقير في ليدز.»

قفز السيد ريكاردو من مكانه.

وقال: «أوه!»

سأل هانو: «هل تعرفه؟»

«نعم، أعرفه هو أيضاً. السير هنري بريور. إنه طبيب شهر كَس حياته للبحث العلمي.»

قال هانو: «صديق غريب لفتاة شابة تهوى الموضة.»

كان السيد ريكاردو، باعتباره أحد مواطني العالم، في موضع يسمح له بأن يُقْوِّم صديقه فيما يتعلّق بالنظام الاجتماعي.

شرح ريكاردو ببعض التواضع: «إننا لا نعيش وفقاً لتصنيفاتنا ومراكزنا الاجتماعية مثلما تفعلون في فرنسا. لا، إننا معتدلون على حياة أكثر حرزاً. تناول مثلاً الغداء مع صفة المجتمع، ويتنزّه أطباؤنا البارزون مع الفتيات.»

أومأ هانو برأسه في تواضع، وقال: «لا بد أن الأمر ممتع للغاية بالنسبة إلى الأطباء البارزين». شعر السيد ريكاردو بالفضول تجاه ما يحيوي الخطاب، فاقترب من الطاولة. ولكن قبل أن يتمكن من أن يلمح أيّاً مما يحيوي، طواه هانو، وأعاده إلى داخل الظرف، ووضع الظرف في جيبه. بعد ذلك، ومن منطلق احترامه للعلم، لم ينفخ في أصابعه ليبردهما. ثم نهض من أمام الطاولة، وقال بينما يغلق الدرج: «سأحتفظ بهذا الخطاب، وأرجو ألا يذكره أي منكم لأحد. سنتسى اسم بريفير! حسناً!» ثم أغمض عينيه للحظات وعاد يفتحهما مجدداً، وقال: «قضى الأمر إذن. ولن تذكر ليدز. حسناً!» كرر أداءه السابق مُغمضاً عينيه، وقال مخاطباً السيد ريكاردو الذي كان ينظر له في استياء واضح: «آه! أنا أتصرف بطريقة هزلية، أليس كذلك؟ نعم، ولكنني لا أعيش دائمًا ضمن تصنيفي ومركري الاجتماعي. أنا في ذلك أشبه ذلك الذي نسيت اسمه. هيا بنا!»

جال ببصره لمرة أخرى في أرجاء الغرفة. كانت طاولة الزينة عند الجدار نفسه الذي توجد خزانة الملابس عنده في مقابل السرير. وكانت النافذة وطاولة الكتابة بين الجدارين. كانت ثمة مجموعة من المصباحيك المكورة مثبتةً في منتصف السقف. كان ثمة مصباح عادي بجانب الفراش، ومصابحان على طاولة الزينة، وعلى الجدار الخلفي كان مثبتاً مصابحان جداريان كهربيان. حفظ هانو كل هذه التفاصيل وتقدم الطريق هابطاً السلم الحجري وصولاً إلى المرء المائل.

وقال وهو يعصر مقبض الباب القريب منه: «هذه غرفة الانسة تاسبروف.»  
«صحّ له ريكاردو الاسم قائلاً: «تاسبرورو.»  
«هذا ما قلت: «تاسبروف».»

ظل واقفاً ممسكاً بمقبض الباب يقيس المسافة بين البابين.  
ثم سأله ريكاردو: «هل كان ذلك الشيء، الذي مر أمامك في الشرفة خارج المنزل، شخصاً؟ هل من المحتمل أن يكون وطواطاً أو يومة؟؟»  
«لا، لقد كان شخصاً. أنا واثق بذلك.»

«ولكن لا ريب لديك في هوية ذلك الشخص، أليس كذلك؟»  
«على الإطلاق.»

«وهل اختفى الظل عبر نافذة هذه الغرفة التي أقف أمام بابها؟»  
«نعم.»

«هل كان ذلك في الثانية والنصف صباحاً؟»  
«نعم.»

«حسناً! لقد استوضحنا الأمر»، وأدار هانو مقبض الباب ودخل غرفة نوم ديانا تاسبرورو للمرة الثانية.

كان السيد ريكاردو ينتظر في تلك اللحظة على آخر من الجمر. وكاد يدفع هانو من طريقه من فرط توقعه للوصول إلى تلك اللوحة المعلقة على الجدار فوق الفراش ويكشف السر الذي تحويه. ولكنه تلقى واحدةً من أقوى خيبات الأمل التي تلقاها في حياته. فقد وجد نفسه يُحدّق في نسخة من النسخ الكثيرة لللوحة قناة البن دقية الكبرى لتينوريتو. كان السيد ريكاردو قد رأى تلك الزوارق، والخيال الباهت لقصر رئيس قضادة البن دقية، وقبة سانتا ماريا ديل سالوتو، مئات المرات على جدران مئات غرف النوم، ونام تحتها أيضاً عدد المرات نفسه. لم يكن ثمة سر في هذه اللوحة لكشفه، أو لغز في تمثيلها الصامت للبن دقية لحله. ألقى السيد ريكاردو نظرهً مؤنثة على المحقق الذي أسرع ليقف إلى جواره.

سأله هانو: «ألم تر شيئاً فيها؟»

«لا شيء..»

«إذن، لا بد من أنه لا يوجد شيء لرؤيته.»

لا شيء لرؤيته؛ لا! ولكن كانت عينا هانو تلمعان بهذا البريق العجيب، ذلك التحفُّز الغريب في سلوكه، واللذان رأهما ريكاردو من قبل في هذا المكان نفسه. حتى صوته كان يتهدج من فرط الانفعال. ومرة أخرى، هذه الغرفة تحتوي على معلومات مهمة عليه اكتشافها. اللوحة؛ مجرد مزحة، بل مزحة سخيفة أيضاً. ولكن المزحات السخيفية التي تُلقى عنك باستمتاع كانت جزءاً من الثمن الذي عليك دفعه مقابل الإثارة التي تتضمن في الحصول عليها من صداقتك به. كتم السيد ريكاردو شفواه في نفسه وحدق مُقطبًا جبينه في الغرفة بحثاً عن ذلك الشيء الذي تغير وحَفَّ هانو. للأسف! لم يعثر على شيء. كانت هناك المرأة، وطاولة الكتابة ذات الصليب، وزجاجات العطر نفسها على طاولة الزينة؛ لا، تحير السيد ريكاردو. لمح هانو يراقبه وسبح ابتسامة مرتسم على شفتيه.

قال هانو بسرعة: «غريب، أليس كذلك؟»

رد السيد ريكاردو رافضاً أن يكون عرضةً للسخرية والاستهزاء إن كان قادرًا على منع ذلك: «للغاية. غريب للغاية.»

«إذا كنت قد اكتفيت، فثمة غرفة أخرى علينا زيارتها قبل أن تعود مُبيِّقْتنا ومدير أعمالها. فلن يعجبهما أن يجدا الشرطة تدس أنفها في الأسرار الحميمية التي لا دخل لها بها. ولكن، للأسف، هذا ما يجب أن تفعله الشرطة خلال تحقيقاتها. لذا، دعونا لا نسبب الكثير من الإزعاج قدر إمكاننا. مورو، اطلب من السيد المفوض أن يُعين حارساً لِيُراقب الطريق ويُحذِّرنا حال عودة السيارة..»

ولكن لم يكن المفوض متحمساً لأن يُقصي شرف حزامه الثلاثي الألوان من تحقيق هانو. فأوْمأ إلى مورو.

وقال: «ستجد أندرو بيتش في الغرفة التي نشغلها. ويمكنك أن تُعيّنه حارساً عند النقطة التي تراها مناسبة.»

ذهب مورو مُتردداً ليُنفذ ما طلب منه.

قال المفوض مخاطباً هانو: «أندرو بيتش شاب ذكي. لن يقاطعنا أحد.» كان السيد ريكاردو يدرك أن هانو يعلم جيداً أنه أصبح مطلوباً منه حالياً أن يتعجل في إنهاء ما يفعل. تقدّم هانو الطريق إلى الشرفة بالقرب من النافذة الطويلة عند قوس

البرج، ومر بسرعة على طول واجهة المنزل، وعَبَرَ الطريق الذي تحفه الأشجار وَخَرَجَ إلى مساحة مفتوحة من الأرض المكسوة بالعشب التي بُنِي الشاليه عليها. ثم توقف للحظات عند حافة هذه المساحة من الأرض. ولكن لم يتمكن من رؤية أي حركة داخل الشاليه، وكان هناك ستار من الأشجار يحجبهم عن مجال رؤية العمال في أقبية وأحواض النبيذ. رغم ذلك، عبر هانو الأرض العشبية عدواً، وفتح البوابة البيضاء وأصبح عند مدخل الشاليه بسرعة تتناقض مع بنيته الضخمة. كان الباب موصداً ولكنه لم يكن مقفلًا بالمفتاح. انفتح الباب على مصرٍ ضيق يوجد باب عند كل من طرفيه، ومن خلفه يوجد درج، وعَبَرَ عتبة باب، لحت المجموعة مطبخاً. توقف هانو في المرّة أخرى للحظات واضعاً إصبعه على فمه. ولكنه لم يسمع أي صوت.

قال هانو في راحة: «لقد انتهى الخدم من تنظيف الشاليه وعادوا إلى القصر. إنه فارغ.»

ثم سمع صوت أقدام تعدو مسرعةً على الحصى من خلفه. فاستدار ليり القادر. كان القادر هو مورو بعد أن أنهى المهمة التي كَلَّفَه بها المفوض، وقال: «أصبح هناك حارس يراقب الطريق.»

رَدَّ هانو: «حسناً! لم يُبِدِّ أي اهتمام بالغرف في الطابق الأرضي، ولكنه صعد الدرج في سرعة. كان هناك حمام وغرفة ملابس على أحد جانبي قمة الدرج، وغرفة نوم طويلة على الجانب الآخر، مع نافذة عند كل من طرفي الممر. توجَّه هانو من فوره نحو النافذة التي تُطلُّ على الأرض العشبية ومن خلفها طريق الأشجار.

وسأله السيد ريكاردو: «هل كانت الأضواء التي رأيتها منارةً هنا؟»  
نعم.»

كانت الغرفة تُنَارَ في الليل بأضواء كهربية. كان ثمة مصباح عادي موضوع على طاولة بجانب الفراش، وبعض مصابيح معلقة على الجدران.

كرَّ هانو الكلمة قائلاً: «نعم». ولكن لم تكفه هذه الإجابة. كانت ثمة طاولة تُرِى في منتصف الغرفة في موازاة النافذة. فحص بعينيه الأشياء الموضوعة عليها – كتاب، وقلم حبر، وعلبة ورق ملاحظات، وأظْرُف، ونشافة، وزجاجة حبر، وقلم رصاص – ولكنه كان يبحث عن شيء بعينه، ولم يكن ما يبحث عنه موجوداً. كانت هناك بعض الخزانات مصفوفةً على جدارِ الواحدة بجانب الأخرى. فتحها هانو بالترتيب. وفي إحداها، كانت هناك ملابس معلقة على شماعات، وفي الثانية، كانت ملابس روبن وييستر الداخلية مرتبةً في أرفف. وفي الثالثة، التي كانت تحتوي على أرفف أيضاً، كانت توجد بطاطاً عنقه،

وياقاته، وجواربه، ومناديله مصنفةً في مجموعات. ولكنها لم تكن تشغل إلا رفين فقط، وكان في الخزانة ثلاثة أرفف. كان يشغل الرف الثالث أشياء متفرقة؛ صندوق ياقات جلدي، وبعض الزجاجات، وقارورة حرارية، وطبق. أغلق هانو باب الخزانة واستدار حول نفسه، وصفق بيده وفرك راحتيهما معاً بينما كانت ابتسامة تزحف على وجهه ببطء. لقد وجد ما كان يبحث عنه؛ لا ريب في ذلك. ولكن لم يكن السيد ريكاردو يولي اهتماماً كبيراً به. لقد عثر على شيء ما هو أيضاً. نعم، لقد طرأ بباله فكرة.

فصاح وهو يقف بجانب النافذة: «هانو، طرأ ببالي فكرة». وخلال لحظات، كان هانو يهز ذراعه وقد ملا الإعجاب والتحمس وجданه. وقال: «فكرة! حقاً! هذا أمر نادر الحدوث! قلها! لا تتركني معلقاً هكذا! صُغْ هذه الفكرة التي لا تقدّر بثمن بكلمات لا تقدّر بثمن!»  
«هل ستسخر مني؟

«صديقٍ!» حملت هذه الكلمة الكثير من اللوم.

«حسناً إذن. لقد قشت طول الجناح في القصر بنظري.»

قال هانو: «لم أفكّر في ذلك! ولكنني بدأت التفكير في ذلك الآن.»  
«على اليسار، عند نهاية الجناح، بانحراف في عكس اتجاهنا، توجد نافذة غرفتي.»  
كُوَر هانو يديه في محاكاة لشكل نظارات الأوبرا المقربة ووضعهما أمام عينيه.

وقال بجدية: «أرى ذلك. هذا أمر استثنائي.»

«هناك، أمامانا مباشرة، نافذة غرفة إيفيلين ديفينيشن.»

ألقى هانو بجسده على مقعد، وصاح: «أوه! إنها هي حقاً. حسناً، إذن! هيا، هاتِ ما عندك!»

«حسناً إذن! لقد أخبرتك عن نظرة الكراهة الشديدة التي وجّهتها إيفيلين ديفينيشن نحو جويس ويبل عندما كان روبن ويبستر ينحني فوق مقعدها.»  
«لقد فعلت! لقد فعلت!»

«ألم تفهم بعد؟ لقد ذهبت إيفيلين ديفينيشن إلى الشالية حيث يقيم بمحضر إرادتها عندما غادرت غرفتها ليلة أمس. لقد ذهبت إلى حبيبها روبن ويبستر.»  
اختفت كامل الحماسة من وجه هانو الضخم. وبدا الإحباط جلياً في طريقة تصرُّفه المتبلدة. هزَ رأسه في إيماءة إلى السيد ريكاردو تحمل أرقَ أنواع اللوم، ووضع يده الضخمة على صدره ضاغطاً ليهدئ خيبة الأمل المستمرة في قلبه.

وقال بحزن: «صديقى، لقد أوصلتني إلى درجة من الحماس خطرة على من هم في مثل عمرى، ثم أقيت بي من علٍ واصطدمت بالأرض بقوة أكبر من اصطدام إيليس بها عندما سقط من السماء! كيف طاوعك قلبك على فعل ذلك! كيف طاوعك قلبك على فعل ذلك!»

رمق المفوض هيربستال، الذى لا يعرف شيئاً عن تقلب مزاج هانو، السيد ريكاردو في لوم. إلا أن السيد ريكاردو لم يتخلّ عن موقفه.

وقال بحدة: «لقد جاءت إيفيلين ديفينيش إلى هذا الشالية، وإلى روبن ويبيستر.»  
قال هانو: «ولكن لم يكن روبن ويبيستر هنا.»  
«لم يكن هنا!»

حدّق السيد ريكاردو في وجه محقق جهاز الأمن العام في شفقة. نعم، لقد ولت أيام المحقق العظيم. إن هذه القضية وخفاياها وتدخلاتها كثيرة للغاية على هذا العقل الذي كان يوماً عظيماً وعبقرياً. ولكن لم يكن يصح أن يُحرجه السيد ريكاردو أمام زملائه. يجب أن يجعله يعدل عن موقفه بهدوء وسلامة.

فقال: «لقد نسيت يا سيد هانو. لقد رأيت الأنوار التي أضاءها ويبيستر تتسلّل عبر هذه النافذة. ورأيته يطفئها.»

قفز هانو واقفاً على قدميه على الفور.

وقال: «لا، لا، لا! أنا أتذكر كلماتك جيداً. لقد رأيت الأنوار ترتعش ثم تنطفئ. نعم، في وقت قولك لها، فكّرت أنها كلمات غريبة. والآن، دعنا نرى. إذا ما أضأت مصابحاً كهربياً، فإنه ينطفئ ويعم الظلام على الفور. وإذا ان歇ر سلك، يحدث المثل. ولكن إذا ما ارتعش نور الصباح ثم انطفأ، فإن السبب في ذلك يرجع إلى أنه قد تلف. والآن، دعنا نرى.»

أنار جميع مصابيح الغرفة الواحد تلو الآخر، وأصدرت جميعها ضوءاً. ثم أطفأها مجدداً، واحتفى ضوء كل منها في سرعة لحظية.

وقال: «لقد رأيت ذلك!»

ثم عاد إلى الخزانة الثالثة ومن رفها الثالث، أخرج الطبق ووضعه على الطاولة.

وقال: «هذا ما رأيته يرتعش ثم ينطفئ.»

اصطدم هيربستال والسيد ريكاردو أحدهما بالآخر بينما كانا يسرعان لفحص الطبق. ورأيا في قاع الطبق قطعةً من فتيل أسود، وقطعةً صغيرة من الشمع بدا أنها ذاتت وتجمّدت مجدداً.

تلعثم السيد ريكاردو وهو يقول: «أنا لا أفهم».

«ولكن الأمر واضح. لقد أضاء صديقي الشاب ويبستر هذه الشمعة وتركها تحرق لتنير الغرفة حتى يقول السيد ريكاردو، أو أي أحد آخر ينظر في هذا الاتجاه، لنفسه: «يا لها الشاب المجتهد! يا له من كنز!» ولكن للشمعة طول معين، ومن المتعارف عليه أنها ستنطفئ في وقت ما، وسيقول السيد ريكاردو، إذا كان لا يزال مستيقظاً: «لقد تأخر الوقت، لا بد أنه ذهب لينام. يجب ألا يُدمر الكنز صحته. إننا لا نعثر على أمثاله بسهولة..».

كان هذا ما حادث به السيد ريكاردو نفسه تماماً، وبدأ وجهه يحمر بشدة بينما يستمع إلى هذا التفسير.

«ولكنه كان في الحقيقة خارج الشاليه. نعم، كل شيء على ما يرام، ولكنه نسي ارتعاش الضوء عندما يخبو لهب الشمعة ويقفز، ثم ينطفئ. آه! إن السيد ويبستر شخص مثير للاهتمام. إلى أين ذهب عندما ترك الشمعة تحرق؟ وماذا كان يفعل؟»  
أعاد هانو الطبق بحرص إلى مكانه على رف الخزانة وأغلق بابها. في تجويف صغير في الجدار الذي يستند إليه رأس الفراش، كان ثمة بعض الكتب مرصوصة. سار هانو نحو الكتب وقرأ عنوانينها بصوت مسموع. كانت مجموعة غريبة للغاية من الكتب ليحتفظ بها رجل بجانب فراشه، وفي رأي السيد ريكاردو، لم يكن من المرجح أن يؤدي بعضها إلى إصدار تلك الأفكار الجميلة التي يجدر بالمرء أن يُفكّر فيها لتساعده على النوم.  
قرأ هانو بصوتٍ عالٍ: «يوميات كازانوفا. أفضل أعمال رويسبروك، الصوفي؛ الآنسة دو موبا؛ الاقتداء بالسيح؛ الدفن في الجرار؛ الفتاة ذات العينين الذهبيتين. يا له من شخص مثير للاهتمام، السيد ويبستر! يا لها من مجموعة عجيبة من الكتب!»  
أمسك بكتاب «الآنسة دو موبا» وفتحه على صفحة الغلاف.

وقال متفهماً: «نعم. روبن ويبستر».

أعاد الكتاب إلى مكانه وأمسك أحد أعداد يوميات كازانوفا عشوائياً. كان هذا الكتاب أيضاً يحمل اسم روبن ويبستر على صفحة الغلاف. كان تجلييد الكتاب الثالث الذي أخذه من على الرف أكثر اهتماماً من الكتب الأخرى، الأمر الذي أدهش السيد ريكاردو. فقد كان هذا الكتاب هو «أفضل أعمال رويسبروك، الصوفي»، وكان من غير المُرجح أن تجد كتاباً مثل هذا مستخدماً بصورة مُتكررة في غرفة مدير كروم عنب. فتح هانو الكتاب. كان تقطيب الصفحات مفككاً، ولم تكن صفحة الغلاف موجودةً من الأساس.

ولكن، كان السيد ريكاردو يقف الآن بجانب هانو، ولكنه لم يكن ينظر من فوق كتفه، فلم تُمكّنه ضخامة جسم هانو من ذلك، بل كان يختلس النظر من حول مرفقه، وبينما كان هانو يغلق الكتاب صاح محتاجاً من إهمال صديقه المحقق: «صديقي، أنت لم تعد قوي الملاحظة! كيف وصلت إلى هذه الحال؟»  
صاحب هانو بصوت متensus على جميع الأخطاء التي يرتكبها: «أخبرني أنت! أخبرني بسرعة!»

«صفحة غلاف هذا الكتاب ليست مفقودةً بسبب تفكك الكتاب. لا، على الإطلاق. لقد طُويت نحو كعب الكتاب وكُورت، ثم قطعت بحرص وعن عمد.»  
عاد صوت هانو ليكتسب قوته مجدداً.

وقال: «لقد لاحظت ذلك. نعم، نعم. لا تزال ثمة بقايا من العبرية التي عُرف بها هانو. لقد قُطعت صفحة الغلاف.»

صاحب السيد ريكاردو شاعراً بالاظفر: «ولكن لماذا؟ الأمر واضح تماماً. لقد غيرَ روبن ويبيستر اسمه.»

رَدَ هانو: «فلنر.» ثم أخذ كتاب «الاقتداء باليسوع». وكانت صفحة غلاف هذا الكتاب أيضاً مقطوعةً بحرص. ظل واقفاً يتحقق في الكتاب لفترة طويلة. ثم أعاد الكتاب إلى مكانه ببطء، وقال ببطء مماثل: «ثمة تفسير آخر. وهو يقنعني أكثر من سابقه. فهو يفسر لي شيئاً عن روبن ويبيستر ظل يُحِيرني طوال اليوم.»

وواصل بحثه مسرعاً بين الأدراج بلمسات خفيفة مثل النساء، وخفة يُحسد عليها. لم يتبقَ سوى صندوق قديم، وفوق غطائه المغلق كان هناك غليون أو اثنان، ومضرب تننس، ودليل هاتف، وخريطة، ومجلة أمريكية، تلك الأشياء المتفرقة التي يجمعها الرجال. أزاح هانو هذه الأشياء جانبًا، وفتح الصندوق. أخرج هانو منه دثاراً ومعطفاً ثقيلاً وألقاهما على الأرضية، ثم وقف منتصباً ممسكاً في يده صندوقاً رخيصاً مستطيل الشكل مرصعاً بلؤلؤة كبيرة. هز الصندوق وسمع صوت خشخše في داخله في خفوت. حاول فتح الغطاء، ولكنه كان مقفلًا، فجلس إلى الطاولة. كان القفل رخيصاً مثل الصندوق. أخرج هانو من جيده مجموعةً من الأدوات المعدنية الصغيرة المعلقة في حلقة. انتقى من بينها ملقطاً وسرعان ما انفتح الصندوق.

ثم قال: «أوه!»، وألقى على الطاولة حوالي ثمانية أو عشرة خطابات؛ إذا كان يمكن أن يُقال عنها إنها خطابات. فمن زاوية رؤية السيد ريكاردو على الجانب الآخر من

الطاولة، كانت تبدو وكأنها ملاحظات، وكان أغلبها مكتوبًا بالقلم الرصاص، وجميعها مكتوبًا في عجلة. قرأها هانو سريعاً، وتغيرت ملامح وجهه.

وقال ببطء: «آه!» ورفع عينيه نحو السيد ريكاردو وأومأ برأسه مؤكداً صحة تخمينه.

قال هانو الذي بدا أنه مسرور من مشاركة السيد ريكاردو في القضية حتى هذه اللحظة: «نعم، نعم!» ولكن بما أنه لم يكن مسموماً للسيد ريكاردو أن يرى حتى التوقيع الذي ذُيلت به هذه الخطابات، فلم يؤثر فيه هذا السرور كثيراً. أعاد هانو الخطابات إلى الصندوق، والتقت نحو مورو.

وقال: «يجب أن تصور هذه الخطابات، على الفور. أعتقد أن الأمر لن يستغرق منك بعض دقائق.»

قال مورو وهو يتجه نحو الباب: «سأحضر كاميروني واللوح الصغير لفردها.»

ولكن استدعاه هانو. وقال: «لا. إن صديقنا ...» ثم قطع جملته. وعاد يقول: «قد يعود صديقنا السيد روبن فجأةً ويجعلنا نغادر دون أن نستكمل عملنا. من الأفضل أن تأخذها إلى غرفتنا، وتتصورها بأقصى سرعة ممكنة وتعيدها، إذا ما توفر لك الوقت لتفعل. وإذا لم تتمكن من ذلك، فسيكون ذلك من سوء حظك. ستحافظ بالصندوق على أمل الآية الكشف اختفاء في وقت قريب.»

كان يتحدث بثقة كبيرة، ولكنه كان يجلس «على أحمر من الجمر» عندما ذهب مورو ليُنفذ ما طلب منه. كان يذرع الغرفة جيئاً وذهاباً بين الطاولة والنافذة، وينظر إلى الطريق، ثم يفحص مجدداً ركناً كان قد فحصه من قبل وكان مظهره بالكامل يدل على أنه لا يطيق الانتظار. وفي نهاية المطاف، جلس إلى الطاولة مجدداً وضم يديه معًا أمام وجهه.

وسأله فجأةً: «لمَ قد يحتفظ رجل بخطابات موجهة له من امرأة داخل صندوق مغلق؟ هل يمكنك أن تخبرني بالسبب؟»

ابتسم جوليوس ريكاردو. فقد كانت الإجابة بدائية. ورد قائلاً: «لأنه مغرم بها. قد تتذكرة أني رأيته ينحني على ظهر أحد المقاعد. وتأكدت ملاحظتي بصرخته التي أطلقها هذا الصباح عندما اكتشفنا اختفاء جويس وبيل.»

نظر هانو بفضول إلى السيد ريكاردو.

وسأله: «هل تعتقد أن جويس وبيل هي من أرسلت تلك الخطابات، أو الملاحظات، أو القصاصات المكتوبة؛ أيًّا كان ما تطلقه عليها؟»

قال السيد ريكاردو لائماً برفق: «لست بحاجة لأن أرى التوقيع الذي يُذيلها، والذي أخفيته ببراعة، لكي أعرف يا صديقي.»  
التفت هانو نحو هيربستال فجأة.

وقال: «وماذا عنك أيها المفوض؟ لم قد يحتفظ رجل بخطابات موجهة له من سيدة في صندوق مغلق؟ هل ستقول مثل ما قيل؟ هل لأنه مغرم بها؟»  
قال المفوض وهو يهز كتفيه: «ربما.»

قال هانو متشكّلاً: «حسناً، ربما كان الأمر كذلك. ولكنني أقول مجدداً إن ثمة تفسيراً آخر، وأنا أفضّله أكثر من الآخر.»  
عاد مورو إلى الغرفة أثناه حديثه ممسكاً بالصندوق المرصع بين يديه. وقال: «أنجز  
الأمر.»

قفز هانو من مقعده، وأعاد قفل الصندوق بملقطه، وأعاده إلى المكان الذي كان مخبأً به. وقال والراحة تكاد تقفز من وجهه: «جيد، لنذهب الآن! فقد سمحت للسيارة بالعودة!»

وغادر الرجال الثلاثة الشاليه وعادوا إلى شرفة المنزل.

## الفصل الحادي عشر

# آثار أقدام

كان هانو يشعر براحة حقيقة عندما وجد نفسه جالساً من جديد في الشرفة المفتوحة بقصر سوفلاك. وكان يضحك بصوت قرقرة منخفضة وهادئة بدت للسيد ريكاردو مُقلقةً وغريبة. وأمواً هانو إلى ريكاردو بعينين تلمعان.

وقال: «لديك قصيدة. أنا أعرفه جيداً. إنه بارع في نظم القصائد. الحياة حقيقة، الحياة جادة، والقبر هدف أحدهم بلا أدنى شك. نعم، أنا في مزاج جيد للغاية. فقد اقتربنا من كشف الحقيقة. والآن، لنـَ ما الذي يحرسه حارسنا الْهُمام من أجل تحقيقنا». وهبط درجات السلم وعبر المرج العشبي نحو حوض الزهور المستدير. في هذه اللحظة تمكّن السيد ريكاردو من رؤية أن الأشياء التي كانت تُحِيره هي ثلاثة أطباق خففية بنية اللون، كان أحدهما مقلوباً على الحافة العشبية للحوض المستدير، والاثنان الآخرين مقلوبين على تربة حوض الزهور نفسه. حيّا الحارس الواقف بالقرب من الأطباق هانو.

«نعم يا سيدي. أمرني المفوض أن أبحث عن أي أدلة في الحديقة. عندما اكتشفت هذه العلامات، أسرعت على الفور نحو المطبخ لأحضر أطباقاً وأعطيها بها».

قال هانو بابتسامة تقدير: «كانت هذه فكرةً جيدة».

«ولكني عانيت معاناةً كبيرة حتى تمكنت من أخذها يا سيدي». أمواً هانو برأسه في شفقة، وقال: «ماريان». شجَّع تقدير هانو الحارس على أن يتخلَّى قليلاً عن وقوفه المتصلة. ونفخ أوداجه.

وقال: «إنها امرأة جبارة يا سيدي، إن كانت امرأةً من الأساس. لقد ضربتني على أذنيَّ يا سيدي. كنت أمسك الأطباق بين يدي. وتحدّتني أن أُسقطها، وضربتني على أذنيَّ

مجدداً. هل تدرك ما حدث يا سيدتي، كنت عاجزاً. ثم قالت ... ولكن اعذرني يا سيدتي، لن يكون من اللائق أن أكفر ما قالت.

قال هانو مصراً: «يمكنك أن تُكَرِّرَ ما قالت. فلا نساء هنا». أحمر وجه الحارس تحت قبته العسكرية.

وقال: «لا، لم تكن وقاحةً من هذا النوع. بل كانت أسوأ.»  
«لا عليك، كرره.»

قالت: «إذا لم تعجبك ضرباتي على أذنيك، أيها الوغد، يمكنك أن تنقلها إلى سيدك الغالي هانو، الذي لا أُكِن له أي احترام على الإطلاق.»

بدأ المفهوم هيربيستال مصعوقاً بينما ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه هانو.

وقال: «أشعر بانجذاب نحو ماريان. حسناً، وحصلت على الأطباق وأحضرتها إلى هنا. أليس كذلك؟»

«ثم ذهبت إلى المفهوم الذي أمرني بأن أواصل الحراسة حتى لا يبعث أحد بالعلامات.»

«حسناً! هل اقترب أحد من حوض الزهور هذا بغض النظر العبر بالعلامات؟»  
«لا يا سيدتي.»

قال هانو: «هذا ليس جيداً. والآن، أخبرني باسمك حتى أحفظه في ذاكرتي. ثم ابدأ بالكشف عن هذه العلامات على الأرض الواحدة تلو الأخرى.»  
احمر وجه الحارس في سعادة للمرة الثانية.

وقال: «بالنسبة إلى اسمي يا سيدتي، فهو كوربي؛ فيكتور كوربي في خدمتك يا سيدتي. أما بالنسبة للعلامات، فانظر!»

ركع الحارس على ركبتيه ورفع الطبق من على الحافة العشبية حول حوض الزهور. وفي المكان الذي كان الطبق يغطيه، كان العشب مسحوقاً، وبالقرب منه عند حافة التربة كان هناك أثر قدم صغيرة ترتدي حذاءً مدبوباً بكعب عالٍ.

قال السيد ريكاردو مؤكداً على أفكاره: «نعم. لقد انزلقت قدم امرأة في هذا المكان.» بينما كان لا يزال راكعاً على الأرض، مدّ فيكتور كوربي يده إلى الطبق الثاني عند منحدر حوض الزهور. ورفع الطبق وكشف عن أثر قدم أخرى. فحص السيد ريكاردو الأثر من حيث يقف.

وقال: «هذا الأثر صنعته المرأة نفسها.»

قال هانو: «ولكنك ستلاحظ أنه أثر القدم اليسرى، بينما ذلك الأثر الآخر عند حافة الحوض صنعته القدم اليمنى».»

قال السيد ريكاردو: «أوافقك الرأي يا عزيزي هانو. نعم، أوافقك الرأي.»

لم يعد المفوض هيربستال، الذي كان يُحْدِق من وقت لآخر خلال الساعة الماضية في السيد ريكاردو، ثم ينقل عينيه من السيد ريكاردو إلى هانو مُتحيّراً، يعرف في تلك اللحظة إلى أي فئة أو جانب ينتمي. أما هانو، فعلى النقيض، كان تجسیداً حیاً للسرور.

قال: «يسعدني أنك توافقني الرأي.»

ثم أومأ إلى فيكتور كوربي الذي أسرع بالدوران حول حوض الزهور وأزال الطبق الثالث. كان هذا المكان هو الأقرب من المنزل، وبما أن آثار الأقدام تُشير إلى ناحية النهر في عكس اتجاه المنزل، فإن هذا الطبق سيكون تاليًا للطبقين السابقين. كان الأثر الذي كُشف عنه أثر قدم أيضاً، ولكنه أثر قدم رجل داخل حذاء ضخم ذي مسامير. كان الأثر أكثر ضحالة. ولكن لم يكن السيد ريكاردو ممن تثنיהם أي ملاحظات دقيقة. فقال بجرأة: «من الواضح أن المرأة كانت تهرب، وأن الرجل كان يلاحقها.»

ولكن لم يكن هانو في تلك اللحظة يولي تصريحات السيد ريكاردو التقدير المعاد. بل بدا أنه لم يسمع ما قال من الأساس. وقال:

«أعتقد أن أول ما علينا فعله هو اكتشاف أي من شبابات قصر سوفلاك هي التي كانت تجري عبر حوض الزهور ليلة أمس، وإذا ما كانت قد جرت عبر حوض الزهور ليلة أمس وليس الليلة التي سبقتها. فيكتور كوربي، أحتج إلى مساعدتك.»

أسرع هانو عائداً إلى المنزل، واختفى داخل غرفة نوم ديانا تاسبورو في البرج، ولم تكد تمر دقيقتان حتى ظهر مجدداً عند نافذة غرفة الاستقبال. وظهر من خلفه فيكتور كوربي. ثم جرى عائداً إلى حوض الزهور، وألقى كوربي بجانبه على العشب ثلاثة أحذية نسائية متسائية أنيقة. كان ثمة حذاء مطرز من الساتان يخص إيفيلين ديفينيش ولكنه كان أكبر من آثار الأقدام على الأرض، وكان الحذاء الثاني يخص ديانا تاسبورو ولكنه كان أعرض وأقصر من آثار الأقدام، ثم الحذاء الفضي الذي يخص جويس ويبل والذي طابق آثار الأقدام تماماً.

قال هانو وهو ينهض واقفاً: «لقد اتضح الأمر، إذن. كان ثمة شخص يرتدي حذاء جويس ويبل يجري عبر المرج العشبى، ثم تعثر في الظلام في حافة حوض الزهور ما جعل قدمه اليسرى تغوص بالكامل في التراب ثم قفز عبره حتى العشب على الجانب



«أعتقد أن أول ما علينا فعله هو اكتشاف أي من الشَّابَّاتِ هي التي كانت تجري عبر حوض الزهور ليلة أمس.»

الآخر من حوض الزهور. نعم ... ولكن» وقلب الحذاء في يده «ولكنها لم تكن ترتدي هذا الحذاء الرقيق. لقد سار هذا الحذاء على سجاجيد، وربما في الشرفة، ولكنه لم يغص في تربة حوض الزهور ليلة أمس.»

رأوا جميعاً عدم وجود أي أثر للطخات على الجلد الرقيق أو النعل. ولم يكن ثمة أثر للتراب يُلْطَّخُ الحذاء. وكان الجزء الأمامي الداخلي من الحذاء جديداً كما لو أنه خرج من عند الإسکافي الآن، ولم يكن ثمة تغيير في لون النعل تقريباً.

«كان هذا الحداء الذي ركلت جويس وبيبل فرديته كل واحدةٍ في اتجاه وهي في عجلة من أمرها ليلة أمس، عندما ألقت الفردتين في الهواء وغيّرت ملابسها». التفت هانو نحو كوربي بينما يتحدث وأعطاه أزواج الأحذية الثلاثة. وقال: «فلترسِر يا صديقي وأعد هذه الأحذية إلى مكانها في خزانة الآنسة ديانا حيث أخذناها. ثم افعل المثل مع حداء السيدة ديفينيش التعسة. أما حداء جويس وبيبل، فستأخذه معنا».

وقف هانو يراقب كوربي وهو يعود ليُنْفَذ ما گلف به بقلق شديد لا يُبُرّه إلا مراعاة مشاعر سيدة قصر سوفلاك الشابة. ارتجف جسد السيد ريكاردو خوفاً عليها؛ فقد رأى هانو يعمل من قبل، ويذكر جيداً أنه لم يكن يوماً أكثر رقةً ولطفاً مثلماً يكون قبل أن ينقض على فريسته. لم يك كوربي يقطع نصف المسافة بين حوض الزهور والمنزل حتى ارتفع أخيراً صوت هدير محرك سيارة ثم توقف. أطلق هانو سباباً غير مسموع. وغمغم قائلاً: «لم أكن أريد حدوث ذلك». ثم رفع صوته وصاح: «اجِر يا كوربي، اجر!»

ثم ظل ينتظر في ترقب حتى اختفى كوربي داخل غرفة البرج. ولم يرفع عينيه عن الشرفة حتى رأى الحارس يعود عدواً نحوهم من ناحية الطريق. سأل كوربي بمجرد أن وصل إلى جواره: «ما الأمر؟ هل عاد؟» رد كوربي قائلاً: «لا، ولكن انتشرت الأخبار المؤسفة. كانت هذه سيارة بعض الجيران الذين حضروا للتقديم بطاقاتهم وتعازيهم». هدا هانو. وعلا وجهه راحة غامرة.

وقال: «حسناً! صديقي مورو، أحضر الجص واصنع قوالب من آثار الأقدام الصغيرة تلك على الفور. أما بالنسبة إلى آثار الأقدام الكبيرة تلك، فسوف نرى! كوربي، أريدك أن تواصل الجري، ولكنك ستتجري هذه المرة ناحية أقبية النبيذ لحضور البستانى. إذا لم يكن هناك، فستتجده يعمل بين كروم العنب».

كان البستانى رجلاً ضخماً الجثة مفتول العضلات ذا وجه بشوش أحمر مثل تقاضة يانعة، وكان يُشرف على نقل العنب من العربات الصغيرة ووضعه في الحوض المسطّح لعصره. عاد البستانى مع كوربي، وكان هانو قد عاد ليركع على ركبتيه عند حافة حوض الزهور، وقال شيئاً مفاجئاً دون أن يرفع عينيه نحو البستانى. قال: «لقد أمطرت في نهاية المطاف».

أجابه الرجل: «نعم يا سيدى. كما أردنا تماماً، أمطار خفيفة استمرت لساعتين كاملتين. سيكون هذا العالم عاماً جيداً، في نهاية المطاف.»

قال هانو بصوت خافت: «هذا رائع. في أي ساعة بدأ هطول الأمطار؟»

«عند منتصف الليل يا سيدى، أو بعده ببضع دقائق.»

نظر هانو لأعلى في حزم، وقال: «هل أنت واثق بذلك؟ هذا أمر على جانب كبير من الأهمية.»

ضحك البستانى، وقال: «سيدى، ليس من المحتمل أن أخطئ في ذلك. فـُكر في الأمر! كل منا مسئول عن رقعة صغيرة من كروم العنب. إن ساعتين من هطول الأمطار الخفيفة ليلة أمس من شأنه أن يحدث فارقاً كبيراً في العنب الخاص بنا. فبدلاً من أن يكون ذابلًا، سيكون نضراً. لم ينم جميع العمال في هذه المقاطعة جيداً ليلة أمس، أؤكد لك هذا. من منتصف الليل وحتى الثانية صباحاً. نعم يا سيدى، لقد كان مطرًا خفيفاً جيداً، وهو بمثابة الماء المقدس للعنب.»

كان امتنان الرجل الحار ومنطقية حجته مقنعين. فقال هانو: «حسناً إذن! لقد ألمطرت السماء من الثانية عشرة وحتى الثانية. هذا واضح..»

قال البستانى في نفس واحد: «واضح مثل السماء بعد انقسام السحب يا سيدى، واضح ومظلم. وبالنسبة إلى آثار حذائى الضخم على حوض الزهور التي كان السيد يفحصها بعناية فائقة، لا أرى أنها تضعني تحت طائلة القانون الجنائى.»

وجه هانو ابتسامة ساخرة للسيد ريكاردو، وقال: «إنها آثار أقدمك إذن؟»  
«نعم يا سيدى، أنا واثق بذلك.»

«أرني! وضع البستانى قدمه في أثر القدم الضحل. وكان مطابقاً تماماً.

سأل هانو: «متى تركت هذا الأثر؟»

«بالأمس يا سيدى. وكان من المفترض أن أمحو الآثار صباح اليوم، ولكن على الحقيقة أن تراعي نفسها بنفسها خلال هذين اليومين أو الثلاثة أيام.»

«أشكرك! هذا كل شيء..»

«هل يمكنني العودة إلى أقبية النبيذ يا سيدى؟»

قال هانو: «أرجو أن تفعل،» وذهب البستانى سائراً بطريقه خرقاء. في الوقت نفسه، وجه هانو ابتسامة خبيثة نحو صديقه ريكاردو. وقال: «أهاهاهاها! ماذا عن قصة الفرار واللاحقة الرائعة التي قلتها؟»

احمرَ وجه السيد ريكاردو. فقد كان يدرك أن المفوض يراقبه بنظره فضولية محرجة. فقد السيطرة على أعصابه ووجه اتهاماً خطيراً.

قال: «البستانى هو من كان يلاحق جويس ويبيل.»

قال هانو بسعادة غامرة وهو ينهض واقفاً: «آه! هكذا الأمر إذن. لقد أصبحنا نتمسّك بأرائنا. لقد حلُ اللغز. مرحى للسيد ريكاردو، العقل المدبر!» وأزال قبعته ذات الحافة العريضة المصنوعة من اللباد الناعم عن رأسه، وانحنى انحناءً بالغة حتى كاد رأسه يمس الأرض. وقال: «نعم، إنه البستانى. كانت الآنسة ويبيل تهرب بعد هطول الأمطار ... انظروا إلى الآثار العميقـة التي تركها حذاؤها الصغير! ... كان البستانى قد بدأ ملاحقتها قبل يوم من هروبها ... انظروا إلى الآثار الأكثر ضحالةً التي تركها حذاؤه الضخم ذو المسامير الحديدية في التربة الجافة. هل ترون؟ لا بد أنه أمسك بها. إنه لن يتمكن من مجارة سرعتها؛ ذلك الرجل الأخرق، ولكن إذا بدأ ملاحقتها قبل يوم من هروبها، فسوف يتمكن من الإمساك بها في نهاية المطاف، رغم بطئه. أسرعوا!! دعونا نضغط على البستانى، وسرعان ما سنعرف كل شيء.»

لم تكن ثمة إهانة تفوق ذلك الفعل المخزي الذي حدث. فقد أظهر هانو أسوأ ما فيه. قفز هانو على جسد صديقه وكأنه جاموس هائج. وترك هذا التصرف السيد ريكاردو معقود اللسان ومتلعثماً. ثم قال وهو يلهث بعد مدة: «لن أرد عليك.»

وأفقه المفوض هيربيستال قائلاً: «من الأفضل ألا تفعل.»

لحسن الحظ، تغيّر مزاج هانو سريعاً. ودار حول جانب الحوض إلى حيث كان الرجال الأربعـة الآخرون يقفون. ونظر إلى آثار الأقدام الصغيرة ومنها إلى الباب الزجاجي لغرفة البرج.

ثم قال: «لعلكم تتخيلون ما أشعر به من حيرة. في وقت ما بعد الثانية صباحاً، كانت جويس ويبيل تجري بسرعة كبيرة عبر المرج، وتغرس قدميها في حوض الزهور، ثم تواصل الجري. أنا واثق بهذا التقويم لأن آثار الأقدام دقيقة وواضحة. ومن المؤكد أنها حدثت بعد توقف الأمطار ببعض الوقت ما جعل التراب رقيناً - ما الكلمة التي تصف ذلك؟ - ولزجاً. لا ريب في أن هذا حدث بعد توقف الأمطار، وإنما لأصبحت هذه الآثار مُرقطة ب قطرات المطر ومطموسة. حسناً، إذن! في الثانية والنصف، مرّ شخص ما بسرعة من أمام نافذة المكتبة، واحتفى داخل غرفة الآنسة تاسبورو، وأقفل الباب، وانتظر في دُرّع مُجهزاً إصبعه على مفتاح المصباح الكهربـي. لقد سألت نفسـي، هل كانت جويس ويبيل

ملحقة حًقا من قبل شخص ما تمكَّن من الإمساك بها» ثم قال الكلمات التالية الواحدة تلو الأخرى ببطء «والذي كان يملك الحق في دخول غرفة الآنسة تاسبورو؟» لم يكن ثمة شك في هوية الشخص الذي يقصده هانو. ولكن لم يتمكن السيد ريكاردو من التوفيق بين هذا الاقتراح وصرخة الحزن التي انطلقت من بين شفتَيِ روبن وبيستر عند اكتشاف اختفاء جويس وبيبل. ولكنه كان في هذه اللحظة قد فاض به الكيل من وضع النظريات وإعطاء التفسيرات. علاوةً على ذلك،رأى هانو ينظر إليه بقلق شديد. ثم قال: «في نهاية المطاف، هل كنت مُحًقا يا صديقي؟ هل حدث شيء رهيب في هذه الحديقة مباشرةً قبل أن تتسلل إلى المكتبة لتحضر كتاباً؟» قال المفوض: «لم يسمع أحد صراغًا».

وافقه هانو قائلاً: «هذا صحيح، وفي ليلة هادئة، كانت صرخة واحدة تُسمع من مسافة بعيدة. نعم!» ثم صمت والقلق باِ على وجهه لبعض لحظات، ثم هزَّ كتفيه الضخمتين. وقال: «دعونا نتتبع مسار هذه الآثار. إنها لن تقودنا إلى حيرة أسوأ من التي نعيشها بالفعل».

ترك مورو يصب الجص السائل على آثار الأقدام، وتقدم إلى الأمام ومعه كوربي حاملاً حذاء جويس وبيبل. لاحظ السيد ريكاردو أن مسار خطوات الأقدام بدأ عند باب البرج وتقدم قُطريًّا عبر الحديقة وصولاً إلى حوض الزهور. ومن بعد حوض الزهور، كان يستمر نحو النهر، ويمر مباشراً تحت الأشجار الأخيرة من طريق الأشجار. كان هانو يسير على طول هذا المسار متمهلاً وعيناه مثبتتان على الأرض ولسانه لا يكفي عن الشكوى.

قال: «كانت النساء يحببن تقديم المساعدة عندما كنت شاباً. كنَّ يرتدين دبابيس - دبابيس في شعورهن ودبابيس في ملابسهن - وكنَّ يُسقعنها في كل مكان بمجرد أن يبدأن العدو. آه!» ثم توقف عند حفرة صنعها كعب عالي، ثم واصل حديثه قائلاً: «كما كنَّ يرتدين تنورات، وكانت تعلق في الكثير من الأشياء وتترك أثراً خلفهن. أما الآن، أصبحت ملابسهن تشبه القفازات و... أوه!» كان قد اكتشف حفرةً أخرى في العشب صنعها كعب مدبو. وقال: «على أي حال، نحن على المسار الصحيح؛ وتحت أغصان الأشجار عند نهاية الطريق، توقف للمرة الأخيرة.

وقف رفاقه بجانبه، وأشار نحو الأرض من دون أن يتكلم. كان العشب تحت أغصان الأشجار مسحوقاً أكثر مما هو عليه في المساحة المفتوحة. لم تصل إليه أشعة الشمس

لتُجفّفه، كما أن الأشجار كانت تقطّر عليه ماءً لمدة طويلة بعد توقف هطول الأمطار. وفي هذه البقعة من العشب المبلل اللين، كان هناك أثر قدّمَن ظاهرين بوضوح، ولكنهما كانا متّجاوزين وقريبين من بعضهما، كما لو أن شيئاً في هذا المكان جعل الهاوية تتوقف وتتّسّم مكانها.

قال هانو: «نعم، لقد جفلت هنا وتسّمرت مكانها، فجأة. أيها الشاب كوريبي، طابق  
الحذاء.»

ركع كوريبي على الأرض ووضع الحذاء اللامع في آثار الأقدام، ومرةً أخرى كان مطابقاً تماماً، وراودت جميع الحاضرين رؤية واضحة خاطفة قبضت قلوبهم. رؤية عن فتاة تهرب في رعب، لكنها توقفت عن الهرب فجأة، وظلت واقفةً في الظلام تحت أغصان الأشجار بقدمين مضمومتين، وقد تصّلّب جسدها من الخوف، وقلبه يدق بعنف في صدرها وصرخة ماتت على شفتيها.

وقف هانو خلف آثار الأقدام ونظر إلى الأمام. وجد أنه ينظر مباشرةً إلى المرفأ الصغير المبني على ضفة النهر. صاح السيد ريكاردو. وقال: «بالطبع! بالطبع! الزورق! التفت هانو نحوه بسرعة خاطفة.

«الزورق الذي يحضر احتياجات القصر من بوردو، لا بيل سيمون. كان راسياً هنا في المرفأ بالأمس ومعه خزین القصر. وكانوا سيبدئون رحلة العودة مع تغيير المد في الصباح الباكر في تمام السادسة. نعم، لقد تحدّثت مع قبطان الزورق عصر الأمس؛ في السادسة. لقد جرت جويس وبييل نحو الزورق لتحتمي به.»

سأله هانو بحماسة ومن دون أي أثر للسخرية أو الاستهزاء في صوته: «لماذا توقفت هنا تحت الأشجار إذن، في الثانية والنصف صباحاً؟»

كان السيد ريكاردو يمتلك تفسيراً. فقال: «لقد رأت صارية شراع الزورق يشق السماء، وربما رأت ضوء مصباح أيّضاً يهتز وسط حبال الصارية. إن المرفأ يبعد عن هنا بضع خطوات فحسب. لقد أدركـت أنها أصبحـت في أمان.»

كشف صوت السيد ريكاردو عن الراحة الكبيرة التي يشعر بها. كان يتمنى بشدة ألا يلحق بتلك الفتاة الحنون ذات الجمال الباهـر أي آذـى، والتي فضـضـت له بـمشـاعـرـها ومخـاوفـها عـلـىـ صـديـقـتهاـ فيـ لـيـلـةـ صـيفـيـةـ فيـ لـنـدـنـ. كانتـ فيـ أـمـانـ –ـ كانـ هـذـاـ هوـ الـاعـتـقادـ الذيـ أـبـهـجـهـ –ـ كانتـ آمـنـةـ عـلـىـ مـتـنـ الزـورـقـ، وـربـماـ أـصـبـحـتـ فيـ هـذـهـ الـلحـظـةـ قـرـيبـةـ لـلـغاـيـةـ منـ الرـسوـ عـلـىـ رـصـيفـ مـيـنـاءـ بـورـدوـ. ولـكـنـ لمـ يـكـنـ هـانـوـ يـشـارـكـهـ اعتـقادـهـ. فقدـ ظـلـ وـاقـفـاـ فيـ وجـومـ زـاماـ شـفـتـيـهـ وـمـقـطـبـاـ جـبـينـهـ.

فكَّر السيد ريكاردو في ضيق وخيبة أمل: «هذا الرجل لن يقنع بأي شيء لا يكتشفه بنفسه». فإن لم يقنع هانو، فربما كان يمتلك سبباً لعدم الاقتناع. قال هانو: «لتر. أنا أدعوك جميعاً لأن تظلو واقفين حيث أنتم تماماً».

وتقدَّم بمفرده، بسرعة أبطأ كثيراً مما سبق وظل يفحص الأرض بتدقيق أكبر. ومع كل خطوة خطها، كان ريكاردو يتوقع أن يدعوه للتقدم. ولكن لم يحدث ذلك. واصل هانو فحصه حتى وصل إلى رصيف المरفأ، وظل هناك لمدة طويلة يذرع المكان جيئةً وذهاباً عدواً. ثم رفع يديه في الهواء تعبيراً عن الإحباط، ثم أسرع عائداً إلى رفاته.

قال وهو يشير إلى فردتَي الحذاء الموضوعتين جنباً إلى جنب: «لقد توقفت هنا! ولا توجد أي آثار أقدام بعد ذلك. في المنطقة المجاورة للمرفأ، هناك حصى ملطخ بالطين نثر عليه المد العالي المياه. من المفترض أن يكون هذا أكثر مكان نجد فيه آثار أقدام مطابقة لهذه. ولكن لا وجود لأي آثار أقدام. نعم، لقد وُجِدت آثار لحذاء ثقيل مدموج بالحديد، ولكن لا أثر لهذا الحذاء الصغير، لا! لم تقترب الآنسة جويس ويبيل من المرفأ لما هو أبعد من هذه النقطة التي نقف عندها. مهلاً».

تحرَّك فاحصاً الأرض الرطبة والنهر، ثم انتقل نحو أسفل الأشجار. كان هناك مسار واسع مرصوف بالحصى يمتد من منتصف الطريق، وعند نهايته يضيق إلى أقل من نصف عرضه، ثم ينحرف إلى اليمين باتجاه الرصيف. وعند نقطة التقاء العشب بالمرمر المرصوف بالحصى، وجد آثار الأقدام مرةً أخرى. وأشار إلى رفاته أن يأتوا إليه. كان أثر القدم اليمني يُشير إلى ناحية الطريق وكانت ظاهرةً عند حافة العشب. وكان أثر القدم اليسرى متأخراً عن الأثر الآخر، وكان يُشير في اتجاه المرفأ الصغير، وكان الأثراً يصنعاً زاويةً منفرجة.

قال هانو: «لقد صارت القصة أكثر وضوحاً الآن. خرجت هذه الشابة تudo من المنزل عبر المرج مذعورة. وكانت عيناهَا الخائفتان تنظران إلى الخلف باستمرار، ثم تتعرَّ في حوض الزهور، وتعبره، وتواصل العدو حتى تجفل بسبب شيء ما، ويُسمِّرها مكانها. ثم تُفيق مما أصابها من رعب، وتستدير جانبًا لتخبيء بين الأشجار، ثم تبدأ العدو مجدداً، ولكن بخفة هذه المرة، على أطراف أصابعها، ولا تقاد قدماها تمسان العشب. وبمجرد أن اختبأت بين أغصان الأشجار، توقفت عن العدو، وشعرت بالأمان في هذه اللحظة، وظلَّت واقفةً في مكانها، ولكنها كانت تنظر خلفها، نعم، كانت تنتظر في اتجاه المرفأ». وبدأ يثبت فرضيته بأفضل طريقة رآها ممكنة. وراعى ألا يُفسد أثر القدمين على

العشب وهو يُقلّد الحركات التي كان يصفها. وعندما توقف، أخذت قدماه بطبيعة الحال الزاوية نفسها التي صنعتها أثر قدمي جويس وبيبل بدقة.

وكَرَّ ما كان يقول بمزيد من التأكيد: «نعم، لقد نظرت ثانيةً ولبعض الوقت في اتجاه المرفأ – لكي تتأكد – ولكن ممّ؟»

ظهر الكثير من التخيّلات المقيّدة أمام عيني السيد ريكاردو. ربما رأت خيالاً للسلة يوضع على متن الزورق، وربما خَمَّنت بطريقة ما الرعب الذي تحويه. ربما رأت إيفيلين ديفينيش تُقتل ويدها تُقطع بفأس بكل وحشية. كما تخيلت قبطان الزورق وابنه يطيان الأوامر القاسية لشخص ما؛ ولكن قبل أن يرِكَّز ريكاردو على هُوية صاحب الأمر، انطلقت صيحة نصر قصيرة من بين شفتَي هانو. كان هو أيضاً يقف مُحدّقاً في النهر في الأسفل، وكان هو أيضاً مصعوقاً، ولكن بسبب الأمل لا الذعر.

وصاح بصوت مفعم بالانفعال: «هذا مُؤَكَّد تماماً! مُؤَكَّد تماماً!» ثم عاد يجري نحو المكان حيث كانت فرديتا الحذاء اللامع موضوعتين متباورتين على العشب، ووقف خلفهما. ثم صاح مُحدّثاً ريكاردو: «يمكنك أن تقول إنني قد أصبحت مسناً. نعم، نعم! هانو المسكين! لقد أصبح خَرْفاً بعقل مهترئ! لا بد أن الأمر كذلك! أوه أوه!»  
كان ضروريًّا أن يقطع السيد ريكاردو هذا الحديث، لا لينهي تبُّجُّ هانو فحسب، بل أيضاً لكي يُشَبِّع فضوله.

فقال مقترحاً بصوتٍ لاذع: «ألا يجدر بنا أن نعتبر أن جميع باقات الزهور قد رُميَت عليك حَقاً ونستمر في الاهتمام بالأمور المهمة؟» انحنى هانو بحدة حتى كاد يمس الأرض. وقال: «سنفعل ما يأمِننا به مولانا. لا غَايَة لـنا في الحياة إلا إرضاء مولانا. نحن خدم مولانا. مولاي، العربية تنتظر». وحَكَ جلده وعبس وكأنه صبي يلعب في المجارير. لا ريب في أن السيد ريكاردو فَكَرَّ أن هانو لا يُحتمل عندما يمرح. لحسن الحظ أنه لم يظل في تلك الحالة لمدة طويلة. فقد اختفى مرحه.

وقال: «لم يكن ما رأته جويس وبيبل هو ما جعلها تتخل واقفةً هنا وسلسلَ قدميها فلم تتحرّكا. لا يا صديقي. إنه ما لم تره. لقد ظلّت تجري في خط مستقيم تماماً من المنزل وحتى الزورق. فقد كان هذا أملاها في النجاة؛ نعم، لا ريب في ذلك. وفجأة، هنا عند نهاية الطريق، عندما أصبح المرفأ في مجال رؤيتها. لم يكن هناك زورق. كان قد رحل.»

«قبل موعده؟»

«نعم.»

«وفي عكس اتجاه المد؟»

((نعم.))

«مَا؟»

أجاب هانو بجدية، ولم تكن ثمة حاجة لأن يُوضّح أكثر من ذلك: «ألا يُمكننا جميـعاً أن نُخـمن السبـب؟» عادت إلى ذاكرة رفاق هانو تلك اللحظات عندما عثر الصبيان اللذان كانوا يلعبان بجانب النهر في الصباح الباكر، حيث كانت السلة بحمولتها المأساوية تتـأرجـح برفق فوق تـموجـات الماء، وتقرب بـطـء من الضـفة الأقرب من البحر بـمسـافـة تسـعة أمـيـال، الأمر الذي قدـم سـيـاً مـقـنـعاً لـرحـيل الزـورـقـ المـتعلـلـ.

وأصل هانو حديثه في جديه: «سيد ريكاردو، يُقال إنك ذكرت في جميع أطروحاتك وكتبك أن ثمة فارقاً واحداً كبيراً بين الشرطة الإنجليزية والشرطة الفرنسية. فبينما تتقدون أنتم بحضر كلما تكتشفت حقيقة جديدة، فإننا نتخطى الحقائق ونثق بالحدس. ولا ريب في أنني أثق بحدسي الآن. لقد وقفت هنا، تلك الشابة، وقلبها يرتجف في يأس. ثم استدارت. عليها أن تتعثر على مخبأ آخر. ت العدو نحو الطريق حيث ستحفيها الأشجار، وعندما تصل إليها، تتوقف وتلتقي نظرة أخرى خلفها نحو المرفأ. فربما ضللتها عينها. وربما ترى صارية الشارع بارزةً وسط السماء. ولكن، لا! فتتطلق عدواً من حديد!»

حرّك ذراعه باتجاه طريق الحصى بحركة واسعة. تأثر السيد ريكاردو نفسه بقدرة صديقه على الإقناع وشغفه. لم يكن لديه أدنى شك في أن تفسيره هو التفسير الصحيح. كانت جويس وبييل تفرّغان مرعوبةً على هذا الطريق. بدأ يربط الحقائق التي يعرفها بالحدس الذي يثق به، ثم فجأةً، حتى حمل ثقل من الندم ظهره لدرجة أن رفقاء قلقوا بشأنه. فقد شحب وجهه، ووقف مكانه يرتجف وكأنه دخل في حالة من الذعر.

سأله هانو وهو يعدو ليقف بجانبه ويسنده من ذراعه: «ما الأمر؟ هل أنت مريض؟ لا، لا!»

قال السيد ريكاردو متلعمًا: «لا، لست مريضًا. بل أشعر بالعار. ربما كانت جويس ويبيل هي التي مررت مسرعةً بجانبي في الشرفة، وبعد ذلك فررت من هنا إلى الطريق. لنفترض أن هذا ما حدث! لنفترض أنها من تسلي إلى غرفة البرج! لنفترض أن الغرفة كانت فارغةً لسبب نجهله عندما دخلتها! لنفترض أن جويس هي من أقفلت الباب وانتظرت في رعب واضعه أصابعها على مفتاح المصباح! لنفترض أنها بعد أن أطفأت الأنوار، تسليت عبر الدرج إلى غرفتها! لعلك تذكر الغراش الميعثر والسؤال الذي طرحته

أنت: «هل أخذت من هذه الغرفة رغمًا عنها؟» حسنًا، كان بمقدورِي إنقاذهما. نعم، كنتُ أستطيع ذلك. كان كل ما عليّ فعله هو أن أخرج من المكتبة إلى الشرفة مباشرةً عندما مرت أمامي كي أريها من أكون». قال هانو معارضًا: «لم تكن لتنظر حتى ترى».

«ربما كان يجدر بي أن أتحدث عبر الباب الزجاجي بعدما انطفأت الأنوار. ولكنني لم أفعل! تركتها تعتقد أني واحد من يلاحقونها؛ كنت مضطرباً و....» ثم صمت فجأةً ووقف مكانه دون حراك. وعاد يقول: «مضطربًا! لا! لقد كنت خائفاً. كان بمقدورِي إنقاذ جويس ليلة أمس، ولكنني كنت خائفاً».

جعلت فورة غضب السيد ريكاردو الجميع يشعرون بعدم الارتياح، فربت هانو على كفه برفق.

وقال: «ولكنا لم نفقد الأمل في العثور على جويس بعد».

ولكن هذا لم يخف عن السيد ريكاردو. كان جُبنه سيصبح، في خلال دقيقة أو اثنتين، رفاهيةً أمام ما كان سيحدث له، ولكن لحسن حظه اكتشف كوربي، الحراس، لغزاً آخر زاد الأمر تعقيداً على تعقيداً.

فقد صاح بصوت بَحَثَ الانفعال وقد جحظت عيناه من مُحْجَريهما: «سيد هانو. انظر! انظر!»

كان يقف في المساحة الخالية من الأشجار عند نهاية الطريق على بعد بضع ياردات من حيث يقف الرجال الآخرون، وبذراع مرتعشة مبوسطة عن آخرها، أشار نحو الأغصان السفلية لواحدة من الأشجار.



## الفصل الثاني عشر

# القناع

كانت الصيحة ملحةً للغاية حتى إن المسألة الحساسة المتعلقة بسلوك السيد ريكاردو قد نُسيت تماماً. كان ثمة اندفاع نحو فيكتور كوربي، ولكن لم يتمكن أحدٌ من رؤية ما يراه حتى أصبحوا بجانبه. أصاب الجميع صدمة غريبة عندما رأوا المشهد وتولّد في أنفسهم الانزعاج الذي عادةً ما تتركه الأمور الغريبة والعجبية لدى البشر. ربما أصبحوا جميعاً على استعداد لأن يغفلوا ويروا العجائب أيّنما نظروا على هذا الطريق. كانت عيونهم الجاحظة تحاول أن ترى من بين أوراق الأغصان ما يشير إليه كوربي، ورأوا وجهها ورأساً يطّلّان عليهم من أعلى كما لو كانوا يراقبانهم. تصادف أن غصنًا صغيراً كان يمر أمام العينين فأخفاهم، ولكن بقية الوجه كانت ظاهرة. كان الوجه محمراً مع شفتين متورمتين، ولم يكن لونهما أحمر بل أرجوانياً داكناً. أما الشعر، فكان على النقيض، ذا لون أحمر فاتح. كانت ملامح الوجه جميلة، ولكن كان المشهد بأكمله مرعباً، مرعباً للغاية.

كانوا لا يزالون يتأملون هذا المشهد العجيب عندما هبّ ريح خفيفة أزاحت الغصن الصغير الذي يُخفي العينين، ورأوا على الفور أنه على الرغم من وجود رموش طويلة سوداء، رموش ناعمة لفتاة جميلة، لم تكن هناك عينان. لم يكن الوجه سوى قناع، ولكنه كان مصنوعاً بمهارة مذهلة.

قال هانو: « علينا أن ننزله من مكانه.»

لم يكن القناع على ارتفاع كبير فوق رءوسهم، ولم يكن في حاجة إلا إلى عصا ذات المقبض المعقود ليتمكن من إزالته. سقط القناع على الأرض، وانحنى هانو والتقطه. كان قناعاً مصنوعاً من عجين الورق؛ ليس أكثر. ولكنه أعطاه إلى فيكتور كوربي وقال: « ضعه على وجهك!»



ظلوا واقفين مكانهم في رعب يُحَقِّقون في الوجه، أو الرأس، الذي كان يُطل عليهم من أعلى الشجرة، تكاد الأغصان تخفيه. كان المشهد مروعًا، فتملّكهم الذعر.

ألقى فيكتور كوربي قُبعته على الأرض، وملأت ابتسامة سعادة ريفية وجهه بينما كان يضع القناع على وجهه ورأسه، وتحوّل في لحظة من ريفيّ خفيف الظل بشوش الوجه إلى كائن مرعب، كائن يفر المرء من أمامه مذعوراً. لم يُصدق السيد ريكاردو أن مثل هذا التحول من النقيض إلى النقيض ممكناً. وعلى الرغم من جمود ملامح القناع، كانت حية؛ أجل، حية. وأعطاه الشعر الأحمر الناري لحةً أخيرة من قوة خارقة. أينما كان ينظر كوربي، لم تتغير الملامح البادية على القناع. بل على النقيض، كانت تبدو جميلةً وحزينة للغاية، ومنحت الرموش السوداء الطويلة الناعمة، حتى لأعين جاحظة مثل عيني

كوربي، حزناً سرمدياً. كان هذا القناع يصلح ليكون وجه اليهودي المُتجول بفضل سمة واحدة من سماته. كان شريراً - جميلاً، وحزيناً، وخيلاً للغاية - كان قناع الشيطان، باختصار. كان هذا هو الانطباع الذي يتركه في نفوس الناس، لدرجة أنه عندما خلعه كوربي عن رأسه، تساءل أحد الرجال الذين كانوا يشاهدونه عما إذا كان في الحقيقة شيئاً متنكراً في هيئة شاب قروي وقد أعطاهم لمحّة عن هيئته الحقيقية.

قال هانو: « علينا أن نحافظ على هذا القناع في حالة جيدة أيها المفوض». ولفَ القناع في منديل كبير ملون أخرجه من جيده. وقال: « ثمة رجلان فقط في العالم يمكنهما صنع مثل هذا القناع. أحدهما في أمريكا. والآخر موجود في استوديو في نهاية شارع هايماركت في لندن. علينا أن نعرف في أقرب وقتٍ ممكِن من منهما صنعه، ولصالح من. وحتى نفعل ذلك، أرجو ألا يقول أحد أي شيء عنه ». نقل عينيه بين وجوههم ليفرض أمره عليهم جميعاً، وواصل حديثه بتلك الجدية الهدائة التي لم يسمعه السيد ريكاردو يستخدمها من قبل إلا مرة أو مرتين فقط: « أعتقد أن جريمة قصر سوفلاك على صلة وثيقة بهذا القناع. أعني أنه عندما تتكشف جميع الحقائق في نهاية المطاف، سنكتشف أن ما حدث كان أمراً غير إنساني وشريراً. أعتقد أنه كان فعلًا عديم الشفقة. لذا، علينا نحن أيضاً أن تكون عديمي الشفقة ». واقشعر بدن السيد ريكاردو.



### الفصل الثالث عشر

## وجهات نظر متباينة

أعطى هانو أمراً للحارس. قال: «خذ هذا الحذاء وغطّه جيداً وأعطيه إلى سكرتير المفوض. ثم أخبر مساعدي بعدما ينتهي من عمله عند حوض الزهور أن يأخذ قوالب آثار الأقدام أيضاً ويغطيها».»

التقط كوري الحذاء وأسرع يجري على الطريق لينفذ ما أمر به. وتبعته بقية مجموعة البحث على الطريق نفسه ولكن بسرعة أبطأ.

وعندما أصبحوا على مسافة ٢٠ ياردة من المنزل، ظهر رجل ضئيل الحجم بدین يرتدي زي كاهن ويضع حزاماً قرمزيّاً على خصره على عتبة نافذة غرفة الاستقبال، ونظر حوله في حذر. كانت ثمة حالة غريبة من السرية تُحيط بمظهره. وعلى الرغم من أن هانو بدا غارقاً تماماً في أفكاره، فقد رأه على الفور. فتوقف عن السير، وأشار للآخرين بأن يتوقفوا أيضاً.

وسأل بصوت خافت: «من هذا؟»  
ردّ عليه المفوض هيربيستال: «إنه القس فاوربيه.»

قال هانو: «آه، نعم!»  
ولكنه لم يواصل السير.

بل همس قائلاً: «اثبتو مكانكم»، فوقفوا يراقبون تحركات القس محتمين بالأشجار. تسلّل القس على أطراف أصابعه إلى حافة الشرفة، ثم دار حولها فاحصاً النوافذ العليا للبرجين. وعندما اطمأنَّ أن لا أحد يراه من نقاط الرؤية هذه، تحرك على طول الأرضية الحجرية في اتجاه طريق الأشجار، ولكنه كان يتحرك ببطء دون أن يرفع عينيه عن الأرض وكأنه يتوقع أن يتعرّض في عقبة. وعندما وصل إلى باب غرفة الطعام الزجاجي،

تنبهًه مجدداً. ونظر إلى داخل الغرفة، ووقف على أصابع قدميه حتى يتمكن من الرؤية بصورة أفضل، ثم عبر الشرفة بوتقة متغيرة عديمة الصوت، وألصق وجهه بالزجاج. همس السيد ريكاردو في انزعاج: «هذا غريب للغاية». كان مشهد قس يتخصص من المشاهد غير المقبولة بالنسبة إليه.

قال هانو: «صِهِ!»، ثم قال مخاطبًا نفسه: «كم من الوقت بقي القس في غرفة الاستقبال ليُقدم تعازيه؟»  
أجابه المفوض.

قال: «لم يكن نيافة القس ينتظر من الأساس. لا، أنا متأكد! أعتقد أن هناك شيئاً يود قوله، ما دام ينتظر هكذا. أوه! إن القس رجل ملتزم بالرسميات. ولقد التقى سيدات سوفلاك حقاً».

قال هانو وقد ظهرت في صوته نبرة تنم عن الاهتمام: «أوه! هل فعل؟ أخبرني بما حدث إليها المفوض..»

«لقد جاء قبل أن تعود وصديقه من فييلبلانش. وطلب مني أن آذن له بأن يُقدم خدماته الكهنوتية للسيدات. صحيح أن السيدات يتبعن الذهب البروتستانتي، ولكن في مثل هذه الفاجعة، يُنسى الاختلاف بين المعتقدات..»

قال هانو معلقاً برفق: «وهل أعطيته الإذن؟»

أجاب هيربيستال في حزم: «من دون أدنى تردد..»

أمال هانو رأسه. لا يمكن حتى للمحققين المشهورين من جهاز الأمن العام في باريس أن يعادوا مفوضي الشرطة إذا كانوا يودون أن تسير تحقيقاتهم بسلامة.

قال هانو معلقاً، وكأن لا شيء سمعه حتى تلك اللحظة أسعده أكثر من ذلك: «وكنا تحت رقابة القس طوال هذه المدة..»

رد عليه هيربيستال: «لم يحدث شيء من هذا القبيل. قابل القس الآنسة تاسبورو أولاً، ولم يقض وقتاً طويلاً معها. ثم توجه على الفور إلى غرفة السيدة تاسبورو التي توجد في الجناح الخلفي ولا تُطل على هذه الناحية من الأساس..»

فكَّر السيد ريكاردو أن ثمة خطأً فيما قال. من المهم معرفة متى غادر القس الغرفة في ذلك الجناح وتسلل إلى غرفة الاستقبال. ولكنه لم يصرّح، وقال لنفسه: «يبدو أن المفوض مصاب بعقدة فاوربيه». ترك الأمر برمهته في يد هانو، ولكن كان هانو قد عاد مجدداً لمراقبة الشرفة بعينين لا تطرفان.

بعدما اطمأنَّ القس أن لا أحد في غرفة الاستقبال قد يراه، استدار نحو غرفة ديانا تاسبورو وعاد يسير بالطريقة الشاردة نفسها في ذلك الاتجاه. أطلق هانو صافرةً خافتة، وسأل المفوض من دون أن يرفع عينيه عن الشرفة ولو لحظة واحدة: «هل قابل ديانا تاسبورو في غرفتها في ذلك البرج هناك؟» «بالطبع..».

«والآن، ها هو يعود إلى الغرفة رغم أنها فارغة. نعم، كما يقول صديقي السيد ريكاردو، هذا أمر في غاية الغرابة.»

اقترب القس من البرج أكثر فأكثر، ثم دخل فجأةً عبر الباب. بدا أن هانو كان يتوقع أن يفعل ذلك. فخرج من مخبئه كلمح البصر. وعدا بسرعة لا تناسب مع ضخامة بنيته. ووصل إلى الشرفة قبل حتى أن يبدأ رفاته بالتحرك. ثم عدا عبر الشرفة دون صوت كما لو كان يرتدي حذاءً مطاطيًا مراعيًّا أن يظل قريباً من نوافذ المنزل. ثم توقف عند الزاوية التي يصنعها بروز البرج. لا ريب في أنه لم يسمعه أحد، وأنه لا يمكن أن يراه أحد حيث يقف. ومن ناحية أخرى، لم يكن ليتمكن من رؤية أي شيء يفعله القس داخل غرفة ديانا تاسبورو. ولكن بدا أنه لا يمانع ذلك. فقد ظل واقفاً في مكانه في صبر تام. كان أصدقاؤه قد أصبحوا في نطاق السمع قبل أن يظهر القس الذي كان لا يزال يتصرف وكأنه فيلسوف غارق في تأملاته ولا يعرف إلى أين تقوده قدماه. غير أن حدثاً مفاجئاً أيقظه من هذه الحالة. فقد تسلل هانو خلفه وانحنى وقال في أذنه: «نیافة القس،»

استدار القس حول نفسه في ارتباك شديد. ورفع هانو، الذي كان ممسكاً بالقناع الملفوف بالمنديل في يده اليسرى، قبعته بيده اليمنى وانحنى في احترام.

وقال: «لا ريب في أنك لاحظت أن إعادة التنظيم البسيطة قد تمت، أليس كذلك؟» رغم أن العبارة كانت غريبةً على سمع السيد ريكاردو والمفوض، فإنها كانت تحمل معنى واضحاً تماماً بالنسبة إلى القس فاوربيه. فقد بدا الرعب جلياً في عينيه، وهرب الدم من وجنتيه، تاركاً إياهما مرقطتين ببقع حمراء، واصفرَ أنفه والجلد تحت عينيه بلون الشمع. وبدا وجهه في ثانية واحدة وكأنه انكمش ونحل. كان رجلاً قد بلغ من العمر أرذله. ولكنه كان يملك روحاً شابة. فرفع رأسه عالياً، وحلَّ محل الرعب في عينيه لمعة تحدُّ. ونصَّبَ قامته، ثم التفت قليلاً نحو المفوض هيربستال، وقال بصوتٍ جاف: «لا ريب في أن هذا الرجل هو السيد هانو الشهير الذي يتحدث بالألغاز. فالألغاز هي الطريق المختصر لتحقيق الهيبة والشهرة، كما أنها تبدو مخيفةً للغاية بالنسبة إلينا نحن عشر الريفين ذوي الفهم البطيء..»

كان هذا إعلان حرب واضحاً وصريحاً؛ تخيل السيد ريكاردو، بطريقته الخاصة، القس الضئيل والمحقق الضخم وكأنهما داود وجالوت. لا ريب في أن هانو قد وضع فخاً، ولكن رفض القس الواقع فيه. والآن، بعد أن تمالك نفسه، ووقف يرتجف قليلاً من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه، ليس من الخوف، بل من تركيز إدراكه بالكامل، بدا كرجل ضئيل من الأفضل الحذر منه. وتساءل السيد ريكاردو عما إذا كان يُخفي مقلعاً في ثيابه، مجهزاً بحجر كبير وثقيل.

قال هانو: «إذا كنت قد واريت ما أعنيه يا نيافة القس حتى لا يتمكّن أحد من فهم ما أقصد إلا أنت، ويبعدو أنك فعلت، فيجدر بك أن تشكرني على مراعاتي، لا أن تلومني. ولكن بما أنك لا تُحب الغازى، فسألأك الآن بكل وضوح عن سبب وجودك داخل غرفة الآنسة منذ لحظات مع مراعاة لا يراك أحد؟»

«سأجيئك بأن عليَّ واجبات يجب أن أؤديها، مثلك تماماً يا سيد هانو. ويمكن القول إن واجباتي تبدأ من حيث تنتهي واجباتك أنت، وهذه هي الحقيقة. وجميع هذه الواجبات مؤسفة، وشاقة، وسرية. ولكن إذا أردت أن يبارك قس مسكون واجباتك، أيَّا كانت»، وأضاف بنبرة مرحة: «فلا أمانع في أن أمنحك إياها». ثم سار متقدماً بانحناءة بسيطة، إلا أن هانو دار على عقيبه كجندي، قفز إلى جواره بدقة تامة، وكأنه ترس يتطابق مع مسننات عجلة.

وقال في هدوء: «بالتأكيد. سألهي القبض على المجرم أولاً، ثم تنفذ أنت روحه بعد ذلك. أرى أن هذا توزيع صحيح لواجبات كلٍّ منا. ولكننا نشارك في الواجب الثالث نفسه أيها القس..».

قال القس: «بل ألف واجب يا سيد هانو. ظللت أعلم الناس الدين طوال ٣٠ عاماً، ولكنني لم أصل إلى نهاية واجباتي بعد».

«ولكن ثمة واجب واحد أهم منها جميعها..»

أدرك القس الضئيل أن الضربة آتية.

فقال: «أدرك ذلك يا سيد هانو..».

«واجب المواطن الصالح..»

«صحيح ما قلت..».

«وفي ظل ضغوط هذا الواجب الثالث، قد يتداخل واجب أو اثنان في بعض الأحيان..»



ابتعد القس مرتعباً. فقال هانو في هدوء: «بالتأكيد. سأُلقي القبض على المجرم أولاً، ثم تُنفذ أنت روحه بعد ذلك.»

كان الرجلان يسيران جنباً إلى جنب بعيداً عن المفوض والسيد ريكاردو. ولم يمانع السيد ريكاردو ذلك؛ فقد كانا لا يزالان ضمن نطاق سمعه. ولكن، رغم أن القس لم يُبدِ أي إمارات على التعجل، كان ينحرف بثبات نحو باب غرفة الاستقبال.

رَدَ القس: «عندما يحين ذلك الوقت، أُؤكّد لك أني سأؤدي واجبي على أكمل وجه.»

«لقد حان ذلك الوقت أيها القس..»

«لا أعتقد ذلك يا سيد هانو، وأنا الوحيد الذي يمكنه تحديد ذلك.»

«أرجو منك أن تتنظر في هذه المسألة بتمعن أكبر يا نيافة القس.»

كان الحوار برمهته جافاً، ورسمياً، ومُهذّباً، رغم أنه من حين لآخر كنت تسمع نبرة صوت غاضبة، أو كلمة لاذعة يتم التراجع عنها سريعاً، ما أظهر العداء الشديد بين الرجلين. ولكن جعل هذا الاحتقار القس فاورييه ينزل.

فقال بشفتيين مضمومتين: «إن أي شيء تقوله يا سيد هانو سيجعلني بالطبع أمعن التفكير في كل شيء». وسرعان ما استغلَّ هانو هذه الزلة.

فقال: «إن ما أقول مجرد مثال يا سيدتي. على سبيل المثال، هناك مسألة سرقة ملابسك الكهنوتية ليلة أمس».

ارتَّج وجдан القس. وكان الدليل على ذلك هو أن توقفَ عن السير وصمت لثانية. ثم عاد يتحدث بنبرة تنم عن لوم الذات:

«سيد هانو، لقد كنت أتحدث بلا مبالغة في هذا المنزل ليلة أمس. أنا أشعر بالخجل، وفرضتُ على نفسي كفارات معينة عقاباً. وجدت ملابسي الكهنوتية معلقةً في غرفتي الكنسية صباح اليوم، وارتديتها في وقت مبكر عند الساعة السادسة، عندما سعيت للحصول على بركة القديس متى لكرور العنبر الخاصة بنا أمام جمهور متواضع مكون من امرأتين مسننتين فحسب».

بدت الدهشة واضحةً على وجه هانو. فصاح: «هل أُعيدت إليك في الساعة السادسة من صباح اليوم؟»  
ابتسم القس.

وقال: «نحن، من لا نعمل في مهنتك نفسها يا سيد هانو، يُسمح لنا بأن نمتلك روحًا متسامحة بما يكفي لأن نعتقد بأنها لم تُسرق من الأساس».

قال هانو بخشونة: «هذا غير مقبول». كان الرجلان يقفان وجهاً لوجه، وكان القس يُخفي ما يعرف خلف قسمات وجهه الجامدة، وبينما كان هانو ينظر إليه من أعلى كما لو كان يستجوبيه. وأهملت المجاملات المهدبة على غرار «نيافة القس» و«السيد هانو» مثلاً تهمل النساء فساتين السنة الماضية القديمة. وقال هانو: «إنك لم تعثر على ملابسك الكهنوتية كاملةً في غرفتك الكنسية صباح اليوم. وهناك واحد في مشرحة فييلبلانش ملطخ بدماء شابة تناولت العشاء معك على الطاولة نفسها في هذا المنزل ليلة أمس، وقتلت بوحشية بعد ذلك».

كتم السيد ريكاردو بالكاد صيحةً كادت تفر من بين شفتيه، عندما فهم استقراء هانو الدقيق بأن ثوب الكاهن هو نفسه قطعة الكتان الناعم المزقة التي كانت جثة إيفيلين ديفينيش ملفوفةً فيها. ولكن كان القس هو من أطلق تلك الصيحة. وفغر فاه، ووقف في مكانه يُحدّق في وجه المحقق، وأصبح أشبه بتمثال يُجسد الرابع.

ثم تعلثم وهو يقول: «هل أنت واثق بهذا الرجس؟» ولكنه لم ينتظر إجابةً عن سؤاله. فقد تخلَّ عن جميع دفاعاته. ولم يكن يمتلك حجرًا ضخماً أو مقلعاً لإطلاقه.

فسار متربّحاً نحو أريكة وألقى بجسده الثقيل عليها، وعبث في ملابسه حتى أخرج منديلاً مسح به جبهته. ولكن لم يكن ليتركه هانو في شأنه. فتقىّد منه ووقف أمامه. وأخرج فجأة القناع من تحت غطائه كاشفاً عن جماله الغريب المُنْفَر، ووضعه أمام عيني القس.

وسأله: «هل تعرف فيم يُستخدم هذا؟»

قال القس وطيف ابتسامة يرتسم على وجهه: «يُستخدم في وقت المهرجان». لم يكن قد نظر إلى القناع عن كثب. ولكن كان هانو يُمسك به بحيث لا يمكن لعيدي القس أن تتجنّبنا النظر إليه، فنظر إليه، وعاد ينظر إليه، ثم أبعد جسده عنه كما لو أن لسه قد ينقل له عدوٍ. ثم نهض واقفاً.

فقال هانو وهو يقف أمامه: «كانت هناك امرأة شابة تعيش في هذا المنزل ليلة أمس، ولكنها قُتلت بوحشية». «

ثم التفت نحو القس الذي قال: «فليرحمها الله».

«ولكن اختفت أيضًا فتاة لا تزال في مقتبل العمر، فتاة تستمتع بحياتها، وتلهم الآخرين أن يفعلوا المثل. ماذا عنها يا نيافة القس؟»  
«سأدعوا ألا يصيّبها مكروه..»

«ولكن لا شيء آخر تساعدني به!» رنَّ صوت هانو في جميع أركان الشرفة والحدائق. كانت كلماته مليئة باللوم، بل وأكثر من اللوم؛ الاتهام. ولكن لا حياة لمن تنادي. فقد كانت عينا القس تُحدّقان في تلك اللحظة في الأفق البعيد. هل انتهت حياة أو اثننتان؟ هل تعرّضت لبعض ساعات من المعاناة؟ لم يكن القس فاوربيه ينظر إلى الحديقة، ولا إلى وادي جيروندي، ولا إلى الساحل المرتفع خلف نهر جيروندي. بل كان يتأمل في أن حياة امرأة أو اثنتين، أو معاناتهم لبعض ساعات، لن تُغيّر شيئاً في صيورة الزمن.

قال في احترام شديد: «سيدي، لقد ارتكبت جريمة مريرة. وربما كان هناك تفسير مُخيف لهذه الجريمة. إنك تعرف ما حدث أكثر مما أعرف أنا. أرجو أن تذرني».

كان هانو يرى أنه انكسر. وأنه عانى عصر اليوم من صدمة ليس من المرجح أن يتعافى منها. بل إن هانو أفسح الطريق أمامه وتركه يمر حتى اختفى داخل نافذة غرفة الاستقبال المفتوحة من دون أي محاولة أخرى لمنعه. ولكن بمجرد أن انصرف القس فاوربيه، تغيّر سلوك هانو. فظلَّ يُحذّق في النافذة عابساً كطفل صغير.

ثم قال بصوت خافت: «يا للماكر العجوز! إنه يعرف أكثر بكثير مما سيخبرنا. ولكن، على أي حال، أخبرني بأكثر بكثير مما كان يود إخباري به عبر عزوفه عن إخباري بأي شيء من الأساس».

ثم التفت نحو السيد ريكاردو، وقال: «لقد تناولت العشاء هنا ليلة أمس، وكذلك القس فاورييه، أليس كذلك؟»  
«بل..»

أمسك هانو بذراع ريكاردو وجذبه ليجلس بجانبه على الأريكة. وقال: «أخبرني على الفور بكل ما قاله هذا الرجل ليلة أمس؛ وبكل ما فعل..»  
كل ما فعل! نعم، كان هناك شيء فعله. تذكر السيد ريكاردو المشهد... كان هناك شيء ما قد قيل... نعم... وسكت القس عن الكلام... وصنع حركةً بسيطة بيده... نعم!  
قال السيد ريكاردو: «حلّت لحظة عندما رسم علامه الصليب تحت مفرش الطاولة.»  
قال هانو في إصرار وهو يضغط على ذراع صديقه: «أوه! أخبرني بما حدث في تلك اللحظة!»

قال السيد ريكاردو: «دعني أتذكر! لم يحدث شيء مهم وإنما لكنت تذكرته. نعم! شعرت بالحيرة في تلك اللحظة. كنت أشعر بالحيرة بكل تأكيد!»  
علق هانو في صبر: «أمر غريب أن تشعر بالحيرة.»  
نعم، هذا صحيح. ولكنني كنت متخيلاً. ثم ابتهج السيد ريكاردو. فلم تخنه ذاكرته.  
فقد تذكر جيداً أنه كان متخيلاً.

قال هانو: «حسناً يا صديقي، ثمة أمر أشعرك بالحيرة..»  
رد عليه السيد ريكاردو بقليل من خيبة الأمل: «هذا صحيح. أؤكد لك أنني لا يمكن أن أتحير إلا إذا كان هناك أمر يجعلني متخيلاً. ولكن ماذا كان؟»  
«أجل! ماذا كان؟ تخيل مشهد طاولة العشاء في ذاكرتك. السيدة تاسبورو هنا، والقس هناك...»

صاح السيد ريكاردو فجأةً: «وجدتها. أحدهم... كان يجلس بالقرب مني... مهلاً! على الجانب نفسه من الطاولة؛ أجل!» رفع يده في الهواء وبدأ التركيز الشديد على وجهه.  
وصاح: «إيفيلين ديفينيش! كانت قد ارتجفت فجأةً وبعنف.»  
«أجل.»

«شخص ما؛ أوه، بالطبع، كان هذا ما حيرني»؛ ثم أنسد السيد ريكاردو ظهره على ذراع الأريكة وجلس راضياً عن نفسه.

قال هانو بأكثر نبرات صوته رقة: «ولكنك لم تخبرني بما جعلك تشعر بالحيرة.»  
ولكن، صاح السيد ريكاردو متأنقاً، وقال: «أنت تؤلم ذراعي..»

كانت أصابع هانو قابضةً على الذراع وكأنها قيد. فأرخى قبضته على الفور. وقال:  
«آسف يا صديقي.»

قال السيد ريكاردو لاثماً بينما كان يُدلك ذراعه المكدومة: «يجدرك أن تأسف.  
ستكون هناك كدمة كبيرة في هذا المكان غداً. المرة الأخيرة التي آلتني ذراعي كما تؤلني  
الآن، كانت بعد تجمع لهواة الرماية في الريف. لم أكن بارغاً في استخدام القوس ... وكان  
هذا في أحد بيوت بيركشاير ... نعم! دعني أذكر! كان بيته من؟»  
كان هذا منذ مدة. كان السيد ريكاردو قد بدأ يراجع في ذهنه أسماء معارفه في  
بيركشاير ليعرف من استضاف هذا التجمع، عندما علق هانو قائلاً:

«لقد ارتجفت إيفيلين ديفينيش فجأةً وبعنف إذن.»

حدّق السيد ريكاردو لثانية أو نحوها في وجه رفيقه وأعاد ذهنه من بيركشاير على  
متن أول قطار سريع.

وقال لهانو بجدية: «لم يكن يجدرك أن أتحرف عن إخبارك بما كنت أخبرك به.  
نعم، ارتجفت إيفيلين ديفينيش، وصاحت جويس وبيبل أيضاً بعنف، وقالت: «لا جدوى  
من النظر لي يا إيفيلين. لست أنا من يوزع البرودة». بدا لي حينئذ أن ثمة هيستيريا  
خفيةً لدى كلٍّ من إيفيلين وجويس وبيبل. لا ريب في أن كلتيهما كانتا عصبيتين؛ وخاصةً  
جويس. فقد تغير صوتها الخافت العذب بطبيعته، ليصبح أخش وقاسيًا. لم أتمكن من  
اكتشاف أي سبب للانفعالات التي تسيطر على هاتين المرأةتين الشابتين. ولكنها ظهرت  
فجأةً، واحتفت أيضاً فجأةً - مثل وميض البرق. ولكن فهم القدس ما يحدث. فرسم علامة  
الصلب في الخفاء، ولم يتحدث مطلقاً حتى انتهى العشاء. لم ينطق كلمة واحدة! لم  
يفعل شيئاً سوى الجلوس يراقب ما يحدث على طاولة العشاء بعينين لامعتين ... مثل ...  
مثل ... عيني طائر!»

ربت هانو على ركبة صديقه، وجلس متوجهماً. وكرر عباره: «لست أنا من يُوزع  
البرودة». ثم رفع عينيه نحو هيربستال، وقال: «هذه عبارة غاية في الغرابة أيها المفوض.  
ولكن ذلك الماكر العجوز فهم ما تعنيه. يجب علينا أن نفهم ما تعنيه أيضاً. فأنا أعتقد  
أنها مفتاح حل القضية برمتها.»

ثم نهض كما لو أن كل ما يريده من الشرفة والحقيقة قد انتهى. ولكن قبل أن  
يتتمكن من الابتعاد، سمع صوت سيارة تقترب وتوقف أمام الجانب الآخر من المنزل.  
فقال: «لقد عاد المتوجلون». ثم أخرج ساعته ونظر فيها.

وقال: «إنها السادسة!»

كان الوقت قد مر سريعاً بالنسبة إلى مجموعة الرجال في الشرفة. لم يصدق السيد ريكاردو أن ثلث ساعات قد مرت منذ أن غادرت ديانا تاسبورو وروبن ويستر ليرسلا برقيّة من بوياك.

قال هانو: «كان أفضل ما فعله هو أن خرجا من المنزل». وأخرج من جيده علبة سجائر سوداء مُغلفة بورق أزرق فاتح. وقدّم سيجارة إلى المفوض هيربستال، الذي أخذها، وسيجارة أخرى إلى السيد ريكاردو، الذي لم يأخذها. ثم أشعل عود ثقاب كبريتاً، ورافقه والنار تشتعل فيه، وأشعل سيجارة المفوض في احترام. ثم أشعل سيجارته، وعاد ليجلس، وبدأ يقص في هدوء حكاية عن تجربة قديمة مرّ بها عندما كان مبتدئاً في سلك الشرطة.

## الفصل الرابع عشر

# هانو يجفل

توقف عن الاسترسال في حديثه عندما دخل «المتجولان» الشرفة، ورسم على وجهه ابتسامة تهنئة وجّهها إلى ديانا تاسبورو التي استعاد وجهها بعضاً من حُمرته.

قال هانو: «لقد أصبحت في حال أفضل يا آنسة. هل أرسلت البرقيات؟»

قالت: «نعم». ثم أضافت: «أقنعني السيد ويبيستر بأن نطيل الرحلة قليلاً».

تحدّث روبن ويبيستر مُبّراً نصيحته تلك بمخارج الألفاظ الصحيحة والحقيقة تلك التي كان يراها السيد ريكاردو، في كل مرة، غريبة لأن يستخدمها شاب على هذه الدرجة من الأنقة.

وقال: «قلت إن الآنسة تاسبورو ستستفيد من ذلك، وإننا لن نتسَبَّب بعودتنا الفورية إلا في إعاقة مسار تحقيقاتك، وإننا ربما نقدم لك بعض العون إذا ما طرحتنا بعض الأسئلة على الجيران».

أطلق هانو، الذي كان يستمع لما يُقال بتركيز شديد، صيحةً مفاجئة باندفاع شديد لا يناسب الموقف:

«أنا واثق بأنكم ستفيّدانني!» وعندما لاحظ بعض الدهشة على وجه روبن ويبيستر، غير من أسلوبه في الحديث. وقال: «هذه حكمة كبيرة منكم. هل أوصلتكم الأسئلة التي طرحتها إلى شيء؟»

هزَّ روبن ويبيستر رأسه نفياً. وقال: «لم ير أحد جويس ويبل».

تهاجَ صوته وشحبت وجنتاه مجرد نطق اسمها، وغيم الحزن على عينيه لدرجة أن السيد ريكاردو أراد أن يواسيه ببعض الكلمات. كان هذا الشاب واقعاً في الحب، ولطالما كان قلب السيد ريكاردو يرقُّ للشباب الواقعين في الحب. لا ريب في أن الشمعة التي ظلت تحترق حتى ساعة متأخرة من الليل في غرفته الفارغة تُثير بعض الشكوك. ولا يمكن

التغاضي عن ذلك. ولكن ربما كان ذلك مجرد حيلة ليُخفي موعداً مع جويس ويبيل، لم تلتزم به في نهاية المطاف. ربما كان روبن ويبيستر يبحث عنها في استماتة بينما الشمعة تحترق حتى نهاية فتيلها. ولا ريب أيضاً في أن هانو تخيل أنه قد عثر على كشف مهم آخر في الشاليه. لم يكن السيد ريكاردو واثقاً تماماً من ذلك، ولكن تلك العبارة العرضية الحادة «أنا واثق» التي قالها منذ دقيقة، كانت تؤكّد هذا الكشف. ولكن قد يخطئ هانو مثل أي إنسان. فقد يصبح قائلاً «هذه بجعة» عندما يرى إوزة، وبصوتٍ عالٍ مثل أي إنسان آخر، والسيد ريكاردو لن يُكفّ نفسه عناء أن يُصحّح له معلوماته. ولكن بدا أن هانو أيضاً مندهش من صدق مشاعر الشاب. فقد كان صوته يحمل نبرة شفقة وهو يقول:

«يجب ألا تفقد الأمل. إن رجال السيد هيربستال يفتشون الحي بكل دقة، فمن المحتمل أن تكون تلك الفتاة المسكينة فقدت ذاكرتها، مثلاً يحدث عادة. أما إذا كانت ثمة جريمة ارتكبت بحقها، فأؤكد لك أن لا سيارة، أو عربة تجرها الخيول، أو حتى عربة يدوية يمكنها الفرار من الطوق الذي أحطنا به هذه المنطقة من دون أن تخضع لتفتيش دقيق لا يُفوت أدق التفاصيل. إن جميع الطرق، وجميع مسارات العربات، وجميع الدروب تحت المراقبة». أوماً السيد هيربستال برأسه مؤكداً. وقال: «الحال على هذا المنوال منذ الصباح.».

قالت ديانا مؤكدةً في أمل: «نعم. لقد وقفونا أكثر من مرة عصرَ اليوم». ولكن لم يكن روبن ويبيستر يشاركونها أملها. فقد قال وهو يتحقق في وجه هانو في تعasse: «هذا كله جيد. ولكن جل ما أخشاه أن الوقت قد فات، وحتى لو أحضرت الجيش الفرنسي بالكامل وجعلته يُعسكر على الطرقات، فلن يعيدها ذلك إلينا. أخشى أن ...». ولكن اختنقت الكلمة في حلقه ولم يتمكن من نطقها.

قال هانو: «تخشى أن تكون قد قُتلت.»

اعتبرت وجه روبن ويبيستر لحة ألم. وأجايه هامساً: «نعم». نهض هانو فجأةً من على الأريكة، الأمر الذي أدهش المحيطين به في الشرفة. كان التغيير الذي حلّ عليه قد غيرَ من مظهره أيضاً. فقد وقف مهيباً وضخماً، وتحدث بنبرة حملت هيبةً لا مثيل لها.

وقال: «أنا واثق بذلك. إذا كانت جويس ويبيل حيَّةً الآن؛ فهي لن تموت بسبب العنف.»



قال ويبيستر في تعasse: «ولكن جل ما أخشاه أن الوقت قد فات، وحتى لو أحضرت الجيش الفرنسي بالكامل وجعلته يُعسكر على الطرق، فلن يعيد جويس إلينا.»

أخذ روبن ويبيستر شهيقاً عميقاً كما لو أنه استمد شجاعةً من هذه الكلمات. وصاح: «أنت تعتقد ذلك! أنت؛ أوه، أنت عثرت عليها!» وتعلق بهذه الفكرة، واقتنع بها، وحذق في وجه هانو بشفتين فاغرتين وعينين لامعتين.

«لا! لقد عثرت على بعض آثار الأقدام؛ ليس أكثر من ذلك. لقد كانت ت العدو عبر المرج ليلة أمس. ولكنني لا أعرف عن مكانها الآن أكثر مما تعرف أنت يا سيدى.»

«ولكنك قلت إنها آمنة.»

«آمنة؟ لا. قلت إن القاتل لن يجرؤ على قتلها، هذا إن كان يُخطط لقتلها من الأساس. وللمرة مائة ألف خلال تاريخ العنف الطويل، يثبت أنه يصعب القضاء على الضحية

الميّة. فثمة قدر يتداخّل في الأمر. ثمة عدالة تتداخّل في الأمر. إنّ من قتل إيفيلين ديفينيش لن يجرؤ على أن يقتل مجدّاً.»

«هل تُعلن أن قتل إيفيلين ديفينيش واحتفاء جويس ويبيل يتعلقان بالجريمة نفسها؟»

الفت هانو نحوه وقال: «انظر حولك. هذا الحي ذو المنازل المتناثرة. وعدد السكان القليل. هل من المحتمل أن يكون هذان العملان الفظيعان اللذان ارتكبا في الليلة نفسها، وتحت سقف المنزل نفسه، عمليّين منفصلين؟ لا، لكنّ عقلانيين. البديل الوحيد لذلك هو أن تكون جويس ويبيل شريكَةً في الجريمة؛ وجفلت ديانا تاسبورو الجالسة على الأريكة بجانبه.

الفت هانو نحوها على الفور. كانت جالسةً وقد بدت على وجهها أعتى أمارات الربع، فسألها: «هل تعتقدين ذلك يا آنسة؟»

هرّت ديانا رأسها نفياً بعنف. وقالت: «بالطبع لا. جويس صديقتي. لم أفكّر في ذلك على الإطلاق. كل ما هناك أن كلماتك ذكرتني بأنه يبدو دائمًا أن...» لم تُسعف الكلمات ديانا للتعبير عما تعنيه دون أن تتسبّب في أي ضرر.

قال هانو مصرًا برفق وهو ينحني ناحية الفتاة: «ماذا؟»

قالت ديانا في تردد: «كان يبدو دائمًا أن هناك ضغينةً بين جويس وإيفيلين.» تراجع هانو في دهشة. وقال بتؤدة وبصوتٍ يحمل نبرة إدراك: «هكذا الأمر إذن؟» ولكن عارضته ديانا سريعاً. فلم تكن لتتركه يعتمد على هذا الكشف أو أن يعطيه وزناً ضمن أنفكاره.

فقالت في إصرار: «لا تلقِ بالاً لذلك. لم يكن ثمة توافق بينهما. هذا كل شيء؛ أنا واثقة بذلك. كان ثمة القليل من العداوة بينهما دون سبب محدد. أنا غبية أني ذكرت الأمر لك من الأساس. لم يكن يجدر بي أن أفعل، إلا إذا ذكرت أنت الأمر.»

أصبح هانو على الفور حريصًا على أن يزيل من نفسها أي شعور بتأنيب الضمير. فقال: «أيتها الآنسة، صدقيني، كان من الأفضل بكثير أن تخبريني بالأمر بمثل هذه الصراحة والبساطة، بدلاً من أن أكتشف الأمر بنفسي فيما بعد. كنت سأضع وزناً كبيراً لهذه التفصيّلة اليسيّرة إذا ما اعتقدت أنك أخفّيتها عنّي.»

شعر السيد ريكاردو بالحيرة. كان منطق هانو سليماً دون أدنى شك، ولكن لم تكن ثمة حاجة له. لم تكشف ديانا تاسبورو شيئاً عندما أقرت بوجود عداوة بين إيفيلين

ديفينيش وجويس وبيبل. كان قد قص صباح اليوم قصة كهف المومياءات، وأضاف إليها حصر اليوم حكايتها عن ثورة غضب جويس الغريبة أثناء تناول العشاء. كان هانو يعرف حقاً جميع التفاصيل التي كان ضروريًّا أن يعرفها حتى هذه اللحظة. وأضع باستهتاره وقتاً ثميناً عندما استخرج المعلومات نفسها من ديانا للمرة الثانية.

فكَّر السيد ريكاردو: «إنه يضل طريقه بين التشعبات الكثيرة لهذه القضية. يجب أن أُعيده إلى الطريق الرئيسة».

كان قد بدأ يصدر همّة خافتة تمهيداً لإبداء اعتراضه، ولكن رمّقه هانو بنظره فاترة قاسية جعلته يعيد التفكير ويعدل عن موقفه.  
وقال: «أعتقد أن السيد ريكاردو على وشك أن يقول تعليقاً مبرراً على أننا نضّخم كثيراً من تفصيلة غير مهمّة على الإطلاق.»

اتجهت جميع الأعين دفعةً واحدة نحو ريكاردو الذي شعر فجأةً بالعصبية ونقل ثقل جسده من إحدى قدميه إلى الأخرى. وقال: «هذا صحيح. كنت على وشك أن أقول هذا التعليق حقاً».

وشعر بالراحة عندما أشيدت الأعين بعيداً عنه، ولكن تخلّ شعوره بالراحة هذا فكرة مؤرقة بأنهم تجاهلوه وكأنه شخص تافه. أعاد روبن ويستر دفة الحديث إلى المشكلة الأخطر التي بدأ بها.

فقال: «أنت واثق، يا سيد هانو، بأنه إذا لم تكن جريمة قتل ثانية قد ارتكبت، فإنها لن تُرتكب. من ناحيتي، أتمنى لو أمكنني تصديق ما تقول. ولكن من قتل إيفيلين ديفينيش سيكون يائساً. ولا بد أن يستمر في مخطده. لقد تورط، وبغض النظر عن المخاطرة، يجب أن يستمر، هذا ما استنبطه من موقفه. وسيتخذ تدابير احترازية». قاطعه هانو قائلاً: «ألم يتخذ تدابير احترازية عندما قتل إيفيلين ديفينيش؟ إنه يعرف أن التدابير الاحترازية تفشل.»

رغم كل ما قيل، لم يبدُ روبن ويبيستر راضياً. فقد وقف في مكانه ممتعق الوجه وعيناه تنظران إلى الحق ثم تهرب منه. كان يدور في ذهنه خوف لا يمكنه التعبير عنه بالكلمات. ثم قال في نهاية المطاف كلمةً مريعة بصوت خافت خالٍ من أي نبرة: «الدفن». قالها في صيغة سؤال. ألم يكن هذا الإجراء الاحترازي الذي لن يفشل هذه المرة؟ وطار السيد ريكاردو بخياله، الذي أيقظته هذه الكلمة المرعبة، فوق كروم العنب والغابات وعثر على كومة من التراب لقبر صغير حديث مخاً تحت أوراق الشحر، تهبط بيضاء لتصبح

مساويةً لسطح الأرض من حولها مع تعاقب الفصول. ولكن دَوْت إجابة هانو عن هذا السؤال كهزيم الرعد.

قال: «جُرب هذا الحل في إنجلترا وُمني بالفشل. وجُرب في فرنسا وُمني بالفشل. سيدِي، لو كنت مثل» تردد للحظة ثم أعاد صياغة كلامه «مثل شخص أعرف»، وكنت أريد إدانةً دامغةً في محكمة الجنائيات بدلاً من إنقاذ حياة، لقلت: «إنها دُفنت!» لن تكون ثمة حجة أقوى من ذلك!»

بعد هذا الاستنتاج المقين الصادم، التفت نحو ديانا تاسبورو مجدداً. وقال: «يا آنسة، نود أن نُعْفِيك من الإزعاج قدر إمكاننا. يجب أن تُعلّق غرفتنا السيدتين بالطبع. وسيكون ثمة مندوب عن الشرطة حاضراً داخل المنزل، وبنواب آخرين في الأراضي المحيطة به. وأثق تمام الثقة بأنهم سيكونون محل ترحيب من قبلك ومن قبل عمتك الكريمة. أما بالنسبة إلي، فأعتقد أنه يجب أن أعود على الفور إلى بوردو لأنه لن يكون مقبولاً أن أُحل عليكم ضيقاً في مثل هذه الظروف، وأرى أنه من الأفضل أن يعود السيد ريكاردو معِي إلى بوردو.»

رَدَت عليه ديانا في امتنان: «هذا كرم كبير منك»، ثم أصبح صوتها جافاً وهي تضيف: «ومن المؤكد أن السيد ريكاردو سينعم في بوردو بنوم أعمق مما فعل في قصر سوفلاك.»

واصل هانو حديثه مسرعاً: «سأتركك إذن بين يدي المفوض، وبالنسبة إليك يا سيد ويبيستر، أمل أن يكون نجاح حصاد العنب بشارة خير.»

ثم انحنى في احترام شديد. ووجه حديثه إلى ريكاردو قائلاً: «سيتوفر لك وقت لتحزم أغراضك بينما أجري والمفوض ترتيباتنا»، ثم دخل غرفة الاستقبال. انحنى ريكاردو بدوره وتبع هانو. عبر هانو الغرفة إلى الباب المؤدي إلى الردهة — الباب في الجدار الخلفي — وعندما أمسك مقبضه في يده، استدار نحو الخلف نصف استدارة. كان ينظر نحو الشرفة، وبدا ذاهلاً.

خمس دقائق: «يا إلهي! ألق نظرة واحدة فحسب يا صديقي؛ ليس أكثر. إنك لم تر في حياتك شيئاً مثل هذا!»

ثم انسل عبر الباب إلى الردهة. حاكى السيد ريكاردو ما فعله هانو ونظر خلفه عبر النافذة الزجاجية إلى الشرفة غير مبالٍ. ولكن لم تكن ثمة حاجة إلى هذا القدر من التمثيل. فقد كان ينظر مباشرةً إلى روبن ويبيستر الذي كان يقف شارد الذهن، لا يتحرك وكأنه

تمثال حجري، في نفس المكان حيث تركوه. ولكن كان الغضب قد أشعل ناراً حمراء في وجهه. وكان ينظر نحو ديانا تاسبورو بعينين جاحظتين لا ترمشان. كان هانو محققاً. لم ير السيد ريكاردو شيئاً مرجعاً مثل هذا في حياته. حتى القناع لم يكن ليُقارن بما يرى.



## الفصل الخامس عشر

# الفيكونت يطلي بوابته

جلس السيد ريكاردو على حافة فراشه واضعاً رأسه بين يديه، بينما كان الخادم يحرز أمنتعة. كان ثمة صخب شديد يدور في رأسه. كان كل ما رأه وسمعه ذلك اليوم مختلطًا في ذهنه ... آثار الأقدام، والقناع، والشمعة الذائبة، والسرير المبعثر، وصورة القناة الكبرى التي لم تعن له شيئاً، والقس وقضاياها الجدلية ... آه، وسوار جويس ويبيل ... نعم، وتصريح هانو المذهل بأن قتلة إيفيلين ديفينيش لا يجرؤون على تكرار جريمتهم ... وما رأه هانو في غرفة ديانا تاسبورو ولم يره هو ... وما استنتاجه هانو من الكتب بجانب سرير روبن ويبرستر ولم يستنتاجه هو ... وغضبُ روبن ويبرستر الحاد والمروع على الشرفة. آله رأسه بينما كان يعدد مصادر حريته، وشعر بالامتنان لهانو على منحه طريقاً مريحاً للهروب من هذا المنزل المأساوي. وسيتوفر له في بوردو ما يكفي من وقت لاستعين بجادول ملاحظاته ويعيد ترتيب الأمور، حتى لو كان الأمر يعني فقط ترتيب جهله في شكل مُنظم. كما كان سيُعفى من النفور الذي يبدو جلياً أن ديانا تشعر به تجاهه. لذا، أشعل سيجارةً وحاول أن يطرد هذه الفوضى من ذهنه بالكامل.

ولكنه لم يتمكّن من ذلك. فقد بدأت ذاكرته تنشط. فاعتدل في جلسته وشيق. رفع إلياس تومسون رأسه من داخل حقيبة السفر ورأى سيده يحدّق في الفراغ مشدوهاً. فسألته: «هل أنت بخير يا سيدي؟» ولكن لم يسمعه السيد ريكاردو. فقد قفزت إلى ذهنه فكرة، فكرة مكتملة الجواب، فكرة ألمعية، فكرة وكأنها الشفق القطبي بالنسبة إلى الأفكار. أخذ إلياس تومسون ببراعة من بين أصابع ريكاردو السيجارة التي كانت أن تتسبّب في اشتعال اللحاف. لم يلاحظ السيد ريكاردو ذلك. وعاد إلياس تومسون ليكمل حزم الأمتعة.

وقال: «إنها تلك الجريمة الغريبة. لطالما كنت مغرماً بالجرائم منذ أن حللت القضية التاريخية في إيكس، أليس كذلك يا سيد؟»

ولكن لم تتحطّ تلك الثرثرة صيوان أذن السيد ريكاردو. كان من شأن إطراه أكثر تملقاً أن يسعد قلبه. لقد لاحظ هو أيضاً أمراً لم يلحظه أحد غيره. حتى هانو لم يسمعه أو يره. ولكنه على قدر من الأهمية أكبر من أي شيء آخر.

في تلك اللحظة سمع طرقاً على الباب. وكان الطارق هو جولس أمادييه يخبره بأن ثمة سيارةً في انتظاره أمام باب المنزل وأن هانو ينتظره في بهو المنزل. قفز السيد ريكاردو واقفاً.

وصاح في إلياس تومسون قائلاً: «ضع الأمتعة في سيارة السيد هانو وسافر معها». ومنح جولس أمادييه نفحةً كبيرة وأسرع الخطى على طول الرواق. وعند طاولة البهو، كان هانو واقفاً في لا مبالاة يُقلّب في عدد من البطاقات التي تُركت عند باب المنزل عصر اليوم. اندفع السيد ريكاردو نحوه، وصاح في انفعال ونشوة.

قال: «ثمة ما أريد أن أخبرك به يا صديقي.»

قال هانو في هدوء بينما كان إلياس تومسون وجولس أمادييه يقلدان الحقائب إلى السيارة: «ولكنك مخطئ يا سيد ريكاردو.»

صاح السيد ريكاردو لائماً: «ولكني لم أخبرك بما أريد إخبارك به بعد». ردّ عليه هانو: «هذا صحيح. ولكن ما ستخبرني به سيكون خطأً. ولكنني أريد أن أخبرك بشيء غريب ومثير للاهتمام.»

تراجع السيد ريكاردو خطوةً إلى الخلف وشعر بالاختناق. كانت ثمة عبارة لطيفة تتعلق بإلقاء ماء بارد على رجل. شعر السيد ريكاردو وكأن البحر القطبية قد غمرته بالكامل. وسأل نفسه، هل ثمة غرور أكبر من هذا؟ لا شيء يستحق الملاحظة إلا ما لاحظه هانو. لا شيء يستحق الاستماع إليه إلا ما يقوله هانو. حسناً! والآن يجب أن يُعاقب هانو على ذلك. لقد حان وقت تعليمه درساً في التواضع. سيتحقق السيد ريكاردو باكتشافه لنفسه. وسيبدأ بدراسة جميع الملابس بمفرده في بوردو. وقد يستجديه هانو لكي يخبره به. ولكنه لن يفعل ذلك إلا في الوقت الذي يراه مناسباً. فابتسم وقال بهدوء: «عليك أن تخبرني بهذا الأمر العجيب.»

نظر هانو عبر الباب المفتوح. كان تومسون وجولس أمادييه مشغولين بتكميس الحقائب في السيارة التي لا تتسع لها.

وقال: «ووجدت أنه من الغريب أنه من بين جميع الذين حضروا عصر اليوم لتقديم واجب العزاء، هناك شخص مهم غائب.»

قال السيد ريكاردو في لا مبالاة: «حقاً؟»

قال هانو: «نعم» ثم صمت. لا ريب في أنه رجل مزعج للغاية. ففي تلك اللحظة، كان على السيد ريكاردو أن يسأله عنمن يكون الشخص الذي لم يُعبر عن تعاطفه معه. أجاب هانو: «الفيكونت كاساندر دي ميراندول.»

«أوه!» أدهش الخبر السيد ريكاردو. إن الأخلاق الحميدة أمر ضروري للغاية بالنسبة إلى الفيكونت كاساندر دي ميراندول، ولا يمكنه أن يتركها في المنزل وكأنها قفاز مهمل، حتى وإن أراد ذلك. ولكن كان ريكاردو ناقماً على هانو في تلك اللحظة ولم يستطع أن يُقر بذلك.

قال: «إن السيد دو ميراندول ظل ساهراً حتى ساعة متأخرة من ليلة أمس. رد هانو وهو ينظر في ساعته: «ربما فعل، ولكننا أصبحنا في ساعة متأخرة من نهار اليوم.»

حاول السيد ريكاردو أن يجد مبرراً آخر: «ربما أصيب بنزلة برد وهو في طريقه إلى منزله.»

لم يكن ذلك ليمنعه عن إرسال بطاقة.»

قال السيد ريكاردو بتعالٍ: «إنه موضوع تافه على أي حال.» كان يعني أنه تافه مقارنة بالأمر الشديد الأهمية الذي قرر أن يحتفظ به لنفسه. «هل هو كذلك؟ إنه أقرب جار على الإطلاق، وكان يتناول العشاء هنا ليلة أمس. أرى أن هذا غريب.»

وافق السيد ريكاردو على مضمض: «حسناً إذن. إنه غريب»، وخرج الرجلان من قصر سوفلاك معًا. كان مورو والإيس تومسون قد ركبا سيارة الشرطة الخاصة بهانو حقاً، وأدار مورو السيارة بعد إيماءة من هانو.

قال هانو: «فلنتبعهما»، واستعاد السيد ريكاردو في ذهنه ذكرى لأمر حدث صباح اليوم، فصاح في سائقه سريعاً: «إلى بوردو.»

قال هانو بهدوء: «لقد أعطيت هذا السائق الممتاز تعليماته حقاً، وتحركت السيارة الكبيرة من أمام الباب، وظل السيد ريكاردو يقفز إلى أعلى وأسفل على زنبركات مقعده في تململ. كان يرى أن تبلُّد مشاعر رفيقه فيما يتعلق بأدق التفاصيل السلوكية أمر لا يُحتمل.»

قال هانو: «أنت منزعج مني يا صديقي». وأخرج من جيبه علبة سجائير ماريلاند الزرقاء وأشعل لفافة تبغ مستدقة الطرف بعود ثقاب بدا وكأن شره سيظل يتطاير إلى الأبد.

قال السيد ريكاردو في برود: «أحب بعض الأمور، وأكره أموراً أخرى.» رد عليه هانو في جدية: «أنا أيضًا أحب أن تسير الأمور وفق نهج معين.» «على سبيل المثال، أحب أن أكون أنا من يعطي التعليمات لسائقتي.» أبدى هانو فجأةً أسفًا شديداً. وصاح في ندم: «لقد أخطأ هانو! لا يستحق هانو عفوك. سيفرض هانو على نفسه بعض الكفارات مثلما فعل القس فاوربيه. ولكنني لم أتمكن من منع نفسي عن إعطاء أمر لسائق سيارة رولز رويس، كما لو أنها ملكي! لا، لا يمكنك أن تتوقع أن يقاوم رجل شرطة فقير مثل هذا الإغراء.» جعل هذا المبرر السيد ريكاردو يهدأ قليلاً. فقد كان ينطوي على إطراء. ربما لم يكن سريعاً البديهة مثل المحقق العظيم، ولكنه يمتلك سيارة رولز رويس. ومن ثم، كان تعبيره عن استيائه مما حدث أقل حدة. وقال: «لا أحب أن يتجاهلي أحد.»

«آه، ولكن هذا أمر مختلف! أولاً، لا يمكنني أن أعتبر عن مدى أسفني على ما فعلت! نعم، هانو؛ هذا العظيم يركع أمامك.» واستدار ليواجه ريكاردو وينحني وهو يضع يده على صدره. وقال: «ولكن فكر! فلتـر الصعوبات التي أمر بها! يمكنك أن تأتي عدواً إلى في بهو المنزل محملاً بالمعلومات، وجولس أماميه في إثرك حاملاً حقائبك. إذا ما تركتـك تتحدثـ، فبمجرد أن ترحلـ، سيعدوـ هو أيضـاً. ولكن إلى سيدته! تلك الفتـاة المـسـكـينةـ التي تحـملـ ما يـكـفيـ منـ الـبـؤـسـ علىـ عـاتـقـهاـ حـقاـ، سـتعـتـقـدـ جـزاـفـاـ أـنـاـ نـشـكـ فيـ أـنـهـ شـرـيـكةـ فيـ الجـرـيمـةـ. جـزاـفـاـ؛ نـعـمـ! قـالـهـاـ مـؤـكـداـ فيـ حـسـمـ. واستطردـ: «فـقدـ أـخـبـرـتـاـ صـراـحةـ بـأنـهـ طـافـتـ بـالـسـيـارـةـ بـيـنـ مـنـازـلـ جـيـرانـهـاـ. هلـ الـأـكـثـرـ تـرـجـيـحـاـ مـنـ ذـلـكـ هوـ أـنـ تـلـقـيـ بـالـسـيـدـ تـيـدـونـ، قـاضـيـ التـحـقـيقـاتـ، أـثـنـاءـ تـحـقـيقـاتـهـ؟ وـإـذـاـ مـاـ التـقـتـهـ، فـإـنـ الـأـكـثـرـ تـرـجـيـحـاـ هوـ أـنـ يـقـولـ: لـمـ يـحظـ السـيـدـ رـيكـارـدـ بـقـدـرـ كـافـيـ مـنـ النـومـ لـيـلـةـ أـمـسـ فيـ قـصـرـ سـوـفـلـاـكـ! آـهـ، اـضـطـرـرـتـ لـأـنـ أـلـهـيـهـ فيـ شـيـءـ.»

حـدـقـ السـيـدـ رـيكـارـدـ فيـ وـجـهـ رـفـيقـهـ فيـ ذـهـولـ. ثـمـ قـالـ: «كـنـتـ تـعـرـفـ إـذـنـ مـاـ أـرـدـتـ إـخـبارـكـ بـهـ!»

«بالطبع، كنت أعرف. هذا عملي. كنت تريد أن تقول لي بأعلى صوتك: «لم أخبر أحداً بأنني لم أنم جيداً ليلة أمس إلا لشخصين؛ هانو والقاضي. ولكنها هي الآنسة ديانا تعرف أيضاً!» أليس هذا ما كنت تريد قوله؟»

قال السيد ريكاردو في تواضع شديد: «أجل.» ذهب اكتشافه العظيم سدى. كان هانو قد توصل إلى الاكتشاف نفسه في الوقت نفسه ولكنه فسره بالشكل الصحيح. وذلك في الوقت الذي لم يحاول هو تتبع تداعياته من الأساس.

واصل حديثه بنبرة مرارة في صوته: «نعم. الإلهاء! اضطررت لأن تلهيه بشيء! ولكن أثناء حديثه، احتلت صورة وجданه، صورة روبن ويبستر في الشرفة وهو يُحدّق في ديانا بنظرية غضب نارية.

فصاح قائلاً: «ولكن، مهلاً! إذا ما اعتتقدت أن ديانا تاسبورو قد ارتكبت خطأً، فقد فعل روبن ويبستر المثل! هذا التفسير اليسير البدهي؛ لا، لن يصلح. نعم، لقد التقى بقاضي التحقيق! نعم، ولقد أخبرهم؛ ربما بكل ما أخبرته به في مبني محافظة فيلبلانش. إنه أحمق، ذلك القاضي. ولكن كان من المتفق عليه أنها يجب ألا تعرف أي شيء أخبرته به عندما ثلتقي في وقت لاحق ...»

سؤاله هانو بحدة: «من المتفق عليه بين من؟

«بين روبن ويبستر وديانا تاسبورو. ولكنها نسيت الاتفاق، وزل لسانها، الأمر الذي لا يجدر بنا أن ننساه.»

اضطجع السيد ريكاردو مسندًا ظهره وهو يشعر بالسرور أنه قلب الطاولة على صديقه الفخور بنفسه. وفرك يديه معاً وكأنه يقول: ما رأيك في ذلك؟ كان هانو منبهراً بهذه الحُجج. فرمَّ شفتَيه وهز رأسه.

وقال مطرقاً: «لا أتفق معك على أن السيد تيدون أحمق. ولا أقول ذلك بسبب أنه رئيسي المباشر. لا! بل أعتقد أنه على النقيض تماماً من ذلك، إنه داهية. ربما كان ثرثراً في هذا الموقف، ولكن من المؤكد أنه كان هناك سبب لفعل ذلك. نعم، أعتقد أنه سيحصل على منصبه في بوردو، بما أنه يود ذلك. أما باريس، فهذا شأن مختلف. ولكن، بوردو، نعم». وابتسم في سرور وكأنه يهنى القاضي على منصبه الجديد. وعاد يقول: «أما بالنسبة إلى ويبستر، فهذا شأن آخر. ربما سأكلّفك بأمره، ما رأيك؟ فهو ...» وحاول أن يستخدم تعبيراً اصطلاحياً خاطئاً كعادته، فقال: «مادة جيدة!»

قال السيد ريكاردو مُصْحَّحاً على الفور: «بل خامة جيدة». كان يُفضل إذا ما استُخدمت التعبيرات الاصطلاحية الشائعة أن تُستخدم بالشكل الصحيح. لم يكُنْ يُنهي تصريحه حتى توقفت السيارة فجأة، وفتح رقيب شرطة الباب.

قفز هانو خارج السيارة وأبرز بطاقة هُويته وحصل على اعتذار مُغلَّظ. ولكنه لم ينتظر لسماع الاعتذار. وقال: «لا بد أن يكون الحارس حازمًا. أرجو أن تُعامل الجميع بهذه الطريقة نفسها». كانت السيارة قد توقفت أمام بوابة حديدية أنيقة، ومن خلفها، ظهر مسار عريض للعربات ينحدر إلى ما هو خارج مجال الرؤية. فسأل هانو: «إلى منزل من يُؤدي هذا الطريق؟»

أجابه الرقيب: «منزل السيد دو ميراندول».

بدت الحيرة على وجه هانو. ونظر إلى الطريق من خلفه. كان قصر سوفلاك لا يبعد سوى نصف ميل من حيث يقف، بينما كانت الأبراج الحجرية لمنزل الفيكونت تظهر من خلف أَجْمَة من الأشجار لا تبعد سوى ١٥٠ ياردًا عن البوابة الحديدية.

فقال: «كنت أعتقد أن منزل السيد دو ميراندول منزل أبيض طويل منخفض على قمة تل مقابل لقصر سوفلاك».

وافقه السيد ريكاردو قائلاً: «لقد أخبرنا القاضي بذلك». كان ريكاردو قد خرج من السيارة ووقف عند حافة الطريق بجانب هانو.

قال الرقيب مُفسِّراً: «هذا منزل ميراندول الصيفي القديم. ويمكن الوصول إليه عبر هذا القصر أو عبر الطريق الذي يمر بالريف المفتوح أمام منزل سوفلاك. ويستخدمه الفيكونت محل إقامة له. فهو منزل هادئ ويحتوي على مكتبة ضخمة. وأصبح القصر الكبير حالياً منزل ضيافة وإدارة».

سأل هانو: «أعتقد أن سيدة قصر سوفلاك الشابة قد زارت هذا المنزل عصر اليوم، أليس كذلك؟»

«نعم يا سيدي».

نظر هانو إلى السيد ريكاردو مبتسمًا. وقال: «لقد عرفنا أخيراً السبب الحقيقي لعدم تقديم السيد دو ميراندول تعازيه. فقد قَدِمَها حَقًا في منزله». ثم نظر إلى ساعته، وقال: «سنحاكي ما فعلته سيدة قصر سوفلاك. تعال!»

ترك الرجل السيارة في عُهدة الرقيب، وفتحا البوابة، وعبرما المسار إلى المنزل. عادةً ما تكون أقبية النبيذ مجاورةً لمبنى المنزل الرئيس بحيث يظل أمام الفناء والشرفة ممر دائم لدخول المنزل والخروج منه. تحدث هانو إلى رجل كان يُوجَّه أوامرها لآخرين.

وقال: «أين أجد الفيكونت؟» أشار الرجل إلى امتداد لمسار العربات وعاد ليستكمل عمله. كان المسار يميل لأعلى عبر أجمة من الأشجار الصغيرة، ثم يضيق وينتهي أمام بوابة صغيرة بيضاء. ومن خلف البوابة، كان هناك ممر لل المشاة يلتقي بين الشجيرات، وجاءَ وجدهانو ريكاردو أنفسهما في قطعة مفتوحة من مرغى بريّ بدلاً من العشب المعتنّى به، وظهرت أمامهما الواجهة اللمعة للمنزل المكون من طابقين. وكانت ثمة بلاطة حجرية واحدة موضوعة أمام الباب. كانت عمارة المنزل بأكملها بسيطة، ومريحة للعين والعقل. دق هانو جرس الباب، وأوحى الرنين العالي بأن المنزل خالٍ. ولكن بعد وهلة، فتح الباب وظهر خادم يقف على عتبته. كان بيديناً وأصلع ذا مظهر خبيث، وألبسته سنوات خدمته الطويلة مظهراً سطحياً شبيهاً بسيده. تسائل السيد ريكاردو عما إذا كانت يداه مبتدين، وكان ممتناً أنه كان قادرًا على مواصلة التجول. فقال هانو: «هل الفيكونت موجود؟» قال الرجل: «إنه هناك عند نهاية هذا الدرب يطلي البوابة.»

«سنعشّر عليه». كان الدرب الذي حدّه الخادم يحيط بقطعة أرض عشبية ثم يختفي بين شجيرات الورد في الاتجاه المقابل للاتجاه الذي أتيا منه. وشكّل الضلع الثاني العمودي لثلاث قاعده الخط المرسوم بين الدربين عبر الأرض العشبية من عند نقاط ظهورهما من بين الشجيرات. سار هانو والسيد ريكاردو على طول هذا الدرب الثاني، وبعد التفاتة أو اثنتين رأيا الفيكونت خالعاً معطفه، ومسكاً بعلبة طلاء في يد، وفرشاة ضخمة في يده الأخرى، وكان ينحني بجانب بوابة خشبية صغيرة مؤدية إلى طريق. كان قد رأى زائريه في نفس وقت رؤيتهم له، فنصب قامته.

وقال مبتسماً: «سيد ريكاردو. للأسف! لا أستطيع مصافحتك. إن الطلاء يغمزني بالكامل.»

كان الطلاء أخضر اللون. وكان قد وضع طبقةً سميكة منه على البوابة، وكانت ثمة طبقة مماثلة على ملابسه ويديه، وطبقة على وجهه لا تقل سماً عنها. قال الفيكونت: «لم أحظ بشرف التعرف إلى رفيقك يا سيد ريكاردو. ولكن أحضرت لي صديقتي الشابة التعسة من سوفلاك أخباراً سيئة عصر اليوم، ويمكنني أن أُخمن من يكون. هل أنت السيد هانو؟»

انحنى هانو، وقال: «في خدمتك سيدتي الفيكونت.»

«يا له من حدث غامض ومريع يا سيد هانو. من حسن حظ هذا الحي أنك كنت في بوردو بالمصادفة.»

«ولكنني في بوردو لشأن آخر يا سيدي الفيكونت. وأنا في طريق عودتي إليها الآن.  
وأصدقك القول، لم أحقق الكثير من التقدم هنا.»  
حثَّ دو ميراندول في قلق: «ولكنك ستعود إلى سوفلاك. إن جريمة رهيبة مثل تلك  
يجب ألا تُترك دون حل.»

«سأعود سيدي الفيكونت. ولكن، هل سأعود في الوقت المناسب؟ هذه مسألة أخرى.  
لقد ضاع يوم، وربما حتى بعض ساعات، ولم أتوصل إلى أي شيء.»  
قال الفيكونت راجياً: «سمعة المقاطعة وأمنها على المحك.»

رد عليه هانو واجماً: «سأبذل قصارى جهدي.» لم يكن صوته يوحى بالثقة. وبدا  
وكان الإحباط يغمره حتى عنقه، ولكنه قال: «إلى أين ذهبت السيدة ديفينيش بعدما  
تسألت خارجَةً من نافذة غرفتها ليلة أمس؟ من يمكنه أن يخبرنا؟ كانت القرية أجمعُها  
نائمة. ولم يكن ثمة حراس على كل طريق ودرب مثلاً هي الحال الآن. لقد أخذنا حذرنا،  
كما قد يقول السيد ريكاردو، بعدما سبق السيف الاعتذار.»  
ترك السيد ريكاردو المثل الخاطئ يمر مرور الكرام؛ فقد كان هانو يائساً. وكان من  
القسوة أن يحاول تصحيح المثل له.

قال الفيكونت: «أرجو أن تعذراني، فلا بد أن أكمل عملي.» وعاد يتحنى ليواصل  
أعمال الطلاء، وهو يقول: «يجب أن أنهي طلاء البوابة قبل حلول الظلام، ولكني لست  
ماهراً في ذلك، كما تريان.» ونشر الدهان بفرشاته وهو يتحدث أثناء عمله، وقال: «كل  
رجالٍ يعملون في كروم العنب اليوم. أرجأت طلاء هذه البوابة حتى فقدت حرارة شمس  
الصيف قوتها. واستيقظت اليوم تراودني فكرة «إما اليوم أو أبداً».»  
قال هانو بأدب: «سيدي الفيكونت، أنت مثال يُحتذى به.»

أبقى الفيكونت على البوابة مفتوحة عبر مزلاجها بيده البisserى المكسوة بقفاز بستانى  
سميك، بينما كان يدهن البوابة بيده اليمنى. انسلَّ هانو من خلفه وخرج إلى الطريق  
خلف البوابة. ووجد نفسه ينظر في خط مستقيم عبر أرض مفتوحة إلى قصر سوفلاك  
بلونه الزهرى الفاتح. كان الطريق الذى يقف عليها تنحدر على التل عن يساره وتندمج  
في آخرها بطريق أوسع تمر بمبانى مزرعة سوفلاك ومرأبها، ثم تصعد وصولاً إلى القوس  
الكبير في وجهة المنزل. وقف هانو يمسح المشهد بعينيه، وكان مشهدًا جميلاً وهادئاً  
تغمره شمس الأصيل، ولكن صدرت عنه بعد ذلك هفوة رأى السيد ريكاردو أنه من  
المستحيل تبريرها.

قال هانو: «هذا طريق مختصر». كان يتحدث بأدب ويمد ذراعه عن آخرها نحو قصر سوفلاك. ولكنه لم يعد يُحكم قبضته على القناع تحت معطفه. فانزلق. ظهر المنديل الذي كان القناع ملفوفاً به، وعلى الرغم من أن السيد ريكاردو سعل، وتنحنح، وضرب بقدميه، ونقر بأسابيعه، سقط المنديل على الأرض قبل أن يتمكن من لفت انتباه هانو. وما زاد الطين بلة أن المنديل انفتح. وأصبح القناع بشعره الأحمر، وملامحه الشاحبة، وشفتيه الأرجوانيتين، ظاهراً أمام العالم بأكمله ليراه.

وقف هانو للحظات مذعوراً. ثم انحنى فوق الشيء الذي من المفترض أن يكون سرياً، وغطّاه، وأدخله داخل معطفه وأغلق أزراره.

سأل السيد ريكاردو نفسه: «ما الفائدة مما حصل الآن؟» وكان يشعر بانزعاج شديد واستياء من هذا الإهمال. لا ريب في أنه قد سبق السيف العذل.»

أما الفيكونت كاساندر دي ميراندول، فقد تظاهر بأنه لم ير شيئاً. وواصل طلاء بوابته بهمة.

وقال مخاطباً السيد ريكاردو الذي كان يقف خلفه: «أنا فخور بعملي. بالنسبة إلى شخص مبتدئ قضى حياته بأكمالها في الدراسة، هذا ليس شيئاً. لقد قضيت صباح اليوم كله أحرق الدهان القديم وأكشطه من على الخشب. وقضيت مدة العصر بأكمالها أضع الطلاء الجديد.» وانفجر ضاحكاً عندما تناشرت نقطة كبيرة من دهان الزيت السميك على رأسه الأصلع. وتناثرت نقطة أخرى أو نقطتان من الدهان على بدلة السيد ريكاردو الرمادية الأنثقة، وجفل السيد ريكاردو ثم أدرك السبب في ذلك. لا ريب في أن الفيكونت لم يكن خبيئاً بمثل هذا العمل، ولكن كانت يداه ترتعشان أيضاً. كان الملاج يرتج تحت يده اليسرى، وفرشاة الدهان ترتعش في يده اليمنى. نعم، كان قادرًا على التحدث بثبات والسيطرة على صوته؛ وكان يتحدث لكي يُخفى عن زائره أنه لا يستطيع التحكم في بيده. قال هانو وهو يتمالك أعصابه مرة أخرى: «هذا طريق مختصر. إنه يُسهل زيارتك لأصدقائك، أو زيارتهم لك، وأرى أنكم تستغلونها على الوجه الأكمل.» وكان يُشير إلى آثار إطارات السيارات على الطريق. فكانت تشير إلى أن أكثر من سيارة توقفت أمام هذه البوابة واستدارت.

ثم عاد هانو إلى داخل الحديقة ووضع دو ميراندول فرشاة الطلاء في العلبة ووقف ومدد ظهره وقد ظهرت على وجهه أمارات الألم.

ثم قال ساخراً من عدم شعوره بالراحة: «أوه! أوه! أوه! هذا العمل يُناسب من هم أصغر سنّاً. سألزم الفراش بسبب آلام الفقرات القطنية طيلة أسبوع كامل.»



كان دو ميراندول قادرًا على التحدث بمرح وثبات عن عمله على دهان البوابة؛ وكان يتحدث لكي يُخفي عن زائريه أنه لا يستطيع التحكم في يديه.

قال هانو مبتسماً: «عليك أن تأخذ حماماً ساخناً على الفور سيدي الفيكونت، وستكتب دراسةً متعمقةً مليئةً بالأفكار الجديدة قبل أن يحل موعد النوم. لن نُعطلك أكثر من ذلك.»

اعتذر الفيكونت إليهما. فقد كان يود أن يُري هانو الشهير كرم الضيافة الذي تشتهر به المقاطعة. ولكنهما شهدوا بأنفسهما المأزق الذي وقع فيه. خلع الفيكونت القفاز الجلدي السميك عن يده اليسرى ومدّها أمامهما ضاحكاً.

وقال: «هذا الجزء الوحيد من جسدي غير المغطى بالطلاء. أما بالنسبة إلى البقية؟» ونظر في أسف إلى يده اليمنى الملطخة بالطلاء حتى المعصم، وقال: «لو اجتمع أربع كيميائيي بوردو، فهل سيمكنون من تنظيفها؟»

تركاه واقفًا في مكانه، وعادا عبر الدرب الذي أتيا منه حتى وصلا مجددًا إلى سيارة ريكاردو. لوح هانو بيده إلى رقب الشرطة.

أمر السيد ريكاردو سائقه عبر البوّاق الداخلي قائلاً: «إلى بوردو»، وانسابت السيارة في سلاسة متعددة على الطريق الأبيض المترقب. مررت السيارة ببضعة قصور تشتهر بكروم العصب، وعبرت قرية تحف منازلها جانب الطريق، ثم تحدث هانو قائلاً:

«إنه أكاديمي عظيم، أليس كذلك؟ بلى. ومثقف للغاية؟ أجل. إن دراسته في مجال الفلسفة تُعجب الشابات في بوردو كثيراً. نعم! ولكن، يا صديقي، لم يكن يدرس في مكتتبته في تمام الثانية من صباح اليوم. لا! فمكتتبته تقع في الطابق الأرضي من هذا المنزل الصيفي على يسار الباب. لقد نظرت داخل المنزل عندما مررنا أمامه. نعم، نظر هانو عبر النافذة ورأى الكثير من الكتب المُقدّسة تكاد تصل إلى السقف مستندة إلى الجدران، وانسحق قلبه تحت ثقل كل هذه الكتب». فقد صوته نبرته الساخرة، ومال ليقترب من ريكاردو قليلاً، وقال: «ولكن ما كان هانو يود معرفته حقاً - ويراه - هو الغرفة الطويلة في الطابق الأول التي ظلت أنوارها مضاءةً حتى الصباح».

غرق في الصمت مجدداً لوهله، ثم قال وهو يبتسّم ابتسامةً صفراءً: «اليدان، يا لها من خائنتين! يمكن للمرء السيطرة على صوته وتعبيرات وجهه. نعم، حتى الميتد الذي قضى حياته بأكملها في مكتبه يمكنه فعل ذلك. ولكن ماذا عن اليدين؟ لا يمكن لأحد السيطرة عليهما، حتى الأكثر دهاءً على الإطلاق.»

صاحب السيد ريكاردو: «هل لاحظت أن يديه كانتا ترتعشان؟ ولكن كنت بعيداً تقف على الطريق».

ابتسم هانو في تواضع زائف. وقال: «نعم، لقد لاحظت ذلك. هذا عملي يا صديقي العزيز».

رد عليه السيد ريكاردو بانفعال شديد: «ربما كان عملك أيضاً أن تُسقط أقنعة مميزة على طرق فرنسا السريعة». ولكن جعله الخجل البادي على وجه هانو يهدأ بمجرد أن بدأ التحدث. فإذا لم يكن من يُحدّثه هو هانو من الأيام الخوالي، لكان أكثر لطفاً معه، ولحاول أن تخفي، عنه انتكاسته لأطول مدة ممكنة.

قال ريكاردو في تسامح: «أفضلنا يخطئون في بعض الأحيان». وافقه هانو قائلاً: «وكذلك المجرمون». واصل ريكاردو حديثه قائلاً: «لقد فعل الفيكونت شيئاً ماكراً في النهاية. لقد أرانا يديه». نظر له هانو سريعاً نظرةً غريبة مليئة بالتقدير، وقال: «نعم، لقد أراني كلتا يديه».

صاح السيد ريكاردو: «ليثبت لك أنهما لا ترتعشان. كان حريصاً على أن ترى أنهما ثابتان تماماً!» أشاح هانو بعينيه عن وجه صديقه واضطجع في جلسته في راحة.

وقال ببطء: «كان هذا هو السبب إذن، أليس كذلك؟ لقد وصلنا!» توقفت السيارة بعثة أمام مبنى فخم في شارع ضيق.

قال السيد ريكاردو وهو يمسك ببوق السيارة الداخلي: «وصلنا إلى بوردو! مستحبيل!

قال هانو في هدوء: «إلى بوردو، لا! ولكن إلى مكتب البريد بوياك. هيا بنا!» خرجا من السيارة ودخلوا بهو الكبير. أظهر هانو بطاقة هويته أمام شباك واقتيد ورقمه إلى غرفة خاصة. ودخل عليهما موظف ضئيل ملتح يعرض خدماته.

قال هانو: «سأكون مديناً لك، يا مدير مكتب البريد، لو أخبرتني بما إذا وصل للأنسة جويس وبيل أي طرد مسجل من إنجلترا في بداية هذا الأسبوع.» أحضر مدير مكتب البريد كتاباً طويلاً ومرر إصبعه على مدخلات إحدى صفحاته المصفرة.

ثم قال: «نعم، صباح يوم الثلاثاء.»

«هل جاءت لتسليمها؟»

خرج مدير مكتب البريد، وسأل أحد موظفيه، وعاد، وقال: «لا يا سيد هانو. شحن الطرد لها في قصر سوفلاك.»

«وووَقَعَتْ على تسلُّمه بالطبع؟»  
«بالطبع.»

سأله هانو: «هل يمكنني رؤية توقيعها؟» وعندما وضع دفتر الإيصالات أمامه، نقله أمام السيد ريكاردو، وقال: «هل هذا توقيعها؟»  
«نعم.»

قال هانو مؤكداً: «أنت واثق بذلك! هذا أمر مهم للغاية.» رد عليه السيد ريكاردو بتوكيد أقل قليلاً: «لقد راسلتنا ذات مرة لتذكّرني بالحديث الذي دار بيننا في لندن. كما أني رأيت توقيعها في دفتر الزوار.»

قال هانو: «يمكنا أن نتأكد». وضع يده في جيب صدر معطفه وأخرج غلافاً أصفر اللون لرواية فرنسية. كُتب على الغلاف، تحت العنوان، اسم «جويس ويبل».

«كان الكتاب موضوعاً على طاولة في غرفة نومها. نُشر هذا الكتاب منذ بضعة أسابيع. وهو متاح في جميع المكتبات. ومن المرجح أن الآنسة اشتراه من كي دورسيه خلال رحلتها إلى بوردو..»

وضع الورقة بجانب التوقيع في دفتر الإتصالات وكان الأسماء متطابقين تماماً من حيث رسم الحروف.

قال هانو: «كتب كلها باليد نفسها إذن. أصبح من المؤكد أن الآنسة ويبل قد تسلّمت الطرد المسجّل بيدها». رفع عينيه مجدداً إلى مدير مكتب البريد، وقال: «هل يمكنك أن تخبرني بوزن الطرد؟»

نظر مدير مكتب البريد في دفاتره مجدداً.

ثم قال: «اثنان هكتوغرام..»

قال هانو مفسراً للسيد ريكاردو: «أي ما يعادل سبع أوقية بالنسبة إليكم». ثم ظل صامتاً ووجهه يتجمّم وينبسط، ثم يتجمّم من جديد بينما يُحاول أن يُخمن محتويات الطرد، ثم رفض التخمين، وقال فجأة: «أنا أُضيع الوقت. سأرسل برقية..»

وضع مدير مكتب البريد نموذجاً أمامه، وأخرج هانو من جيده خطاباً من السير هنري بريور من المختبر في ليدز، وكتب اسمه وعنوانه في متن البرقية الطويلة.

وقال: «سأرسل هذه البرقية إلى شرطة سกوتلاند يارد الإنجليزية. وسيخبروني بما أريد بأقصى سرعة. هل سترسل البرقية على الفور؟ أشكرك. علينا أن نذهب نحن أيضاً». صافح مدير البريد. وقال: «سنذهب هذه المرة إلى بوردو حقاً». وظلّ صامتاً حتى توقفت السيارة أمام الفندق الفاخر الذي ينزل فيه السيد ريكاردو في كور دو لينتنناس.

قال هانو: «ربما لن أتمكن من رؤيتك غداً. ولكن إذا ما جدّ جديد، فسأخبرك به. حتى ذلك الحين، ثمة مسألة علينا أن نفكّر فيها. ما الضرورة التي جعلت الفيكونت كاساندر دي ميراندول يطلي هذه البوابة بالتحديد بيده؟ إن البوابة الأخرى التي مررنا بها ونحن في طريقنا إلى المنزل تحتاج إلى طلاء جديد أيضاً! لماذا لم يول اهتمامه إلا إلى تلك البوابة المؤدية إلى الطريق التي تنحدر وصولاً إلى قصر سوفلاك؟ هل بسبب أشعة الشمس الحارقة؟ محض هراء يا صديقي! لماذا لم تُطلّ قبل موسم حصاد العنب؟ لماذا لم يؤجّل طلاؤها إلى ما بعد موسم حصاد العنب؟» ثم أومأ برأسه مبتسمًا وسار مبتعداً.



## الفصل السادس عشر

# بلاكيت يضيف المزيد إلى قصة ديانا

حاول السيد ريكاردو أن يصرف الجريمة التي ارتكبت في سوفلاك عن ذهنه تماماً. وذلك لكي يتمكن من العودة إلى الأمور المحيرة فيها بمنظور جديد تماماً عندما تكون ثمة حاجة إلى مساعدته مجدداً. فبدأ اليوم برعاية راحته الشخصية، فخرج يتنتزه سيراً على الأقدام في الحدائق النباتية ووصل من دون قصد إلى بركة المياه المزينة حيث يرسو قارب لو بوتي موس بعجلات مدافحة اليدوية في انتظار الناس الذين يرغبون في الخروج في نزلة عصر يوم عطلة الأحد. وتذگر على الفور الزورق وقبطانه، وتلميحاته الخبيثة بأن الزورق سيصبح ملكه قريباً للغاية من دون الحاجة إلى دفع ثمن شرائه. تصلب جسده في مكانه، وأدرك فجأة أنه لم يخبر هانو بأي شيء عن هذه المحادثة. لا ريب أن هانو كان يعرف بأمر الزورق، ولم تساوره أي شكوك عن أن الزورق قد خرج من المرفأ قبل ساعات من تحول المد، وذلك بغرض إغراق السلة التي تحتوي على جثة الضحية في وسط مجاري النهر الواسع بينما لا يزال الظلام يُغلّفه. يمكن ائتمان هانو على البحث عن القبطان وابنيه. نعم، ولكن هذه المحادثة التي لم يقصها مهمة للغاية. حدثت هذه المحادثة العصر، وارتكبت الجريمة في الليلة التالية لمدة العصر هذه. وهذا يثبت، أو إن لم يثبت، فإنه يقترح، أن قتل إيفيلين ديفينيش كان مخططاً له مسبقاً. دار السيد ريكاردو حول نفسه فجأة. فلم يكن ما يفعله يساعد في صرف هذه المسألة عن تفكيره. ثم سار خارجاً من الحدائق، وانطلق بخطى ثابتة دون هدى، ليجد نفسه في ميدان أنيق أمام منزل قديم رائع، يقع داخل ساحة خلف جدار طويل، وكان أحد تلك المنازل التي كان يسكنها النبلاء وأصبحت السلطات البلدية تشغلهما في الوقت الحالي.

سأل أحد المارة قائلاً: «هل تخبرني من فضلك، ما هذا المبني؟»

رد عليه الرجل: «هذا قصر رئيس الأساقفة. يرجع تاريخ بنائه إلى القرن السادس عشر، ويحتوي على بعض اللوحات والمنحوتات الجميلة، وسيُحب بالأغراض الذين يودون رؤيتها».

كان هذا هو المكان المناسب لريكاردو في ذلك الصباح. سيدخل عبر ذلك الباب الضخم في الجدار الطويل. ربما يستعين بالروائع العتيقة لرؤساء أساقفة بوردو، ويفارنهما بعثمة العصر الحالي. كان يتخيّل المرات مزدحمةً برجال البلاط يرتدون ستّرات ضيقَةً وقلائد ضخمة. ولو أمكنه تذكّر بعض المشاهد التاريخية، لأعاد تمثيلها — تسليةً لنفسه — وباختصار، كان سيُحرّر عقله من هوسه بلغز سوفلاك.

كان يقترب من الباب الضخم عندما اندھش لرؤيته هانو يخرج من الساحة. وتوقف السيد ريكاردو مجدداً. ما الحدث الجلل الذي أتى بهانو إلى قصر رئيس الأساقفة؟ هل كان يطلب مباركةً خاصة لعمله؟ ولكن دحض المنطق العام والخاص على حد سواء هذا التفسير. وطرأت على ريكاردو فكرة تتماشي مع الموقف تماشياً أفضل. كان هانو يود قوله ما عن القس فاوربيه. كان يتأكد من أن هذا الرجل الصموم سيُوبخُ من قبل رئيس الأساقفة على عدم امتثاله للقانون. ورأى السيد ريكاردو أنه محق في ذلك. على أي حال، كان من الجلي أنه لن يتمكن من طرد جريمة قصر سوفلاك من ذهنه. فدار على عقبيه وسار عائداً إلى الفندق. وهناك، بدأ يُضيف إلى جداوله السؤال تلو الآخر، والرابط تلو الآخر، بينما كان إلياس تومسون يزحف في أرجاء الغرفة دون صوت مليئاً في مهارة احتياجات سيده الذي كان يراه «أبرع من يحل لغاز الجرائم».

بحلول الخامسة مساءً، وبعد قراءة ما قالته جميع الصحف، نقلًا عن علماء الجريمة الخاصين بها، وإرهاق جميع قواه العقلية في الاستنتاجات، والاستقراءات، والمقارنات، والتخيّلات، توصل إلى استنتاج. في كل القضايا التي سمع عنها من هذا النوع، لطالما كان هناك أبرياء. في الواقع، كان هناك أبرياء أكثر من مجرمين، وحتى اللحظة الأخيرة قبل أن تنقض الشرطة، غالباً ما كان يظهر المحرّض الرئيس بمظهرٍ من الاحترام والالتزام القانوني لا يقل اكتمالاً عن مظهر مُشرف الكنيسة. ربما لم يكن السيد تشارلز مثلاً تاريخياً على ذلك. ولكن الأمر الفريد المتعلق بمسألة سوفلاك هو أنه لا يبدو أن هناك شخصاً بريئاً واحداً في المكان. فكلما تعاملت مع أي شخص عن كثب، زاد وضوحاً أن ذلك الشخص الذي تتعامل معه متورط في المسألة حتى النخاع. إن غرفة ديانا تخفي سراً، ولكن السر ليس مخبوءاً في نسخة لوحة تينتوريتو. وكان سلوك القس فاوربيه مثيراً جداً للشبهات. وكان روبن وبيستر أكثر الأشخاص المثيرين للشبهات وضوحاً وجلاءً على

الإطلاق. لم تكن إيفيلين ديفينيش ذات طبيعة محبة مطلقاً؛ أما جويس، رغم أناقتها وجاذبيتها، ومع السرير المبعثر، كان عليها الكثير لتوضيحه قبل أن يتسلى ترسيخ الثقة بها. لطالما ظل السيد ريكاردو متشبّثاً بالاعتقاد بأن وريث الحملات الصليبية سيُبقى وفيّاً للقيم والتقاليد النبيلة التي ورثها عن أسلافه. ولكن حتى هذا الاعتقاد لم يعد صالحاً. لم يكن الفيكونت كاساندر دي ميراندول ذو الـ ٦٥ عاماً المرتعشتين أفضل حالاً من الباقيين. ولم يعد يساور السيد ريكاردو أدنى شك في أنه لو قضى خمس دقائق في حديث حميمي مع السيدة تاسبورو العجوز لوجد أنها غارقة في الفجور هي الأخرى.

صاح بأعلى صوته وهو يُلوّح بذراعه في يأس: «جميع من في قصر سوفلاك فاسدون». وفي اللحظة نفسها، فتح هانو الباب ودخل الغرفة بتلك الطريقة الاستعراضية التي يستهجنها السيد ريكاردو بشدة.

وقال وأطراف أصابع يديه تعبّث بعلبة ثقاب: «الناس يطرقون الباب. ثم ينتظرون الإذن بالدخول...»

قال هانو بهدوء: «والمرء يُقدّم لك رجلاً نبيلاً مهمّاً للغاية.»

دخل الغرفة رجل ضئيل ونحيل في الخمسينيات من عمره، حليق الذقن، نحيل الوجه، ذو عينين شدیدتي الزرقة. كان يرتدي بدلةً صوفية دائنة بسترة ذات صفين من الأزرار، وبدا من هندامه الأغبر الأشعث ومظهره القذر أنه قد أنهى الآن رحلته طويلاً. دخل الغرفة على استحياء ووجه التحية إلى السيد ريكاردو دون أن يبدي أيّاً من مظاهر الود. أغلق هانو الباب، ودعا ريكاردو ضيفه المجهول إلى الجلوس على مقعد وثير. ولكن هز الرجل رأسه رافضاً.

وقال بصوت متحشرج أجنش: «سأجلس هنا». وأشار إلى أحد المقاعد حول الطاولة. ووضع قبعته على الطاولة.

قال هانو: «هذا هو السيد دينيس بلاكيت. ورد ذكر وفاة السيدة ديفينيش المأساوية في عدد متأخر من إحدى الصحف المسائية في لندن يوم أمس. وانطلق السيد بلاكيت على الفور وركب طائرةً ليلة أمس.»

تلّمَّ دينيس بلاكيت طرف الحديث وقال: «لقد خرجت من المطار وتوجهت مباشرةً إلى مبني المحافظة، ووجدت هناك ذلك الرجل المذهب المسؤول عن القضية. لا أتحدث الفرنسيّة بطلاقة، وفهمت من السيد هانو أنه على الرغم من أن إمامه باللغة الإنجليزية أفضل من أغلب أبناء بلده، هناك بعض التعبيرات الاصطلاحية التي لا يعرفها...» صمت دينيس بلاكيت ودار بعينيه في الغرفة ليكتشف مصدر الذهول الذي ملا وجه ريكاردو.

كاد السيد ريكاردو أن يقع من على مقعده مصعوقاً من الاعتراف المذهل الذي جرى على لسان صديقه. «تعبيراتك الاصطلاحية! أنا أعرفها جيداً!» كم لاقى من معاناة بسبب هذه العبارة، ولا يزال يعاني من التحريرات الفجة للغة الإنجليزية التي تتبع هذه العبارة دائمًا! ولكن، هنا هو هانو يعترف بعدم كفاءته في استخدام التعبيارات الاصطلاحية! أمر لا يصدق. كان أمراً لا يصدق، ولكن أدرك ريكاردو فجأةً الغرض منه. كان تعبيراً عن الصدقة. هذا هو المبرر المحتمل الوحيد الذي يمكن لهانو أن يقوله عن حضور ريكاردو هذا اللقاء. كان يشرك صديقه العزيز السيد ريكاردو في أعمق أعمق هذا اللغز. وجه ريكاردو إلى الحق نظرة تقدير وامتنان، وواصل دينيس بلاكيت حديثه:

«قال السيد هانو إنك صديقه، وبما أنني لا أريد أن أسهب في الكلام من غير داعٍ فقد قبلت اقتراحه الكريم بأن تكون مترجمي.»

ثم جلس على المقعد الذي أشار إليه. تحول ذهول السيد ريكاردو من تواضع هانو الاستثنائي إلى دينيس بلاكيت. لم تكن ثمة مشاعر في نبرة صوته أو ملامح وجهه. بدا وكأنه يتحدث عن صفة أسمهم ليست مهمّة بالمرة وليس عن قتل ابنته بوحشية. أُجبر ريكاردو نفسه على الاعتقاد بأن هذا الرجل لم يبدأ رحلته الطويلة بالطائرة إلى بوردو إلا بعد ساعة أو نحوها من معرفة الخبر.

سحب هانو مقعداً آخر إلى الطاولة، وقال: «لا أملك أدنى فكرة عما قد يخبرنا السيد بلاكيت به. ولكنني أعده الآن بأنه فيما عدا ثلاثتنا والسيد تيدون، قاضي التحقيقات؛ لن يعرف أحد أي شيء باستثناء ما يتطلبه تحقيق العدالة. حسناً! ثم التفت نحو دينيس بلاكيت الذي بدأ حديثه على الفور، قائلاً:

«أعتقد أنك سمعت من الآنسة تاسبورو ما تعرفه عن القطيعة التي وقعت بيني وبين ابنتي. ولكن لا أحد في العالم، فيما عداي وابنتي، يعرف الحقيقة الكاملة. لم أهتم قط، ولا أفعل الآن، بالدفاع عن نفسي ضد أي اتهام بالقصوة، ولم تتفوه هي ببنت شفة مراعاةً لصالحها الخاصة. سأكسر هذا الصمت الطويل لكي يُقدم قاتلها إلى العدالة ويعُدَّم» على الرغم من عدم تسلل أي مشاعر إلى نبرة صوته الأخش، فإن حمراء خفيفة زحفت على وجهه الأبيض، وزُمت شفتاه «وأعلم أن ما أنا بصدّ إخباركما به قد يساعدكم.»

صمت لبضع لحظات لكي يُرتّب كلماته. جرّ السيد ريكاردو مقعده قريباً من الطاولة، وكانت حواسه المستمعة تتلذّذ باللحظة وتسعد بهذا التأخير لتطول أكثر. جلس هانو دون حراك وكأنه صنم وعيناه مثبتتان على وجه دينيس بلاكيت.

قال دينيس بلاكيت: «منذ يوم ميلاد ابنتي — ومن الملاحظ أنه لم ينطق اسمها قط — بدأت بجمع الآلئ حتى أصنع لها عقداً منها يستحق أن أهديه لها في عيد مولدها الحادي والعشرين. وعانت معاناة شديدة في اختيارها. كنت أشتري أربع أو خمس آلئ كل عام، وعندما أقمت حفل عيد الميلاد هذا في مورفين، على لسان مول البحرى، كنت أحفظ في المنزل بذلك العقد القيم لأهديه لها، وكان مكوناً من ١٢٠ لؤلؤة كبيرة، وكانت متدرجةً في الحجم بدقة، وكانت بمواصفات نقاء ولغان لا تضاهيها حتى كنوز العائلات الملكية العظيمة. لم أخف عنها ما أنوي فعله حتى ذلك الحين إذ كانت أختي تشعر بشيء من القلق. وقد علمت بالأمر. علمت أنني أنوي منحها العقد في صباح يوم ميلادها. ولكن في الليلة السابقة ليوم مولدها» ثم صمت ليُلْبِّل شفتيه بطرف لسانه «سرقته. عندما أبحرت وعشيقها على طول اللسان البحري وعبرًا بحيرة لينه ووصلًا إلى أوبان، كانت قد أخذت هذا العقد معها.»

نظر دينيس بلاكيت إلى يديه اللتين كانتا مستندين إلى الطاولة أمامه ومضمومتين معاً في استرخاء، وعندما تتبع السيد ريكاردو مسار نظراته، ستحت له الفرصة، وللمرة الثانية، أن يلحظ مدى خيانة الأيدي لأصحابها. لم تكن ثمة اختلاجة في صوت بلاكيت، أو ظهور تعبير على وجهه، قد يدلان على أي شيء سوى أنه يُقدم عرضًا مغرياً لاثنين من زملائه في العمل. ولكن خانته يداه. فقد كانتا ترتعشان ارتعاشة خفيفة.

ثم تابع حديثه قائلاً: «لم أخبر أحداً بذلك. ولكنني تحدثت سراً مع تجار هاتون جاردن والصاغة. إن الآلئ القيمة معروفة. لا يمكن أن تتهرب اللؤلؤة الجيدة من تاريخها ولونها وزنها مثلاً لا يمكن أن يتهرّب أي من يلاحقهم السيد هانو من بصمات أصحابه وتهمه السابقة. كنت واثقاً تماماً الثقة بأن هذا العقد سيصل إلى الأسواق إن عاجلاً أو آجلاً، بل عاجلاً وليس آجلاً، ولم أكن أريد أن يرتديه أحد آخر. إنه يساوي ٢١ عاماً من عمري. ولكن لا تسيئ فهمي من فضلكما!» ورفع عينيه من على يديه إلى وجهي الرجلين اللذين جلساً يُصغيان إليه.

كانا جالسين حذرين من إحداث أي حركة أو تغيير سلوكهما حتى لا يقطعوا تلك القصة الغريبة. كانوا جالسين وكأن على رأسيهما الطير بفضل ذلك الكشف الهادئ السلس الذي يجري على لسان رجل لم يُعرّ نفسه أمام أحد من قبل. فلم يُجبه أي منهما.

قال دينيس بلاكيت مُوضحاً: لا. لم تحرّكني أي مشاعر. بالنسبة إلى كان العقد دليلاً على حماقة كبيرة ارتكبتها. وكان لا يزال موجوداً؛ هناك في مكان ما من العالم.

لم أكن مرتاحاً. وكنت أريد استعادته. كنت أريد أن أغرقه في مضيق مول البحري. كنت أراه وكأنه خطاب مليء بالتنازلات كتبه رجل ذات مرة ويعرف أنه لا يزال موجوداً، وهو على استعداد لدفع المال مقابل استعادته. كانت الرسالة التي نشرتها بين التجار أني سأدفع مقابل العقد إذا ما أحضروه لي كاملاً؛ ١٢٠ لؤلؤة بالتمام والكمال. كانت لؤلؤة واحدة ناقصة تعني أن جزءاً من خطاب تنازلاتي قد قطعه شخص ما واحتفظ به. منذ أسبوعين، عرض العقد على تاجر مجوهرات كبير في هذه البلدة. وعرض عليه مقابل مبلغ أقل بكثير من قيمته الحقيقية. ولسيب ما، ربما كان عرضه بهذا السعر الزهيد، شعر التاجر بشيء من التردد. ولكنه عرض عليه مجدداً منذ ١١ يوماً. كان يعرف جيداً ماهيته. وكان يدرك أنه سيتحقق ربحاً جيداً إذا ما اشتراه. واشتراه حقاً هذه المرة. وعلمت بعد يومين من شرائه أنه أصبح في حوزته. أرسلت له برقية مفادها أن يحتفظ بالعقد حتى نهاية الشهر عندما يتتوفر لي الوقت لأن أذهب إليه بنفسي، وأطمئن أنه خطاب تنازلاتي حقاً، وأخذه معه وأعود أدراجي. ولكن هذه» وتغيرت قسمات وجه الرجل الحديدي لجزء من الثانية «جريمة القتل الوحشية هذه ربما وقعت قبل إتمام البيع. إذا كانت الحال على هذا المنوال، فربما يصبح تاجر المجوهرات مفيضاً لك».

سأل هانو: «ما اسم تاجر المجوهرات يا سيد؟»  
«دومينيك بوشيت، شارع أبيه دو تورني».

قال هانو: «سارسل في طلبه على الفور وفي طلب العقد».

نهض دينيس بلاكيت من على مقعده، وقال: «لقد استغرقت رحلتي نحو ٢٤ ساعةً بدون توقف. لا أريد شيئاً سوى الاستحمام وتناول الطعام وتغيير ملابسي. إنها السادسة الآن. قد يأتي تاجر المجوهرات في السابعة، ويجدني أنا أجهّز نفسي للقاء». بدا هانو منزعجاً، وأكّد دينيس بلاكيت على هذه النقطة بابتسامة، وقال: «لقد خارت قوائي يا سيد هانو. ومن الضروري أن أرتاح لساعة».

كان واضحًا أنه بعد أن حكا قصته، بلغ منه الإرهاق مبلغه. فسار بخطى متثاقلة نحو الباب. فقفز هانو ورنَّ الجرس.

وسائل النادل: «هل حُملت حقيبة ملابس السيد إلى غرفته؟ نعم؟» ثم التفت نحو دينيس بلاكيت، وقال: «سنلتقي بعد ساعة إذن، وحتى ذلك، أرجو أن تتتأكد من أنك نلت امتناني واحترامي».

قال بلاكيت: «لا عليك». ومضى مُترنحًا وهو يخرج من الغرفة.

## الفصل السابع عشر

# كيف يدفع تاجر المجوهرات ضرائبه

وقف دومينيك بوشيت — وهو رجل ضخم الجثة، رسمي في مظهره، ذو لحية بنية مربعة، ويرتدى سترة طويلة عتيقة الطراز مصنوعة من الجوخ — عند عتبة الباب وانحنى، وأخذ من مورو حقيبة أوراق سوداء صغيرة ووضعها على الطاولة. وتلقى مورو بعد ذلك إيماءً من هانو خرج على إثرها من الغرفة وأغلق بابها. أخرج دومينيك بوشيت مفتاحاً صغيراً من جيب صدريته، وفتح الحقيبة وأخرج منها علبة مجوهرات. ثم نقل بصره بين هانو، وريكاردو، ودينيس بلاكيت، ثم سلم العلبة دون تردد إلى الأخير. كانت العلبة بالية، وكان الجلد الذي يكسوها مقطوعاً في عدة أماكن، وظل بلاكيت يقلب العلبة بين يديه لبعض لحظات، وبدا خائفاً من فتحها. ثم فتح العلبة بحركة سريعة عنيفة، وأخرج العقد منها، وترك الآلئ الناعمة الملساء تناسب بين أصابعه. كانت ثمة ابتسامة مرسمة على شفتيه، ولكنها ابتسامة مريضة. كان يمسك بين يديه ٢١ عاماً من عمره. كانت كل حبة من حبات اللؤلؤ جائزة صفة ناجحة تمتّ بعد عملٍ مضن، وجميعها كانت من أجل ابنته الحبيبة.

قال بلاكيت: «نعم، هذا هو العقد. هذا هو المشبك الماسي الذي يحمل أول حرف من اسمها «إ». ثم ألقاه على الطاولة وهو ينظر له كما لو كان أفعى ملونة ذات لسان مشقوق تستعد للانقضاض عليه.

قال هانو: «حسناً! أصيبحنا واثقين بالأمر الأول. هذا العقد يخص السيدة ديفينيش. والآن بالنسبة إليك يا سيد بوشيت. كنت متردداً في شراء العقد رغم أن سعره أقل بكثير من قيمته الحقيقية. ما السبب؟»

رد عليه التاجر بحذر: «لقد عرضه عليَّ شخص لا أثق به تمام الثقة.«  
«رجل أم امرأة؟»

«امرأة.»

«امرأة شابة؟»

«لا.»

كانت الإجابة، التي خرجت من فمه بعد تردد، مفاجئةً لكل الجالسين حول الطاولة، ولكنها كانت مفاجئةً مفاجأةً خاصةً للسيد ريكاردو. كان يُمْعن التفكير في التواريХ التي ذكرها بلاكت. كان اليوم عندما رأى إيفيلين ديفينيش في كهف المومياوات يتواافق معها تماماً. لم يكن يساوره أدنى شك، حتى هذه اللحظة، في أن إيفيلين ديفينيش نفسها هي من باعت عقد اللؤلؤ إلى بوشيت، وأنها سافرت إلى بوردو خصوصاً في ذلك اليوم من أجل بيعه.

صاح هانو بنبرة غاضبة: «إنها امرأة عجوز إذن. أخبرني عنها من فضلك. من تكون وما سبب عدم ثقتك بها.»

قال تاجر المجوهرات معتراضاً وهو يضغط بأنفاسه على أطراف أصابع إحدى يديه بأطراف أصابع يده الأخرى: «مهلاً. يتضمن عملي الكثير من العلاقات السرية ولن يزدحر إذا لم تُرَاع السرية. أنا في موقف عصيب. إن العلاقة بيني وبين عملي يجب أن تكون مماثلةً للعلاقة بين الطبيب ومرضاه.»

قال هانو الذي بدأ صبره ينفذ: «أخشى أن القانون لا يعترف بهذه العلاقة. وستتكرّم بإخباري بكل شيء تعرفه عن هذه المرأة.»  
بدأ بوشيت وكأنه يولي اهتماماً خاصاً بهذه العبارة وهو يقول: «كل ما أعرفه؟! في الحقيقة أنا لا أعرف شيئاً عنها.»

«كل ما لديك مجرد شكوك إذن.»

بدأ دومينيك بوشيت يتلفّت حوله. ثم داعب لحيته بيده برفق، وقال: «إن الشكوك قد تؤدي بالرجل إلى مواقف سيئة للغاية. إنني أستريحك عذراً.»  
انحنى هانو فوق الطاولة فجأة، وقال: «وأنا أرجوك ألا تضيع وقتي. ما الأمر؟ لقد ارتكبت جريمة وما يعطّلنا تردد تاجر مجوهرات!»

جفل بوشيت وصاح: «جريمة؟»

«حسناً! لا بد أنك قرأت عنها في الجريدة الصباحية. ولا بد أنك سمعتني أذكر اسم مالكة هذا العقد منذ دقيقة؛ السيدة ديفينيش.»

تلعثم تاجر المجوهرات بوشيت وهو يقول: «معذرةً يا سيدتي؛ أنا لم أربط بين الاسم والجريمة التي وقعت في سوفلاك.»

«آه! آه! آه! هل تحاول أن تتداكى علىَ أنت أيضًا؟ كفانا من التردد يا صديقي. هيَا قُلْ، من المرأة؟»

وبالطبع، رفض بوشيت أن يخبر أحدًا باسمها سوى القاضي، وأشارت تهديدات هانو إلى أحد الحاضرين في الغرفة أنه يدرك مدى ضعف موقفه. ولكن بما أن دومينيك بوشيت سيُصبح متورطًا في القضية لا محالة، فقد كان فطنًا بما يكفي ليدرك أن موقفه سيصبح أقل ضعفًا إذا ما أخذ جانب الشرطة عن طيب خاطر.

فقال: «الأرملاة تشيشول مَنْ أحضرت العِقد لي».

كرر هانو الاسم ببطء كما لو كان يبحث في ذكرياته: «الأرملاة تشيشول». ثم هز رأسه، وقال: «لا أعرفها».

استطرد بوشيت حديثه: «صحيح أنها لم تتعرض لأي اتهامات في السابق، على حد معرفتي. ولكن هذا لا يعني أنها تتمتع بسمعة حسنة. وأؤكد لك بكل صراحة يا سيد هانو أن سمعة الأرملاة تشيشول سيئة. إنها من المواطنين السيئين في هذه البلدة. إنك لن تسمع اسمها إلا في أقذر مستنقعات عالم الجريمة».

ولكنك تعرفها رغم كل هذا يا سيد بوشيت».

رد بوشيت: «سأشرح لك الأمر». ومد ذراعيه في حماسة نحو هانو لدرجة أن أكمام معطفه انحسرت إلى الخلف، وظهرت أساور قميصه. ثم قال: «لا شيء مرrib. مهلاً لحظة! لقد جاءت لي مرةً أو مرتين سرًّا وكان معها دائمًا شيء قيم لتبيعه. أنا لا أعرف شيئاً عنها. وبعدما فحصت الشيء الذي تريد بيده، قلت لها: «لا أعرف إن كنت سأتتمكن من بيعه أم لا. خذيه وارحلي وعودي بعد ثلاثة أيام». وكما تعرف يا سيد هانو، نحصل من الشرطة من وقتٍ لآخر على قوائم بالمجوهرات المسروقة أو المفقودة. ولطالما كنت أفحص هذه القوائم بعناية فائقة. ولكنني لم أتعثر على أي وصف يتوافق مع القطع التي عرضتها علىَ الأرملاة تشيشول. ورغم ذلك، كنت لا أزال متربداً. وجعلت شغلي الشاغل أن أعرف من تكون الأرملاة تشيشول. نعم — أصدقكم القول — سمعتها سيئة للغاية. وسمعة منزلها سيئة وشريرة. لا، إنها ليست حسنة السمعة. وعندما عادت مجدداً بعد ثلاثة أيام، سألتها صراحةً عن كيفية حصولها على هذه الأشياء القيمة للغاية. وفسّرت لي الأمر. ثمة سيدات نبيلات يرغبن من وقت لآخر في بيع بعض من مجوهراتهن دون أن يعرف أحد. وتحصل هي على عمولة صغيرة مقابل تلبية رغباتهن. وكان هذا التفسير واقعياً تماماً. هؤلاء النساء النبيلات لهن شؤون خاصة. وأنا من جانبي لدى تجاري».



ماطل السيد بوشيت في حذر: «لا أعرف إن كنت سأتمكن من بيع هذا العقد أم لا. عودي بعد ثلاثة أيام.»

ابتسم السيد دومينيك بوشيت. وكان السلوك الذي اتبעה على قدر كبير من الصراحة والأمانة. كان تاجراً أميناً يعمل وفقاً للقانون، ويتحمل حصته من عبء الضرائب القومية الكبير عن طريق المراقبة على إتمام صفقات تجارية ناجحة.

قال بوشيت: «لذا وضعت شكوكى الضعيفة تلك في جيبي ومعها تلك المجوهرات القيمة. ولكن حدث أمر ما. ربما اعتقادت أن تعليمات الشرطة في نهاية الخطاب مبالغ فيها. لا أعرف. ربما كان يجدر بي أن أضع لها معنى أشمل. يجدر بك أن تخبرني أين أخطأت.» قالها موجّهاً ابتسامةً عريضة نحو وجه هانو الجامد. كان تاجراً يقظ الضمير يتوقع لأن تُصحح له أخطاؤه إن كان قد فسر فحوى توصيات السلطات بطريقة حرافية بإفراط.

قال هانو بجفاف: «سأخبرك.»

قال بوشيت بامتنان: «سيكون هذا كرمًا منك. حسنًا، أحضرت الأرملة تشيشول لي خاتمًا مرصعًا بزمرة كبيرة جميلة للغاية، من بين أحجار أخرى لامعة غير ذات قيمة تذكر. كنت أرى أن هذه الزمرة خالية من العيوب تمامًا، وعليكم أن تعرفوا أنها السادة أنه من الصعب للغاية العثور على زمرة خالية من العيوب. كانت زمرة ذات لون أحضر داكن نقى، وكان في داخلها لون متزوج به وكأن شعلة تحترق في داخلها. كان حجرًا يخص أميرًا هنديًّا. كان، على ما أعتقد، هديةًّا من أمير هندي.»

وفجأة، قفز هانو من مقعده واقفًا بعد أن ظلَّ جالسًا دون حراك وكأنه مومياء مسنداً يديه على ذراعي مقعده، وأخذ يُحدِّق في وجه تاجر المجوهرات.

وقال بصوت مختنق: «هدية إلى جين كوريسو؟»

«أظن ذلك. أعتقد أن هذه الشابة كانت موجودةً في بوردو في أوائل فصل الصيف.»

كانت جين كوريسو واحدةً من تلك النجمات الشقراوات اللاتي يتلقن طوال موسم كامل في سماء منتصف الليل. ربما تمكنتُ من رؤية إداهن في بوردو إن كنت محظوظًا، ولكن من المؤكد أنك تستطيع رؤيتها في أبهى صورهن من دوفيل عبر باريس إلى مونت كارلو. إذا ما كنت في واحدة من أماكن الرؤية الشهيرة تلك، فسوف تراهن وهن يرتبطن بتابعين جدد بينما يتمايلن وينطلقن ويُثْرِن الشغف ويُحدِّثن قدرًا كبيرًا من الاضطرابات بين النجوم الرزينة. وفي نهاية المطاف، يصطدمن بالقمر الذي لطالما كان يردد الاصطدام به، أو الأرض أو المريخ، ويدرن حول أنفسهن إلى أعماق الظلم، ويدخلن إلى أحد متاجر الرهونات حاملاتًّا أجزاءً من شعلاتها لبيعها. انفصلت جين كوريسو عن أميرها الشرقيي منذ نحو ستة أشهر. واختفت من على وجه البسيطة إلى ركن مظلم من العالم لا يعلمه أحد، ولم يهتم به أحد. فهناك نجوم لامعة أخرى تنبض بحيوية الشباب تحاول جذب الأنظار بانحناءاتهن ورقصاتهن. كانت جين كوريسو واحدةً من تلك النساء، مراعاةً للأدب، ولكن ولَّت أيامها.

الأمر الذي كان يعرفه السيد ريكاردو جيدًا؛ فقد كان خبيرًا بأمور الحياة. كان يعرف أنه من الطبيعي أن تبدأ ببيع قطع من المجوهرات هنا وهناك. ما لم يفهمه ريكاردو هو السبب الذي جعل هانو يهتم بهذا الأمر الذي يحدث بصورة يومية. وهو ذو ذاكرة بحسب كشف مفاجئ، ويبعد مريعاً، نعم، ويبعد خائفاً أيضًا. عاد هانو يجلس على مقعده مجدداً ببطء.

وقال: «ماذا بعد؟»

واصل بوشيت حديثه قائلاً: «حسناً. أنا لم أخذ هذه الزمرة. لم أعرض سعراً لها. لا. وقلت للأرملة تشيتشول: «أحضرتها لي بعد ثلاثة أيام.» لم أكن أعرف أن هذا الخاتم موجود في قائمة الأشياء المفقودة. ولكنه كان كذلك. نعم يا سيد هانو، لقد أخرجت القائمة من خزنتي بمجرد أن خرجت الأرملة، ووجدها في القائمة.»  
قال هانو: «ولكنك لم تبلغ الشرطة.»  
«آه!»

قرب دومينيك بوشيت مقعده من مقعد هانو قليلاً. والتفت نحوه وهو يبتسم بثقة وبراءة.

وقال: «ها أنا ذا أرحب بنصائحك. إنني أقرأ رسائل الشرطة بعناية شديدة. وهي واضحة تماماً. يجب إخطار مخفر الشرطة فور أن تُصبح أي من هذه القطع في حوزتي. هذا نص الكلمات. ولكن هذا الخاتم لم يدخل في حوزتي. ولم يحدث ذلك قط. فقد رفضت شراءه بعد ثلاثة أيام. ربما كان يجدر بي أن أُضفي معنى أكثر شمولًا على هذه العبارة. لا أعرف. لقد قلت لنفسي مبرراً: «إن الشرطة تعرف ما تريد. ومن أكون أنا لأعرف أكثر منهم؟» والآن عليك أن تخبرني إذا كنت مصيباً أم خطئاً». واضطجع بوشيت في جلسته ولا يزال يبدو بريئاً ومبتسماً.

ولكن نحّى هانو السؤال جانباً. وطرح سؤالاً آخر بدلاً منه: «متى عرضت عليك تلك المرأة المدعوة تشيتشول الخاتم؟»  
«أمهلن لحظة!»

أخرج بوشيت مفكرةً صغيرةً من جيب صدريته وطالعها، ثم قال: «كان هذا في الثاني من يونيو. يمكنني أن أتنذّر التاريخ. فقد كنت مدعواً إلى مأدبة غداء مهمة مع شركائي في «شابون فين». وصلت الأرملة تشيتشول في العاشرة من تلك الليلة.»  
رفع هانو حاجبيه، وقال: «إنها ساعة متأخرة لتبقى في مكتبك يا سيد بوشيت. ظهرت لحظة خاطفة من عدم الارتياح على وجه دومينيك بوشيت، ثم قال: «لقد جاءت إلى شقتي وليس إلى مكتبي.»

كان هذا الاعتراف كافياً بالنسبة إلى هانو. وتقبله. ربما ألقى بشبهة مقيمة على العلاقة بين الأرملة تشيتشول ودومينيك بوشيت تاجر المجوهرات. لقد أحضرت الأرملة تشيتشول بضاعتها تحت ستار الليل؛ نعم! وصمت دومينيك عندما عُرِضَت عليه البضاعة التي كان يدرك أن شراءها يُعد تهوراً؛ نعم! يجب التفكير في هذه المسائل غير المهمة في

وقت لاحق. أما الآن، فثمة حاجة ملحة للاهتمام بجوايس وبيل التي يجب العثور عليها مخبأةً في مكان ما تحت كل هذه الفوضى من الجريمة والخداع.

«ومن ثم، رفضت شراء زمرة جين كوريسو يا سيد بوشيت. نعم، أعرف ذلك. وأصبحت حذراً للغاية، منذ تلك اللحظة فصاعداً، عند التعامل مع الأرملاة تشيتشول. ولكنك اشتريت عقد إيفيلين ديفينيش.»

«نعم!» انتهى السيد بوشيت من تبريراته بزفارة راحة تشبه كما لو كان سبّاحاً انتهى من الغوص في مياه عميق، ثم قال: «لم تكن الشرطة مهتمةً بهذا العقد. وتأكدت من ذلك. ولم يرد على أي قائمة. ولكنني كنت أعرف أن السيد دينيس بلاكيت سيفدفع بسخاء مقابل الحصول عليه. فاشتريته.» ثم هبَّ من مقعده، وقال: «وأرجو أن يُشرِّفني السيد دينيس بلاكيت غداً لتحديد السعر المناسب.»

أخذ العقد من على الطاولة من أمام دينيس بلاكيت، وتراجح العقد في يده ولمع ثم احتفى داخل علبة، كما لو كان ثعباناً يختفي بين الشجيرات، وكان على وشك أن يعيد العلبة إلى داخل الحقيبة عندما مد هانو يده.

«أسأدار هذا العقد. وسأعطيك إيصالاً مقابلة. وثمة شهود حاضرون سيشهدون أنني أخذته.»

ثم خط بعض الكلمات سريعاً على ورقة على طاولة الكتابة، ووقعها باسمه وأعطى الورقة إلى بوشيت.

ثم قال: «والآن، أريد منك أن تخبرني بعنوان الأرملاة تشيتشول.»

أطرق السيد بوشيت مفكراً. ولم يكن ثمة أدنى شك لدى أي من الحاضرين في أنه يُفْكِر. هل سيكون من الحكمة أن ينكر معرفته بعنوان تلك المرأة العجوز؟ هل يمكنه أن يقول: «لقد كنت أراعي جيداً باعتباري تاجراً أن أُبدِي اهتماماً ضئيلاً للغاية بوضعها ومحيطها.» ويُقنع الحاضرين بهذا الدفع؟ بوجه عام؛ لا، بالطبع لا!

فردَّ وهو يهز كتفيه: «هذه المرأة لا تسكن أبداً من شوارعنا الراقية.»

قال هانو: «أنا واثق بذلك.»

«إنها تسكن شارع جريجوار.»

سأله هانو وهو يُدُون الاسم: «وأين شارع جريجوار؟»

قال دومينيك بوشيت وهو يُشير إلى النافذة المطلة على كور دو لينتندانس: «إنه هناك. ناحية الشرق من هنا. إنه يوجد ضمن أبرشية سان ميشيل. إنه يبدأ عند ميدان صغير في هذه الأبرشية، وهو شارع طويل وضيق ومظلم يمتد حتى أرصفة الميناء.»

لم يتمكن السيد ريكاردو من كبح جماح نفسه أكثر من ذلك. أبرشية سان ميشيل؟  
حسنًا إذن! إن شارع جريجوار قريب من كهف المومياوات.  
فصاح مخاطبًا بوشيت: «هل اشتريت العقد يوم الإثنين من الأسبوع الماضي؟ اليوم  
الجمعة. هل اشتريت هذا العقد منذ ١١ يومًا؟»

رد دومينيك بوشيت:

«أمهلني لحظة!» وطالع مفكرته مرة أخرى. في خضم انفعاله، بدا للسيد ريكاردو مشهد الكتاب الصغير بين الأصابع العريضة للصائغ متناقضًا وسخيفًا.  
رد دومينيك وهو يرمي المشارك الجديد في الحوار في ترقب ويحاول تخمين السبب في أن هذا التاريخ يجعله ينفعل هكذا: «لقد كتبت ملحوظة؛ نعم. رأيته للمرة الأولى يوم الجمعة. واحتسبته يوم الإثنين؛ منذ ١١ يومًا». ولكن لم يرفع السيد ريكاردو عينيه عن وجهه هانو. لقد ظهرت حلقة أخرى من السلسلة أمام ناظريه.  
وصاح: «هل تذكر؟ لقد رأيت إيفيلين ديفينيش عند برج سان ميشيل في عصر ذلك اليوم. لقد سلمت عقدها إلى الأرملة تشيشول في شارع جريجوار. وكانت في طريق عودتها ...»

قاطعه هاتو بإيماءة من رأسه، وقال مُكْرّرًا: «كانت في طريق عودتها، فقد دفع ثمنه، أليس كذلك؟ ثم زارت كهف المومياوات. ثم أطلقت هذه التنهيدة العميقه توًقا لأن تعود الأيام حينما كان الناس يُعاقبون بمثل هذه القسوة ... أليس كذلك؟ هل هذا ما حدث حقيقةً في نهاية المطاف؟» ... ونظر عبر الطاولة وعيناه تتقدان غضباً وسط جمجمته الضخمة، ووجهه شاحب من الخوف. وقال: «هل دفع مقابل عودة هذه الأيام مجدداً؟ ... ولكن ... نعم، ولكن حينئذ ...!»

تمكن السيد ريكاردو من استكمال الجملة المبتورة. ولكن حينئذ ... كانت إيفيلين ديفينيش هي من هلكت. هل دبرت عقاب جويس وبيبل ودفعت مقابلها؟ هل كانت تلك النظرات الحقود في غرفة استقبال سوفلاك تعني أن التنفيذ وشيك ... ولكن حينئذ ... كانت إيفيلين ديفينيش ذات اليد المقطوعة هي الضحية؛ ضحية انتقام سادي.  
كان دومينيك بوشيت طوال تلك المدة يداعب لحيته البنية بعصبية، ويُحدّق من وقتآخر في رفقاء الجالسين حول الطاولة. كانت ثمة أسئلة مطروحة في تلك اللحظة تمنى من أعماق قلبه ألا تكون له أي علاقة بها. فنهض واقفاً.  
وقال: «هل يمكنني أن أنصرف الآن؟ هناك عمل ينتظرني. ويجب أن أغلق مكتبي.»

نظر هانو نحوه بود أكبر مما توقعه ريكاردو. كما كان هناك شبح ابتسامة على شفتيه.

قال: «نعم. في نهاية المطاف، أنت لم تُصعب الأمور علي. ربما عارضتني وقلت إنك لن تفصح عن شيء إلا أمام قاضي التحقيق وفي حضور مستشارك القانوني. سأضع ذلك في الاعتبار لصالحك. وبالطبع، كان يجدر بك أن تبلغ الشرطة بمجرد أن عرض حجر الزمرد القيم عليك. ولكن، نعم، الحياة صعبة والضرائب باهظة. هيا، اذهب! لم يكن تلميذ يغادر صفه عند انتهاء الدوام ليختفي بهذه السرعة التي أظهرها دومينيك بوشيت.

قال هانو مبتسمًا: «يا للمسكين! لقد صدمناه! إنه سيتبع التعليمات حرفيًا بعد ذلك. لنعد الآن إلى عملنا.» ثم رفع صوته ليصيح: «مورو! وعلى الفور، ظهر مورو — الذي كان يقف حارسًا خارج الباب — داخل الغرفة وأكأنه جنى من إحدى الحكايات العربية.

قال هانو وهو يُدوّن شيئاً على الورق بسرعة: «الأرملا تشيشول تسكن شارع جريجوار. هل معك جندي؟ نعم. سُرّسله بالخطوة السريعة إلى السيد المحافظ ليوصل هذه الرسالة. يجب مراقبة منزل الأرملا تشيشول بحذر ودون لفت الأنظار من الآن فصاعداً؛ ضع رجلاً عند نهاية الشارع عند رصيف الميناء، ورجلاً آخر في الميدان الصغير عند بداية الشارع، وثالثاً عند المنزل نفسه. ثم نصب رجلاً كفواً كي يشرف عليهم. يجب ألا يقدم أي منهم على أي تصرف، إلا عند الضرورة. ولكن يجب إخباري على الفور إذا ما دخل المنزل أي زوار.»

أغلق مظروف الرسالة وأعطتها إلى مورو. ثم التفت نحو دينيس بلاكيت. وقال: «جزيل الشكر لك يا سيدي. سنفعل ما يمكننا فعله. خلال ذلك، هل ستظل في بوردو؟

قال دينيس بلاكيت: «نعم، سأظل هنا.»  
«حسناً! وأنت يا سيد ريكاردو، أرجو منك أن تقبل دعوتي لك على العشاء الآن في فندقي المتواضع. إنه ليس أنيقاً مثل هذا الفندق، ولكنهم يقدمون طعاماً جيداً، وعندما يكون هناك عمل كثير على المرء أن يؤديه، فمن الحكمة أن يأكل جيداً قبل أن يبدأ.» كانت ثمة نبرة حماسة في صوته، وحملت عيناه تلك النظرة اللامعة الغربية والقاسية التي تلوح في أعين كلاب الصيد عندما ترى بندقية. كان يبدو مثلاً راه ريكاردو ٢٠ مرةً

سابقة عندما تبدأ أجزاء اللغز تتضح ولا يحتاج الأمر إلا إلى عين مدققة لترى الصورة الكاملة. الأمر باختصار أن هانو كان في تلك الحال المزاجية التي تتطلب من أي من أصدقائه المخلصين أن يُقْوِّموه، ولم يكن السيد ريكاردو ليتَهَرَّب من هذه المهمة.

فقال: «هناك أمر علينا فعله قبل أن نذهب إلى العشاء يا صديقي. أنا لا أتهمك بالإهمال. لا، هناك الكثير من التفاصيل لتفكير فيها. ومن المحمٌ أن تُهَمَّ بعض الإجراءات الاحترازية المهمة من وقتٍ لآخر.»

تغيرَت تعابيرات وجه هانو، واختفت الثقة من أسلوبه، وتهَدَّج صوته من فrust القلق، وصاح في يأس: «هل هناك إجراء احترازي أهملته؟» بدا وكأنه سيقتلع شعره من جذوره. وقال: «أخبرني أنا تابعك الذليل.»

ابتسם السيد ريكاردو في سماحة.

وقال: «لا حاجة إلى أي أفعال بطولية. يمكن تدارك هذا النسيان الليلة. يمكن لأي إنسان أن ينسى. أتحدث بالطبع عن قبطان الزورق وطاقمه الذين غادروا المرفأ الصغير في سوفلاك في عكس اتجاه المد قبل ساعاتٍ من موعد الانطلاق المحدد.»

حلت خيبة الأمل محل الرغبة الصادقة في تصحيح الخطأ على وجه هانو. وهز رأسه مؤنباً. وتحدى بنبرة ملؤها الإحباط. وقال: «صديق العزيز، هل كنت تقصد موضوع الزورق فحسب؟ ولكن بالطبع ... بالطبع ... إن قبطان الزورق وابنيه محبوسون في زنازين منفصلة منذ وصولهم إلى بوردو ليلة أمس. إنهم لن يتمكنوا من الإبحار بقارب لو بوتي موس في حديقة البلدية عصر الأحد. هل ستتأتي معِي؟»

بدا الخجل الشديد على وجه السيد ريكاردو الذي تواضعت نبرة صوته.

وقال: «نعم، أمهلني لحظة» كان قد تأثر بعبارة دومينيك بوشيت المفضلة «أمهلني لحظةً لأنْغسل يدي.»

رد هانو: «بل لحظتين، وعليك أن تستدعِي سيارتِك. أنا رجل متغطرس. نعم. أفضّل ركوب سيارة رولز رويس. كما أنها تتحرك بسرعة من دون أن تشعر بأنها تتحرك بسرعة وستتحرك بسرعة إلى مكان بعيد الليلة!»

كان ثمة حماس في صوت هانو، ولعله في عينيه بَدَدا على الفور استياء السيد ريكاردو. كان شديد الحساسية فيما يتعلق بموضوع الزورق. وشعر بالإهانة أن هانو تذَكَّر أن يقبض على طاقمه. كان الزورق هو إسهامه في كشف غموض القضية، وشعر بالاستياء من أن الإسهام قدَّمه شخص آخر. ولكن من الواضح أن هانو كان في حالة



تلقى القبطان عقاباً قاسياً في بوردو!

ترقب. كان بصدده قلب الطاولة على الجميع. لقد حدد أعداءه. كان يفترض أن يكون سريعاً ورهيناً.

صاح ريكاردو متحمّساً: «على الفور». وعدا نحو الباب واستدعى سيارته وعاد عدواً أيضاً. وقال: «الرولز رويس جاهزة. يمكنك أن توجّه الأوامر لسائقي. ستكون السيارة تحت تصرفك. ستنتحرك بسرعة إلى مكان بعيد الليلة!»

رد هانو: «ولكن ليس على الفور يا صديقي. في خلال ساعة ونصف الساعة في فندق العصفور الذهبي. وحتى عندما يحين ذلك الموعد، سيظل ينتظر قليلاً. لهذا السبب، علينا أن نتصرف بطريقة مختلفة عن دومينيك بوشيت. إننا لن نغلق مكاتبنا الليلة.»



## الفصل الثامن عشر

# هانو يتناول العشاء

كان الفندق الصغير الذي يُقيم فيه هانو يقع عند حافة ساحة كينكونس الشاسعة وعلى الجهة المقابلة من النصب التذكاري الأبيض الضخم للجيرونديين. كان الطابق الأرضي منه عبارةً عن مطعم، وقد جلس هانو والسيد ريكاردو بجانب نافذة مفتوحة. وفي الخارج، كان ثمة بعض طاولات ذات أسطح رخامية ومقاعد حديدية مصوففة على الرصيف تحت مظلة، ولكن لم يكن يجلس إلى إحداها سوى رجلين يشربان مشروباً مُقبلّاً، وكأنما بعيدين عن نطاق السمع.

قال هانو بعد أن طلب وجبة عشاء: «دعونا نحذو حذوهما. نبيذ فيرموت سيكون رائعًا، على ما أعتقد. نعم، أعدك بأننا سنستمتع بطعمانا هنا».

فتح عليه جديدة ذات لون أزرق فاتح من سجائر ماريلاند وأشعل واحدةً من أنابيب التبغ السوداء تلك في استمتاع. ربما لم يكن هانو رائعًا كما كان يعتقد مساعدته مورو دائمًا، والسيد ريكاردو في بعض الأحيان. ولكنه كان يمتلك خصلة لا يمكن لأحد أن يكون عظيماً من دونها. كان قادرًا على التخلص من جميع مخاوفه بمجرد أن تُتاح له مدة راحة من عمله ولو قصيرة. بمجرد أن حان وقت الراحة، أغلق كتابه، وبدأ يلهو. اضطجع في جلسته يريح ذهنه ويعسله وسط هذه النجمة الخاميسية الشاسعة من الأشجار والنهار الذي صبغته أشعة الشمس باللون الأحمر. ولكن لم يكن السيد ريكاردو يملك ذهناً محترفاً. كان يجب أن يظل مشغولاً طوال الوقت، وكان النهر بما يحويه من سفن ضخمة متداشة يُذكّره بالمناطق الريفية التي تقع خارج المدينة، ويضع أمام عينيه سلةً من الخيزران تتأرجح برفق متوجهة نحو ضفة مكسوة بالعشب.

صاح ريكاردو: «يجب أن تُخبرني إلى أين سذهب الليلة بعد العشاء. لم أعد أحتمل عدم معرفة ما يحدث حولي».

أفاق هانو من شroud ذنه ببطء شديد، وكرر بدهشة كبيرة: «أين سذهب الليلة؟» ونظر إلى ريكاردو قلقاً، ومد يده وتحسس نبضات قلبه. وقال: «أنت تسألني عن ذلك الآن بعدما بدأ كل هذا الغموض في التكشُّف؟ لا وجهة لنا إلا لمكان واحد فقط». قال السيد ريكاردو عابساً وهو يبعد يده: «يمكنك أن تحفظ بالسر لنفسك إذا أردت، وأحب أن أحافظ ببنيتي لنفسي».

تعجبَ المحقق مستخدماً تلك العادة المقينة بأن يتحدث عن نفسه بضمير الغائب: «كان هانو مخطئاً. كان يجدر بهانو أن يدرك أنه يجب أن يفخر باستضافة السيد ريكاردو. ولكنه كان بدلاً من ذلك، يتصرف مثل القط مع فار... هذا ليس جيداً... أليس كذلك!» رأى علامات الاستياء تتجمع على جبين السيد ريكاردو بسبب استخدامه لتشبيه مستفزٍ كهذا، فسارع بالانتقال إلى موضوع آخر: «أخبرك إلى أين سذهب. سذهب إلى قصر ميراندول ونقطاط الفيكونت بينما هو منكب على كتابة مقال شائق حول الطقوس الباطنية لجماعة الوردة الصليبية، لقراءته على مسامع الشابات في بوردو. ثم سنطلب منه بكل أدب أن يرينا الغرفة العلوية التي كانت الأنوار مضاءً فيها في ساعة متأخرة منذ ليلتين».

تسربَ صوت هانو في فتح نافذة صغيرة داخل ذهن صديقه أكثر مما فعلت كلماته. ورأى مجدداً ذلك الصف الطويل من الأنوار التي تلمع عبر الأرضي الريفية النائمة. ماذا كان يحدث في تلك الغرفة الكبيرة؟ ما الطقس الغريب الذي كان يُجرى فيها؟ بدأت أجزاء صغيرة من الأحجية تتضح بالنسبة إليه أيضاً؛ سرقة رداء القس وإعادته، صمت القس الغريب والمُعمَّد، وزيارة هانو لهذا الصباح إلى قصر رئيس الأساقفة.

فصاح: «هل تعتقد أن...؟» وجلس يُحدّق في وجه صديقه الذي اعتقد أنه على وشك أن يخرج بكشف رهيب. أومأ هانو برأسه، وقال: «أيًّا كان ما حدث منذ ليلتين، فقد حدث في تلك الغرفة العلوية الطويلة».

«هل تقصد قتل إيفيلين ديفينيش؟»

«نعم».

«لا، أنا لا أصدق ذلك!»

عبس هانو وبدت الشراسة في ملامح وجهه. ورفع يده ثم تركها تسقط جواره. وصاح في إحباط مفاجئ: «بالنسبة إلى ذلك، لا يمكنني أن أخبرك بأكثر مما يمكنك أن

تخبر به نفسك. فأنا لا أعرف أكثر من ذلك! أنا لا أفهم!» ثم جلس مثبتاً عينيه الحزينتين على مفرش الطاولة وقسمات وجهه تختلج. ثم بعد بضع لحظات، مال نحو الأمام وهمس: «على كلّ منا أن يدعو الله سراً أن تخبرنا جويس ويبيل الشجاعة بكل ما نريد أن نعرفه بلسانها قبل أن يطلع الصبح.»

ثم تراجع بسرعة عندما اقترب صاحب المطعم من الطاولة حاملاً أطباقه الصغيرة المليئة بالفجل والزيتون الأسود. ثم قال: «هيا! لنأكل! لن تكون قادرین على فعل شيء ما لم نأكل.»

قالها ناصحاً بصدق. كان الطعام شهيّاً في مطعم «العصفور الذهبي» الصغير، على الرغم من أن النادل الوحيد كان هو نفسه صاحب المطعم مرتدّاً بدلةً من الصوف، وكانت كل خطوة يخطوها تسمع بوضوح على الألواح الخشبية العارية. أدرك السيد ريكاردو أنه لم يأكل شيئاً طوال اليوم سوى غداء خفيف في مطعم «شابون فين»، بينما بدا هانو وكأنه لم يأكل شيئاً منذ عام كامل.

قال السيد ريكاردو، وكان فمه ممتئلاً للأسف: «هذا الطبق من كركندي الكراديinal لذيد للغاية.» كان قد بدأ ينظر إلى مغامرة الليلة بنظرية أكثر إشراقاً وتفاؤلاً. وافقه هانو قائلاً: «إنه ليس شيئاً. كما أن هناك طبق البط المطهو مع السلطة سيأتي بعده.»

قال ريكاردو: « رائع.»

أحضر صاحب المطعم إلى الطاولة زجاجةً سوداء في مهد من القش، ووضعها برفق كما لو كانت طفلاً رضيئاً، وهو مربيه الحنون. فقال هانو: «كنت أعتقد أنه سيكون ملائماً تلك الليلة بالذات من بين جميع الليالي الأخرى أن نشرب زجاجةً من النبيذ ميراندول المعتق. إنه فرز ثان بلا ريب، ولكن طبقاً للكثير من الحكماء، كان يجدر به أن يُصنَّف فرزًا أولًا. ما رأيك؟»

نعم، كان هذا دور السيد ريكاردو في الحكم. وأصبحت الكرة الآن في ملعبه. نبيذ ميدوك الأحمر! إنه لم يكن يسافر مرةً كل عام من بوردو إلى أركاشون سدى! وضع هانو ملء ملعقة مائدة من النبيذ في كأسه أولاً ثم ملأ كأس السيد ريكاردو. ابتسم السيد ريكاردو. أخلاق طيبة، ونبيذ حيد؛ هل ثمة انسجام محبّ أكثر من ذلك؟ رفع كأسه ليمر النور عبره. وكان لون النبيذ أحمر وصافيًا كالياقوت. ثم أنزله أمام أنفه وشم عقه في استمتعان. وقال: «ممتراز.» ثم بدأ يرتشف منه في تلذذ، وصاح وهو يشرب مجدداً:

«رائع!» شعر وكأنه يسبح إلى أعلى بين سُحب وردية. وستُسوئي مسألة سوفلاك اليسيرة تلك سريعاً. فقال: «نبيد ليشربه صديقان وسط صمت مبهج على جانب ميدان تاريخي في فرنسا الجميلة.»

كان من المؤسف أنه يتعمّن عليه إنهاء جملته الأدبية تلك بابتدال مقين مثل «فرنسا الجميلة». ولكن، كانت هذه طريقته، وتقبل هانو المجاملة بشكل شخصي كما لو كان هو فرنسا الجميلة نفسها. وكانت هذه طريقة هانو أيضاً. فقال معلقاً: «إن قبو النبيذ هنا لا يأس به». شرب ريكاردو مجدداً. وبعد الكثير من تدوير النبيذ على لسانه، وضع الزجاجة بقوة كادت تكسر قاعدتها.

وأعلن قائلاً: «إنه إنتاج عام ١٩٩٣»؛ وانحنى هانو في إعجاب بحاسة تذوق صديقه المرهفة. فكر ريكاردو مُدلياً ساقيه تحت الطاولة، أنه مع وجود محقق فرنسا العظيم، ومعه صديقه الذي يستطيع أن يحدّد على الفور أن النبيذ من نوع كلاريه إنتاج عام ١٩٩٣ لمساعدته، فمن الأفضل اعتبار أن جريمة سوفلاك قد حلّت، وأن الجناء أوشكوا على الدخول في قفص الاتهام.

فقال وهو يتحمّل نحو الأمام بمكر ويرفع كأسه التي أعاد ملأها: «في صحة الأرملة تشيشول.»

ردّ عليه هانو: «صدمت. في صحة الأرملة تشيشول!»

ولكن لم تجعله العبارة يشعر بأي بهجة. بل أعادته إلى المزاج السيئ. ثم دخل في نوبة من احتقار الذات لم يعتدتها في نفسه. وقال: «اعتبر نفسي رجلاً ذو أخلاق عالية، وأنت أيضاً.»

عارضه السيد ريكاردو قائلاً: «لا أتفق معك في أنني أعتبر نفسي رجلاً ذو أخلاق عالية.»

قال هانو: «أنا لم أُعبِّر عما أقصد جيداً. كنت أقصد أنك تعتقد أنني رجل ذو أخلاق عالية.»

أجاب السيد ريكاردو بعد التفكير لوهله: «لم أعد واثقاً بذلك طوال الوقت.»

«لا؟ ثمة أوقات نتصرف فيها بطرق سيئة لا تُعبّر عن ذاتنا الحقيقية. ولكنك تتعافي من ذلك بسرعة كبيرة للغاية يا صديقي. ربما تبدو مُتشتّگاً لحقيقة ثم أفعل شيئاً يسيراً وتقول على الفور — أوه، باريلاح كبير! — «يا لهانو هذا! يا له من عبقرى! ولكن، برغم ذلك» وهزَّ كتفيه «ثمة مرات كثيرة عندما أعادتني حادثة يسيرة إلى الطريق القوي.»

الحوادث اليسيرة ... نعم ... إنها تقع. أن تعرفها فور رؤيتها، وتقتنصها، وتستخدمها؛ فهذه نصف مهارتي. ولكن عليك أن تظل يقطاً بالطبع لتمكّن من رؤيتها». كان هذا مبدأ هانو القديم الذي قصّه مرات كثيرة. إن المصادفة أكثر الآلهة حبًا، ولكنها الأكثر غيرة أيضًا. إنها تتطلب ذهناً حاضرًا ويدًا حديدية. وتُظهر وجهها لجزء من الثانية فقط، ما يكفي من وقت لتهمس برسالتها فحسب، ثم تراكم الغيم مجددًا. وثمة عيب في أذنك إذا لم تتمكن من سماع الكلمات سريعاً.

«إليك جين كوريسيو مثلاً. إنك تعرف شيئاً عن أولئك النساء بالطبع؛ فأنت رجل عاركٌ الحياة. قلة منهن متزوجات، وكثير منهن يضعن أموالهن في أماكن آمنة، ولكن بقيتهن، عندما يذبل شبابهن» وأعطى إشارةً بيده كما لو أنه يُلقي حجرًا في بركة «لا يتبقى لهن أصدقاء يسألون عنهن. وبعض النساء الأخريات اللاتي تراهن حول أحد الملاهي الليلية في الثانية صباحاً، قد يقلن في لا مبالاة: «فييفي الصغيرة! لم أرها منذ شهر. هذا غريب». ولكن هذا كل ما سيقلنه عن الأمر. لقد ضاعت فييفي الصغيرة في الظلمة الخارجية. ولن يهتم أحد بأمرها. وستموت في البالوعات، وربما ماتت حقاً. هل أنا محق؟» قال الرجل الخبرير بأمور الحياة: «نعم».

واصل هانو حديثه قائلاً: «حسناً إذن. نجت جين كوريسيو من حالة نسيان مماثلة بفضل ظرف واحد فقط. والدتها، وكانت قرويَّن مسنَّين يملكان مزرعةً بالقرب من فونتينبلو وعاشا لسنوات على إعانت من جين. كان يصلهما كل موسم المزيد من المال لشراء مزيد من الأراضي وضمها إلى المزرعة، وكان جين وعشيقها يأتيانهما كل عام في زيارة مهيبة. فكانا يجلسان في سيارتهم، ويتناولان الغداء في غرفة الجلوس ذات أغطية المقاعد المزركشة، وبعد الغداء يجلسان خارج المنزل في الشرفة بينما يمر بهما كل من أفراد العائلة واحداً تلو الآخر ويحصل على بعض الإطراء ومبلغ من المال. آه، لا يجدر بك أن تذهب يا صديقي! عائلة كوريسيو ليست الوحيدة على هذه الشاكلة. صدقني!» ثم مر عام كامل من دون إعانت. وتوقفت الزيارات المهيبة. وخيم الرعب على عائلة كوريسيو. هل أدارت جين ظهرها لأقاربها المساكين؟ لا، جين فتاة طيبة. كُتب لها خطاب بكثير من اللهاش والكثير من ارتعاش الأصابع الواهنة. ولكنه أُعيد إلى مُرسله عبر مكتب بريد الخطابات غير القابلة للتسلیم. لقد أبحر أميرها الصغير عائداً إلى موطنها في الشرق. واختفت جين كوريسيو؛ وكذلك أموالها ومجوهراتها.

استطرد هانو قائلاً: «وصلت الآن إلى الحقيقة الواقعية الوحيدة. كتبت جين كوريسيو وصيَّةً قسمت فيها ممتلكاتها بين أفراد عائلتها، واحتفظت بهذه الوصية في المكتب المصنوع

من خشب شجر الجوز في الغرفة ذات أغطية المقاعد المزركشة. كان يجب الحفاظ على هذا الكنز. أليس كذلك! يجب فعل شيء ما. وعليه، ذهب وفدٌ من عائلة كوريسيو مكون من الأب وأحد أبنائه، وطرق أبواب جهاز الأمن العام. وتوليت أنا القضية، واعتقدت أنها ستكون سهلة. كانت جين فتاة بغاء حريصة، ولكي تتجنب الأخطاء والمشكلات، ذكرت في وصيتها بالتحديد، وبكل وضوح، قطع المجوهرات التي يجب أن يحصل عليها كلُّ من أفراد عائلتها. لقد أعطاك دومينيك بوشيت تلميحاً عن نوعية الخطوات التي يجدر بنا أن نُقدم عليها، ولكننا لم نسمعه يقوله صراحة. لو أن محتالاً تمكّن من وضع يده على هذه المجوهرات، لتكتم على وجودها تماماً. ولكن بعد مدة، وصلتنا معلومات عن جين نفسها. كانت قد أتت إلى بوردو خلال الشتاء. فتبَّعْناها، ولكنها اختفت مجدداً. أخبرتك بالأمس أنني كنت في بوردو لأتولى مسألة أخرى غير مسألة قصر سوفلاك. كانت جين كوريسيو شغلي الشاغل، وكانت أول معلومة تصلني عنها تلك المعلومة التي أعطانيها دومينيك بوشيت الليلة. ولكنني عرفت معلومات أخرى. على سبيل المثال، اختفت ثلاثة نساء من البلدة، بنص العبارة، غير جين كوريسيو، في بوردو خلال السنة الفائتة.»  
خفض صوته أثناء حديثه ومال نحو الأمام وأخرج رأسه من النافذة ليتأكد من أن أحداً لن يمكنه سماع ما يقول.

صاح السيد ريكاردو: «ثلاث نساء؟!»

أجابه هانو وهو يومئ برأسه: «نعم. ثلاثة نساء من النوعية التي وصفتها لك. نساء لن يلتفت أحد إلى غيابهن. وإنني أتساءل عما إذا كانت الأرملة تشيشول قد ذهبت إلى شقة السيد بوشيت في الليل لتبَّع له أيّاً من ممتلكاتها بثمن بخس.»

اضطجع السيد ريكاردو في جلسته واحتفى كامل الانتعاش الذي اكتسبه من وجبة العشاء. اختفاء النساء الثلاث، الزيارات الخفية التي قامت بها المرأة ذات الاسم الشرير لتأجير الأحجار الكريمة تحت ستار الليل، التأكيد على أن مجوهرات جين كوريسيو قد عُرضت عليه ليشتريها؛ جميع هذه الحقائق أعطت حيازتها لعقد إيفيلين ديفينيش معنى رهيباً للغاية.

قال السيد ريكاردو: «هذا العقد لم يُسرق. فقد اشتراه بوشيت قبل تسعه أيام من مقتل إيفيلين ديفينيش. وربما كانت لتكلشف اختفاءه إن كان سُرق. لقد تحَّلت عنه بمحض إرادتها في عصر ذلك اليوم عندما التقىتها في كهف المومياوات. لقد باعه مقابل المال، إذن؛ نعم، مقابل المال.» وظهرت أمام عينيه مجدداً غرفة الاستقبال في قصر سوفلاك

ونظرة الكراهية التي طلت من عيني إيفيلين ديفينيش عندما انحني روبن ويبستر فوق مقعد جويس وبيبل. ولكن حينئذٍ؛ عاد مجدداً إلى دوامة الفكر القديمة. كانت إيفيلين ديفينيش من دفعت الثمن!



لم تتمكن عينا السيدة ديفينيش من إخفاء كراهيتها عندما رأت جويس تحدث مع ويبستر.

نظر السيد ريكاردو عبر الطاولة إلى هانو الذي كان يُدْخِن سigarًا يحمل سواداً مثل سواد سجائره.

وقال: «أنت تعتقد أن جويس وبيبل موجودة في قصر ميراندول».

لم يُجب هانو عن هذا السؤال.

«لقد شكت في ذلك عندما حرصت على إخبار الجميع بأن الشرطة تُحاصر المنطقة بأكملها.»

لم يُقر هانو بذلك تماماً، ولكنـه قال: «كنت آخذ احتياطاتي. فليس من المسموح لي أن أفعل أكثر من ذلك. وستذكر أيضًا أنني تفوهت بتحذير آخر.»

«عن جريمة القتل الثانية؛ نعم. ولكنـ اليائسين لا يأبهون بالتحذيرات.»

رد عليه هانو بتأنٍ يدل على أنه يسعى إلى إقناع نفسه أكثر من إقناع صديقه. قال: «ميراندول يعرف أنـي أشك في منزله. لقد زرته لكي أريـه أنـي أشك فيه حقاً. وتحدثت عن آثار إطارات السيارات لأريـه أنـي أشك فيه. وأسقطت القناع على الطريق لأريـه أنـي أشك فيه. ودلت يداه المرتعشان على أنه أدرك أنـي أشك فيه. ولن يجرءوا على ارتكاب جريمة أخرى في هذا المنزل بعد الآن. إذا كانت هذه الشابة هناك، فسيحاولون تهريبها منه. وسيفعلون ذلك الليلة.»

صاح ريكاردو: «سيأخذونها إلى النهر»، رمـقـه هـانـو بنـظـرة غـرـيبة للـغاـية، واقـشـعـرـ جـسـدـه.

كانت هذه الحركة التي تدل على الخوف قويةً وغـرـيبة بالنسبة إلى هذا الرجل بالـذـات، الأمر الذي أفسـرـ رـيكـارـدوـ. فـصـاحـ وهوـ يـنهـضـ: «علـيـناـ أنـ نـذهبـ عـلـىـ الفـورـ. إنـتـ نـهـدرـ دقـائقـ ثـمـيـنـةـ عـلـىـ الطـعـامـ الشـهـيـ»، وأـزـاحـ الأـكـوابـ الفـارـغـةـ التيـ كانتـ تحتـويـ عـلـىـ الشـمـبـانـياـ الفـاخـرـةـ جـانـبـاـ فيـ اـشـمـئـازـ.

قال هـانـوـ فيـ جـديـةـ: «أـنـتـ مـخـطـئـ يـاـ صـدـيقـيـ». بداـ وكـأنـهـ يـحاـولـ أنـ يـجـدـ تـبـرـيرـاـ لمـوقـفـهـ، فـقـالـ: «الـسـاعـةـ لمـ تـدقـ التـامـنةـ بـعـدـ. وـإـذـاـ ماـ رـكـبـنـاـ سـيـارـتـكـ وـانـطـلـقـنـاـ الآـنـ، فـسـنـحـلـ إـلـىـ قـصـرـ مـيرـانـدـوـ قـبـلـ التـاسـعـةـ وـالـنـصـفـ. وـهـذـاـ وـقـتـ مـبـكـرـ لـلـغاـيـةـ! وـسـتـكـونـ الـمنـطـقـةـ لـاـ تـزالـ مـسـتـيقـظـةـ. وـحـيـنـئـ، سـنـكـونـ قـدـ حـذـرـنـاهـمـ مـنـ أـنـنـاـ نـتـعـقـبـهـمـ.»

كانـاـ يـتـحـدـثـانـ بـصـيـغـةـ «الـجـمـعـ»، وـلـمـ يـجـرـؤـ رـيكـارـدوـ عـلـىـ ذـكـرـ أـسـمـاءـ بـسـبـبـ اـحـتـرامـهـ لهـنـتـهـ الـذـيـ يـمـلـأـ وـجـانـهـ، وـلـمـ يـطـعـنـ فـيـ أحـدـ لـمـ يـتـأـكـدـ بـعـدـ مـنـ أـنـهـ مـذـنبـ. أـدـرـكـ رـيكـارـدوـ أـنـ هـانـوـ لـمـ يـذـكـرـ السـبـبـ الـحـقـيقـيـ لـتـأـخـرـهـمـ، وـأـشـعـلـ سـيـجـارـةـ أـخـرـىـ. وـكـانـ الغـسـقـ يـتـحـوـلـ سـرـيـعـاـ إـلـىـ ظـلـامـ. أـنـارـ السـائـقـ أـنـوارـ السـيـارـةـ تـحـتـ أـشـجارـ الـلـيـمـونـ الـضـخـمـةـ الـتـيـ تحـفـ الطـرـيقـ، وـتـعـجـبـ السـيـدـ رـيكـارـدوـ بـشـدـةـ مـنـ صـبـرـ صـدـيقـهـ.

ثم طـرـأتـ عـلـىـ ذـهـنـهـ عـقـبةـ مـنـ المؤـكـدـ أـنـ تـفـسـدـ جـمـيعـ خـطـطـهـمـ. بـالـأـمـسـ، أـوـضـحـ هـانـوـ لـلـفـيـكـونـتـ دـوـ مـيرـانـدـوـ أـنـ يـشـكـ فـيـ مـنـزـلـهـ الـأـبـيـضـ الطـوـيلـ. وـلـكـنـ لـمـ يـكـنـ قـادـرـاـ عـلـىـ فعلـ المـزـيدـ. وـاعـتـرـفـ بـذـلـكـ.

فسائل قائلًا: «لم تكن لديك أي صلاحية لدخول المنزل بالأمس، أليس كذلك؟»  
قال هانو: «على الإطلاق!»

«هل تعتقد أن دو ميراندول الذي لم يكن من المرجح أن يسمح لك بدخول المنزل  
بالأمس، سيسمح لك بدخوله الليلة؟»

رد عليه هانو: «على الإطلاق.»

«ولكن هل تمتلك الصلاحية لدخوله الآن؟»

«نعم، حتى وإن لم أكن أملكها، سأدعّي أنني أملكها.»  
«أليس في ذلك خطر عليك؟»

«وهي مخاطرة قررت واعيًّا أن أقدم عليها.»  
«منذ متى؟»

«منذ أن عرفت أن الفيكونت كاساندر دي ميراندول يطلي بوابته بنفسه.»

كان يجدر بالسيد ريكاردو أن يرتضي بهذا التفسير الذي يبدو له أنه ليس تفسيرًا من الأساس. وأغلق هانو فمه كأنه محارة. لم ينطق بأي إجابة على أي تخمين، ولا أي تعليق على أي فرضية. كل ما فعله هو أن جلس يدّخن دون انقطاع، وكان يشعل السجائر من سابقه، كان يجلس هادئًا مطمئن البال كما لو كان رجلًا يستمتع في هدوء بهضم وجبة عشاء دسمة. هل كان يبدو هكذا ظاهريًّا فقط؟ لا، ليس تماماً. ولولا الدرس الذي تعلمَه في اليوم السابق، لكان السيد ريكاردو أطلق فيضًا من اللوم، والرجاء، والانتقاد، والوعيد دفعةً واحدة عبر الطاولة. على الرغم من أن هانو كان يدخن بلا توقف، وكان طرف سجراه المشتعل يتوجه ويختفت بإيقاع منظم كالآلة، فإن يديه كانتا ترتعشان من وقتٍ لآخر مثلما ارتعشت يدا دي ميراندول عندما انحنى عند بوابته.

ثم قفز واقفًا فجأة، وكشفت تلك الحركة الغفوية عن كامل اضطرابه.

وقال: «هذا الرجل قادم من أجلي.»

كان هناك شرطي بلدية يُقبل بخطوات حثيثة من جهة شارع كور ٣٠ يوليو. أطل هانو برأسه من النافذة، فتوهج الشرطي نحوه مباشرة.

وقال: «هل أنت السيد هانو؟»

«نعم. أعطوني إياه!»

سلم الشرطي الرسالة إليه عبر النافذة. مزق هانو الظرف وقرأ الخطاب، بينما ظل السيد ريكاردو يدرس تعبيرات وجهه. كانت الرسالة طويلةً رغم أنها كُتبت

على عجل، وتحولت تعبيرات وجه هانو، التي بدأت بخيبة الأمل، إلى الملل، ثم إلى الحيرة وانتهت بالضحك. لم يشعر السيد ريكاردو في حياته من قبل بهذه مشكلة. كان هانو يضحك بصوتٍ عاليٍّ؛ ذلك الرجل الذي كان يرتجف منذ ١٠ دقائق. كان يضحك في سعادة وسرور. كان فرحاً ومبهجاً. بدأ القهقهة العالية التي سمعها السيد ريكاردو غريبةً وغير معتادة. ثم أدرك ذاهلاً أنه لم يسمع أي ضحكات على مدار اليومين الماضيين حتى هذه اللحظة.

فصاح قائلاً: «وصلتك أخبار جيدة أخيراً».

هزَّ هانو كتفيه. وقال: «إنها ليست من نوعية الأخبار التي قد تُرسلها إلى المنزل».

سأله ريكاردو في حيرة: «أي منزل؟»

ردَّ هانو: «منزلك بالطبع يا صديقي».

أطرق جوليوس ريكاردو ولع الفهم في ذهنه. فقال في استسلام: «فهمت. أنت تعني أنها ليست من نوعية الأخبار التي أراسل منزلي بشأنها».

استفسر هانو لأنماً: «أعني؟ هذا ما قلت».

«أوه، حسناً! أنت قلت ذلك! هل يمكنني أن أسمعها متى الآن؟»

«بالطبع! لقد وصل زائر آخر من لندن. وهو أيضاً قرأ الجريدة المسائية. فعبر بحر الشمال على متن قارب في الليل ولحق بقطار الجنوب السريع من باريس. ولكن تأخر القطار. حسناً، سيراسلجريدة «تايمز» بهذا الشأن. ثم استقل سيارةً من المحطة إلى مبني المحافظة. ولكن، أين المحافظ؟ تقول الصحف إن هانو يتولى القضية. حسناً إذن! أين هانو؟ اللعنة، أين الجميع؟ أكرر لك، هذا الشاب سيبلي بلاءً حسناً في مجال التجارة».

صاحب جوليوس ريكاردو: «برأيس كارترا. هل وصل؟»

نعم، فارس الخطابات الحارة. أوه! لا أزال أنفخ في أصابعي عندما أتذكرها؛ حسناً! لقد احتلَّ مبني محافظة بوردو. إنهم لن يجرؤوا على إخباره بأن هانو يتناول عشاءه. لا سوف يدمر كل شيء إن فعلوا. لا! ولكن، اللعنة، مورو رجل ذكي. لقد أخبره بأن هانو يعمل متنكراً. صه! وقد أفلح ذلك إلى حدٍ ما. هانو يضع لحيَّةً مستعارةً! يا لها من نعمة! عاد هانو ليكون قائد التشيكا مجدداً! ومن ثم، أرسله مورو إلى فندق الفاخر في كور دو لينتنانس ووعده بأن يحصل على رسالة مني إذا لم يدمر المدينة عن بكرة أبيها. آه، علينا أن نُرسل له رسالةً قصيرةً. ثم نادي مالك المطعم: «جورج، أحضر بعض الحرير! ماذا أكتب في الرسالة يا صديقي؟ ما رأيك في جرعة ضئيلة من المماطلة؟» قالها وانتهى مرحه وجلس واجماً يومئ لصديقه.

«ليس من السهل اختلاق تلك الجرعة الضئيلة من المماطلة ...»

وبعد ذلك كتب على ورقه ثم ممزقها. وقال: «هذا يعد بالكثير». ثم كتب مرةً ثانيةً ومزق هذه الورقة أيضاً. وقال: «هذا لا يعد بأي شيء على الإطلاق، ولقد وصل إلى هنا حقاً». ابتسם آسفاً وحک رأسه، وبدأ يكتب مجدداً. ثم قال: «هكذا! ثم أضع خطأ تحت هذه الكلمات. هكذا! اسمع؛ لقد كتبت ما يلي:

«سأتي لك في وقتٍ ما قبل أن يطلع الصبح. وحتى أفعل، أنسحك بأن تُغيرِ  
ملابسك وتحلق لحيتك. — هانو.»

ووضعت خطأً تحت تغيير الملابس وحلقة اللحية. ما رأيك؟» واضطجع في جلسته  
ينتظر نظرات الإعجاب وهو يُعدّ جميع تجاعيد صدريته.  
وافقه ريكاردو في لطف: «ليس سيئاً».

قال هانو ببساطة: «بل جيد جداً». ثم وضع الخطاب في مظروف وأغلقه، وكتب  
عليه عنوان المرسل إليه وسلمه إلى شرطي البلدية. وقال: «إنها لفتة جميلة. أن يُهرع هذا  
الشاب عابراً إنجلترا وفرنسا لكي يرهب محافظ بوردو. أين ذلك الكسول هانو؟ لماذا لا  
يراسلني ليخبرني بما يجري؟ اللعنة! نعم، إنها لفتة جميلة، أؤكد لك ذلك»؛ ثم أشعل مرةً  
أخرى سيجاره الذي انطفأ بينما كان يختلق تلك الجرعة الضئيلة من المماطلة، ثم أردف:  
«أؤكد لك أننا سنحتاج إلى جميع اللفتات الجميلة التي يمكننا أن نعثر عليها عندما يحين  
وقت قص تلك القصة الكئيبة المريعة من بدايتها إلى نهايتها».

ثم عاد إلى صمته مجدداً. كان النهر قد تحول إلى اللون الرمادي. وتحول الغسق  
إلى ليل. تألفت الأضواء الحمراء والخضراء على الأعمدة الشامخة في ساحة كينكونس  
قرب رصيف الميناء مبرزةً أهميتها. وتحت أشجار الليمون، لمعت أنوار مصابيح سيارة  
ريكاردو. ووجه هانو بصره نحوها لمرة أو مرتين. وكاد يُقرّر ألا يتضرر أكثر من ذلك.  
ولكنه كان يكبح جماح نفسه في كل مرة. وقال بصوت خفيض: «يجب أن أكون على حق»؛  
لم تكن يداه وحدها هي التي ترتجف هذه المرة، بل صوته أيضاً. لم يره ريكاردو من قبل  
والقلق يُمزّقه لهذه الدرجة أو التوتر يغمره بالكامل هكذا. أتقللت كاهليه وطأةُ الشعور  
بالمسؤولية وجعلته يُبدّل من وضعية قدميه على الأرض، ثم يضرب الطاولة بقبضته.  
تلعثم قائلاً: «قلت منذ البداية إنني أخشى هذه المسألة»، ثم أطلق صيحة ارتياح ودفع  
مقعده إلى الخلف وخرج عدواً إلى الرصيف. كان ثمة رجل يعود نحوه، رجل قصير،  
وبدين، وعربيض، إنه مورو.

قال السيد ريكاردو: «أخيراً! ثم لوح إلى سائقه الذي هبط من مقعده وفتح باب السيارة الفارهة. خلع ريكاردو قبعته. وقال: «يمكننا أن نتحرك الآن»، ثم أسرع نحو السيارة. ولكنه نظر خلفه وذهل عندما رأى الرجلين، الرئيس ومساعده، برأسيهما المتقاربين، يسيرون ببطء في الشارع المظلم. كان باب السيارة مفتوحاً، ومُحرّكها يعمل، والليل خيّم، وكان قصر ميراندول على مسافة ٥٠ كيلومتراً؛ ولكنهما كانوا لا يزالان يثراون. كان من الممكن أن يصرخ ريكاردو مُوبِخاً.

ولكنه صاح في مرارة مناجيّ العالم بذراعين بسطهما تماماً: «رائع! عظيم! هل تعتقدان أنني عديم الإحساس...؟»

ولكن قطعت مناجاته. فقد استدار هانو وعدا نحوه ومن خلفه مورو.

وقال بصوتٍ كالفحيخ: «هيا بسرعة!» وكان صوته مشبوباً بالحماسة.

ودفع ريكاردو بقوّة إلى داخل السيارة وقفز داخلها بعده. جلس مورو في المقعد المجاور للسائق وتحركت السيارة من تحت الأشجار. عند بداية الميدان، استارت نحو اليسار. وشعر السيد ريكاردو بضيق شديد.

وقال: «لقد أخطأ السائق. علينا أن نستدير ناحية اليمين إلى طريق ميدوك»، ومدّ يده أمام هانو ليمسك بباب السيارة الداخلي. ولكن كان هانو قد أمسكه قبله.

وقال: «إنه على صواب. طلب منه أن يستدير ناحية اليمين إلى طريق جريجوار». انزلقت السيارة من دون ضوضاء أو جهد منحدرةً على الشارع الطويل المستقيم تاركةً أنوار المدينة المكّدة معاً خلفها، ودخلت إلى طرق أضيق باردة وظلمة وتحفُّها منازل مهجورة. ثم استدارت نحو اليمين ثم نحو اليسار. وظهرت أمامها مساحة أرض شاسعة. عند أحد جانبيها تقف كنيسة ضخمة متّسحة بالسوداد. وفي متنصفها، يُرى برج ضخم يشق السماء وكأنه رمح عملاق، وقمةه تختفي في الظلام. توقفت السيارة بجانب هذا البرج.

همس السيد ريكاردو: «هذا برج سان ميشيل.»

قال هانو: «هيا أسرع! لا يمكننا أن نُضيع لحظة واحدة.»

عند البقعة نفسها التي وقف عندها ريكاردو متربداً عند مدخل كهف المومياوات، الأمر الذي بدا له وكأنه قد حدث منذ عصور، اقتربت فرقه البحث هذه.

قال هانو لاهثاً: «ابقوا قريباً مني، ولا ينبع أحذكم ببنت شفة.»

وعبر الميدان نحو ناصية شارع صغير. كان هناك حارس يقف بجانب مصباح سقط نوره على عتاده. لم يربح الحارس مكانه. دخل هانو وجماعته الشارع. كان شارعاً قصيراً



لم يبرح الحراس مكانه.

ومستقيماً. وكانت أنوار رصيف البناء ظاهرةً عند طرفه الآخر. ولكن كانت المنازل في هذا الشارع قذرة، وحalkة، وسوداء، وترتفع لأدوار عالية بدا لهم معها أنهم يسيرون داخل مغارة. ظهر فجأة رجلان كما لو أنهما نبأا من أحجار أحد الأسوار، واقتربا منهم من الخلف.

همس هانو قائلاً: «لا يُصدر أي منكم صوتاً.»

عند منتصف الشارع، ظهر رجلان آخران خرجا من ممر مسقوف ضخم. وقال أحدهما: «إنه هنا.»

همس هانو قائلاً: «الباب». فقد كان الباب المزدوج الضخم مغلقاً.

قال الرجل: «لقد فتحناه عندما رأينا أنوار سيارتكم». وانفتح الباب بمجرد أن لمسه الرجل. مرروا عبر الباب الواحد تلو الآخر، وانغلق الباب من خلفهم برفق وأُقفل مزلاجه. وجدوا أنفسهم في ظلام دامس. في الماضي في عصر ازدهار مدينة بوردو، عندما كان الملك يعقد بلاطه في هذا المنزل، وكان السيد دي تورني يستدعى أعظم فناني أوروبا ليستعيد جماله، وكان هذا المنزل في شارع جريجوار محل إقامة بعض التجار الأثرياء. أما الآن، فقد انحدرت به الحال، فالطرف البعيد من ممره المسقوف مبني بالطوب، وأصبح الشارع سيء السمعة، وأصبح المنزل قذراً وقديماً، وتشبّعت جدرانه القذرة بالرطوبة. وقف السيد ريكاردو في الظلام وقلبه يدق داخل صدره بعنف. كان يتوق للإثارة والانفعال. ولكن ها هو الآن يرتجف بسببهما مثل ورقة شجر في مهب الريح. سمع صوتاً خافتاً أشبه بتلامس مفتاحين، ثم همسة من هانو تقول: «صه!» وفي لمح البصر، أظهر ضوء المصباح الكهربائي الرفيع مكان ثقب مفتاح باب المنزل، ورأى رجلاً ينحني أمامه، ثم انفتح الباب.

همس هانو همسةً خافتة لدرجة أن الرجل المجاور لريكاردو لم يكن ليسمعها إذ قال: «أمامك درجة سلم.» ثم شعر ريكاردو بمن يمسك بذراعه بقوة ويرفعها عندما وصل إلى درجة السلالم. ودل الهواء، الدافئ الخانق الثقيل، على أنه داخل رواق. وسمع صوت هانو مرةً أخرى يهمس في أذنه: «لقد أصبحنا داخل منزل الأرملة تشيشول!»

## الفصل التاسع عشر

# الحقيقة الصادمة عن الأرملة تشيشول

ظلوا واقفين صامتين لبعض لحظات، وكانتوا يسترقون السمع، ويحبسون أنفاسهم. ولكن لم يسمعوا أي صوت آتٍ من أي اتجاه. لم يُسمع حتى صوت خطوات أقدام على الأرضية. ولا حتى صرير لوح خشبي أو باب في هذا المنزل العتيق. ربما كانوا يقفون معًا داخل سرداد موتى على عمق ١٠٠ متر تحت الأرض. ثم شق شعاع رفيع من ضوء ذهبي الظلام مجددًا وسقط على جدار مغطى بالعفن وسقف فَقَد لونه، وسار في خط مستقيم بعد ذلك ليسقط على باب بعيد. تحرك هانو إلى الأمام ليدخل دائرة الضوء ويفتح هذا الباب برفق دون أن يُصدر صوتاً. وفتحه بما يكفي لأن يمر بجسده منه. وتبعه الآخرون؛ كان السيد ريكاردو يشعر ببرودة خوف لذيدة تسري في عموده الفقري. لم يكن ليستبدل لحظة أخرى في حياته أياً كانت بهذه اللحظة. كان منهمماً في تمثيل دوره بتركيز شديد، لدرجة أنه لو لا خشيته من هانو، لكان أمسك بزمام القيادة وأصدر الأوامر بصوت عالٍ. وكان يتفرج على نفسه أيسًا. تخيل نفسه يجلس بين المقاعد ويبدي إعجابه بأدائه. وفَكَر في نفسه قائلاً: «أتعرف أعظم ممثلي العالم؟! تبا لهم جميعاً!» كان قد رأهم والتقاهم — كان قد رأهم أكثر مما التقراهم، لتحري الدقة — ولم يبهره أي شيء بهم على الإطلاق. من منهم تسلل تحت ستار الليل مع رجال شرطة ملابس مدنية إلى منزل امرأة سيدة السمعة ليبحث عن حسناً، عن ماذا؟ ثم وقف في مكانه، وطرح على نفسه هذا السؤال. هل من المعقول أن تكون الأرملة تشيشول هي الجرمة؟ لا ريب في ذلك، فالطوق الأمني حول سوفلاك محكم للغاية، ولا يمكن لأحد اختراقه. ولكن في نهاية المطاف؛ هل من الممكن أن تكون الأرملة تشيشول؟ هل جميع هذه الاحتياطات ضرورية؟

أمسك هانو بالمصباح اليدوي في يده، وبدأ يستكشف به هذا البهو الداخلي. ولكن كان أقرب إلى الرواق من البهو؛ فقد كانت في نهايته نافذة، وبابان على اليسار، ودرج

عریض على اليمين، وبالقرب من قاعدة الدرج يوجد باب آخر مغطى بالجوح الأخضر الملهل. لم يسمع أي صوت من خلف الأبواب الثلاثة، ولم يتسرّب أي ضوء من تحت عتباتهم. فتح هانو البابين على اليسار ليتأكد من أمانهما. كانت الغرفتان تطلان على شارع جريجوار، ولكنهما كانتا مغلقتين وخاليتين. كانت إحداهما مفروشةً بأثاث غرفة جلوس رخيص، وكانت الأخرى مجرد مكان يحتوي على خزانات وأرضية عارية. بعد ذلك، وقف لوهلة ينظر إلى أعلى عبر الدرج ويُنصلت بكل جوارحه، كما بدا حينئذ. ولكن كانت الطوابق العليا صامتةً مثل البهلو الذي يقفون فيه. خيّم صمت قاتل على المنزل كله. قادهم الباب المكسو بالجوح الأخضر إلى المكاتب والمطبخ، وهناك بدءوا يرون علامات الحياة؛ فقد كانت هناك ساعة تدق معلقةً على الجدار ورأوا في الموقد ضوءاً أحمر خافتًا لنار خابية.

قال هانو: «هناك أقبية كثيرة جيدة لهذا المنزل العتيق»، ورغم أنه كان يتحدث بصوتٍ خافتٍ هادئ، بدا الصوت لحواس ريكاردو المتواترة عاليًا بما يكفي لإيقاظ البلدة بأكملها.

وصل في نهاية الرواق إلى درج حجري ضيق يلتقي هبوطًا إلى الظلام. حنى هانو رأسه ثم أدره وهزه في إيماءة إلى رفاته. بدا وجه هانو شاحبًا ومرتعباً في ضوء المصباح اليدوي الذي يمسكه، وقفز الخوف من وجهه ليغزو وجوه جميع المحيطين به. شعروا جميعاً للحظات بصدمة نتجت عن شعور عارم بالفشل.

همس هانو: «ولكن يجب أن يكون هنا! يجب أن يكون هنا!»  
لم يعارضه أحد، وكذلك لم يوافقه أحد. بل وتقرب الرجال بعضهم من بعض قليلاً كما يفعل الناس عادةً في مواجهة كارثة محققة. تسبيّت هذه الحركة اليسيرة في انتزاع الذعر من وجه هانو. ورفع رأسه في تحدي.

وقال بعناد: «يا إلهي، ولكن كان من المفترض أن يكون هنا!»  
وبثلاث إشارات خاطفة من يده، أمر اثنين من رجاله ومعهما ريكاردو بالبقاء حيث يقفون، وأمر الباقيين بأن يتبعوه. وهبط هو أيضاً نحو الأسفل، ولكنه كان لا يزال في نطاق رؤيتهم عندما صدرت من تحت أقدامهم، من مكان قريب للغاية، على ما يبدو، صرخة حادة بدأّت الصمت.

تملّك السيد ريكاردو الفزع. واستحوذ الذعر على قلبه. وتراجع إلى الخلف ليستند إلى الجدار وهو يلهث. ولكنه كان مندهشاً بقدر فزعه نفسه. فقد كانت عيناه مثبتتين على

وجه هانو ورأى الارتياح والظفر باديين على قسماته. استغرق الأمر بعض لحظات ليربط هذا التعبير بصرخة الرعب الرهيبة التي اعتقاد أنها لو انطلقت من حلق إنسان، فلن يظل على قيد الحياة بعدها. ثم فهم ما حدث. لقد وصل هانو في الوقت المناسب، وكان هانو محققًا.

سمع بابًا ثقيلاً يُصفق بعنف، وشعر وكأنه قد رجَّ المنزل أجمعه. ورأى هانو يقفز. ومن خلف هانو، بدأت المجموعة بالكامل تصدر جلبةً وترتجف، ريكاردو والرجلان اللذان أُمراً بالبقاء معه، وكذلك بقية الرجال.

صاح السيد ريكاردو في إشارة غامضة لأبطال قوميين آخرين: «أعتقد أنه حان وقت عصيان الأوامر»؛ ثم سمعوا هانو يصيح بصوت رنان: «انتبهوا!»

وصل إليه التحذير في الوقت المناسب. فتوقف فجأةً عند حافة هوة في أرضية القبو، وتمكن بالكاد من استعادة توازنه. استعاد توازنه ليり خطأً من الضوء يتسلل من تحت عتبة باب عند الجانب الآخر من القبو وهو يختفي فجأةً وليس مع صوت مصباح ثقيل يتحطم على الأرض. وقبل أن يتوقف صدى الصوت عن التردد، كان هانو قد وصل إلى الباب. كان الباب مصنوعًا من خشب سميك صلد. هزَّ هانو، ولكنكه كان مقفلًا بالمزلاج. ولكن كانت ثمة فتحة عند مستوى العين لتهوية القبو في الداخل. وفتحها هانو عنوة. ولثانية، سقط ضوء مصباحه اليدوي، الذي كان يمسك به في يده اليسرى، على الجدار والسقف والأرضية. ثم دخل يده اليمنى في جيبه، وأخرجها وشيء يلمع فيها — فُوهَةً مسدس — وأدخل تلك اليد أيضًا داخل الفتحة.

وصاح قائلًا: «ساعدوني ثلاثة! هيا!» ثم تحدث مخاطبًا الرجال من خلفه. وقال: «أريد مصباحًا! أسرعوا!» اشتعل عود ثقاب، وأضيء مصباح. «والآن، أيتها الأرملة تشيشول، افتحي الباب!»

مررت لحظة صمت، ثم سمع صوت حفييف قدمين ترتديان خفافًا منزلبيًا على بلاطات الأرضية. صاح هانو أمراً: «يداك حيث أراهما يا أمي، حتى تصلين إلى الباب! هكذا أفضل!»

سحب المسدس خارج الفتحة مع اقتراب المرأة من الباب حتى لا تتمكن من خطفه من يده، ثم سحب المزلاج بصعبوبة خارج تجويفه، وانفتح الباب. دلف هانو عبر عتبة الباب وعلق المصباح على مسمار. وقف هانو في قبو مربع صغير طليت جدرانه بالجص الذي كان مقرضاً عن جدران القرميد، ولم يكن الهواء يدخله إلا عبر الفتحة ومن تحت

عتبة الباب. وعلى الفور، كنت تشعر بجو المكان الخانق ورطوبته اللزجة المزعجة. إذا ما أوصدت ذلك الباب الثقيل، وأغلقت تلك الفتحة بسرعة، لتحول المكان إلى زنزانة مظلمة كالليل نفسه. تراجعت المرأة التي فتحت ملاج الباب إلى ركن على يمين الباب، ورقدت على الأرض متكونةً مع رفاقها. كان هناك ثلاثة منهم، جميعهن من النساء؛ شابة ذات وجه متجمّه وشعر أسود فاحم كانت ترقد على الأرض، وامرأة في منتصف العمر ضخمة وعريضة قوية مثل الرجال، وكانت يداها مغطاتين بالطين، ثم الأرملة تشيشول نفسها، وكانت امرأة قبيحة ذات عينين غائتين عميقاً داخل وجهها الملطخ ببقع سوداء كما لو أن جسدها قد بدأ يتعرّض قبل أن تموت. على الرغم من أنها كانت ترتدي خفافاً منزلياً، فقد كانت ترتدي فستاناً قدّيماً من الحرير الأسود، مثلاً يجدر بـ«سيدة» هذا المنزل أن ترتدي، وعلى الرغم من رثاثتها، وأطراوفه المهرّبة والخرز القديم الذي يزيّنه، أضاف إلى هذا المشهد تنافراً كابوسياً.

قالت المرأة منتخبة: «أنا لم أؤذها يا سيدى. يمكنك أن ترى ذلك بنفسك.»  
 «إنك لم تؤذها حقاً! لقد أعطيتها صالوناً جميلاً لترتاح فيه بينما تجهّز غرفتها المجاورة، أليس كذلك أيتها الأرملة؟» قالها هانو بسخرية لاذعة، وانكمشت المرأة العجوز أمامه وهي تُتمّت بأعذار ووعود.

وقالت: «هناك أناس آخرون في مراكز عالية في العالم يستحقون أن يُوجّه إليهم اللوم أكثر مني. اسمعني جيداً! أنا امرأة فقيرة وجاهلة؛ ماذا يجدر بي أن أفعل عندما يُوجّه لي هؤلاء العظماء أمراً ويرهبونني؟ أوه، يجدر بي أن أُخبرك بمن يكونون ... سأخبرك بالطبع ... إنهم أشرار، صدقني؟؛ قاطعتها صيحة من هانو.

قال وهو يبسط ذراعيه عن آخرهما: «وما هذا؟» رأى السيد ريكاردو من فوق كتف هانو أنشوطه مربوطة بحبل قصير تتدلى من خطاف مغروز في السقف المنخفض حيث كان المصباح معلقاً. «هذا العقد الجميل يتوافق مع الصالون تماماً! إنه هدية من فتاة طيبة، أليس كذلك أيتها الأرملة؟ سيدى!» قالها وهو يلتفت نحو رجل يقف عند عتبة الباب ينظر ويبدو عليه أنه الأعلى سلطة بين المجموعة. «هؤلاء الحيوانات رهن إشارتك.» دخل الرجل واثنان من مساعديه إلى القبو، وأحاطوا النساء الثلاث، وأصبح الركن المقابل للباب مرئياً بالنسبة إلى السيد ريكاردو، وفي هذا الركن، عند أبعد نقطة عن الأرملة تشيشول ورفيقتيها، كانت تقف جويس وبيل ملتصقةً بالجدار.

وكان مظهرها غريباً لدرجة أن السيد ريكاردو خرج من دهشة ليدخل إلى أخرى. هل يقف على رأسه أم على عقبه؟ كان العالم بأسره يبدو له مقلوبًا رأساً على عقب.

والحقيقة الغريبة المتعلقة بترك جويس وبيبل لفستانها اللامع ليلة اختفائها أصبحت الآن قابلة للتفسير. ولكنها أصبحت قابلة للتفسير بفضل ملابسات غير قابلة للتفسير. كانت جويس ترتدي في هذه اللحظة ما بدا للسيد ريكاردو وكأنه بدل صبي أنيقة من المخمل الأسود، وسروال يصل إلى ركبتيها، وجورب من الحرير الأسود. ولا ريب أن الحذاء المصنوع من الساتان الأسود الذي في قدميها يخصها؛ أكَّدت آثار الأقدام في سوفلاك ذلك. ولكن، لم يتمكَّن السيد ريكاردو من فهم ما تعنيه تلك الملابس. وهي تزيد من جمال ملابسها، كانت ترتدي فوق البذلة المخملية سترة قصيرة بلون قرمزي لافت. كانت السترة بلا أكمام ومكشوفة الكتفين لكي تُلبِّس من فوق الرأس مثل قميص بلا أزرار، وكانت تصل بالคาด إلى خصرها. سترة قصيرة مثل تلك التي كان الخدم يرتدونها في العصور الوسطى — نعم، هكذا كانت — أو ربما كانت رداءً كهنوتيًّا قرمزي اللون.

بدأ السيد ريكاردو يحادث نفسه قائلاً: «جميع ملابسها غريبة». ولكنه نظر إلى وجه جويس وبيبل، وزحفت عليه لحنة من الشفقة والرعب أنسنته كل شيء إلا شدة محنتها. كانت عيناهما الذاهلتان من فرط الرعب تلمعان وسط وجهها الشاحب الدائم الاختلاج. كانت ترتجف لدرجةٍ بما معها أن قدرتها على الوقوف أمرٌ إعجازي، وبشعرها الأشعث وملابسها الملطخة بالجص والترب، ظلت تنقل عينيها من وجه إلى وجه في ارتياح. ولكن أشرقت عيناهما عندما سقطتا على ريكاردو. فقد كان الشخص الوحيد ضمن هذه المجموعة الذي رأته من قبل، وظلت عيناهما تنظران إليه وصارعت معرفتها به شكًّا في هويته وسيطرت عليها تدريجياً.

قالت بصوت مبحوح وأجئَت بسبب حلقها الجاف من العطش، فحتى لو صرخت بصوتٍ عاليٍ كانت غمغمة من أيٍ من الحضور لتغطي صرختها: «هذا أنت! أنت!» مدَّت يديها نحوه فجأةً، ورأى أنها كانتا مُكَبَّلتين معاً عند الرسغ.

قالت متسللةً: «أزلهما عن يدي»، وهزت ذراعيها حتى تصدر حلقات السلسلة صليلاً. وقالت: «أرجوك! أسرع! وإلا فسأموت من الخوف».

ولكن كان هانو قد وصل إلى جوارها حقاً. وقال: «تشجّعي يا آنسة! انظري، قُضي الأمر! لقد تحرّرت!»

همست قائلةً وهي تُبعد يديها إداتها عن الأخرى وتضمها ثم تبعدهما مجدداً غير مصدقة أنها تحررت: «نعم. نعم، لقد تحررت».

نقل هانو بصره منها إلى القيد التي كانت تُكْبِل يديها، ثم قلبها وحنى رأسه إلى أسفل وأومأ لنفسه.



شهقت قائلة: «أنت! أنت! اخلع القيود عن يدي بسرعة يا سيدى. أوه! سأموت من الخوف..»

وقال: «مورو! انظر هنا! وهنا!» كان يشير إلى بعض العلامات على الحديد، وصدر سباب من فم مورو.

وصاح قائلاً: «إنها ملك الدولة. آه! آه! إنها جرأة كبيرة من أولئك الأشخاص..»

قال هانو في هدوء شديد: «ولكن هذا كان متوقعاً. يجب أن نحافظ على تركيزنا فالقيود لا تنمو على الأشجار. لا، عندما نحتاج إليها لتقيد الشابات الفضوليّات، يجب أن نحصل على أفضلها. كان هذا متوقعاً بكل تأكيد يا مورو»، وبينما كان يُسلم القيود إلى مساعدته، زفرت جويس ويبل وسقطت على الأرض بجانبه متكومة. وقف هانو ينظر إليها، وقال لها زاجراً: «تشجعي يا آنسة!» وضحك جويس ويبل بضعفٍ من مكانها على الأرض وقالت:

«من الرائع أن تقول: «تشجعي يا آنسة». ولكن ماذا يمكن للأنسة أن تفعل يا سيدى، يا صديقى، إذا لم تستطع ساقاً الأنسة أن تحملها؟ لا يمكنها إلا أن تجلس على الأرض، تلك الفتاة المسكينة، وتحكي قصصاً حزينة عن موت الملوك»، وخفت صوتها تدريجياً حتى اختفى وانحني كتفاها بينما ترتفع على الأرضية. ثم غطّ وجهها بيديها فجأة، وعلى الفور أصبحت ترتجف من قمة رأسها وحتى أحمر قدميها وهي تبكي مثل طفل صغير، وكانت الدموع تنهر من بين أصابعها.

لم يفهم هانو أَيَاً مما قالته جويس وبيل، ولكنه كان يفهم ما تمر به جيداً. ثم أمر بإحضار ماء بصوت حازم، وعندما أُحضر كوب الماء، ركع على الأرض بجانبها وأحاط كفيها بذراعه الضخم، ورفع رأسها ووضع الكوب أمام شفتيها.

تنهدت وهي تشرب الماء قائلة: «أوه!» وأمسكت معصمه وتعلقت به بكلتا يديها سريعاً خوفاً من أن يبعد الكوب عن شفتيها قبل أن ترتوي.

سألها هانو بعد أن انتهت من الشرب: «هل تريدين المزيد؟» صاحت بصوتٍ أكثر قوة: «أوه، المزيد ثم المزيد»، وببدأت تضحك ولكن بطريقة غير هستيرية، وضحك هانو معها متعاطفاً. كان مورو يحمل دورقاً من الماء، فملأ الكوب مجدداً. وقف هانو أمامها بينما تشرب الماء، وأشار بيده لإخراج السجينات. دفعت السجينات إلى الخارج بينما لا تزال جويس تشرب، وبعد وهلة أطلقت صرخةً واستندت على ركبتيها وألصقت جسدها بالجدار.

قال هانو: «أنت آمنة يا آنسة». ولكنها لم تسمعه. كانت عيناهما تنظران إلى الباب الذي خرجت منه النساء وإلى القبو المظلم خلفه. ركعت واقفةً على ركبتيها وآذت كتفها بسبب الضغط عليه بعنف إلى الجدار. وارتجفت. وبدا أنها على وشك الإصابة بنوبة ذعر مجدداً.

قال هانو: «لا، لا يا آنسة». كان يتحدث بأسلوب آمر. أردف: «لم يعد ثمة ما تخافين منه. يجب ألا تخافي من شيء!» ثم وجّه حديثه إلى مورو: «تأكد من حبس هؤلاء النساء في واحدة من الغرف حتى يحين وقت ذهابنا، وأرسل شخصاً إلى الميدان ليُحضر سيارة السيد ريكاردو». ثم التفت إلى جويس وبيل مجدداً، وقال: «سأخبرك بما ستفعل. سننقلك في سيارة السيد ريكاردو الفاخرة إلى فندق السيد ريكاردو الفاخر حيث ينتظرك صديق لك ...».

سألت جويس مقطبةً جبينها في حيرة: «صديق لي؟» ثم صرخت في ذعر: «ليس من ...» قاطعها هانو بنبرة حازمة للغاية: «لا، لا، لا، ليس من قصر سوفلاك. هل تتفضلين بالاستماع لما أقول؟ أنا أتولى أمرك الليلة. أنا رهن إشارتك.»

قال السيد ريكاردو موضحاً: «إنه يقصد مربىتك يا جويس». وانخرط جميعهم في ضحك بدا سخيفاً ولكنه ينم عن إدراك الحقيقة في الوقت نفسه. كانت جويس وبيل تدرك غريزياً أن التمسك بالأمور الصغيرة والهزلية هو السبيل الوحيد لترميم ما أصابها من جراح ولهل خلال هذا اليوم، بينما كان هانو يرى في الضحك وسيلةً لإنقاذهما، بشرط

أَلَا يتجاوز الحد الفاصل ويتحول إلى نوبة هستيرية. ولكنه لم يكن يعرف يقينًا سبب الضحك. فلم يكن شيء مما قال هو ما أثاره. كان قد استخدم تعبيرًا اصطلاحياً مثيرًا للإعجاب في الوقت المناسب. ولكنه كان سعيدًا بأنهم قادرون على الضحك، وشحد سمعه ليتوقف أول دلالة على حدوث نوبة هستيرية، وظل طوال الوقت يصنع من كتفه العريضة حائلًا بين الفتاة المكومة على الأرض بملابسها الممزقة، والأداة التي كانت ستستخدم في قتلها. كانت الأنশوطة والحبل القصير اللذان يتوعدان بعذاب بطيء وتشويه مريع يتذليلان من الخطاف في السقف. ولكنهم ظلوا يضحكون تحتهما حتى رنت جدران هذه الغرفة المقيدة تحت الأرض بصوت جذل لم يُسمع من قبل قط. بدا الأمر للسيد ريكاردو وكأن ضحكاتهم تعيد أشباح الكثير من الجرائم إلى سباتها وتُطهّر القبو مما فيه من شرور.

قال هانو مخاطبًا الفتاة: «تعالي. سأحملك ما دامت قدماك لا تستطيعان حملك». أوقفها على قدميها، ثم حملها بين ذراعيه بسهولة كما لو كان وزنها لا يزيد على وزن طفل رضيع. لم يكن في القبو سوى ثلاثة في تلك اللحظة. فقال هانو: «هل تحمل المصباح؟ ستترك هذا القبو على حاله ليفحصه مفوض الشرطة، وستنير لي الطريق بحرص شديد حتى لا أصدق رأس هذه الشابة في الجدران.»

تقدّمها السيد ريكاردو حاملاً المصباح إلى القبو الخارجي. ورأى بوضوح تلك الحفرة التي تفادي الوقوع فيها بالكاد. كانت بعض ألواح الأرضية الخشبية قد أزيلت، وحفر خندق ضحل في الطين؛ إنه قبر. وفَكَرَ أنه إذا كان هانو استسلم لمناشداته في مطعم «العصافور الذهبي»، أو إذا كان استسلم لشكوك نفسه، أو إذا تأخر مورو في الحضور واستدعائهما، أو لم تُصدر صرخة الموت المريعة دويًا من تحت أقدامهم، لأصبح هذا القبر مشغولاً بجثة، وجعلت هذه الفكرة قلبه ينقبض داخل صدره وملأته بلوعة لا يمكن نسيانها. كان سيصبح شريكًا في هذه الجريمة. ولظل الندم يلاحقه لما تبقى من حياته، وأمتلأت نفسه بالامتنان لصديقه. وفي تلك اللحظة، ارتسمت ابتسامة على وجهه وهو يرى هانو حاملاً جويس ويبيل بين ذراعيه ويجعل تلك الحفرة خلف ظهرها حتى لا تراها. وحقًّا لم ترها أثناء مرورهما من أمامها. كان مدخل الممر المسقوف الضخم مفتوحاً على مصراعيه، وكان هناك حراس يرتدون ملابسهم الرسمية يقفون الآن عند الباب وفي الشارع، وكانت السيارة تقف تحت الممر المسقوف وأنوارها مضاءة. حمل هانو جويس ويبيل إلى السيارة ووضع قدميهما على مرقة الصعود إلى السيارة، وساعدها على دخلوها. وأشار إلى أحد الجنود الواقفين في الردهة أن يصعد إلى المقعد المجاور للسائق.

قال وهو يُغلق باب السيارة: «حسناً! سُنُعطلُك لدقِيقَة. هل ما زلت تشعرين بالخوف؟»

أجبته وهي تبسم في وجهه عبر نافذة السيارة وتأخذ شهِيقاً عميقاً: «لا. ولكن ... ما الأمر؟ لا تترددِي يا آنسة. إن العالم بأسره رهن إشارتك الليلة.»  
«حسناً إذن! سأطلب منك شيئاً واحداً. أريد أن أستشقق الهواء الطلق، وأنأشعر به يصطدم بوجهِي وعنقي. اختصاراً، هل تأمر بفتح سقف السيارة؟»

زحف على وجه هانو ببطء تعبر سرور حقيقي. وقال: «يا آنسة، سقف هذه السيارة لا ينفتح. إنها سيارة صديقي ريكاردو، وسقفها لا ينفتح. لا. صدقيني. إن الأنواع الأكثر فخامةً من السيارات فقط هي التي ينفتح سقفها. غداً سأُقلك في سياري من نوع فورد، وستجدينها مختلفة.»

استدار ليواجه الردهة ووجهَ ابتسامةً ماكرة إلى السيد ريكاردو. ولكنه تراجع عن هذه الابتسامة بعد لحظة واحدة.

وقال: «هناك ما أريد قوله إلى الأرملة تشيشول. ويجب أن تسمع ما سأقول. سيكون من المثير أن ترى كيفية استقبالها للأمر.»

كان هانو يتحدث ببطء، ويتلذذ بكلماته المتباudeة وابتسمة صفراء مرتسمة على وجهه لم يرها السيد ريكاردو على وجهه إلا مرةً أو مرتين فحسب. وفي لحظة من الخيال الجامح، أطلق عليها اسم الضربة القاضية. أسرع عائداً إلى المنزل متبعاً خطوات هانو. فقد كان هانو يريد إلى جواره ليرييه كم هو بارع في تسديد الضربات. كانت الأوامر قد أُعطيت حقاً عندما وصل ووضع مفتاح في مزلاج أحد الأبواب. فتح أحد الحراس بباب غرفة الجلوس.

قال هانو: «أنت! أيتها الأرملة تشيشول. تعالى هنا!» وخرجت المرأة العجوز ذات الشعر الأبيض والبقع السوداء في وجهها إلى دائرة الضوء ورمشت عينيها.

وقالت: «هل تريدينني أنا يا سيدِي؟ نعم؟ أنا رهن إشارتك. لعلك تذكر أنه لم يلحق بها أي أذى. ربما شعرت ببعض الخوف! كان هذا هو كل ما كنا ننوي فعله؛ نعم! لا ريب في أن هذا لم يكن صواباً و يجب أن نتعرّض لبعض المعاناة؛ نعم.»

قطعاها هانو برفق: «أنصحك بأن تلتزمي الصمت. احتفظي بمبرراتك لتلقينها على سمع رئيس محكمة الجنائيات، ولا ريب لدى في أنه سيستمع إليك. أما بالنسبة إلى، فثمة تحذير أريد أن أقوله لك، وأرجو أن يفيدك. لا ريب في أنك زُرت في أحد أيام الأحد تلك التحفة الرائعة التي تشتهر بها هذه البلدة: كهف المومياءات.»

قالت الأرملة تشيشول وعيناها مثبتتان بقلق شديد على وجه هانو: «نعم يا سيدى.  
لقد زرته».

«حسناً! أثناء أبحاث أجريتهااليوم في بوردو، صادفت حقيقةً مفزعةً أثق بأنها ستهمك. هذا المنزل يا تشيشول» ورنَّ صوته في المكان بنبرة أعلى وأكثر حزماً «هذا المنزل مبني فوق تلك المقبرة القديمة التي أخرجت الموتى منها». رمشت الأرملة تشيشول في وجهه بحثاً عن مغزى لكلماته. ولم يتركها تترقب لمدة طويلة.

وصاح بصوٍت عالٍ وهو يشير نحو الأرضية تحت قدميه: «هل هي هنا؟ هل هي هنا؟ جين كورييسو؟ والآخرون الذين اختفوا من على وجه الأرض؟ سنعرف غداً». وعندما استدار وسار نحو الباب، صرخت الأرملة تشيشول وسقطت على الأرض كحجر.

## الفصل العشرون

# الوجه المطل من النافذة

قفز هانو خارج السيارة عند باب الفندق في شارع كور دو لينتندانس. وقال مخاطبًا جويس ويبيل: «انتظري هنا! سأحضر عباءة»؛ وعاد بعد دقيقة. لفت جويس العباءة حولها ووجهت نحو غرفة جلوس ريكاردو. دخل هانو الفندق معها، وصعد ريكاردو الدرج معهما، ولكنه استحضر في يده، بطريقة سحرية، طبقاً من البسكويت أثناء سيره.

قال وهو يعد كرسياً من أجل جويس أمام المائدة ويوضع طبق البسكويت أمامها: «والآن يا آنسة، ستجلسين هنا، وستأكلين بعض البسكويت بينما أستكمل الترتيبات.» ثم خرج من الغرفة، وعاد مجدداً بسرعة كما لو أن الوقت لم يتمكن من الصمود أمام طاقته. كانت جويس ويبيل لا تزال تأكل قطعة البسكويت الثانية عندما رفع هانو الطبق من أمامها بهدوء. وقال: «هذا يكفي.»

صاحت جويس وهي تتعلق بالطبق بكلتا يديها: «لا! أنا جائعة.» علق السيد ريكاردو مؤنباً: «إنها ليست وجبة عشاء كبيرة.» قال هانو: «هذه ليست وجبة عشاء من الأساس. ولكنها ستسد شهيتها إلى العشاء. هلّا تتركين الطبق من فضلك يا آنسة؟»

ولكن هزت جويس ويبيل رأسها في إصرار وتشبث بالطبق أكثر. كانت تبدو وكأنها صبي صغير عنيد لدرجة أن هانو بدأ يضحك، ولكنه ظل يجذب طبق البسكويت منها بيده الضخمة، وظللت متشبطةً بالطبق بيديها الصغيرتين. وقالت بصوتٍ متهدج وعينين دامعتين: «أنا أتضور جوعاً.»

فرد عليها برفق: «أعرف يا صديقتي الصغيرة. أعرف ذلك جيداً». وأحاطت ذراعه الحرّة كتفيها. وقال: «عليك أن تستمعي إلى وستعرفين كم أنا حكيم. انظري! لقد حجزت غرفة من أجلك ... رقم ١٨ ... ها هي بطاقتها ... غرفة ذات مغطس ... آه، أنت لا ترين أنك متسخة مثل الصبي الذي يُنظف الماخن. كما أني طلبت عشاءً من أجلك ومعه زجاجة شمبانيا صغيرة، وسيدفع السيد ريكاردو ثمن كل هذا. واستعرت منامة من مديرية الفندق. البيجاما ذات لون برتقالي داكن؛ لا! لقد فقدتها في فندق الليدو. ستلتقين إذن بصديقك هنا لحقيقة. ثم تسترددين بياض بشرتك بالاستحمام. ثم تضعين نفسك داخل منامة المديرة وتذهبين إلى الفراش. ثم يُحضر العشاء لك، وربما تواصلين الحديث مع صديقك أثناء تناول العشاء. ثم تغطين في النوم؛ ويجب ألا تخشي شيئاً؛ فقد وضعت حارساً عند باب غرفتك. لا حاجة بنا إلى أي حارس، كما تعلمين. لقد وضعته هناك فقط لأنّي عطوف وحريص للغاية. وإذا ما استيقظت خلال الليل وتخيلت فجأةً أنك لست في مكان ترغبينه، فكل ما عليك فعله هو أن تنادي قائلة: «هل أنت موجود يا ألفونس؟» وسيرد عليك: «نعم يا آنسة، بكامل عتادي». وإذا قلت: «هل أنت هنا يا هايسنث؟» فسيجيبك بالإجابة نفسها».

ظل هانو يثرثر في محاولة منه لجعل ذلك الوجه المتقطع يبتسم، وضحك حقاً فجأةً ووضعت يدها الصغيرة على قبضته الضخمة.

قالت وهي تنھض على قدميها متنهجة: «حسناً. ولكنك ظللت تذكر صديقاً المرة تلو الأخرى. وفيما عداكما أنتما، لا صديق لي في بوردو».

«سنرى».

توجه هانو نحو الباب وفتحه ونظر خارجه، ثم دخل برايس كارتر الغرفة. أطلقت جويس صيحة دهشة عندما رأته.

وقالت: «أنت؟» جلست مرةً أخرى على مقعدها وهي تُحدّق فيه. وقالت: «ولكن، متى أتيت؟»

قال برايس كارتر: «هذا المساء. نشرت الصحف في لندن خبراً عنك ليلة أمس».

«وهل شددت رحالك إلى هنا على الفور؟»

«بلا أدنى شك. لقد أتيت على الفور».

«أوه!» مررت جويس إصبعها المتسخ إلى الأمام والخلف على مفرش الطاولة وزمت شفتّيها اللتين ابتسمتا ببطء.

وقالت: «هذا عطف كبير منك». رمق هانو السيد ريكاردو وقلب يديه أمامه في يأس. لم تكن ثمة حاجة به لأن ينفع في أصابعه الآن. هذا الرجل صاحب الخطابات الحارة كان يقف جامداً مثل عمود وسط صحراء قاحلة لا يقول إلا «بالطبع»، و«أتيت على الفور»، وكأنه طبيب يؤدي عمله. وكانت هي جالسة تنظر إلى أصابعها المتسمخة وتقول في أدب: «يا له من عطف كبير منك! ما أغرب هذا الشعب؛ اللعنة عليهم!»

قال هانو محاولاً أن يجعل تصريحه مفاجئاً قدر الإمكان: «حسناً، سنصرف، أنا والسيد ريكاردو». ولكن جاء تصريحه عديم التأثير مثل تقديميه برايس كارتير. فلم يُكَفِ الشابان أنفسهما عناء السؤال إلى أين سيذهب هو وريكاردو، أو يوليان حتى أدنى اهتمام بتحركاتهم. كان برايس كارتير يحدّق في جويس، وكانت جويس تحدّق في مفرش الطاولة. حاول هانو مرة أخرى. وجّه إلى ريكاردو ابتسامةً واثقة، وكأنه على يقين بامتلاكه سحراً نافذاً لجذب انتباه الفتيات.

وقال: «سنذهب لنجلب لك ملابسك يا آنسة».

لا ريب في أن ما قاله كان له تأثير، ولكنه لم يكن التأثير الذي توقعه. كان ينتظر تعبيراً عن الحماسة والامتنان. كل ما حدث هو أن جويس رفعت عينيها بخجل لتنظر إلى وجه برايس كارتير وتقول مع ضحكة خفيفة: «إنه يقول إني أُشبه صبية تنظيف المداخلن».

تفحّص برايس كارتير ما أمكنه تفحّصه منها بجدية. ثم رد قائلاً:

«لم أر صبية تنظيف المداخلن من قبل، ولكني أعتقد أنه محقق».

لم يستطع هانو أن يتحمل المزيد. فخرج من الغرفة مسرعاً، ووجده السيد ريكاردو يستند منحنياً إلى جدار الممر والذهول باهٍ على وجهه، وذراعاه يتحركان في حركات عشوائية تدل على العجز.

وصاح قائلاً: «ما أغرب هذا الشعب!»

أما السيد ريكاردو، فعل النقيض، كان لديه منظور مختلف للأمر. فقد كانت التصرفات الرشيدة والسيطرة على النفس تمسان قلبه دائماً.

فقال في صرامة: «لسنا معتادين على التعبير عن مشاعرنا على الملا بهذه الطريقة حتى في ظل أقوى المغريات».

قال هانو عابساً: «كنت مخططاً بشأن هذا الشاب. إنه لا يملك العقلية المناسبة. ولن يبلي بلاءً حسناً في عالم الأعمال».



ضم برايس «صبية» تنظيف المداخن بين ذراعيه.

ولكن رأَت صرخة قصيرة من خلف الباب المغلق. وسرعان ما سُمع صوت برايس كارت الخفيض الملتفان بعد الصرخة. «جويس! جويس!» استدار هانو في لمح البصر وفتح الباب. وتسمَّر هانو في مكانه لجزء من الثانية وكأن دوره قد حان ليصبح عموداً حجرياً. رأى برايس كارت واقفاً بجانب الطاولة وبين ذراعيه صبية تنظيف المداخن، وكان ذراعاهما ملتفتين بإحكام حول رقبته، ووجهها مدفوناً في معطفه. أغلق هانو الباب برفق.

وقال معتراً بخطأ حكمه على الشاب: «إنه يملك العقلية المناسبة وسيبني بلاءً حسناً. «هيا بنا!»

سارت السيارة هذه المرة في طريق فونداوديج وخرجت منه بموازاة طريق ميدوك. وبحلول العاشرة، كانت السيارة لا تزال تسير بين منازل البلدة. انتهى الشارع الطويل فجأةً بطريقة مفزعـة، وانطلقت السيارة في ظلمة الـريف المفتوح. ولكن كان الطريق ممتدًا أمام مصابيح السيارة القوية وكأنـها وشاح من الثـلـج، وكانت الأشجار التي تحـفـ الطريق تلتـقي باـسـتمـارـ صـانـعـة غـابـةـ كـثـيـفةـ ثـمـ تـنـفـتـحـ لـتـسـمـحـ لـلـمـارـاـةـ بـالـعـبـورـ. وـمـنـ وـقـتـ لـأـخـرـ، كـانـواـ يـنـطـلـقـوـنـ فـوـقـ طـرـقـ مـرـصـوـفـةـ بـالـحـجـارـةـ بـيـنـ مـنـازـلـ بـيـضـاءـ شـاحـبـةـ تـارـكـينـ قـرـيـةـ أـخـرىـ تـغـرـقـ فـيـ الـظـلـامـ مـنـ خـلـفـهـمـ؛ وـمـنـ وـقـتـ لـأـخـرـ أـيـضـاـ، كـانـتـ نـوـافـذـ حـانـةـ مـضـاءـ تـنـفـاسـ أـنـوـارـ سـيـارـتـهـمـ عـلـىـ إـنـارـةـ الـطـرـيـقـ، ثـمـ تـخـتـفـيـ مـنـ خـلـفـهـمـ. جـلـسـ هـاـنـوـ صـامـمـاـ فـيـ عـتـمـةـ السـيـارـةـ الـفـارـهـةـ، وـكـانـ السـيـدـ رـيـكـارـدـوـ يـجـلـسـ عـلـىـ أـحـرـ مـنـ الجـمـرـ مـانـعـاـ نـفـسـهـ عـنـ قـطـعـ تـأـمـلـاتـهـ. لـاـ رـيـبـ فـيـ أـنـ الرـجـلـ الـعـظـيمـ كـانـ يـضـعـ الـكـثـيـرـ مـنـ الـخـطـطـ فـيـ ذـهـنـهـ. فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ، لـمـ ضـوءـ ضـئـيلـ مـاـ دـلـ عـلـىـ اـقـتـابـهـمـ مـنـ بـوـيـاـكـ. كـانـتـ مـغـامـرـاتـ الـلـيـلـةـ تـقـرـبـ مـنـ نـهـايـتهاـ. ثـمـ تـحـدـثـ هـاـنـوـ فـجـأـةـ. وـقـالـ: «كـنـتـ أـفـكـرـ يـاـ صـدـيقـيـ».

«كـنـتـ حـرـيـصـاـ عـلـىـ عـدـمـ قـطـعـ حـبـلـ أـفـكـارـكـ».

«كـنـتـ أـرـاجـعـ فـيـ ذـهـنـيـ كـلـ مـاـ قـيـلـ وـحدـثـ هـذـاـ الـمـسـاءـ».

«مـنـ الطـبـيـعـيـ أـنـ تـفـعـلـ».

«ثـمـةـ أـمـرـ وـحـيدـ يـحـيـرـنـيـ».

سـأـلـهـ السـيـدـ رـيـكـارـدـوـ حـاسـدـاـ: «أـمـرـ وـاحـدـ فـقـطـ؟»

رـدـ عـلـيـهـ هـاـنـوـ: «أـمـرـ وـاحـدـ يـاـ صـدـيقـيـ. وـلـكـنـهـ أـمـرـ يـمـكـنـكـ أـنـ تـوـضـحـهـ لـيـ».

دـلـتـ سـلـسـلـةـ مـنـ الـحـرـكـاتـ الـبـسيـطـةـ عـنـ الرـكـنـ الـآـخـرـ مـنـ الـعـرـبـةـ أـنـ السـيـدـ رـيـكـارـدـوـ كـانـ يـعـدـلـ مـنـ وـضـعـ يـاقـتهـ، وـيـرـفـعـ كـتـفيـهـ بـاعـتـدـادـ، وـيـشـدـ كـمـيـهـ، وـيـعـدـلـ مـنـ هـنـدـامـهـ بـوـجـهـ عـامـ بـمـاـ يـتـنـاسـبـ مـعـ هـذـهـ الـمـنـاسـبـةـ.

وـقـالـ: «سـأـبـذـلـ أـقـصـىـ مـاـ فـيـ وـسـعـيـ. هـاـتـ مـاـ عـنـدـكـ يـاـ هـاـنـوـ!»

حـيـنـئـدـ، اـسـتـسـلـمـ هـاـنـوـ لـاـ يـحـيـرـهـ، وـقـالـ: «هـلـ مـنـ عـادـةـ إـنـجـلـيـزـ أـنـ يـجـلـسـوـاـ عـلـىـ الـأـرـضـ وـيـقـصـوـاـ حـكـاـيـاتـ حـزـيـنـةـ عـنـ الـلـوـلـ الـراـحـلـيـنـ؟»

«لـاـ يـاـ صـدـيقـيـ، وـلـكـنـهـ هـذـاـ يـسـمـيـ اـقـتـبـاسـاـ إـنـجـلـيـزـاـ، عـنـدـمـاـ يـوـظـفـ بـالـطـرـيـقـةـ الصـحـيـحةـ».

أـدـارـ هـاـنـوـ رـأـسـهـ وـسـطـ الـظـلـامـ فـيـ حـمـاسـةـ. وـقـالـ: «آـهـ! الـآنـسـةـ الـفـاتـنـةـ وـيـبـلـ؛ هـلـ قـالـتـ عـبـارـةـ عـلـىـ هـذـهـ الشـاكـلـةـ فـيـ الـقـبـوـ؟ هـلـ اـسـتـخـدـمـتـ تـعـبـيرـاـ اـصـطـلـاحـيـاـ؟»  
«يـمـكـنـكـ أـنـ تـُطـلـقـ تـلـكـ التـسـمـيـةـ عـلـىـ عـبـارـتـهـاـ».

قال هانو في سعادة: «حسناً. أنا أيضاً أستخدم التعبيرات الاصطلاحية». لم يكن السيد ريكاردو يفهم كيف يمكن لعقل محترف يضع خطةً محكمة ويعمل على تتنفيذها أن ينتقل للتفكير في التفاهات بينما ينتظر نتيجة عمله.

فصاح: «هل تعني أنك طوال تلك المدة كنت تجلس في ركن من سيارتي تفكّر في طرح سؤال سخيف عما إذا كان يمكنك أن تحشر في بعض الأحيان عبارةً غير معتادة سمعتها للمرة الأولى في حديثك؟ أنت تقترب من ميراندول. تنتظر مهام رهيبة هناك؛ وأنت تفكّر في عبارة اصطلاحية سخيفة. لا أريد أن أكون قاسياً في الحكم عليك، ولكن التهاون يبقى تهاوناً».

لم يؤثّر هذا التوبيخ في هانو.

ردّ قائلًا: «إن القادة الكبار، يا صديقي، بعدما يتجهّزون لمعاركهم، ويعطون إشارة البدء، يمكنهم أن يحملوا سنانيرهم ويدهّبوا لصيد الأسماك. فلن يمكنهم فعل المزيد. لن يمكنهم أن يُغيّروا من استراتيجية المعركة متى بدأوا. ينطبق الأمر نفسه على هانو. لقد اكتملت خطته. وأتباعه ينفذونها حالياً. وهو يتعلم تعبيراً اصطلاحياً».

كان قد انتهى من فوره من هذه المقارنة التي تخلو من التواضع عندما تأرجح فوقهم مصباح جيئةً وذهاباً، وتوقفت السيارة بعد ضغط جميع مكابحها بعنف. سقطت أنوار المصايبح الأمامية على حبل مثبت بعرض الطريق عند مستوى غطاء المحرك، وحوله ثلاثة حراس يرتدون أزياءهم الرسمية ومحقق محلي بملابس مدنية. فتح المحقق باب السيارة، وعندما رأى من بداخלה، أدى التحية.

وقال: «إننا نحيط بقصر ميراندول إحاطة السوار بالمعصم. كل ما عليك فعله هو أن تُطلق صافرتك وسنذهب لمساعدتك على الفور».

سألّه هانو: «هل الفيكونت بمفرده؟

قال المحقق ضاحكاً: «لا، قاضي التحقيقات برفقته. السيد الطموح تيدون. اشتهر عنه أنه يطمح لتولي منصبه نفسه في باريس، وهذه هي القضية التي ستُعلي من شأنه. إنه لم يدع الفيكونت دو ميراندول يغيب عن ناظريه طوال اليوم، أؤكد لك ذلك». «وماذا عن سوفلاك؟

«لم يخرج منه أحد طوال اليوم».

«حسناً!» أخرج هانو رأسه من النافذة وتحدّث مع المحقق همساً. وسمع ريكاردو المحقق يرد: «نعم». ثم يقول مجدداً: «نعم». ثم وجّه هانو رأسه نحو مورو الجالس على

المقعد المجاور للسائق. وقال: «سندخل القصر عبر البوابة التي كانت تُطلِّي». وعندما أزاح الحراس الحاجز عن الطريق، التفت هانو نحو المحقق مجدداً. وقال: «لا حاجة بنا لهذا الحبل بعرض الطريق بعد الآن. وعليك ألا تدع أحداً من قصر سوفلاك أو قصر ميراندول يمر. ولكن يمكنك أن تسمح لأي مارة آخرين بالعبور بحرية.»

هدرت السيارة وكأنها قطة ضخمة أثناء مرورها أمام بوابة ميراندول الحديدية على اليسار ومزارع سوفلاك على اليمين. وصلت السيارة إلى قوس مدخل منزل سوفلاك وكانت جدرانه الوردية تلمع تحت النجوم وكانت أنوار جميع نوافذه مطفأة. ثم دارت السيارة لتهبّط المنحدر الذي يمر عبر مبني المزرعة والملأب، وتعبر الماء وتبطّل التل. على بعد ٥٠ ياردةً من البوابة، طرق هانو على الزجاج الأمامي فتوقفت السيارة. ومن هذا المكان، أكمل الرجال الثلاثة الطريق سيراً في هدوء. كان سفح التل ينحدر عن يمينهم، وسياج ملكية ميراندول يرتفع عالياً عن يسارهم، بينما كانوا يسيرون على هدى الوميس الخافت للطريق الأبيض. عند إحدى النواصي، عثروا على فجوة في السياج. تقدّم السيد ريكاردو إلى الأمام مطرقاً ومديداً نحو البوابة. ولكن جذبه هانو إلى الخلف بعنف.

وقال هامساً: «لا تلمسها!»

رد عليه السيد ريكاردو بالنبرة نفسها: «القليل من الطلاء غير الجاف؛ ما أهمية ذلك؟»

«قد يكون هناك أكثر من مجرد طلاء غير جاف. فلننحوَّ الحذر!»  
وضع قفازاً على يده اليمنى. وعلى الرغم من أن الجماعة كانت تتحرك دون إصدار أي صوت، لم يلمس مزلج البوابة إلا بعد أن بزع شعاع من الضوء وسقط على وجوهم ثم خبا. تقدم رجل من بين شجيرات الحديقة وفتح البوابة لهم.  
غمغم هانو: «أحسنت المراقبة. أشكرك.»

تسليوا بين الشجيرات العالية إلى المرج الذي يقع أمام المنزل المنخفض. وحول حواف الستاير الداكنة السميكة المسدلة على نافذة المكتبة، تسلل بعض الضوء. ولكن كان كل شيء آخر مظلماً. فكر ريكاردو أنه في تلك الغرفة، كان قاضي التحقيقات الطموح يراقب المجرم الذي ستؤدي إدانته إلى انتقاله إلى باريس. فزحف إلى الأمام عبر الدرب على أمل أن تمنحه إحدى هذه الحواف التي يتسلل الضوء عبرها لحظةً عما يحدث داخل الغرفة. ماذما يفعل هذان الرجلان؟ هل يترشان ويشربان زجاجةً من النبيذ وكأنهما صديقان؟ لم

لا توجد أي دلالة على أنه على أحد جانبي المدفأة يجلس مجرم وعلى جانبه الآخر يجلس قاض يعرف ما ارتكب من جرائم؟ أم أنهم يجلسان في صمت مطبق وعييناً أحدهما تتنقلان من المعد إلى الطاولة، ومن الكتب إلى التحف، ومن اللوحات إلى محراك النار الالامع؛ تجول بعينيه في أرجاء الغرفة كي لا تلتقيان بعييني الرجل الآخر الذي يجلس في ثبات مدققاً بعينين لا تطرفان في وجهه جامد كالفولاذ. كان السيد ريكاردو يتوقع لأن يعرف. فزحف مقترباً من النافذة ونظر عبرها، ثم أطلق صرخة مكتومة وقفز فجأة إلى الخلف. أمسكه هانو من ذراعه.

وقال: «صه! ماذا رأيت؟» ولكن كان ريكاردو تعرض لصدمة مفاجئة، ولدفعه غريبة من الربع جعلته غير قادر على الرد. شعر وكأن الدم قد تجمد في عروقه وأن معده قد انقلبت.

قال لهثاً وهو يشير نحو النافذة: «انظر! انظر!» اقترب هانو بدوره من النافذة ونظر عبرها. وجفل أيضاً. كان الفيكونت دو ميراندول يقف بين الستائر والنافذة ملصقاً وجهه في الزجاج، ويداه مكورتان حول عينيه لتمنع أي لمعان من أنوار الغرفة عن الوصول إليهما، وكان يتحقق في الظلام في الخارج، ولم يكن يتحرك وكأنه صنم هندي قديم. كان يراقبهما كما لو أنه طالب سهران يستذكر، وأفلقه صوت غصن يتكسر في حديقة منعزلة، فراح يراقب من وراء الستائر، وحين أدرك وجود لصوص، تجمد في مكانه من الذهول. لم يكن يفصل بين السيد ريكاردو وذلك الوجه الأبيض الكبير ذي الشفتين السميكتين البغيضتين والجبهة الصلباء إلا سُمك زجاج النافذة، ولم يتحرك الوجه على الإطلاق. لم ير ريكاردو في حياته مشهدًا أكثر إزعاجاً وقبحاً من ذلك. ثم وقف بجانب هانو متربداً وممضطرباً. وقف الرجلان على بعد قدم من النافذة مذهولين. هل يعتقد الفيكونت أنه غير مرئي؟ إنهم يحدقان فيه دون أن يرياه؟ صحيح! ولكنه تحرك، وكانت حركته أكثر غرابة، بل وأكثر إثارةً للرعب من جموده. فقد انفرجت أساريره عن ابتسامة كشفت عن صفيء أسنانه، ثم رفع إصبعاً سميكاً مشيراً بإيماءة دعوة. وللحظة، انحسرت الستارة الثقيلة، ورأى الرجلان في الحديقة قاضي التحقيقات آرثر تيدون، ينحني نحو الإمام من المعد حيث يجلس في الغرفة المضاءة، وعلى وجهه تعبر ترقب غامض. وسرعان ما أسدلت الستارة مجدداً وأخفت المشهد. ولكن، منحت تلك اللمحـة العابرة ريكاردو تصوراً جديداً وغامضاً عن آرثر تيدون، قاضي التحقيقات. هل هو حقاً ذلك القاضي البارع الذي يجالس ضحيته، ويتلعب بها، مؤدياً دور داود مع جوناثان، حتى تصل الشرطة؟ لا!

لو كانت الأمور جرت كما هو متوقع، لظهرت علامات الابتهاج على وجهه. ولكن كان الترقب هو البادي على وجهه. وسأل نفسه، هل هذه ملامح تعبّر عن الخوف؟ لا. ربما بعض الحسابات الذهنية، ولكن الترقب هو الغالب بشفتيه المفغورتين وعينيه الجاحظتين المحدقتين المترقبتين.

سرعان ما توقفت تأملات السيد ريكاردو حين انفتح الباب فجأة، لينطلق منه شعاع ضوء كبير امتد فوق الحصى البيضاء في المر. وصل الصوت الجھوري البغيض إلى أسماع المراقبين يقول: «هل أنت السيد هانو؟» «أجل، إنه أنا.»

«ھلَّا تتفضَّل بالدخول؟ السيد تيدون معي هنا. كان من المقلق أن أرى الكثير من الزوار المفاجئين في حديقتي في تلك الساعة المتأخرة. ولكنني أود أن تخبرني بكل ما فعلتموه في بوردو.»

قال هانو بصوٍتِ جاف صارم: «كل شيء؟ لقد كنت مشغولاً للغاية يا سيدي الفيكونت. مورو!»

خرج مورو من الظلام، وتبع الزوار الثلاثة الفيكونت إلى داخل الردهة، ولكن مر اثنان منهم فقط عبر عتبة باب المكتبة. فقد ظل مورو واقفاً أمام الباب.



## الفصل الحادي والعشرون

### غاز الخردل

كان قاضي التحقيقات يُزَرِّر قفازاً في يده اليمنى. وأوْمأ بود إلى هانو والسيد ريكاردو. وقال آسفاً: «لقد خبيت ظني يا صديقي هانو. لم أزل في مكانني نفسه بعيداً عن بوردو مثلما كنت منذ يومين.»

رد هانو مبتسماً: «بل على النقيض يا سيدى. لقد أصبحت هناك حقاً.»  
بدت بعض الدهشة على وجه قاضي التحقيقات تيدون. وقال: «ممتأز». بدا وكأنه على وشك أن يطلب توضيحاً لما قيل، ولكنه عدل عن تفكيره وارتضى بتكرار تلك العبارة بحماسة أكبر: «نعم، ممتأز! آه، شرطة باريس! لا يمكن إخفاء شيء عنهم لمدة طويلة.»  
هز هانو رأسه نفياً. وقال: «سيدي، كلما طالت فترة مزاولتي لهنطى، زاد تواضعى...» من بين كل الأكاذيب التي سمع السيد ريكاردو هانو يقولها، وهي كثيرة، كانت هذه هي التي أصابته بأكبر قدرٍ من الدهشة، وغمرته بشعور قوى بالإعجاب. ثم قال هانو: «لكي أوضح لك الأمر أكثر، يرجع القسم الأكبر من نجاحنا إلى الحظ والأخطاء التي يرتكبها الآخرون.»

قال قاضي التحقيقات في أدب جم: «يجدر بك أن تقعنني بذلك صباح الغد.» ثم نهض واقفاً ومد يده يلتقط قبعة بيده الميسري.

لم يرد هانو على هذه الدعوة. بل عبر الغرفة في خط مستقيم وأصبح يقف حالياً أمام المدفأة، وكان أبعد الموجودين في الغرفة عن بابها. ولكن بدا للجميع أنه يمسك بمقبضه. ثم سأل بهدوء: «هل ستنتصرف سيدى القاضي؟» فتوقف تيدون، وبدا وكأنه رجل يستجدي الإذن بالانصراف وهو يجيب:  
«إن سيارتى تنتظرنى منذ مدة ...»  
قاطعه هانو: «منذ حوالي ساعة.»

«لا بد أنك مررت بها في فناء القصر.»

قال هانو: «جئنا عبر البوابة التي راعى السيد دو ميراندول طلائعها بنفسه بالأمس..»  
شعر السيد ريكاردو بوطأة أحداث رهيبة، ولكنه لم يستطع تخمين هذه الأحداث، فخاطب نفسه: «كل ما يحدث غريب. إن الرئيس، قاضي التحقيقات الواسع النفوذ، يطلب من أحد مرءوسيه أن يسمح له بالانصراف، وتحجّر جميع من في الغرفة لأنهم أعمدة ملحية بمجرد أن ذكر ذلك المرءوس أنه أتى عبر البوابة التي طُليت حديثاً».

لا ريب في أن الأمر كان عجيباً. كانت هناك نبرة تهديد خافتة وغامضة للغاية في حديث هانو. فلم تكن من عادته أن يتباطأ في نطق الكلمات، ولكنها كان يتباطأ في نطق هذه الكلمات، وبذا الاضطراب على كلٍ من الفيكونت والقاضي. كان القاضي هو أول من استعاد رباطة جأشه.

فقال مبتسماً: «أوه، لقد جئت عبر هذا الطريق الطويل. إنه يجعلك تمر أمام قصر سوفلاك. نعم، أعرف أنك أكثر من يريد أن يعرف ما يحدث هناك.»

قال هانو: «لم تكن هناك أي أنوار تصدر من نوافذه.»  
استغل القاضي تيدون هذه المقاطعة. وكانت هذه إشارة، واغتنمها على الفور، وكأنه ممثل عظيم.

قال: «لا. نحن عشر الريفيين ننام مبكراً، ثم نظر إلى ساعته. وقال: «يا إلهي! يجدر بي أن أفرض على نفسي غرامة. ماذا سيقول أهل فييلبلانش الطيبون عندما يقض صوت سيارة القاضي مضاجعهم في تلك الساعة المتأخرة؟»

قال هانو: «من المؤكد أنك لن تذهب بعيداً.» بدت كلماته وكأنها مطرقة دقت على سندان. فقد استدار القاضي على عقبيه، كما لو أن يداً خفية ماهرة جذبته من ذراعه. ولكن واصل هانو حديثه في لياقة: «إنه على مرمي حجر من هنا. على مرمي حجر. لم يكن ثمة مجال للخطأ في فهم ما تعنيه النظارات التي تبادلها الرجلان. كان أحدهما يسأل: «ما الذي تعرفه؟» وكان الآخر يجيب: «لن أخبرك». فيسأل الأول مجدداً: «هل جرئت على تهديدي؟» فieri الداآخر: «منعني واجبي هذه الجرأة». ظلاً واقفين يحدق أحدهما في الآخر، وشعر السيد ريكاردو بأسى شديد عندما أدرك أن قاضي التحقيقات لم يرق إلى تصوراته المسبقة عنه. كانت البنية الهرمية للقانون تنهر وتتحول إلى سحابة من الغبار مثل منزل عتيق ظل قائماً لقرن من الزمان. أوه، هذا لا يصح. لا يصح على الإطلاق!

استطرد هانو حديثه قائلاً: «ولكن هناك بعض الريفيين يحولون الليل إلى نهار. إليك السيد الفيكونت مثلاً،»  
لم ييد الفيكونت سعيدها بجر اسمه إلى هذا النقاش. فابتسم ابتسامة شاحبة. وقال:  
«نعم، نعم. أنا أعمل حتى وقت متأخر من الليل.»  
«ولكن ليس في مكتبك الراخدة.» جاءت هذه العبارة في صيغة سؤال أكثر من كونها تصريحًا: «وهذا أمر أثار بعض الدهشة في نفسي.»  
ولكن لم يجد الفيكونت صعوبةً في الرد. فقد رد بسرعة وبإجابة وافية، وكأنه قد سمع هذا السؤال المرح من قبل وجهز إجابته النموذجية.  
قال الفيكونت: «في الشتاء، أؤدي أعمالي غير المهمة هنا. فالأشجار تحجب الريح عنى. ويصبح المكان هادئاً هنا بينما ترتج جميع النوافذ في الطابق العلوي، كما أنه دافئ. ولكن في الصيف، أنا أستخدم غرفتي الكبيرة في الطابق العلوي. وهي بالطبع الغرفة التي نُجري فيها لقاءاتنا الأدبية والفلسفية. نعم، كما أننا رابطة صغيرة في ميدوك، ويشعرُ فني كثيرون بالحضور من بوردو ليحضروا هذه اللقاءات. وأغلبهم من النساء، للأسف! أعلم أن السبيل إلى إحداث تأثير دائم هو الوصول إلى الرجال، ولكننا نحن البسطاء لا يمكننا تحقيق ذلك. أما السيدات، فنعم، يمكنهن ذلك! قد تُفاجأ بعدد النساء المثقفات الكبير في هذه المنطقة الصغيرة من فرنسا ...»

قاطع هانو بسخرية لاذعة تلك العبارات السلسة الأنثقة التي تخرج من ذلك الفم المتناهي الصغر ذي الشفاه الشديدة الحمرة.

وقال: «وهل تُحسب الأرملة تشيشول ضمن هؤلاء المثقفات؟»  
تخيل السيد ريكاردو قلبي هذين الرجلين بين مطرقة وسدان ويتلقيان الضربة. فقد تسمّرا مكانهما ذاهلين، وكأنهما دميتان أو رجلان حين أصيبا بإصابات مميتة. ثم ضم الفيكونت راحتى يديه معاً ومسح العرق الذي أغرقهما.

وقال مكرراً: «الأرملة تشيشول؟» في صوت خافت وغريب، ولكن كانت شفتاه ترتعشان وكان ينطق الاسم على نحو خاطئ تماماً. حدق تيدون في صديقه وارتفاع حاجبه إلى وسط جبهته وكأنه يقول: «هذا الرجل مجنون»، ولكن كان وجهه شاحباً كالموتى وعيناه حمراوين وكأنهما جمرتان. واصل دو ميراندول حديثه قائلاً: «من تكون الأرملة تشيشول؟ لم أسمع هذا الاسم من قبل. سيد هانو، قد يهمك أن ترى الغرفة التي أعمل فيها عندما يكون الطقس دافئاً. وسيعجبك اختياري كثيراً، على أي حال.»

هز هانو كتفيه، وردَّ قائلًا: «بما أنك دعوتني لرؤيتها يا سيدى، فلن يكون هناك ما يستحق أن أراه.» ولكن دو ميراندول لم يقبل الرد أو يفهمه.

فقال: «ولتكن مخطئ يا سيد هانو. لمرة واحدة فقط بكل تأكيد. أرجو أن تأتى وتحضر صديقك معك.»

كان قد عاد مبتسماً ومهذباً. فتح الباب ولكنه تراجع بحدة.

وقال: «نسيت أنكم ثلاثة.»

«السيد نيكولاوس مورو، مساعدى.» سار هانو نحو الأمام من دون أي حماسة. فكان يلبي رغبة مضيفه وكان يتصرف وكأنه رجل أصابه الملل. أما السيد ريكاردو، فعلى التقىض، كان متحمساً للغاية. كان يشعر بأنه من المرجح أن يلاحظ هو تفاصيل مهمة لم يلاحظها الآخرون. وفَرَّ له بعض دقائق في تلك الغرفة ليتمكن من استخدام عينيه والشعور بجوها والكشف عن أسرارها. كان في مزاج الكشف عن الغواصين. كان الفيكونت يسير أمامهم. التفت الممر إلى اليسار خلف المكتبة، وعند جانب المنزل كان هناك سلم يصعد إلى بسطة صغيرة. وظهر أمامهم باب ضخم. فتح دو ميراندول الباب وأضاء الأنوار. دخل هانو والسيد ريكاردو غرفةً طويلة ذات جدار مغطى بالألوان الخشبية عن يسارهم وصف من النوافذ عن يمينهم.

لم يخطُ السيد ريكاردو داخلها في البداية. بل ظل واقفاً عند عتبة بابها. كانت تلك الغرفة الطويلة ذات السقف المنخفض تحوى رسالةً على صف النوافذ على اليمين، حيث كانت ثمة أنوار مضاءة حتى الثانية صباحاً ثم خبت. ما الرسالة؟ أفرغ السيد ريكاردو ذهنه من جميع الأفكار. وغرق بكمال وجده في الغرفة. دع جو الغرفة يرسل نبضات تحوى رسالتها، وسيكون هو أسطوانة الشمع في جهاز الديكتافون الذي سيستقبلها. ولكنه لم يستقبل أي شيء.

جال ببصره في أرجاء الغرفة. كان هناك صف من المقاعد مصفوف بجانب الجدار، مقاعد جاهزة لوضعها في أماكنها لعقد مؤتمر أو إلقاء محاضرة. وكانت هناك طاولة طويلة في المنتصف وُضعت على أحد طرفيها بعض الكتب، ونشافة حبر، وحبر، وقلم حبر ضخم أحمر اللون، وكومة أوراق لكتابة الخطب بجانب نشافة الحبر. وعند طرفها البعيد المقابل للباب توجد منصة مثل تلك التي تراها في أي صف دراسي وُضع عليها مكتب المعلم ومقعده على مستوى أعلى من مستوى أرضية الغرفة. كانت هناك طاولة مكسوة بالجوخ تقف على المنصة بجانب الجدار، وفوق الطاولة كانت هناك أبواب خزانة كبيرة. لم يكن في الغرفة شيء خفي، أو غامض، أو غير مألوف، أو إيحائي، أو غريب، أو مثير.

للقلق. لم تكن تنطوي على أي رسالة. كانت مكاناً مناسباً لعقد المؤتمرات الفلسفية التي يتآلف أغلب حضورها من النساء. شعر السيد ريكاردو بالحيرة. ووقف في منتصف هذه الغوامض مثل سفينة تقف داخل عين إعصار. وتحيط بها الرياح العاصفة من جميع الجوانب، بينما هنا في المركز يسود هدوء خادع. ولم يشعر في حياته بمثل هذا القدر من خيبة الأمل.

قال الفيكونت دو ميراندول: «أعتقد أنك أدركت الفارق بين هذه الغرفة والمكتبة خلال الليالي الصيفية. إنها معتدلة البرودة وجيدة التهوية. أجلس في مكانٍ إلى هذه الطاولة. إذا ما رفعت عيني، يمكنني النظر عبر النافذة المفتوحة ورؤية سوفلاك ونهر جيروند. وأرى أنوار السفن الطافية على سطح النهر. وأغرق نفسي في هدوء الليل ومداه البصري المفتوح. وتلوح الأفكار، ويستقبلها العقل.»

لم يرتكب الفيكونت خطأً ديانا تاسبورو نفسه ويقر بمعرفة أن السيد ريكاردو قد رأى الأنوار مضاءً في الثانية صباحاً. ورَكَّز أكثر على تفسير سبب إضاءة الأنوار. فجلس على مقعده أمام الطاولة الطويلة مواجهًا النافذة، ولوَّح بيده ليُبيِّن مدى اتساع الريف المظلم وما يراه من أراضٍ ونهر ونجموم في السماء.

وغمغم قائلاً: « رائع! رائع! »

سأله هانو من فوق المنصة: « هل تلقي محاضراتك من عند هذه الطاولة؟»

قال الفيكونت: «نحن نبعد الطاولة إلى الأمام بعيداً عن الجدار ونضع مقعداً خلفها. ثم ملأت وجهه ابتسامة. وقال: «أريد أن أتعرف لك بشيء يا سيد هانو. لا تبدأ حياتي إلا عندما أجلس في هذا المقعد خلف هذه الطاولة وأرى جميع هؤلاء المساكين تحت رحمتي طوال ساعة كاملة.»

وجه هانو نظرةً خاطفة غريبة للغاية نحو دو ميراندول. وقال: «تبدأ حياتك إذن؟»

نعم، سيدي الفيكونت، أعتقد أنك لم تقل شيئاً صادقاً أكثر من ذلك في حياتك. أنا أفهمك جيداً.» كان جاداً للغاية وينطق بسلامة الكلمة تلو الأخرى بوضوح تام. كان السيد ريكاردو لا يزال غارقاً في انفعال الحماسة. ولكن ظهر أمام عينيه مشهد مختلف تماماً. تخيل نفسه يجلس مرةً أخرى على أحد المقاعد التي تُتيحها الحكومة في المحكمة الرئيسية في أولد بيلي. وأمامه يقف أحد المحامين المأكين المشهورين، يخاطب هيئة المحلفين التي تجلس عند الجانب الذي يقابلها من المحكمة، مختتماً مرافعة الادعاء في المحاكمة جريمة قتل، بوضوح متزن واستخدام قاتل للكلمات اليésire.

رفع هانو يديه نحو أبواب الخزانة، ومنهما كان بباب يلتقيان عند منتصفهما ومقوسين عند قمتيهما. وقبل أن يحاول فتحهما، قال دو ميراندول: «هناك درج في الطاولة يوجد به المفتاح». رفع هانو طرف مفرش الجوخ الذي كان يتدلّى على جوانب الطاولة وفتح الدرج. ولكنه نصب قامته مرة أخرى فجأة دون أن يترك مفرش الجوخ أو يرفع عينيه عنه.

قال الفيكونت قبل أن يطلب منه هانو أي تفسير: «كان المفرش القديم ملطخاً بالكثير من بقع الحبر وأصبح رثلاً للغاية فخجلت منه». قال هانو معلقاً: «فوضعنا مفرشاً جديداً على الطاولة بالأمس، أليس كذلك؟» رد دو ميراندول وارتعش صوته قليلاً: «بالأمس ... أو أمس الأول ... أو منذ شهر خادمي يعرف متى حدث ذلك.»

قال هانو في إصرار هادئ: «أظن أن هذا حدث بالأمس». ولم يعترض الفيكونت. أخذ هانو المفتاح من الدرج وفتح مزلاجي بابي الخزانة ثم فتحهما على مصراعيهما حتى لامسا الجدار. ونظر داخل التجويف الصغير للخزانة، كانت خاوية دون أي رفوف وتشع بطلاء أبيض. ضغط هانو طرف إصبعه برفق على الطلاء وسحبه وقد تلطخ باللون الأبيض.

وقال: «آه! أرى أنك لم تقم بطلاء بوابتك فحسب..» قال دو ميراندول وهو يهز كتفيه: «قد تؤدي فكرة إلى أخرى.» «نعم، وقد يؤدي الطلاء الأبيض إلى الطلاء الأخضر، وربما الطلاء الأخضر إلى الطلاء الأحمر، أليس كذلك؟ أعتقد أن الأحمر هو اللون الذي نظرنا به مقاصلنا.» ابتسם الفيكونت ابتسامة شاحبة. ثم نظر نحو السيد ريكاردو، مُظهراً بتكلف، نوعاً من التوافق بينهما في الأخلاق والتربية الرفيعة. كانت تلك الدعابات السمسجة متوقعة من رجال الشرطة، ويجدر بالرجال الحكماء أن يتဂاهلوها.

ثم سأل هانو: «هل رأيت كل ما ت يريد رؤيته؟» رد هانو وهو يغلق باب الخزانة ويضع المفتاح في جيبه: «لقد رأيت أكثر مما توقعت أن أرى. كما أن قاضي التحقيقات ينتظرون، وهذا لا يليق على الإطلاق.»

فتح باب الغرفة كما لو كان هو صاحب المنزل ودعا مرافقيه للخروج. قال دو ميراندول: «لا ريب في أن السيد تيدون قد انصرف..» رد عليه هانو وهو يبتسم بأدب: «لا أعتقد ذلك.» ثمأغلق باب قاعة المؤتمرات، وكان محجاً فيما قال. فبعد أن هبطوا الدرج، رأوا على الجدار الرئيس للرواق الخيال المشوش

للقاضي يسقط عبر عتبه الباب المفتوح بفضل مصابيح المكتبة. كان مورو لا يزال يقف حارساً في الردهة حيث تحدث هانو إليه.

وقال: «هل يمكنك أن تُحضر الحقّ إلى؟ سأنتظر هنا. الأمر مهم». أَدَى مورو التحية وخرج من المنزل. تحرك الخيال على الجدار فجأةً ثم هداً مجدداً. بدا وكأن القاضي فَكَرَ في التدخل ولكنه عدل عن الفكرة وقرر أن ينتظر. لم يتحدث أيٌ منهم طوال مدة غياب مورو. كان قد ترك الباب مفتوحاً، وكان حفيظ الأغصان الصغيرة التي تحرّكها الريح الخفيفة يملأ الرواق بصوتٍ يشبه صوت أمواج البحر وهي تزحف فوق شاطئ مليء بالحصى. غطّى هذا الصوت صوتَ وَقْعِ أقدام، وظهر مورو والمحقق لدى الباب.

قال المحقق: «هل أرسلت في طلبي يا سيد هانو؟»

«نعم. في غرفة الطابق العلوي توجد خزانة فوق طاولة موضوعة على منصة. سأكون ممتنًا لو وسمتها بختمك. وكذلك يجب وسم الغرفة نفسها بختمك بعد إغلاقها. وبالطبع ستحتاج إلى إذن المفوض. لذا، أستميحك عذرًا أن تُسرع في الحصول على إذنه في أسرع وقت ممكن، وأن تترك حارساً على الباب حتى تفعل. ها هو المفتاح». استدعي المحقق رجلًا من الحديقة ونصبه حارساً عند قمة الدرج، واحتفظ هو بالمفتاح.

وقال: «سأتولى الأمر»، وسمع صوت تيدون يستدعي هانو إلى المكتبة. تبعه السيد ريكاردو حتى باب المكتبة، وهناك تردد في الدخول فقد كان الذوق والفضول يتصارعان في داخله. ولكن دعاه قاضي التحقيقات للدخول، وكان يجلس في مقعد وثير، ويرتدي قفازه، ويضع قبعته على ركبته، ويمسك عصاً بيده اليسرى.

وقال: «نعم، لا توجد أسرار لأخفيتها. ادخل أنت أيضًا يا دو ميراندول. هل يمكنك أن تغلق الباب؟ حسناً!»

كان القاضي يتصرّف بتحضُّر، ولكن كان وجهه شاحبًا، وكانت قسمات وجهه تختلج من وقت لآخر بسبب تشنّجات يسبّبها ألم جسدي.

قال القاضي بصوتٍ هادئ وبطريقة رسمية: «سيد هانو، بينما كنت في الطابق العلوي، جلست أفكّر في الفكرة التي شغلت ذهني طوال اليوم. أنا قلق بالطبع من أن قضيّةً على هذا القدر من الأهمية قد تُنهي على عجل، أو دون تحقيق العدالة. ولكنني على قناعة تامة بأنه قد حان الوقت لأنّ أمّارس سلطتي. أنا أغفّيك من الآن فصاعداً من أي مهام تتعلق بهذه القضية».

بُهت السيد ريكاردو! لقد أُعفي هانو من مهامه بطريقة مخزية وغير مشرفة من قبل قاضٍ صغير من الأقاليم! كان إعلان مثل هذا يُعد تجديفًا يرتفق إلى مرتبة تدنيس المقدسات. كما أنه يُعد سخافًةً أيضًا. لا ريب في أن السيد ريكاردو أُجبر لمرة أو مرتين على تصحيح مسار الحق الشهير وتوجيهه إلى مسار أفضل. ولكن رغم إجراء هذه التصحيحات، كان هانو محقًّا في نهاية المطاف. وهذا هو السيد تيدون الصغير يورط نفسه من فرط جهله بالدوس في أعقاب هذا الرجل العظيم، كما قد يفعل كلب بكيني صغير مع كلب لابرادور ضخم. مجرد جملة واحدة قصيرة — كان هذا كلًّا ما يتطلبه الأمر — وستجد ذلك الكلب البكيني يُهرع ليختبئ تحت أقرب أريكة. وكان بمقدور السيد ريكاردو أن يتفوّه بها. وتصاعد في داخله شعور عارم بالاستياء ونخوة جارفة. كان على وشك أن يتقوّه بتلك الجملة لولا ابتسامة التقدير الغربية التي ملأت وجه هانو. كان هانو مسروًراً.

استطرد قاضي التحقيقات الذي اندھش من ردة فعل هانو على عزله: «إن سمعة السيد هانو الحسنة المستحقة ليست خافيةٌ عنّي، ولا يجدر به أن يعتبر قراري تقليلاً من إمكاناته. هذا ليس صحيحاً على الإطلاق! وسأوضح ذلك في تقريري النهائي. ولكن هذه القضية بالذات معقدة بطريقة غير عادية ولا تندرج تحت فئة القضايا البديهية التي يُستدعي جهاز الأمن العام عادةً لتولیتها. إنها ليست حادثة شجار لعصابة أباتشي في أحد الملاهي الليلية، ولا عملية سطو في شارع الشانزليزية. إن الوضع الاجتماعي لجميع الأطراف المتورطة في القضية يفرض أكبر قدر ممكن من الدقة. ويجب أن يُتحرّى في شأنها بدقة على الفور في سوفلاك. لقد كانت ...» ثم اعتدل القاضي في مقعده. وزاد صوته قوّةً وظهرت بوضوح نبرةُ استياءٍ فيه. بدا وكأنَّ كلماته قد أسكرته ومنحته ثقةً بالنفس. وقال: «لقد مُنيت بخيبة أمل كبيرة عندما ذهب السيد هانو إلى بوردو بنفسه. أعلم جيداً أن هناك تحقيقاً مضنياً تطلّب منه كامل وقته وطاقةه ...» وأوْمأ هانو برأسه.

وقال مقاطعاً: «قضية الأرملا تتشيشول.»

كان غريباً بالنسبة إلى السيد ريكاردو أن مجرد ذكر اسم هذه العجوز الشمطاء يُحدث اضطراباً. فقد انحني الفيكونت دو ميراندول وكأنه شجرة في مهب الريح. وبدا السيد تيدون وكأنه قد سُلب لبه. فقد جلس بعينين جاحظتين فاغرّاً فاه كأنه أبله، وتجمدت جميع كلماته الفصيحة على شفتيه، وظللت يداه تختلجان على ذراعي مقعده. كانت الأرملة تشيشول هي عبارة الاختبار، ورقة عباد الشمس الخاصة بالتجربة. ولكن كما أدرك هانو منذ البداية، كان أرثر تيدون رحلاً ذا قوة كبيرة.

فتتابع حديثه في ثبات قائلاً: «أيًّا كانت القضية، لا ريب في أنها تطلُّبت تركيزك وجودك بشخصك. بناءً على ذلك، سأطلب إذن دو ميراندول باستخدام هاتفه». صاح دو ميراندول فارگاً راحتي يديه معًا: «بالطبع يا صديقي. اعتبر نفسك في منزلك.»

رفع قاضي التحقيقات نفسه من مقعده بيد واحدة. كانت كلماته توحى بالثقة ولكن لم تكن ساقاه قادرتين على حمله. فوقف حتى وازن نفسه على قدميه، وخطا خطوةً نحو الأمام. ولكن كان الهاتف عند الطرف الداخلي من الغرفة، وكان هانو يقف بينه وبين القاضي، ولم يتحرك هانو من مكانه.

وقال في احترام أدهش صديقه: «سيدي القاضي، مع فائق احترامي، أرجو أن تخبرني بالرسالة التي تريد إرسالها. أطلب منك ذلك باعتباره معروفاً.»

رد عليه تيدون بعطف: «لن أسبِّب لك أي ضرر. سأتصل هاتفيًا بمفوض الشرطة وأخبره بأن خدماتك القيمة مطلوبة في بوردو، ومن ثم فإنني أنهي آسفًا خدمتك في سوفلاك ... ثم صمت للحظة، وقال: «بدايةً من هذه اللحظة.»

ولكن لم يتحرك هانو من مكانه.

وقال: «أرجو ألا تعتبر سؤالي وقحاً، ولكن هل يعني ذلك أن أوامرني بإغلاق غرفة الاجتماعات ووسمها بالختم الرسمي لن تنفذ؟»

«يعني ذلك أنني أنا من سيقرر ما يجب فعله، وما يتعلق بجميع المتورطين في القضية، بنفسي. وأرجو منك أن تتنحَّى جانباً.»

كان السيد ريكاردو يتربَّص بتصرفاً بطيئاً يُذكَّر بأمجاد العصور الغابرة، مثل تحدي قاضي التحقيقات، أو ربما طرحة أرضًا بلكرة واحدة إذا اقتضى الأمر ذلك. ولكنه كان في دولة تُقدس تسلسل السلطة. فتنحَّى هانو جانباً. وقال في خضوع: «أمر مؤسف سيدي القاضي. كنت آمل أن تعود إلى بوردو معي الليلة.»

توقف تيدون عن السير ونظر نحو هانو بحدة، وقال بابتسمة صفراء: «أنت من سيعود، ولن أكون أنا بصحبتك.»

لا ريب في أنها كانت لحظةً غريبة لمراقبة إبراز الضمائر أثناء الحديث. وشعر السيد ريكاردو بالحيرة من تحذق القاضي أثناء حديثه. ولكنه كان صاحب اليد العليا، وكان يراعي أن يستغلها إلى أقصى مددٍ ممكن.

رَدَّ عَلَيْهِ هَانُو وَقَدْ بَدَأَ يَتَحَدَّثُ بِصُورَةٍ غَامِضَةً: «يَا لِلأَسْفِ. يَدُكُّ تَحْتَاجُ بِشَدَّةٍ إِلَى رِعَايَةٍ مَاهِرَةٍ لَنْ تَجِدُهَا إِلَّا فِي عِيَادَةِ الطَّبِيبِ. وَهَذِهِ إِنَّا حَصَلْتُ عَلَيْهَا، فَلَنْ يُشْفِي الْجَرْحَ قَبْلَ سَتَّةِ أَسَابِيعٍ.»

صَاحُ الْقَاضِيِّ فِي غَضْبٍ: «يَدِي!»

وَاصْلَ هَانُو حَدِيثَهُ قَائِلًا: «يَدِكُ الْيَمْنِيُّ. عِنْدَمَا تَشَرَّفْتُ وَالسَّيِّدِ رِيكَارْدُو بِمَنْاقِشَةِ أَمْرِ جَرِيمَةِ سُوفِلَاكُ مَعَ السَّيِّدِ الْقَاضِيِّ صَبَاحَ أَمْسٍ، كَانَ مِنَ الْجَلِيِّ أَنَّهُ يَشْعُرُ بِأَلمٍ مَبْرُحٍ. وَسِيزِدَادُ الْأَلْمِ قُوَّةٌ، بِاسْتِمرَارِهِ، إِنَّا لَمْ تَحْصُلْ عَلَى الْعَلاجِ الْمَنَاسِبِ.»

وَقَفَ الْقَاضِيُّ يَحْاولُ أَنْ يُخْضِعَ هَانُو بِنَظَرَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ قَدْ فَقَدَ سِيَطْرَتَهُ خَلَالِ الْلَّهَظَاتِ الْفَاتِتَةِ. كَانَتْ نَظَرَاتُهُ صَارِمَةً بِمَا يَكْفِي لِإِخْضَاعِ جَيْشِ مَرْءَوَسِينَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ قَدْ فَقَدَ ثُقَّتَهُ بِنَفْسِهِ. ثُمَّ صَاحَ فَجَأًةً:

«إِنَّا كُنْتُ قَدْ أَحْرَقْتُ يَدِيْ يَا سَيِّدَ هَانُو، مَا شَأْنُكَ أَنْتَ بِذَلِكِ؟»

رَدَ عَلَيْهِ هَانُو بِبِرْوَدٍ: «لَا دَخْلٌ لِي عَلَى الإِلْطَاقِ بِأَنَّكَ أَحْرَقْتَ يَدِكَّ. وَلَكِنَّكَ لَمْ تَحْرِقْ يَدِكَ سِيدِيِّ الْقَاضِيِّ. لَقَدْ لَمَسْتُ بِهَا بُوَابَةً مَا مِنْذَ لِيلَتَيْنِ؛ وَكَذَلِكَ فَعَلَ رُوبِنْ وَبِبِسْتَرُ.»

صَاحَ تِيَّدُونَ: «بُوَابَةً مَا! بُوَابَةً مَا! هَذَا الرَّجُلُ مَجْنُونٌ!»

وَاصْلَ هَانُو حَدِيثَهُ فِي هَدْوَءٍ: «بُوَابَةُ سِيدِيِّ الْفِيْكُونْتِ الَّتِي حَرَصَ عَلَى حَرْقِ طَلَائِهَا الْقَدِيمِ وَتَنْظِيفِهَا وَإِعْدَادِ طَلَائِهَا بِالْأَمْسِ. وَلَا رِيبٌ فِي أَنَّ لَدِيهِ حَقًّا لِيَفْعُلَ كُلَّ هَذَا. كَانَ الْوَرْنِيشُ الْلَّزِجُ الَّذِي غَطَّى تِلْكَ الْبُوَابَةَ يَحْتَوِي بِشَكَلٍ أَسَاسِيٍّ عَلَى ...» وَأَخْرَجَ بِرْقِيَّةً زَرْقَاءً مِنْ جَيْبِهِ وَرَاجَعَهَا؛ ثُمَّ قَالَ: «مَادَّةُ ثَنَائِيَّ كَلُورُو إِيْشِيلُ الْكَبِيرِيَّتِيَّدُ ...»

قَاطَعَهُ قَاضِيُّ التَّحْقِيقَاتِ فِي شَفَقَةٍ وَهُوَ يَوْمَئِ بِرَأْسِهِ نَحْوَ دُوَّمِيَانِدُولِ: «يَا لِلْمَسْكِينِ! يَا لِلْمَسْكِينِ! لَقَدْ جُنَّ الرَّجُلُ.»

وَافَقَ دُوَّمِيَانِدُولُ قَائِلًا: «لَا رِيبٌ فِي ذَلِكِ.» كَانَ السَّيِّدِ رِيكَارْدُو قدْ تَوَصَّلَ إِلَى الْاسْتِنْتَاجِ نَفْسِهِ عَلَى اسْتِحْيَا، حَتَّى أَخْرَجَ هَانُو بِرْقِيَّةً مِنْ جَيْبِهِ. كَانَ هَانُو قدْ أَرْسَلَ الْكَثِيرَ مِنَ الْبَرْقِيَّاتِ مَسَاءَ أَمْسٍ مِنْ بُويَاكُ، وَمِنْ بَيْنِهَا وَاحِدَةً أَرْسَلَهَا إِلَى شَرْطَةِ سُكُوتَلَانْدِ يَارِدَ لِتَوجِيهِهَا إِلَى رَئِيسِ أَحَدِ مَخْتَبَرَاتِ الْعَاقِقِيَّاتِ فِي شَمَالِ إِنْجِلْتَرَا.

اسْتَطَرَدَ هَانُو حَدِيثَهُ قَائِلًا: «هَذِهِ الْمَادَّةُ مَعْرُوفَةُ لِدِيِّ الْعَامَّةِ بِاسْمِ غَازِ الْخَرْدَلِ ...» وَصَمَتَتْ فِي هَذِهِ الْلَّحْظَةِ جَمِيعُ الْاَتَّهَامَاتِ الَّتِيْ وُجِهَتْ لَهُ بِأَنَّهُ مَجْنُونٌ، فَقَالَ: «أَخْتُرُعُ هَذَا الْوَرْنِيشُ فِي عَامِ ۱۹۱۷ِ عِنْدَمَا كَانَتْ مَوَارِدُ الْحَلَفاءِ الْمَالِيَّةِ ضَئِيلَةً. وَعِنْدَمَا اقْتَضَتِ الْحَاجَةُ مَعْرِفَةً هُوَيَّاتِ الْأَشْخَاصِ الْحَقِيقِيَّينِ الَّذِينَ كَانُوا يَجْتَمِعُونَ فِي مَوَاعِيدِ مَحْدُودَةٍ دَاخِلَ كَوْخٍ

معين على الساحل الغربي لأيرلندا. فطليت بوابة الكوخ بهذا الورنيش، وتلطخت أيدي كل من دخل الكوخ به. لا يحدث أي شيء طوال ساعة كاملة. ولكن مع اقتراب الساعة من نهايتها، تبدأ قرحة في الانتشار. في أفضل الأحوال، تحتاج هذه القرحة ستة أيام إلى تندمل، ومن ثم كان تحديد هويات هؤلاء الأشخاص أكثر دقةً وبساطة حتى من بصمات الأصابع. استُخدمت الطريقة المبتكرة نفسها على بوابتك منذ ليلتين يا سيدى دو ميراندول. ووقع ثلاثة أشخاص في شركها.»

تعجب السيد ريكاردو الذي كان يستمع بفم مفتوح بعدما لم يستطع أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك: «ثلاثة؟»

حوال هانو عينيه من دو ميراندول، الذي كان يقف مسنداً لرف المدفأة، إلى تيدون، الذي غاص في أحد المقاعد، وضحك مبتهجاً، وقال: «ستلاحظ يا سيد ريكاردو أنك الوحيد الذي تعجبت عندما قلت إنهم ثلاثة أشخاص. فهذا العدد ليس مفاجئاً بالنسبة إلى هذين الرجلين المحترمين.»

استدار الفيكونت وفرد يديه. وقال بصوت ساخر مرتعش: «من العجيب ألا يوجد أثر لهذا السم الغامض على يدي.»

رد عليه هانو في بساطة: «وكيف كان سيصل إلى يديك؟ لقد عدت إلى منزلك من قصر سوفلاك في وقت مبكر عبر الطريق المعتمد. لقد فعلت ذلك دون شك! عدت مبكراً لأنه كان لديك بعض الترتيبات لتجهيزها، وعدت عبر الطريق المعتمد لأنك لم ترغب في لفت الانتباه إلى أنك غيرت من عاداتك. لم يطل غاز الخردل إلا بوابتك الصغيرة الخاصة التي استخدمها زوار معينون في ساعة متأخرة من الليل بعدما خلد العالم بأسره إلى النوم.»  
كرر السيد ريكاردو حديثه قائلاً: «ولكنك قلت إنهم ثلاثة؟» ربما أخطأ عندما تدخل في مناقشة رسمية، ولكنه لم يكن يطيق صبراً ليفهم هذه النقطة قبل أن تثار نقاط أخرى تتحيّها جانباً. ولكنه قال: «أتتفق معك على اثنين. السيد تيدون وروبن ويبرستر؛ ولكن من الثالث؟ من غيرهما تقرّحت يده بسبب لمس هذه البوابة؟»

قال هانو: «إيفيلين ديفينيش.»



## الفصل الثاني والعشرون

# القاضي يدْخُن سجارة

قفز السيد ريكاردو في الهواء حَقًّا عندما سمع الاسم الثالث. ونظر نحو هانو في ترُّقبٍ. كيف يمكنه أن يعرف ذلك؟ لقد تخطى تخمينه هذه المرة جرأته المعتادة، وكذلك ثقته المعهودة بنفسه. ولكن لم يتفَّوهُ أَيُّ من الرجلين بكلمة اعتراض، ما جعلهما متهمَّين. فجلس القاضي تيدون محنِّ الظهر في مقعده ووجهه شاحب مثل ورقة بيضاء، وعيناه مثبتتان على نار المدفأة. ووقف الفيكونت دو ميراندول وكأنه صبي ضخم متَّهِلْ أمسكت به مرببته متلبساً بإحدى حمامات الطفولة. وكان يرتجف من قمة رأسه الأصلع إلى أخمص قدميه، وكانت تصدر من بين شفتَّيه همساً صيحات مكتومة ثم يتراجع عنها، ثم يهمس بها مجدداً. وتكتشفَّ تلك الحُجَّة اللعينة تدريجيًّا مثل ورق البرشمان أمام عيني ريكاردو. لقد ذهبت إيفيلين ديفينيش إلى منزل الفيكونت بعدما نام العالم. ولاقت حتفها بعنف في غرفة الاجتماعات، وظهرت على يدها نفس التقرحات التي ظهرت على يدي القاضي تيدون وروبن ويبيستر مدير قصر سوفلاك. ولهذا السبب قُطعت تلك اليدين بعد موتها. كان إجراءً احترازيًّا وحشياً ارتكبه رجال أفزعهم الخوف ولم يكن عقاباً سادياً. لم يكن ليفيدهم إغراق جثة المرأة في نهر جيرون، حتى وإن ثُبُّت في القاع بالرصاص، وفي راحة يدها الجرح نفسه الذي يؤلم يد كل من المدير روبن ويبيستر والقاضي تيدون! لا، لا! إن الجثث يُعشَّر عليها في الأنهر. يجب استخدام العقاقير بالتأكيد. ويجب اتخاذ الإجراءات الاحترازية خشية أن تكتشف حقيقة أن القاضي تيدون والمدير روبن ويبيستر عبرا البوابة نفسها في الليلة نفسها.

كان القاضي هو أول من استعاد رباطة جأشه، وقال: «لا أعرف أَيُّ شيء عن السيدة ديفينيش، بكل تأكيد. ولكنني لا أنكر أَنني استخدمت هذه البوابة منذ ليلتين. لمَ قد أنكر

ذلك؟ دو ميراندول صديقي. لقد ذكرت كلمة فخاخ يا سيد هانو. نعم، إلا أنك قد تضع فخاً لحيوان قاقم ولكن قد يفقد عصفور ساقه. الفخاخ لا تصطاد إلا الأبراء ...» فكر السيد ريكاردو، يا له من تغيير طرأ على الرجل! منذ خمس دقائق كان يقول: «أخرج! أنت مُعفٰ من مهماتك! أما الآن فيقول: «ثمة تفسير لذلك. فقط اسمعني، واسمع كلامي المусول!»

ولكن كان هانو مستعداً لذلك، فقاطعه قائلاً: «سيدي القاضي، أستميحك عذرًا. أنا، كما أوضحت لي، مرءوسك. لا يصح أن أستمع إلى ... هل يمكنني أن أطلق على ما تقول تبرئة ساحة؟ ... من رئيسي. ولكن من ناحية أخرى، كلفني محافظ بوردو بأن أسلم خطاباً لك. فهو أيضًا قلق بشأن القضية. يبدو أن لها الكثير من الأذرع. إنها قضية أشبه بأخطبوط، ويتوقد المحافظ لأن يسمع كل ما يمكنك أن تخبره به.»

قال القاضي مكرّراً: «محافظ بوردو». مدّ يده نحو هانو الذي أخرج الخطاب من جيبيه. وقرأ الخطاب بتمعن مرة، ثم مرة أخرى. وقال في صرامة: «كان يجدر بك أن تخبرني بأمر هذا الخطاب على الفور. ولكن يبدو لي أنك جرئت على التلاعب بي يا سيد هانو. لقد عرفت الآن أن العيادة والمحافظة مصطلحان متادفان. سأضع في اعتباري أن أعرض ما فعلت أمام الجهة المناسبة، كما أعتبر أنه من واجبي أن أتمثل لرغبة المحافظ وأراففك إلى بوردو رغم تأخر الوقت..»

أخفى هزيته بثقة مثيرة للإعجاب. أقرّ له السيد ريكاردو بذلك. ولكنها كانت هزيمةً في نهاية المطاف. لم تعد ثمة حاجة إلى الاتصال بمفوض الشرطة هانفيًّا في فييللانش وإبطال أوامر هانو. ثم نهض واقفًا من كرسيه.

وقال: «أعتقد أن سيارة هذا الرجل النبيل تحت إمرتك، أليس كذلك؟» فانحنى هانو. وقال بأدب: «إن السيد ريكاردو يعاملني بكرم كبير». وفتح باب الغرفة. وقف مورو في الرواق في وضع الانتباه. فقال له هانو: «مورو، القاضي يرغب في العودة معنا. هل يمكنك أن تصحبه إلى السيارة؟ سأتبعكم.»

تردد تيدون لجزء من الثانية عند عتبة باب الغرفة. هل أدرك أنه على الرغم من أن الكلمة لم تُقل بطريقة رسمية، فإنه، قاضي المقاطعة الطموح، قيد الاعتقال؟ أم أنه كان يُفكّر بعمق في حُجة بارعة من شأنها أن تبرئه من أي مشاركة في الجريمة؟ لم يستطع السيد ريكاردو أن يُخمن. وضع القاضي قبعته على رأسه، وسوّاها فوق رأسه في رضا، ثم خرج من الغرفة. بعد لحظات، سمع ريكاردو صوت خطواته وصوت خطوات مورو على حصى الدرب خارج المنزل. وداخل الغرفة، التفت هانو نحو الفيكونت دو ميراندول.

وقال: «سيدي، لا أعرف بعد إن كان يمكن إنفاذ القانون عليك أم لا. أم أنه من الأفضل ترك الرأي العام ينهش حتى النخاع، ولا ريب في أن هذا سيحدث. في الوقت الحالي أنت قيد الإفراج المؤقت..»

دار هانو حول نفسه وخرج من المنزل. وأمسك بذراع السيد ريكاردو وقاده نحو البوابة.

وقال: «ثمة شيء آخر يُقلّقني. سترى..»

كان قاضي التحقيقات قد ركب السيارة حقاً عندما عبر هانو وصديقه البوابة. وركبَا السيارة بدورهما، حيث جلس ريكاردو بجانب تیدون، وجلس هانو في مواجهته على المقعد المقابل.

وقال: «شُغل الأنوار الأمامية يا مورو وانتبه». واستدار هو أيضًا في مقعده وظل يراقب الطريق من بين كتفي مورو والسائق. انسابت السيارة بسلامة هبوطًا على تل، وعبرت المرعى، ومرت أمام المرأب قبل أن يحدث الأمر الذي كان يتوقعه هانو. تقدم رجل من جانب الطريق حاملاً حقيبة ملابس. توقفت السيارة، وسلمت الحقيبة إلى مورو، وانحنى هانو إلى خارج النافذة.

وسأل في ترقب: «هل سمعك أحد؟»

«لا أحد. كانت السيدتان لا تزالان في غرفة الاستقبال عندما صعدت إلى الطابق العلوي. أنا واثق بذلك.»  
«حسناً!»

تحركت السيارة مجدداً، ودارت حول القوس الزهري الفاتح لقصر سوفلاك، ومثلما قد يفعل أي شخص يدرك مدى فداحة المهمة وضيق الوقت، حافظت على تقدُّم سريع، وثبتت، ومنتظم طوال الطريق إلى بوردو.

تحدث قاضي التحقيقات بنبرة نَفَتَ عن بعض الاهتمام. وقال: «أعتقد أن ما سُلم إليك في السيارة حقيقة ملابس، أليس كذلك؟»  
أجابه هانو: «بلى.»

«هل هي من قصر سوفلاك؟»

قال هانو: «نعم، طلبت من المحقق المسؤول عن هذا الطريق أن يحضرها لي دون أن يلفت الأنظار قدر الإمكان.»

تبع ذلك لحظة صمت، ثم قال القاضي: «هذا غريب. لا ريب في أنها تحتوي على بعض الأدلة المهمة.»

قال هانو: «لا، سأخبرك بما في الحقيقة أيها القاضي. كان من المهم أن أحصل عليها من دون أن يعرف أي من سكان قصر سوفلاك أي شيء عنها. ولن أتمكن من التحرك حتى الغد. لهذا، لم أكن لأتتمكن من معرفة حقيقة الأمر كاملة حتى الغد. لدى شوكوي، ولكنها ليست كافية. والآن، إذا ما عرف سكان القصر أن هذه الحقيقة قد أُعدت وأخذت سرًا، فمن الممكن أن يحدث تدخلٌ من شأنه أن يُضر بمسار تحقيق العدالة.»

ظل القاضي صامتاً لوهلة، وظل ساكناً أيضاً. ولم يتحدث إلا عندما كانت السيارة تمر كالبرق في بوياك.

فقال: «سأكون ممتنًا يا سيد هانو لو تكرّمت وأوضحت أمر هذه الحقيقة أكثر.» رد هانو في وده: «بالطبع. لا أسرار بين ثلاتنا. تحتوي الحقيقة على بعض الملابس من أجل الآنسة جويس ويبيل.»

سأل تيدون من رُكته المظلم داخل السيارة: «لقد عثرتم على هذه الشابة إذن؟» رد عليه هانو: «يسعدني أن أقول نعم. كانت ضربة حظ، التي يجب أن أعتنّ بها في عملي، قادتني إلى منزل الأرملة تشيشول في شارع جريجوار. ووصلت في الوقت المناسب.» «إنها على قيد الحياة إذن؟»

نعم. تعرضت لمعاملة سيئة. ولكنها شابة. وأعتقد أنها حصلت الليلة على تعويض مناسب، وغدًا سنعرف كل ما حدث في قصر ميراندول منذ ليلتين بالتفصيل.»

قال القاضي: «أخبار عظيمة. لم أكن لأمل في أفضل منها.» استمر هانو في الحديث عن موضوع الحقيقة بطريقة رأها السيد ريكاردو غير ضرورية: «لذا، يمكنك أن تخيل مدى راحتني عندما حصلت على الحقيقة دون أن يعرف أي من أصحاب المنزل. إذا ما عُرف أن جويس ويبيل في أمان وأن الحقيقة الكاملة ستظهر غداً، فأنا أتوقع، كما قلت، أن يحدث شيء يعرقل مسار تحقيق العدالة...»

فكَّر السيد ريكاردو أن هذا معناه أنه قد تكون هناك حالة انتحار، وربما اثنان، وربما ثلاثة. من يعلم عدد سكان سوفلاك المتورطين في تلك الجريمة الغامضة؟

قال القاضي: «أفهمك تمام الفهم». وعاد إلى صمته مجدداً. ولكن عندما بدأ شعاع من الضوء يلوح في السماء فوق بوردو، قال: «أريد أن أدخن.» وضع يده داخل جيبه ليخرج عليه السجائر.

ضحك هانو في راحة تامة، وقال: «كنت متشرقاً لأن أسمعك تقول ذلك». ونبأ صوت حفيظ الورق السيد ريكاردو إلى أن علبة سجائر ماريلاند الزرقاء بين أصابع هانو.

القاضي يدْخُن سجارة

وقال هانو: «معي ثقاب. اسمح لي.» صدر صوت احتكاك، وشعلة صغيرة، ثم ضوء أزرق متنانٍ استمر لبضع ثوانٍ، ثم سطع اللهب الأصفر، وتحول الظلام داخل السيارة الفارهة إلى مكان يعج بالظلل الراقصة مع وجهين فقط يظهران في بؤرة الضوء. أوصل هانو عود الثقاب إلى سيجارة تيدون، ثم أشعل سيجارته، وظل الرجلان يحدقان بثبات في بعضهما لبضع لحظات.

قال القاضي بهدوء: «أشكرك.»



أوصل هانو الشعلة إلى سيجارة تيدون ... وظل الرجلان يحدقان بثبات في بعضهما لبضع لحظات.

احترق عود الثقاب كله وانطفأ، وخيم الظلام مجدداً. ظل الرجلان يدخنان في صمت، وسيجارتاهما تتوهجان وتختفثان، ثم سقطت سيجارة تيدون على أرضية السيارة، وأثناء ما داسها هانو بقدمه، ملأت رائحة اللوز المر السيارة. فتح هانو نافذة السيارة.

وصاح قائلاً: «أخرج فمك في الهواء يا صديقي»، وأطاعه ريكاردو مبعداً جسده عن ذلك الشيء الذي أصبح يهتز ويتمايل مع كل حركة تفعلها السيارة وهو راقد خلفه في أحد أركان السيارة. كانوا عائدين حقاً إلى المدينة. وبعد بضع دقائق، وقفـت السيارة أمام الفندق في شارع كور دو لينتندانس. كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف صباحاً، ولم تكن أي من غرف الفندق مضاءة، ولا أي غرفة في الشارع بأكمـلـه.

قال هانو: «سيدق مورو الجرس ليستدعـي البواب الليليـ. ولن تتفـوه بشيء عما حدثـ أنا أخدم القانونـ. ولن أسمح لأحدـ بأن يلحقـ به العـارـ إلاـ في حدودـ ما هو ضروريـ».

قال السيد ريكاردو وهو يرتعـدـ رعبـاًـ: «لقدـ أعدـتهـ».

قال هـانـوـ عـابـساـ: «لـستـ أـفـضـلـ مـنـ الرـجـلـ الـذـيـ يـسـتـخـدـمـ المـقـصـلـةـ». سـاعـدـ السـيـدـ رـيـكارـدوـ عـلـىـ الـخـروـجـ مـنـ السـيـارـةـ وـأـسـنـدـهـ حـتـىـ عـبـرـ الرـصـيفـ. أـجـلـسـهـ عـلـىـ مـقـعـدـ فـيـ بـهـوـ الفـنـدـقـ وـأـمـرـ الـبـوـابـ أـنـ يـحـضـرـ كـأسـاـ مـلـيـئـةـ بـالـبـرـانـدـيـ، وـوـقـفـ بـجـانـبـ رـيـكارـدوـ حـتـىـ شـرـبـهــ. ثـمـ سـأـلـهـ بـاـهـتـامـ: «هـلـ أـسـاعـدـكـ فـيـ الصـعـوـدـ إـلـىـ غـرـفـتـكـ؟ـ»ـ وـلـكـنـ هـزـ السـيـدـ رـيـكارـدوـ رـأـسـهـ نـفـيـاــ. وـاـسـتـنـدـ إـلـىـ الدـرـابـزـينـ أـثـنـاءـ سـيرـهـ؛ـ فـقـدـ كـانـتـ سـاقـاهـ تـرـتـعـشـانـ تـحـتـهـ، وـبـدـأـ يـصـعدـ الـدرجــ. عـادـ هـانـوـ إـلـىـ السـيـارـةـ، وـبـعـدـ دـقـيقـةـ، أـصـبـحـ الشـارـعـ فـارـغاـ مـجـدـاــ.

## الفصل الثالث والعشرون

# السيد ريكاردو يتناول الغداء

قضى جوليوس ريكاردو يوماً شاقاً كان من شأنه أن يرهق حتى شخصاً أكثر شباباً وحباً للمغامرة، ووَقعت على رأسه في نهاية اليوم صاعقة كبيرة أفقدته إدراكه. ولم يكن غريباً على الإطلاق أن ينام كلوح خشب. تلاشت صور القاضي تيدون، والفيكونت دي ميراندول، وإيفيلين ديفينيش، وروبن ويستر، وهانو، والسيدة المسنة المتعجرفة في سوفلاك، والقس ذي الخطوات المتسللة، وديانا تاسبورو، وحتى جويس وبيل التي شغلت أرق موضع قلبه، حتى صارت شبه شفافة مثل خيوط العنكبوت. وبدأت تخفي حاملة معها ما أثارت من تساؤلات وحيرة. ولم يتخيّل على وسادته أي شبح، ولم يغزُ أي سؤال أحلامه. نام كما ينام الصبية بعد لعب مباراة كرة قدم. ولم يكن سطوع شمس النهار ولا جميع دقات ساعات بوردو ليستطيعاً إيقاظه. دقت الساعة منتصف النهار عندما رأى، في جزء من الثانية، أحد تلك الكوابيس المعدّبة التي تتجلّى أحياناً قبيل لحظة الاستيقاظ الحقيقية. كان الكابوس معدّباً لأنه لم يستطع أن يصرخ أو يتحرك، وكان يجب أن يظل راقداً كما لو كان ميرلين آخر سقط ضحية لتعويذة أبدية. كان يحلم بأنه يرقد في جحيم من الدخان الحار، بينما يمسك القاضي تيدون بيده ويشير قائلاً: «هناك! هذا هو المكان». وقطعت السيدة تاسبورو المسنة ذراعه من عند المرفق بسكن فاكهة بسلامة ودون أي جهد يُذكر. جلس في فراشه صارحاً وقلبه يدق في صدره بقوة. كان هانو يجلس بجانب فراشه، وسجارة سوداء بين أسنانه وأصابعه تقيس عدد دقات قلب السيد ريكاردو. وقال هو يهز يده في الهواء إلى أعلى وأسفل كما لو كانت زعنفة سمكة: «ربما كنت رجعياً، ولكنني لا أستطيع أن أتحمّل في غرفة نومي إلا أخف أنواع التبغ التركي».

ردد عليه هانو في ود: «حسناً!» ولكنه لم يتوقف عن نفث الدخان من فمه. وقال: «هذا يعني أنني كلما زدت من نفث دخان سيجاري الماريلاند، نهضت أنت من فراشك أسرع..».

عادت أحاديث الأمس تتزاحم في عقل ريكاردو. فصاح: «أنت تحتاج إلىَّ. يجب أن أُدلي بشهادتي. لقد أقدم قاضٍ على قتل نفسه في سيارتي الرولز رويس. هذا أمر مهم للغاية. أرجوك تقاعد..».

كان السيد ريكاردو قد أراح ملاءات السرير ورن جرس استدعاء إلياس تومسون. وفي خلال ساعة كان في طريقه إلى مبني المحافظة، فلم يكن لديه ما يفعله خلال يومه إلا تأييد رواية هانو. ولكنَّه عرف كيف مات تيدون حقيقة. كان يحتفظ في علبة سجائمه بسيجارة ذات سُمك خاص. وكانت محسوسة من عند طرقها بكمية ضئيلة من التبغ، ولكنها كانت في الحقيقة مملوءة بأنبوب يحتوي على جرعة من حمض البروسيل بتركيز ٩٠ في المائة.

قال هانو عندما جلس مع صديقه بعد ذلك لتناول الغداء في مطعم شابون فين: «لقد أخبرتك بأنه رجل بارع للغاية. كان قد استعدَّ لجميع الاحتمالات..»

قال السيد ريكاردو: «وكنتم تعلم أنه قد استعدَّ لذلك..».

هز هانو كتفيه. وقال: «لقد شكلت في الأمر، وأصدقك القول، شعرت بالسرور أنه اختار تلك الطريقة ليخرج من المأزق. إنه أحد أعضاء الهيئة القضائية. كانت الفضيحة ستصبح مدويةً عندما تُكشف جميع الحقائق في محكمة الجنائيات. وكان من الخطير على سلك القضاء أن يعيش السيد تيدون حتى تصدر المحكمة حكمًا ضده..».

سأل السيد ريكاردو متحيرًا: «هل كانت ستحكم عليه بتهمة قتل إيفيلين ديفينيش؟» فأسرع هانو بمقاطعته.

وقال: «أوه، لا، لا يا صديقي..».

فرفع السيد ريكاردو يديه في الهواء. وصاح: «أنا تائه وسط الضباب. يمكنني سماع صافرات الإنذار وأبواق التنبية آتيةً من هذه الناحية وتلك لتخبرني بموععي، ولكن كلما سمعت المزيد منها، زادت سماكة الضباب، وقلت ثقتي بصحَّة موععي..».

قال هانو وهو يجول ببصره في أرجاء الغرفة: «جرب هذا السلمون المدخن. خلال المرات النادرة عندما يصحبني صديق ثري لتناول الغداء في مطعم شابون فين، لا أكون واثقاً بما إذا كنت أتناول الغداء في في مطعم شابون فين، لا أكون واثقاً بما إذا كنت أتناول الغداء في حديقة صخرية أم في قاع حوض أسماك..».

كان السيد ريكاردو معتاداً على ذلك المزاج المحير لذلك الضابط في جهاز الأمن العام عندما يؤدي دور الرجل الخامض رغم أنه يعرف كل شيء، فصاح بشيء من اليأس: «أريد منك أن تخبرني بأمر واحد. أريدك أن تخبرني بكيفية اكتشافك أن تيدون آندي يده». أجابه هانو ضاحكاً: «نعم، هذا سيثير اهتمامك». ثم ملأ كأس صديقه وكأسه بخمر لافيت من إنتاج عام ١٨٩٩. ثم قال: «طرأت على فكرة غير مؤكدة في البداية. ثم أيدَها لي سائقك. ثم جئت أنت وأكَّدتها بصورة أكثر من رائعة».

اعتذر السيد ريكاردو في جلسته. وتحذَّث بقدر كبير من الوقار. وقال: «أتوقع منك دائمًا قدرًا معيناً من السخرية. أكثر من ذلك! عندما تُسْهِب في الحديث في سياق معين وأقاطعك أنا، أعلم يقينًا أنك ستهاجمني وتعلّقني على حبل المشنقة. ربما لا يعجبني ذلك، ولكنني لا أستاء منه. أعلم أنني رجل مُسِن محدود الأهمية حبا به الحظ بأن أصبح صديقاً لشخص متَّمِيز للغاية. ولكن بعدما تُخْبرني بأن الأمر برمتَه قد انتهى، ويصبح مزاجك هادئاً بينما أتحرق شوقاً لكشف ما لا أعرفه، فإنني أُقر بأنني أُفْضِّل أن تُخفِّف عنِّي حيرتي».

وعلى الفور، خَيَّم الندم على وجه هانو الضخم. وصاح قائلاً: «سيدي العزيز، قد لا يُقدِّر أحد علاقة صداقة مثلما أُقدِّر أنا علاقة الصداقة التي أتشرف بأنها تجمعوني بك؛ أنا لا أتلذّب بك. لا! سأخبرك بالحقيقة!» كان يدافع عن نفسه بصدق، وكان متاثراً بشدة، فقال: «اسمع! ذهبتنا — أنا وأنت — إلى مبنى محافظة فييللانش. حسناً! والتقيينا السيد تيدون الذي اصطحبنا إلى مكتبه». وافقه ريكاردو قائلاً: «نعم».

«ووضع قيعته على عصاه المستندة إلى طاولة جانبية. حسناً! ولكنه لم يخلع قفازه. وظل يرتدي قفازه طوال المقابلة. والآن اسمعني. نعم، لا يخلع الممثلون قفازاتهم وهم على خشبة المسرح. ولا أعرف السبب. السيد كليمنسو يفعل ذلك أيضًا. ولكن، بغض النظر عن الممثلين والسيد كليمنسو، يخلع الناس قفازاتهم في الغرف المغلقة. جعلني ذلك أسئلة. ثم حلَّت لحظة عندما كنت أنت تقصد قصتك، وكانت لحظة شديدة الغرابة. كنت تتحدث عن تلك الغرفة التي طرقت على بابها تحت جنح الليل. قلت: «وكانت غرفة ديانا تاسبورو». وفي خضم غضبه من صعوبة المشكلة، ضرب سطح طاولته بيده اليمنى. هل تذكر ذلك؟

«نعم».

«ثم استدار على الفور مولياً ظهره لنا ووجهه إلى النافذة.»  
«نعم.»

«ورفع ذراعه اليسرى وببدأ يبعث في مزلاجها.»  
بدأ ذلك المشهد من غرفة القاضي يتضح أكثر فأكثر في ذاكرة ريكاردو بفضل تحفيز  
رواية هانو لها.  
فوفقاً قائلًا: «نعم.»

«ولكن بالنسبة إلي، بدا وكأنه يتثبت بهذا المزلاج. وتمايل جسده قليلاً. بدا لي الأمر  
بوضوح وكأن الرجل يكاد يفقد عيده. ثم تحدّث، ولكنه تحدّث بصوتٍ ضعيفٍ وخافت  
لدرجة أنني أشفقت عليه. ولم يستدر لِيُوجّهنا مجدداً إلا بعد مدة طويلة. فزادت التساؤلات  
في داخلي. وتذكرت أن روبن وبيستر قد جرح يده أيضًا. وعندما وصلنا إلى قصر سوفلاك  
تلّكأت لأجعلك تسبقني لأنتحدث مع سائقك على انفراد. نعم، لم يعجبك أن أتحدث إلى  
سائقك. لا، ولكن كان من الجيد أن أتحدث إليه. فقد عرفت أمرين؛ نعم، أولهما عبارة  
اصطلاحية، سأستخدمها في الوقت المناسب، وثانيهما تأكيد مهم لفكريتي. قلت: «عندما  
تعلق ذلك الرجل بيديه اليسري في مزلاج النافذة، ما الحالة التي كان عليها؟» طرحت  
عليه هذا السؤال، وكانت إجابته، دعني أتذكر ما قال، كالتالي: «يا للهول، كاد يهلك. كان  
يحاول استجماع قواه. كانت عبارة يا للهول جيدة، وقررت أن أتذكرها، ولكن بقية  
الإجابة: «كاد يهلك. كان يحاول استجماع قواه.» فقد وجدتها صعبة إلى حدّ ما، رغم  
اللامي بلغتك. فأجريت بحثي، وووجدت أن السائق كان يعني ما توقعت. كان تبدون على  
وشك فقدان وعيه. كان قد صدم يده بسطح مكتبه، وشعر بألم مبرح لدرجة أنه اضطر  
لتعليق نفسه في مزلاج النافذة ليمتنع نفسه عن السقوط مغشياً عليه. هذا بالنسبة إلى  
والسائق. والآن، لنتحدث عنك.»

قال السيد ريكاردو وهو يميل إلى الأمام في استمتاع وقد نسي كل شيء عن كرامته  
واستيائه: «نعم، لنتحدث عني الآن.» كان بصدده أن يسمع الدور الجيد الذي لعبه في هذا  
التحقيق. لم يكن واثقاً تماماً بجدواه. ولكنه سيعرف الآن.

قال هانو: «كنا، أنا وأنت، في شرفة سوفلاك. ونظرت أنت عبر النافذة ورأيت في  
ظلال الغرفة رجلاً يوليكس ظهره..»  
«نعم.»

«وصحت قائلاً بثقة تامة: «هذا قاضي التحقيقات».»

نعم.

«ولكنه لم يكن قاضي التحقيقات. بل كان روبن ويبيستر. إن هذين الرجلين يشبه أحدهما الآخر. أليس كذلك! ولكنهما، على النقيض، لا يشبه أحدهما الآخر كثيراً. فسألت نفسي، وبالطبع سألك، إذا تذكر، لم ارتكب هذا الخطأ بهذا القدر الكبير من الثقة. ولم تتمكن من إخباري بالسبب. ولكن هذا لم يمنعني عن التساؤل. لا بد من وجود سبب. ثم توصلت إليه. ذلك الرجل المسكين كان يعلق يده اليمنى بين أزرار معطفه مثثماً كان روبن ويبيستر يعلق يده اليمنى في حامل. فتحت هذه الحقيقة اليésire عالمًا كاملاً من الارتباطات والاحتمالات أمام عيني. لا ريب في احتمالية أن الإصابة التي لحقت بوبيستر سببها معصرة النبيذ. ولكنني فكرت أكثر في احتمالية أن كلاً من قاضي التحقيقات ووبيستر قد أصببا في المكان نفسه وبالطريقة نفسها. وبدأت أسأل نفسي، هل يُمثّل قاضي التحقيقات المتاز هذا خصماً لي؟ لقد ساعدتني، على مدار التحقيق في هذه القضية، لقد ساعدتني كثيراً.» سأله السيد ريكاردو متشوّقاً وهو يضع في طبقه شريحة لحم طرية: «كيف؟ كيف؟ هل يمكنك أن تعطيني مثالاً؟»

ردّ عليه هانو: «سأعطيك مثالاً على المساعدات البسيطة وأخر على المساعدات المهمة. بالنسبة إلى المساعدات اليésire، أنت من أخبرني بالتغيير الكبير الذي طرأ على الآنسة تاسبورو، وكيف أنها، بعدما كانت سيدة جماعتها الصغيرة، أصبحت تابعة خانعة مسكينة ولم يبُد أنها تلاحظ ذلك التغير في وضعها. كان هذا أمراً مثيراً للاهتمام جداً بالنسبة إلى. وجدت امرأة عجوز، ظلت سنوات طوالاً من دون نفوذ، نفسها فجأة في موضع السلطة، وتمسّكت بها، واستماتت عليها، وأصبحت ناقدة لتصرفات غيرها وفظة، هذا فهمته بسهولة. أما الملكة الشابة بملابسها الأنيقة، وأموالها، ومنازلها، فتخضع للأوامر والتوجيه — في هذه الأيام — بل وتؤرقها ... لا، لقد حيرني ذلك. إن المضايقات اليésire وتصييد الأخطاء المستمر من شأنهما أن يحطّما الأعصاب. يظل استياء المرء منها يزداد أكثر فأكثر بدلاً من أن يكف عن ملاحظتها. كانت تلك التفصيلة مهمة، وربما كانت أكثر أهميةً من حقيقة أنها اختارت ترك لندن في ذروة موسمها لتقيم في بياريتز في مدة ركودها. لقد لفت انتباهي إلى انقلاب غريب للغاية في شخصية الآنسة تاسبورو، ظهور هوس كبير. نعم.»

جلس هانو ببرهه مبتسمًا. كان دأبه أن يذكّر نفسه صباحاً ومساءً قائلاً لها: «عليك أن تعاملني مع أشخاص، لا مع دمّي». وكان يشعر بمعنة كبيرة عندما يكشف له أحد

التغيرات الطفيفة في السلوك أو الشخصية، والذي قد يبدو للوهلة الأولى غير مهم، عن حقيقة تختبئ وسط غابة كثيفة من الألغاز. ولكن لم يكن السيد ريكاردو سعيداً بأن يتركه مُعلقاً لمدة طويلة من أجل تأملاته الراضية.

فقال: «ماذا عن المساعدات الكبيرة التي قدّمتها لك؟»

«لا ريب في أن هذا الجبن الأبيض ممتاز، أليس كذلك؟ في مطعم شابون فين، سواء كنت في حوض أسماك، أو في حديقة حجرية، ستستمتع بطعمك. ما رأيك؟ هل تريد بعض القهوة وبعضاً من المشروب الأفضل في المطعم؟ نعم؟ وسיגاراً ضخماً سميكاً من شأنه أن يفسد تناسق بدلتك السياحية الفاخرة. حسناً. سأشعله سريعاً، ثم سأخبرك بما تريده أن تعرف. وإلا فسأجد جرعةً مركززة بنسبة ٩٥ في المائة من حمض البروسيك داخل السيجار القادم الذي ستعطيه لي. نعم يا صديقي، ثمة مساعدات كبيرة أعطيتها لي. إن لم تكن قد رأيت أنوار غرفة الاجتماعات في قصر ميراندول مضاءة في الثانية صباحاً، لكننا لا نزال تائهين في الضباب الذي تحدثت عنه، ول كانت جويس وبيل الجميلة راقدةً ساكتة وصامتة تحت التراب في شارع جريجوار بدلاً من التسкуك بحالة اللامبالاة التي تميّز شعبها بفسانها الأزرق الأنثيق، وجوربها الحريري الأسود، وحزائتها اللامع المنقوش، وتتناول غدائها في مطعم شابون فين مع حبيبها.»

أضاءت وجهه نظرة سرور وود أثناء حديثه، ودار السيد ريكاردو في مقعده لينظر خلفه. وكانت جويس وبيل تقف على عتبة مدخل المطعم دون أن تبالي بأحد سوى برايس كارتز الذي كان يطلب من رئيس النڈل طاولة. لم يصل إلى علم الصحف بعد أي تطورات بخصوص جريمة سوفلاك لتقدّمها إلى قرائتها. لم يكن أي من رواد المطعم، فيما عدا هانو وريكاردو، يعلم أن تلك الفتاة الأنيقة الجميلة التي تقف بجانب الباب هي الفتاة التي كان من المفترض أن اختفاءها حيّ الشرطة. ولكن كانت ثمة علامات التقاطها عينا السيد ريكاردو على المحنّة التي مرّت بها تمثّلت في شحبوجنتيها والهالات السوداء حول عينيها الواسعتين، وفي إيماءة ونظرة معينة بدت عليها بينما تجلس على مقعدها أمام الطاولة، كما لو أنها لا تستطيع أن تُصدق أنها لا تزال حيّةً وحرة. ولكن سرعان ما عاودت النظر إلى وجه رفيقها.

قال هانو: «يُجدر بنا ألا ننظر نحوهما، أليس كذلك؟ ولا حتى نظرَ واحدة! ولا حتى نظرَ واحدة إلى هاتين الساقين النحيلتين الشابتين. أليس كذلك؟ سندعهما يتحدثان، وأعتقد أنهما لا يتتحدثان عن الملوك الراحلين. لا، يا للهول!»



كانت الفتاة التي من المفترض أنها حَيَّرت الشرطة تقف عند مدخل المطعم دون أن ترفع عينيها عن برايس كارتير ... ولم يعرف أحد سوى ريكاردو وهانو أنها جويس ويبيل.

ترك جوليوس ريكاردو العبارة الفظة تمر دون تأييب. إذا كان هانو يطمح في التحدث بطريقة سوقية، فهذا شأنه. لن يتدخل ريكاردو في الأمر. وشعر بالألم فجأة. فقد آلمه جور أصدقائه عليه.

كانت جويس ويبيل جالسة إلى طاولة عند الجانب الآخر من المطعم، وعيتها تلمعان، والحُمرة تكسو وجنتيها ثم تخفي، ولكنه لم يمر بخاطرها للحظة واحدة. هل روت قصة مغامرتها ذلك الصباح أم لم تفعل؟ نعم، فعلت. وهل يعرف هانو القصة؟ نعم، يعرفها. لا ريب في أنه قد تصرف بِناءً عليها، أليس كذلك؟ بل، فعل. حسناً، إذن! كان الرجل الوحد الذي أُخفي الأمر عنه. يا للفضيحة!

صاح ريكاردو باسطئاً يديه أماماه: «أنا لا أعرف حتى من قتل إيفيلين ديفينيش.» رد عليه هانو في جدية: «يمكنني أن أجيبك كالآتي: قُبض على روبن ويستر في الحادية عشرة من صباح اليوم بتهمة القتل.»

سأل السيد ريكاردو: «وماذا عن ديانا تاسبورو؟»

«لا، لا، يا صديقي. هذه الشابة لا دخل لها بالأمر.»

«هل تقول ذلك على الرغم من الهوس الذي تحدّثنا عنه؟»

أجابه هانو: «بل بسبب هذا الهوس». وشعر السيد ريكاردو براحة غامرة، فتابع حديثه قائلاً: «وماذا عن الملكة المتوجة العجوز؟» رد عليه هانو: «لا تزال جالسة على العرش». ولكن شعر السيد ريكاردو بالخجل من عدم شعوره بالراحة أو بأي شعور آخر.

ولكن تمكّن أخيراً من إقناع هانو بأن يُفصح عن مكمنات نفسه، وبدأ سيل من الأسئلة ينطلق من بين شفتيه تتفنّن وتتصادم وتدور وكأنها مياه طاحونة تتدفع عبر بوابة نصف مفتوحة.

«لم قتل روبن ويبيستر إيفيلين ديفينيش؟ وأين؟ وماذا كانت جويس ويبل تعني عندما صاحت: «لست أنا من يوزع البرودة». ولم رسم القس فاوربيه علامات الصليب على نفسه ثم عاد إلى المنزل متسللاً بعد ذلك؟ وماذا اكتشفت أنت، يا هانو، في غرفة ديانا تاسبورو؟ وأين كانت ديانا عندما أطافت جويس ويبل أنوار الغرفة بينما كنت أطرق على بابها الزجاجي؟ وكيف وصل القناع إلى أعلى الشجرة؟ نعم، وأريدك أن تحدثني عن الفراش المبعثر من فضلك. وكيف وصلت جويس إلى شارع جريجوار رغم طوق الشرطي المحكم؟ وكيف عرفت بقدومها؟ ولمأغلقت خزانة فارغة، وغرفة لا تحوي شيئاً سوى بضعة مقاعد وطاولات؟ نعم، وبما أننا نتحدث عن قصر ميراندول، من وضع غاز الخردل على البوابة، ولماذا؟ أجبني عن بعض من هذه الأمور المحيرة وحينئذ سأطرح عليك مائة سؤال آخر. على سبيل المثال، كيف وصل سوار جويس ويبل إلى السلة؟ وكيف...؟»

ولكن في هذه اللحظة، أمسك هانو جبهته بيديه في غضب يائس جعل السيد ريكاردو يصمت.

وقال مُحدّراً: «إذا ما استمررت على هذا المنوال، فسأقول هراءً في دقيقة واحدة.» قال السيد ريكاردو مُصْحّحاً كعادته في تحري الدقة: «سأقول هراءً في كلمة واحدة.» فقال هانو: «قل هراءً إذن إذا أصررت — رغم أنه كان يحدّر بي أن أقول — حسناً، هاتِ ما عندك. إذا ما طرحت المزيد من الأسئلة، فلن يمكنني أن أقول إلا هراءً. نعم، ففي هذه اللحظة، لا يمكنني أن أجيب على نصفها. ربما في خلال يومين. أوه، سترى كل شيء يا صديقي، لا تخف، ولكن دعني أولاً أرتب بعناية تاريخ هذه القضية المشئومة الشيرية.»

واعتدل في جلسته وبسط مفرش الطاولة الأبيض بحركات مسح رقيقة براحتي يديه، كما لو أنه يُزيل التجاعيد والطيات من سجل هذه الجريمة المذهلة. ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة ورفع عينيه إلى وجه رفيقه.

وقال: «وحتى أفعل ذلك، سأجيب عن سؤالين لم تطرحهما. لماذا كان هناك شيء مألف في الطريقة المتحذلة المدققة لنطق روبن ويبيستر للكلمات؟ آه! إنك تقفز. نعم، لقد نسيت الأمر. ولماذا قطعت صفحة الغلاف من بعض كتب تلك المجموعة الغريبة التي وجدناها عند رأس الفراش؟ آه! إنك تقفز مجدداً. حسناً! من الجيد أنك تقفز في مكانك. الإجابة عن هذين السؤالين واحدة: روبن ويبيستر قس مارق.»

إذا كان ريكاردو قد قفز قفزات يسيرةً بينما يسمع الأسئلة، فقد قفز بقوه خارج مقعده عندما سمع الإجابة. وشعر للحظة وكأن شعره يقف فوق رأسه. ثم عاد يجلس نفسه مجدداً ببطء.

وقال هامساً: «بالطبع». ثم رفع عينيه في رجاء يقطع نياط القلوب، وقال: «عندما أقرأ كتاباً، يجب أن أنظر إلى صفحته الأخيرة أول شيء. لا يمكنني منع نفسي عن فعل ذلك.»

فابتسم هانو. وقال: «أعتقد أن كل ما كان عليك فعله هو أن تجول بعينيك في أرجاء الغرفة وتنتظر إلى الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب.» ولكنه جفل أثناء حديثه، ورمق رفيقه بنظرة محدّنة. فقد كانت جويس ويبيل وبرايس كارتير يمران بالقرب منهما إلى طاولتهما. مدت جويس يدها لتصافح كلا الرجلين.

وسألت في صوت خافت: «لم أركما إلا الآن. كيف يمكنني أنأشكركم؟» ولكن أغرورت عيناهما بالدموع، وبدا هذا للرجلين شكرًا كافياً.

فرد هانو: «سأخبرك كيف تشكريتنا. أن تحلي معنا وتحتسى بعض القهوة.» ولكن هزت جويس رأسها. وقالت: «لا داعي للقهوة؛ فأنا أريد أن أعود إلى فراشي. يمكنني أن أنام ليومين كاملين»، ورغم أنها كانت تضحك، تثاءبت برقة. كان هذا أقصى ما أمكنها فعله لتحافظ على عينيها مفتوحتين.

صاح هانو: «لدي فكرة. يمكنك أن تナمي ليومين كاملين يا آنسة. هذا قدر الوقت الذي أحتاج إليه. وبعد يومين، ستناول الغداء معًا، أربعتنا، وفي فندقي المتواضع في ساحة كينكونس، وحينئذ، سيخبر كلُّ منا الآخرين بما يعرفه، وسيتمكن هذا المسكين، السيد ريكاردو، من النوم، يا للهول!»

بدأ بعض الحيرة على وجه جويس ويبيل، وسعد السيد ريكاردو بملحظة أنها أيضًا ذات تربية راقية درَّبَتها على تجاهل أي ألفاظ غير متوقعة.



## الفصل الرابع والعشرون

# الغرض من غرفة الاجتماعات

مر أسبوعان قبل أن تنتهي الإجراءات الروتينية وتضع خيوط الجريمة المتشابكة بين يدي المحقق العظيم. وحينئذ، ذهب مرةً أخرى لزيارة السيد ريكاردو وسيارته الرولز رويس الفارهة، وبعد ساعة كان الرجل يقفان عند قمة الدرج أمام غرفة الاجتماعات. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحاً، وكانت أشعة الشمس تتدفق عبر جميع النوافذ وتلقي ببقع ذهبية كبيرة على الأرضية، وكان المنزل ساكناً وكأنه مقبرة. فقد كان الفيكونت لا يزال قيد الإفراج الموقت، وذهب إلى مسكنه في بوردو، ووضعت الشرطة يدها على القصر المطل على نهر جيروند. فقد أزيالت أشرطة الكتان العريضة المختومة بالأختام الرسمية، ولكن الباب كان لا يزال موصداً، وكان هانو في مزاج متزعج للغاية؛ فقد قضى وقتاً طويلاً في البحث عن المفتاح في جيوبه.

قال السيد ريكاردو بصوت متهدّج: «لقد قُتلت إيفيلين ديفينيش في هذه الغرفة إذن».

قال هانو: «لقد قُتلت هنا. ربما في اللحظة نفسها التي كنت تنظر فيها من نافذة غرفة نومك ناحية النوافذ الضاءة».

قال السيد ريكاردو وهو يهز رأسه: «لم أسمع صراخاً». لم يكن قد نسي المسافة التي تفصل المزلزين، ولكنه لم يصدق أن جريمة رهيبة قد ارتكبت في هذه الغرفة المبهجة من دون رسالة تطفو في الهواء عبر صمت الليل المظلم لتوقظه من غفلته.

رد هانو: «إنها لم تصرخ». كان واثقاً تماماً مما يقول وكأنه قد شارك في الجريمة.

ثم قال: «ربما أطلقت أنيناً، أو حشرةً من حلقها، وحتى هذه الأصوات ربما كانت تُطلقها بالكاد...» ثم أدار المفتاح في مزلاج الباب وفتحه.

كان قد أعد مؤثراته وكأنه مخرج مسرحي بارع. لم تعد الغرفة الطويلة تبدو وكأنها غرفة اجتماعات، وأصبحت تبدو وكأنها مكان للتجمع. فقد تغير تصميم الطاولة الطويلة، وقصر طولها كثيراً، وأصبحت تشغل بالكاد أحد أركان الغرفة. من ناحية أخرى، أصبحت المقاعد، التي كانت مصفطة على الجدار الجانبي، مرتبة الآن في صفوف منظمة تواجه المنصة، مع ممر مستقيم يمتد من الباب يقسمها إلى نصفين وكأنه ممشى. ولكن كان مظهر المنصة نفسها ما استرعى انتباه السيد ريكاردو وجعل عينيه تطرفان في حالة من عدم التصديق. فقد وضعت الطاولة أمام الجدار وعلى مسافة منه، وبدلًا من مفرش الجوخ الأخضر، كانت الآن مكسوة بقطاء كفن أسود يُطوقه شريط أبيض. وفوق الغطاء، كانت هناك ثلاثة كتب ضخمة ذات شارات واسعة من الحرير القرمزي ومشابك ذهبية مغلقة، وكأس وصندوق مطعم بالذهب، وشمعدانان ذهبيان كبيران لكل منهما ستة أفرع، وكل فرع يحمل شمعةًسوداء طويلة مصنوعة من الكبريت والقار. كانت الشموع مضاءة، وكان يتضاعد منها لهب أزرق ورائحة شنيعة. وشوهد صليب ضخم مقلوب رأساً على عقب مصنوع من خشب الأبنوس مصلوب عليه تمثال عاجي للمسيح. أدرك السيد ريكاردو مصدوماً ومسمئاً أنه يُحدّق في تقليد مريع لمذبح.

رفع عينيه إلى ما يعلو المنصة. كانت الخزانة مفتوحة، وكان ببابها ذوا القمة المستديرة مفتوجين على مصراعيهما على كلا الجانبين حتى لامسا الجدار، وكان الطلاء الأبيض الذي كان يلطف تجويف الخزانة بطبقة سميكة وظرية خلال زيارته السابقة، قد كُشط الآن بعناية فائقة. شعر بأنه يُحدّق في لوحة مذبح رسمها فنان منحط غمس فرشاته في ألوان كابوسية. كان مرسوماً على أحد الألواح أجساد عارية تمسك بأيدي بعضها وترقص رقصةً وحشية وظهورها في ظهور بعض، وكانت أشبه بأجساد مشوهه ذات وجوه بشريّة بيضاء بدینة تقدّف الرعب في القلوب، وكانت تزحف وتحتشد في منبع الألام. كانت المكافآت مرسومةً على جانب، والتّعذيب على الجانب الآخر، وبينهما على جدار التجويف، رسم جسد شاب، تجسيد للجمال الخالص، نحيل، وممشوق القوام، وأبيض كأنه فتاة، وكان ذا ملامح رقيقة لا تصلح لتكون ملامح رجل، وعيينين زرقاويين لامعتين تجذبان جميع الأعين الأخرى وتحترقان بحزن يفوق الوصف. وبعد ريكاردو عينيه مرتعداً. والتفت نحو النافذة ورأى أشعة الشمس المبهرة تغمر كروم العنبر الخضراء، والنهر البني، وأشرعة السفن البيضاء. ولكنه شعر، على الرغم من ذلك، بهاتين العينين الزرقاويين تواصلاً حرق ظهره، وترجوانه أن يلتفت نحوهما ويشاركتهما تعاستهما التي لا تهدأ.



حدّق السيد ريكاردو في جسد يُجسّد الجمال الخالص؛ شاب ذي عينين لامعتين تحرقان بحزن لا يوصف.

سأل بصوٍت خافت وكأنه رجل يتحدث داخل معبد: «هل كانت الغرفة على هذه الحال عندما نظرت نحوها من نافذة غرفتي في قصر سوفلاك؟» كان يتحدث دون أن يُحَوِّل نظره بعيداً عن النافذة المطلة على نهر جيرونوند، وتشبّثت يداه بإطارها دون أن يشعر.

قال هانو من خلفه: «ثمة اختلاف واحد جوهري»، وللمرة الأولى على الإطلاق، خمد فضول السيد ريكاردو. كان يخشى حتى أن يخمن ذلك الفارق. وبحركة عنيفة، فتح مزلاج النافذة وفتح مصراعيها وانحنى إلى خارجها يتتنفس الهواء النظيف المنعش. كان يخشى الآن أن يعرف ما حدث في هذه الغرفة. كان قد ألقى نظرةً خاطفة داخل الهاوية التي تقع في قاعها مخلوقات بشعة مكَّنسة في مستنقع من الوحل. سمع هانو يتحرّك في الغرفة وينفخ في الشموع ليطفيئها.

فسألته: «ما هذه الكتب الثلاثة؟»

أجابه هانو بفخر وكأنه رجل تعلم شيئاً جديداً الآن: «إنها «كتاب تعاويد هونوريوس»، و«كتاب ليميجيتون أو مفتاح سليمان الأصغر»، و«كتاب التعاويد الكبرى»..» لم يكن السيد ريكاردو يعرف شيئاً عنها. فسأل: «عمَّ تتحدث؟»

«استحضار الشياطين وطقوسه. هذا الكتاب» قالها وهو يلمس «كتاب التعاويد الكبرى»، وقال: «يستدعي سيد الظلام الأكبر باستخدام عصا القوة التي طردت آدم وحواء من الفردوس. أما هذا» وليس «كتاب مفتاح سليمان الأصغر»، وقال: «فيتحدث عن الصلوات التي يمكن باستخدامها استحضار الأرواح الشريرة للإلحاق الأذى بمن تكره، وهذا»، وليس «كتاب تعاويد هونوريوس»، وقال: «يُعتقد أنه يحث على القتل». كان قد بدأ حديثه بنبرة ساخرة، ولكنها لم تُسعفه إلا في الحديث عن الكتاب الأول. أما بالنسبة إلى الكتابين الآخرين، فلم يثيرا في نفسه إلا الازدراء والسخط؛ فقد كان يدرك الجريمة التي جمعاً معًا على الطاولة لارتكابها.

سأل السيد ريكاردو: «من الشاب المرسوم في لوحة المنجح؟»

أجاب هانو: «إنه سيد جميع الشرور. إبليس، الشيطان؛ وله اسم آخر أيضًا، أدونيس». وبينما بدا الفزع على محيي السيد ريكاردو، قال: «نعم، أدونيس». ثم جلس بجانب ريكاردو في تجويف النافذة. وقال: «صديقٌ، لا يُجسّد الناس الشيطان دائمًا على هيئة عنزة ليعبدوه. حتى خلال العصور القديمة، كان من المفترض أن يظهر الشيطان في كسوة من الحرير، شاب جميل وبارد كالثلج لا يعطي مقابلًا لمن يعبدوه إلا خيبة الأمل. وأدونيس أحد أسمائه».

ولكن لم يكن السيد ريكاردو يفكِّر في ذلك الرابط الغريب بين الشيطان وراعي الأساطير. فقد كان يستعيد في ذاكرته مشهد طاولة العشاء في قصر سوفلاك ليلة وصوله، عندما صاحت جويس في إيفيلين ديفينيش بحدة هستيرية، قائلةً: «لا تنظري نحوِي. لست أنا من يوزع البرودة». أدار السيد ريكاردو جسده ليواجهه صورة الشاب الجميل، وأربطة نعله تلتقي حول ساقه، وجلد النمر المرقط ملفوف حول خصره، ورممه الطويل في يده. بدا وكأن العينين الزرقاويين تتبعاه أينما نظر، يُطِلُّ منهما الحزن الذي لا يوصف، وتأمراه بآن يُقْسم لهما بولائه.

قال مجيئًا نفسه على إبعاد عينيه عن التأمل في هذا الجسد الجذاب المرسوم على الحائط: «كانت جويس تعرف إذن. كانت تعلم في تلك الليلة حقًا بأمر هذه الغرفة!»

قال هانو مُصححًا: «كانت تعرف بعض الأمور عن هذه الغرفة».

«وكانت تفهم طقوسها».

«كانت تفهم بعضاً من طقوسها أيضاً».

«مثلاً فعلت أنت على الفور. نعم»، وتعجب السيد ريكاردو بينما يتذكر تفصيلاً هنا وأخرى هناك ظلّت بالنسبة إليه لغزاً مستغلّاً، بينما بدت منذ البداية جليّة كالزجاج لرفيقه.

ولكن قرأ هانو ما يدور في عقل السيد ريكاردو بسرعة أكبر من سبّره أغوار أيّ من هذه الغواص. فقال في إصرار: «لا يا صديقي. يمكنك أن تُحولَ أدونيس ليكون الشيطان لو أردت ذلك، ولكن لا يجدر بك أن تحولني إلى إله. لم أفهم في البداية حرفاً من العبارة التي قالتها جويس ويبيل. كنت متحيراً مثلك تماماً؛ نعم، حتى ذلك الوقت عندما رأيتني أخرج من قصر رئيس الأساقفة في بوردو».

صاح السيد ريكاردو: «ولكني لم أخبرك قط بأنّي رأيتك».

«لا، ولكنك رأيتني. رأيت أنك رأيتني. كنت تقف في منتصف الميدان فاغراً فاك عيناك جاحظتان وتقول لنفسك: «يا للهول!»

قاطعه السيد ريكاردو سريعاً: «لم أقل ذلك. ولم تكن عيناي جاحظتين. بل على النقض. إنّهما تغوصان داخلِ محْجَريهما عندما أتفعل».

واصل هانو حديثه في هدوء: «لقد قلت يا للهول، أو كلمات تحمل المعنى نفسه. ثم قضيت ساعةً مع أمين مكتبة نيافته، وعرفت أموراً يمكنني أن أقصها عليك. أوه! أوه! أوه! للأسف الشديد، إنه الشيطان. حتى اللحم في أيام السبت القديمة تلك كان فاسداً، وكان ينشر بروقة الجليد من حوله». مديده فجأة نحو اللوح عن يساره في لوحة المذبح المرسومة ببراعة. وقال: «لا عجب في أنّهم يرقصون بعنف، أولئك المساكين في مسارات الغابة. ولا عجب في أن الأفضل من بينهم هو من يرقص بسرعة أكبر من الباقي. كانوا مجبرين على الحفاظ على دفءهم». وماتت على شفتيه نبرة التهكم مجدداً. كان يقول: «ولكن دعنا لا ننسى. لقد أدرت جميع هذه التخيلات الجنونية الغريبة إلى جريمة شنيعة ... ارتكبت هنا ... في هذه الغرفة التي تغمرها أشعة الشمس التي نجلس فيها ... مثلاً ارتكبت في أماكن أخرى في السابق».

ثم جال ببصره في أرجاء الغرفة مُعيّداً في ذهنه تعاقب الأحداث، ثم تابع قائلاً: «لم أحضرك إلى هنا لأنّي براك بما حدث. فإما كان جويس ويبيل أن تفعل ذلك أفضل مني بكثير؛ فقد رأت كل ما حدث بأم عينيها. ولكنني أجهزك لذلك. لم أفهم شيئاً من

صيحتها عندما قالت: «لست أنا من يوزع البرودة». لا، ولكن ثمة أمور أخرى حيرتني. حقيقة أن القس فاوربيه رسم الصليب على نفسه سراً. ما رأيك؟ أثار ذلك اهتمامي. ثم ملابس القس التي سرقت — أمر غريب، أليس كذلك؟ — ثم إعادةها في صباح اليوم التالي أو في الليلة نفسها. آه! بدأ الشك يتسلل إلى نفسي. نعم! ثم رأيت شيئاً جديراً باللاحظة في غرفة الانسة تاسبورو.

قال ريكاردو: «نعم. بينما كنت في الغرفة. كانت هناك لوحة لقصر رئيس قضاة البندقية يطل على القناة الكبرى، رغم أنني طوال حياتي لم أر أي شيء مميز فيها». قال هانو معلقاً: «لا يوجد شيء مميز فيها. لا. ما رأيته هو» ثم أشار بيده فجأة نحو المذبح مرة أخرى. وقال: «صليب مع تمثال من العاج للمسيح معلق فوق طاولة كتابتها الملصقة في الجدار وكان مقلوباً رأساً على عقب. ولم أحركه». قال ريكاردو: «نعم. أنت لم تمس شيئاً».

«ثم ذهبنا أنا وأنت إلى فييلبلانش، وبينما كنا هناك، أتى القس فاوربيه إلى المنزل». وافق السيد ريكاردو مجدداً، ولكن أضاف هذه المرة شيئاً إلى مخزن ذكرياتهما المشترك. قال: «اكتشفنا عندما عدنا أنه كان برفقة السيدة تاسبورو العجوز». «هذا صحيح. ولكن قبل زيارة السيدة، كان قد زار الانسة التي كانت لا تزال راقدة في غرفتها. ولقد رأى ذلك الصليب أيضاً. لم تكن قد عذلت من وضعيتها. وربما لم تُفكِّر في فعل ذلك من الأساس».

صاح السيد ريكاردو: «لقد عاد لتغيير وضعيتها! كان يريد تعديل وضعيتها سراً لتجنب الفضيحة. كان هذا السبب في سيره متسللاً في الشرفة. وكان هذا السبب في قوله إن التعديلات قد تمت!»

«نعم. في المرة الثانية عندما دخلنا الغرفة أزاحت الصليب من على مساماره ووضعته على الطاولة المستندة إلى الجدار، في وضعية الصليب الطبيعية، بينما كنت أنا، يا صديقي، تحاول سبر غموض لوحة القناة الكبرى».

لو كانوا في ظروف أخرى، لشعر السيد ريكاردو بالإهانة من سخرية هانو ولرد عليه بكلمات مؤبنة على غرار: «آه، بالطبع!» و«لا ريب في ذلك». ولكنه كان في هذه اللحظة يشعر بقدر هائل من الدهشة والحيرة جعلت كل شيء آخر تافهاً في نظره فيما عدا ما قد يرضي فضوله. انحنى هاوي الأحساس إلى الأمام في مقعده تحت النافذة، وعقله يثب متربقاً أن يسمع ما قد يرضيه. حتى السؤال الذي كان على وشك أن يطرحه كان له انفعاله الخاص، وعدلاً من نبرة صوته إلى درجة الرهبة المناسبة.

وقال: «إذن، في هذا المعبد، في تلك الليلة، أقيمت قداس الشيطان؟»  
«نعم.»

«وكان روبن ويبيستر من أقامه؟»  
«روبن ويبيستر، الكاهن.»

وبينما كان يتحدث، أخرج هانو علبة سجائره الزرقاء من جيبه. أما السيد ريكاردو، فعلى النقيض، شعر بالفزع لدرجة أنه كاد أن يمتد يده ليمنع صديقه من تدنيس المقدسات التي يجلسان بينها. وحتى بعد أن تصاعد دخان السيجارة الأزرق في الهواء، ثم تحول إلى اللون البني واختفى، ناشرًا رائحته النفاذة في تجويف النافذة، انتابه شعور بأن صديقه ارتكب تصرّفًا طائشًا. ولكن سرعان ما تحدّث هانو.

وقال: «يا له من أمر غريب! يمكنني أن أستوعب طقوس أيام السبت القديمة بصورة أفضل. كان عيّد مساكين جوعى لا يعرفون أيًّا من متع الحياة يثورون على الظلم الكبير الذي منح كل متع العالم إلى حفنة من النبلاء، ومنح كل شقائه إلى الباقين. يمكن للمرء أن يتخيّلهم وهو مستغرقون في نشوة توصلهم إلى ذروة التجديف والرذائل في غابة منعزلة أو في أرض دفن قديمة. أما قداس الشيطان، والأذناع الذين خاب رجاؤهم في تحقيق طموحاتهم، والذين استندوا متع الحياة العادلة فأصبحوا يسعون خلف الملذات المحرمة، والذين على استعداد لبيع أرواحهم الخالدة في سبيل متعة جديدة، والذين يطلبون من الشيطان ما يُحرّمُه المسيح، زمرة كاملة من المنحرفين مع المبتزرين الذين يقتلون عليهم، مجرمون يبحثون عن شركاء، وسميون يبحثون عن حماية، بالتأكد سمعت بالألم تشيشول. ثمة أشخاص مهمون ستخونهم. تلك سمة الروح، وتلك سمة هذه الجماعة أيضًا. يتعاون المهمون مع ساحرات الأحياء الفقيرة، وجميعهم يسعون لأن يستفيدوا من أدونيس هذا»، ومرة أخرى امتدَّ ذراعه بقوة، ويده الكبيرة مبسوطة تلُوح في إدانة للوثنية وقال: «أدونيسي العقيم.»

قال السيد ريكاردو لنفسه مدرّگًا عدم كفاية تعليقه: «حقًا! حقًا!»

«كان الفيكونت دو ميراندول هو من أنشأ هذه الطائفة هنا. شخصية شاذة غريبة الأطوار، أصبح على حافة الجنون بسبب الليالي الطوال التي قضتها مستيقظًا، ويدعى معرفةً سطحيةً، ويشعر بقلة التقدير، ولا ريب في أنه وجّد لنفسه أهميّةً واستجواب لزععة صوفية كامنة في نفسه. وأصبح وكيل الشيطان في جيروندي! وهو منصب، كما تعلم، يأتي مع الكثير من الحفاظة. وهو يحتاج إلى رجل جريء. فوقف بمعزل عن الآخرين، مهيبًا،

ملفوغاً في رداء من الشر كأنه عباءة سوداء. وصدق نفسه. وليس هو فقط. منذ أيام السيدة مونتيسبا والقس جيبور ولقداس الشيطان محفله. إن الملل يتحول إلى إثارة، وهي تحول بدورها إلى يقين بضرورة ارتكاب الخطيئة التي لا تغفر والتي وردت في سفر الرؤيا، والتي تورث الشعور بالنشوة الوحشية؛ كطفل غاضب من العقاب يُتمتّع بعناد: «رَقا، رَقا» (كلمة عربية وردت في الإنجيل بمعنى يا تافه)، رغم علمه أن من ينطق بهذه الكلمة لن يغفر له. انضمَّ تيدون إلى المحفل؛ ومقره الأقرب منه هو باريس. وأصبحت ديانا تاسبورو ضمن المرشحين للانضمام. وهي شخصية ذات مكانة عالية، سيدة البلدة. وربما سمعت حين كوريسو بالمحفل. وهذا من بين الأمور التي تستيميلها! والألم تشيشول! كانت تستفيد كثيراً من الأمر. فمن يستخدم قداس الشيطان أنس يريدون ارتكاب أفعال شريرة من دون أن يظهروا في الصورة.»

وبالتدرج، بدأت أجزاء اللغز تصنف في مكانها الصحيح أمام عيني السيد ريكاردو. وتخيل همسات الطقوس تنتشر في هدوء شديد، وببطء شديد، ولكن بثبات في الوقت نفسه. هذا السر الشرير لا يمكن كتبته. ومن يمتلك هذا السر سيمتلك أيضاً جميع العباد في راحة يده. وقد يُصر أو تصر على وضع مراسم للقبول، ويتحول المحفل وأعضاؤه تلقائياً إلى منظمة للشر والجريمة. وأصبح من السهل على الفور فهم هوس ديانا تاسبورو وعدم شعورها باستحواذ تابعتها الفظ على السلطة. ما الذي قد يعنيه التوبيخ المتواصل لفتاة أصبحت ممسوسة بالملتع الآثمة لعقيدة مخيفة ومحرّمة؟

«ولكن بالطبع كان حجر الأساس لكل هذا المحفل الشيطاني هو حقيقة أن روين ويبيستر كان الكاهن المُرسم. يفترض قداس الشيطان تسلط الرب. كما يفترض أنه يجب استدراجه إلى خداعه بالخبز والنبيذ قبل إخضاعه للشيطان. والكاهن وحده هو من يمكنه فعل ذلك. يجب أن يكون كاهن قداس الشيطان هو نفسه كاهن قداس الرب. كان القس جيبور، وجيل لوفرانس، ودافو، ومارييت جميعهم قساوسةً حقيقيين، مثل روين ويبيستر..».

سؤال السيد ريكاردو: «نعم، كيف كان في الماضي؟»

قصة حياته غريبة. إنه من منطقة جيروندي. وتعود عائلته إلى العصر الذي كانت فيه بوردو مقاطعةً إنجليزية. تعمل عائلة ويبيستر في زراعة كروم العنبر وصناعة النبيذ في منطقة جيروندي منذ العصور القديمة عندما أحرق جوفريدي بتهمة السحر في آكس أون بروفانس. ثم تدهورت أحوالهم. وبعدما كانوا ملاك الأرضي، أصبحوا مدربين لها،

وتجاراً لم يحققوا نجاحاً كبيراً في بوردو. وكان والد روبن ويبيستر آخرهم. وكان يعتقد أن روبن الابن يمتلك موهبةً ليكون قسّاً، الأمر الذي ثبت خطأه. أمر غريب، أليس كذلك؟ ولكن الناس غرباء بطبيعتهم. وإذا ما تمكنت من إخراج ما في عقولهم ووضعه على طبق مثلاً يخرج الجراح ما في داخل جسده، فلن تجد أي إنسان يمكنك أن تقول إنه عادي. ثمة شيطان صغير غريب الأطوار داخل قلب كل منا. أرسل روبن إلى كلية بومون، وكلاً بالعمل قسًا في كنيسة في لندن — وكان هناك عندما تُوفي والده — ولكنه سئم هذا العمل وتركه.

قال السيد ريكاردو في ثقة: «مع إيفيلين ديفينيش». ولكن هز هانو رأسه نفياً. وقال: «كان لديها عشاق سابقون. يا له من شاب! أؤكّد لك. بشعره الأبيض وملامحه الوسيمة، وسلوكه الذي ينم عن تميّزه، وبلمحة الشغف التي تجعل عيناه تراها الحظات، كان فتاكاً. كانت النساء تتعرقل عليه...»

قال السيد ريكاردو في ود: «تتهافت عليه أو تتعرقل عليه، والعبارة الأولى هي ما تعنيها. ولكنني أفضّل لو أتنك تعني الثانية». بدا هانو متحيراً في البداية. وحدّق في صديقه متشكّلاً خشية أن يكون قد زل، ولكنه لم يجادل، وعاد يواصل قصّته: «ندين بالفضل إلى الأعمال المكتبية في الحصول على الكثير من المعلومات. ولكننا كنا سننظّل نوّاجه صعوبات كبيرةً لولا أمر وحيد». قال السيد ريكاردو مندفعاً: «حزمة الخطابات التي عثرت عليها في غرفة روبن ويبيستر وصورتها».

ردّ عليه هانو وهو يُشعّل سيجارةً أخرى: «أنت محق هذه المرة يا صديقي. لقد أخبرتنا حزمة الخطابات بكل تفاصيل تلك القصة الغريبة من الشغف والغرام اللذين أديا إلى بيع عقد بلاكيت إلى الأم تشيشول ووصول الأحداث إلى ذروتها المرعبة في هذه الغرفة». صاح السيد ريكاردو مصعوقاً: «واحتفظ بهذه الخطابات!» ولكنه تذكّر بعد لحظة قضيةً وقعت أحدها في بلاده حفظت فيها خطابات مرعبة بالقدر نفسه، فقال: «أليس من الغريب أن يُضلّ الشغف الإنسان لهذه الدرجة؟»

قاطعه هانو قائلاً: «لا! لا! أخبرتك سابقاً بأنه كان في غرفة ويبيستر سبب آخر غير الشغف جعله يحتفظ بالخطابات التي أوقعت به. وكانت أفضّل ذلك السبب الثاني منذ البداية. كان خبّثاً، نوع رهيب من الحيطة أقنع روبن ويبيستر بالاحتفاظ بهذه الخطابات. كان الشغف يتمكّن الطرف الآخر. أما هو، فقد ساعدته الخطابات التي احتفظ بها على

إحکام سيطرته على امرأة تغلي الغيرة في قلبها. فقد كانت خطابات خطيرة كتبتها إيفيلين ديفينيش، وكتب بعضها في ذلك المنزل هناك، قصر سوفلاك.

لم يكن هانو يعرف تحديداً متى التقت إيفيلين ديفينيش بروبن ويبرستر. لا ريب في أن لقاءهما حدث قبل أن يقدم ويبرستر إيفيلين ديفينيش إلى ديانا تاسبورو في بياريتز. ولكن كان ثمة اتفاق بين الاثنين يقتضي إتلاف جميع الخطابات في يوم تسلّمها نفسه. والتزمت إيفيلين ديفينيش بالاتفاق التزاماً تاماً معتقدةً أن الطرف الآخر ملتزم به أيضاً. فلم يُعْتَرْ على قصاصه من خطابٍ بين حاجياتها. وحتى وقت ما، عندما كانوا جميعهم معًا في بياريتز، كان روبن ويبرستر ملتزمًا بكلمته أيضاً. ولكن بعد ذلك، أصبح شغف إيفيلين ديفينيش متطلباً، بل وخطراً. ومنحت الخطابات لعشيقها سيطرةً عليها. وتمكن من ردع التهديد بالتهديد.

واصل هانو حديثه قائلاً: «أتلفت خطابات أحد الطرفين — خطاباته — تماماً. وكان واثقاً بولاء إيفيلين له. ولم يكن ممكناً إخراج صفحة واحدة كتبها من وسط الرماد لتدينه. كان في وضع يؤهله لأن يقول: «لم أردّ على هذه الخطابات»، أو «حرست ألا أعطيها أيّيّ عود»، أو «كان الهدف من جميع خطاباتي التي أرسلتها إلى إيفيلين هو إعادةها إلى رشدّها». ومن جانب آخر، كان في وضع يُمكّنه من أن يقول لها في أي لحظة — وكانت هذه اللحظة آتيةً لا محالة — «لقد اكتفيت منك، وأرجو ألا تبوي بكلمة عن علاقتنا وإلا فسأُسَبِّ لك الكثير من الأضرار والمتاعب»..»

صاح السيد ريكاردو: «ولكن بعدما ماتت إيفيلين ديفينيش، فقدت الخطابات قيمتها. كما أنها كانت خطرةً عليه، كما يبدو. كان يجدر به أن يُدمر هذه الخطابات في الليلة عندما ماتت إيفيلين ديفينيش.»

رد عليه هانو: «في تلك الليلة، كما سترعر لاحقاً، كان روبن ويبرستر الطيب مشغولاً للغاية. فقد طلع عليه الصبح وهو لا يزال يعمل. إن لم يكن ضروريًّا أن يعقد اجتماعاً مصغراً في قصر ميراندول مع عزيزنا الفيكونت وذلك القاضي الشاب الطموح، لتحولت هذه الخطابات إلى قصاصات صغيرة رمادية محترقة قبل حتى أن تقع أعيننا عليها». فتح هانو الحقيبة الجلدية التي وضعها على الطاولة، وأخرج منها نسخةً من صور الخطابات.

وقال: «انظر إلى هذه الفقرة». وأشار إلى بداية إحدى الفقرات. كانت الفقرة كُتُبَت في بياريتز بعدما عاد روبن ويبرستر ليزاول عمله في قصر سوفلاك. قال: «آه، يا للمرأة المسكينة! طرف يُحب وطرف يُحب. إنها القصة الأزلية». قرأ السيد ريكاردو:

«حبيبي،

أغمضت عيني. ولم أكن أرى؛ ولكن كيف لا يمكن أن أتخيلك؟ بعدهما انتهيت من كتابة خطاب لك، بدأت أكتب آخر.لاحظ جميع الأمور الصغيرة التي تحدث، وأصنفها إلى أمور قد تُبهجك، وأمور أخرى لن تُبهجك. وأكتب على الفور جميع الأمور التي من شأنها أن تُبهجك، سواء كان ذلك كتاباً أقرؤه أم شخصاً غريباً عجيب المظهر يدخل المطعم، أو قصة مضحكة، حتى أتمكن بعد يومين من كتابة خطاب طويل لك. أما جميع خطاباتك فتببدأ هكذا: «حبيبي، بما أن مكتب البريد سيغلق أبوابه خلال نصف ساعة، فأنا أكتب لك رسالة سريعة...».

قلب هانو بعض صفحات ووصل إلى آخر صفحة من إجمالي ذينة من الصفحات. وكانت قد وضعت خطوط سميكية تحت فقراتها بقلم رصاص أزرق. قال هانو: «اقرأها بالترتيب»، وأخذ السيد ريكاردو الخطابات ووضعها على ركبته.



## الفصل الخامس والعشرون

# خطابات إيفيلين ديفينيش

في بداية الفقرات المُعلَّمة، كتبت إيفيلين ديفينيش من بياريتز إلى سوفلاك تعلن موافقتها المترددة على زواج ديانا تاسبورو من رو宾 ويستر. «لا ريب في أنها تحبك. لقد أرسلت برليس كارتر في حال سبيله حقاً. لا يمكنها أن تتحدى لخمس دقائق من دون ذكر اسمك — أتمنى في بعض الأحيان لو كنت مشوّهاً وقبيحاً للغاية حتى لا يحتمل أحد في العالم النظر في وجهك إلا أنا — وسأعوضك عن ذلك بحبِّي! ولكننا فقيران معدمان، ولن تكون الحياة سعيدةً من دون مال».

وبمجرد أن يتزوج من ديانا، سيمتلك مالاً كزبد البحر؛ لكتلهم. ويجب أن تتوقف علاقتهما على الفور. ووضعت قواعد صارمة لتصرفاته، وفرضتها عليه فرضاً. يجب أن تصبح ديانا مملوكةً مهملة، مجرد جوال أموال. وإذا تعرّضت للمعاناة، فسيكون ذلك أفضلاً.

وكانت ثمة تلميحات للطقوس التي تُجرى في غرفة الاجتماعات. فكانت قد اعتنقت هذه الديانة بالقدر نفسه من حماسة السيدة دو مونتيسبا. كانت تريد أن تُجري طقوساً شيطانية للحفاظ على عشيقها، ولكي تحظ في الوقت نفسه من قدر ديانا إلى وضع مُذلٍ كوضع زوجات المormون. كان المقرر أن تُجند ديانا في هذه الظلasm. كانت ستُحفَّزها تلك الأمور الخفية التي ستثير فضولها وحبها للمغامرة. وكانت ستُقنع بأنها قد ارتكبت الخطيئة التي لا تُغفر. وسيحوّلها الندم وخوفها من افتضاح أمرها إلى دمية.

كُتبت بعض الخطابات الأخرى عندما كانت إيفيلين ديفينيش في بوردو، وبعضاً منها عندما كانت وروبن ويستر تحت سقف واحد ومعهما مارييان تقوم على خدمتهم، والتي كانت تصف التطوير التدريجي للمؤامرة. بعدما تورّطت ديانا، كانت متراجدةً تارةً ومرتعبةً تارةً أخرى. كانت وكأنها تقف على حافة البحر، تغامر بوضع قدم في مياهه ثم تسحبها

مجددًا إلى دفء الرمال الصلبة، مفتونةً ومعذبة. لم تراودها أى شكوك في إيفيلين. وكانت تقول لها: «أعلم أنه يحبني. ولا يهمني على الإطلاق أى كان ما فعله في الماضي، أو أى علاقة كانت تربطه بها. وسانفذ كل ما يتمناه — حتى ذلك الأمر! — نعم، نعم». وضع هانو يده الضخمة على النسخ المطبوعة. وقال: «أصبحت تعرف الآن مسار الأمور. كانت هاتان الشابتان واقعتين في حب روبن ويبيستر، وخدعهما كلتيهما. كانت إيفيلين ديفينيش ستسمح له بالزواج من ديانا تاسبورو ما دام أمكنها الاحتفاظ به لنفسها. واحفظ هو بخطاباتها في الوقت نفسه. وكانت ديانا واثقةً بأنه يُحبها، وإن كان يعبد الشيطان، فستفعل هي المثل. وماذا عنه؟ روبن ويبيستر؟ لم يكن يهتم بأي منها على الإطلاق. لا، إنه «زير النساء»، وأن تكون «زير النساء»، يا صديقي، يعني أنه يجب ألا تُغُرِّم بأى امرأة. يجب أن تكون بلا رحمة، يجب أن يكن مجرد عوارض خشبية تحمل قضبان قدرك». ونظر إلى السيد ريكاردو وابتسمة غريبة مرتسمة على وجهه. قال: «هل علمت أن روبن هو أحد أسماء الشيطان؟ نعم. عرفت هذه المعلومة أيضًا عندما كنت في قصر رئيس الأساقفة أثناء بحثي في بعض الكتب القديمة. روبن أبيرون، وروبون فلان، وروبون علان ... إنه الشيطان نفسه، أليس كذلك؟» ونظر إليه مرة أخرى وهو يومئ برأسه بجدية، ثم قال في انفعال مفاجئ: «نعم، أنا أيضًا أسئل. إذا كانا أنا وأنت، وقد عركتنا الحياة وتخطيَّنا عنفوان شبابنا ورومانسيته بكل ما فيها، إذا كانا أنا وأنت نلتقط أنفاسنا بصعوبة ونهمس، «أنا أسئل»، أليس غريباً أن تقول هاتان الفتاتان، بعدما هاجت عواطفهن وانهارت أعصابهن، بدلاً من ذلك، «أنا أؤمن»؟ انظر إلى هذا!»

قلَّب بعض صفحات وعرض أمام عيني السيد ريكاردو فقرةً لم توضع خطوط تحتها.

وقال: «تذكر أن ديانا تاسبورو، التي أصبحت صديقةً لإيفيلين ديفينيش، قد تعرضت للتلعب من قبلها وكأنها سمة علقت في صنارة. ما نوع الشغف الذي كانت تسعى إيفيلين ديفينيش إليه حتى يمكنها كتابة ذلك إلى صديقها». وقرأ السيد ريكاردو الآتي: ما الذي أريدها أن تكون عليه؟ لم أفكِّر مرتين. أن تكون الكلب الذي يجري هنا وهناك حول سيده ورَسَنه في فمه. لم أجد صورةً مهينة أكثر من تلك.

شهق السيد ريكاردو عندما قرأ هذه النية المهينة، وشعر براحة غامرة عندما أدرك أنها لن تتحقق.

قال هانو: «هكذا سارت الأمور إذن، عندما فزعت جويس ويبل من الخطابات التي وصلتها من ديانا، أرجأت عودتها الملحقة إلى أمريكا، وذهبت دون دعوة إلى قصر سوفلاك.

ورأت جويس ويبيل تلك الرؤى الغريبة غير القابلة للتفسير، التي ذكرتها ديانا أكثر من مرة في خطاباتها، مجسدةً أمام عينيها. ما رأيك؟ نعم، غير قابلة للتفسير ... إلا إذا كنت تميل إلى تصديق أنه في بعض الأحيان، الأشياء الخفية من خارج»، وبحركة واسعة من ذراعه، لمح إلى انحناء القبة السماوية التي تُشبه قبة السجن، وقال: «من خارج هذا العالم، تكسر هذه القبة لكي تعاقب أو تنتقد.»

صاح السيد ريكاردو: «تنقد؟» فلم يكن قادرًا على تخيل كيف يمكن إنقاذ ديانا تاسبورو من مسؤوليتها الواضحة في جريمة قتل إيفيلين ديفينيش.

استطرد هانو في حزم: «نعم، تنقد. وهذا ما ستراه. ولكن، أولاً، عليك أن تعرف كيف قلب حضور جويس ويبيل الأمور من رأسها إلى عقبها!»

قال السيد ريكاردو في استسلام: «رأساً على عقب.»

رد عليه هانو في ود: «إذا أردت قولها بهذه الطريقة، فسأتنازل.» ثم وضع طرف إصبعه الضخم على جملة، وقال: «اقرأ!» واضطرب السيد ريكاردو إلى إبعاد إصبع هانو حتى يتمكّن من قراءة الجملة.

إنك تُحدّق فيها كما لو كنت صبيًّا مراهقاً يرمي فتاةً تصل ضفيرة شعرها إلى ما تحت خصرها. إنك تضطرب عندما تتحدّث إليك. وتففز عندما تقترب منك. إنك تبدو سخيفاً ... نعم ... سخيفاً يا روبن! ومرةً أخرى، بعد بضع جمل:

إنها ليست جميلةً حتى. ومن المؤكد أنها لا تملك أي مميزات أخرى. إنها ساذجة يا روبن، فتاة ساذجة تصلح لصبي ساذج. أوه، كنت أعتقد أنك جاد! ولكن هكذا سارت الأمور. لقد التقى روبن وبيستر بقدرها، كما كان الناس يقولون في بداية القرن التاسع عشر. فمنذ أن وقعت عيناه على جويس ويبيل للمرة الأولى، تحولَ اللهيб الذي اعتاد على أن يغرسه في قلوب النساء لينغرس في قلبه هو ويتملّكه. وأصبح مضطراً لأن يعطي الآن عندما كان يأخذ فقط. انطبعت صورتها على شبكيتي عينيه، وأصبح يراها أينما نظر. لم يتمكّن من إخفاء حبه لها، ولم يرحب في ذلك. كان نصراً حقّقه ويتمنى لو عرفه العالم بأسره.

«اسمك محفور على جبهتي وحاجبي.»

ضمَّ عقله عن همسات التعقل، وأعمى عينيه عن مظاهر الغيرة. وظللت ديانا، التي تعيش وضمادات أحلامها تغمي عينيها، غافلةً عما يحدث. وكانت غافلةً عن التغيير الجديد

المحظوظ في أوضاع المنزل وكذلك عن تغير طباع رفيقها. ولكن كانت إيفيلين ديفينيش ذات طبيعة مختلفة. وبدأت تلقي الاتهامات، والتوبيخات، والتهديدات تارةً وتتوسل بعنف تارةً أخرى. وفي نهاية المطاف، أصبحت جميع التهديدات تهدىً واحداً، وجميع التوسلات طلبًا واحدًا. وكتبت له تقول:

لم يعد الأمر محتملاً. لا أريد أن أهديك، ولكن يجب عليك أن تفعل ما أريد. لقد فقدت عقدي، وأنت تعرف أين ولماذا. ولن يكون من الصعب عليك استعادته. لم أعتقد للحظة أنها ستذهب إلى أمريكا. إنها تتوجه علينا. أنا واثقة بذلك. لقد رأيتها تتنصّت علينا. إنها تريد أن تستخدمنا رحلتها إلى أمريكا عذرًا لكي تفر بعدما اكتشفت ما تريده، ثم ستثير كل ما يمكنها إثارته من متابع حتى تتمكن من إنقاذ ديانا. أنا واثقة بذلك. ولكن يمكنك أن تستغل رحلة أمريكا باعتبارها عذرًا. إنها تقول إنها ستتسافر من بوردو إلى شيربورج. يمكنك أن تقابها بالسيارة إلى بوردو الليلة السابقة لرحيلها. ليس لديها أي أصدقاء هناك يُودّونها. عليك أن تعيد الأوضاع إلى نصابها الصحيح وإلا فسأفعل ما تريده هي أن تفعل. نعم، سأفعل. سأفضي القصة بأكملها ... قdas الشيطان، ومؤامرتنا بخصوص ديانا ... نعم، أفضل أن أفضح هذه المنطقة بأكملها ويفضح أمري معها بدلاً من أترك الأمور تتخذ المسار الذي هي عليه الآن. هل تعلم أنني ذهبت إلى كهف المومياوات اليوم؟ هل تذكر ذلك الصبي؟ أحلم بأن يحدث المثل لها! يجب أن تدفع ثمن إقحام أنفها في الأمر؛ ثمن إلقاء نفسها عليك. لا داعي لأن تظن أنها تهتم لأمرك. إنك لا تعني أي شيء بالنسبة إليها. سنجتمع جميعنا في ميراندول ليلة الأربعاء. يمكنك أن تهتم ببعض الترتيبات الطفيفة التي تبقّت هناك، ثم في يوم الخميس؛ يمكنك أن تذهب معك إلى بوردو. كان هذا الجزء الأخير الذي لفت هانو انتباه السيد ريكاردو إليه. أخذ هانو نسخ الخطابات وأعادها إلى حقيبه وأغلقها.

وقال: «إليك ما حدث في هذه الجريمة حتى اللحظة عندما بدأت جويس وبيبل قصتها. طلبت إيفيلين ديفينيش قتل جويس وبيبل مهديّة بفضح أمر الجميع، وكانت ديانا تأسبرو واقعًّا في متاهة من الخوف والإثارة، ووقع روبن وبيستر في حب جويس بجنون لأنه لم يقع في حب أحد من قبل، وفكّر في حل مشكلته بضربة سريعة من شأنها أن تورّط الجميع؛ ديانا، والقاضي، وكاساندر دو ميراندول. ولا يمكن لأحد أن يوجّه أصابع الاتهام نحوه. وتأمر الجميع على دفن هذه الجريمة بين الجرائم الغامضة التي حيّرت الشرطة. نعم، وكاد ينجح؛ لولا جرأة وتفاني صديقتك جويس وبيبل.»

ثم وقف بعدها أنهى حديثه ومدّ يده والتقط قبعته. إلا أن السيد ريكاردو لم يتحرك من مكانه. جال ببصره في أرجاء الغرفة حزيناً.

قال: «أنا آسف. كنت آمل أن تُبرأ ديانا من تورطها في هذه الجريمة بطريقة ما. ولكن بما أنها كانت حاضرة هنا في تلك الليلة — هنا في الغرفة التي كانت الأنوار تغمرها ...» ولم يكمل جملته. ولكنه نهض بدوره وألقى نظرةً الأخيرة على الغرفة. والتقت عيناه بالعينين المرسومتين على الجدار، وأصبح قادرًا الآن على النظر فيهما. وضع هانو يده على كتفه.

وقال بجدية: «يجب أن أريحك من التفكير. لم تكن ديانا تاسبورو هنا في تلك الليلة. كنت أنا من أخبرها بمقتل إيفيلين ديفينيش. هيأ بنا!»

أغلق باب غرفة الاجتماعات خلفه وسلم مفتاحها إلى الرقيب المسؤول عن حراستها.



## الفصل السادس والعشرون

### المكتبة

في مساء اليوم التالي، جلس أربعة أشخاص يتناولون العشاء في طاولة جانبية بجوار نافذة مطعم فايisan دور؛ جوليوس ريكاردو وهانو يجلسان إلى أحد جانبي الطاولة، وجويس وبيل وبرايس كarter يجلسان على الأريكة المبطنة المستندة إلى الجدار. كانت الأيام تقتصر. وكانت الأنوار قد بدأت تلمع حقاً من بين أوراق أشجار الليمون في ساحة كينوكس. لم تغب عن ذاكرة السيد ريكاردو تلك الأممية الأخرى المشحونة بالتوتر، والتي بدت، رغم حدوثها منذ مدة قصيرة، وكأنها حدثت منذ أمد بعيد بسبب كثرة الأحداث التي وقعت بعدها، عندما كانت سيارته تقف على الجانب المقابل من الطريق، وهانو يجلس مستنداً إلى الجدار يدخن سيجاراً تلو الآخر، بينما كانت حياة جويس وبيل معلقة بخيط يكاد ينقطع.وها هي الآن تجلس معه في المكان نفسه، ولا تزال ملامح وجهها الرقيقة تحمل آثار المحن المربعة التي مرت بها، وحلت أمارات الأسى محل أمارات المقدرة التي كانت تكسو وجهها في السابق. كانت لا تزال أنيقةً وتحيلة كعادتها في بدلتها ذات اللون البني الكستنائي المصنوعة من القماش المغربي، ولكن كانت عيناها الواسعتان الحالستان تنتظران باستمرار إلى حبيبهاجالس بجانبها، وكانت يدها تستند إلى ذراعه من وقت لآخر، وكأنها تطمئن نفسها أنه موجود بجانبها. كانت ثمة مزهرية موضوعة في مكان غير مناسب على الطاولة كما تقتضي عادات الطعام حتى لا يتمكّن أي من الجالسين حول الطاولة من رؤية الجالسين أمامه إلا عبر كسر رقبته. وصوّتوا بالإجماع على إزالتها من على الطاولة.

قال السيد ريكاردو بصوٍتٍ كزقرقة العصافير: «والآن!» وزادت الكآبة على الوجه الجميل الجالس أمامه عمقاً.

رد عليه برايس كارتر سريعاً: «الآن لتناول العشاء. إنها لحظة تستحق الاحتفال. ولن تكتمل الحياة من دون عشاء. نبدأ بتناول الكافيار. هذا هو الترتيب الصحيح. نحن نجلس الآن على ضفة نهر الفولجا. ونستمع إلى الأغنية الشهيرة التي تُنسب إلى قواربه؛ نرتدي البلوزات والقبعات المدببة، ونرقص بصعوبة بالغة ونحن ننتعل الأحذية الطويلة. ولكن كل هذا يمر. فسوف نتناول بعد ذلك حساء السلاحف. إننا نتناول العشاء الآن مع الأعيان، وعameda المدينة، والسيد كاتب المحكمة في دار البلدية، قبل منح وسام حرية المدينة إلى السيد جوليوس ريكاردو، المجل، مستمددين قوتنا من دسم حساء السلاحف، ثم ننتقل إلى طبق الكركند على الطريقة الأمريكية. وفي لمح البصر، سنجد أنفسنا واقفين على رصيف ميناء ناراجانسيت. وثمة شخص ما يُغنى. يصدق بأغنية «حسناء نيويورك» (ذا بيل أوف نيويورك). حسناً! دعونا نُصِّع إلى الكلمات التي لا مثيل لها والصوت الرخيم الرائع وهو يقول: «يا جميع الرجال اتبعوني عندما أخرج للتنزه مشياً». ما الطبق التالي؟ السمان. حسناً! أجد نفسي مختبئاً خلف سياج يوجد على الجانب الآخر منه حقل لفت لا يوجد به أي أثر لحياة. ومن بعيد يظهر صفات الرجال يحملون الأعلام البيضاء. ثم أسمع صافرة. وأقول لنفسي: «اقتلهم عندما يقتربون. أطلق النار عليهم!» ثم أسمع صوت الكثير من الأجنحة تضرب الهواء. هناك طيور سمان على الأرض أمام كل هدف فيما عدا هدفي أنا. وأقول لنفسي: «على أي حال، سيعطونني طائرى سمان لأرسلهما إلى زوجتي في الوطن، المسكينة التي ستقول من منطلق تقافتها لزوجها: «لقد اصطادهما برايس». وستُحْنَطُّهما وتضعهما في صندوق زجاجي.»

ضحت جويس وبيل.

وقالت: «إذا كنت أعرف هذه المرأة الشابة، فستقول، على النقيض: «من المؤكد أن هذين الطائرين الجميلين هدية من صديقي السيد هانو»..»

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه هانو ولوح بيده أمام وجه السيد ريكاردو.

وقال: «هذا تحديداً ما يريد المرء سماعه من الناس. لا أن يصعبوا على المرء حياته بسبب العبارات الاصطلاحية. لا! ولا يشعرون بالإهانة إذا ما أعطيت أمراً يسيرًا لسائقهم.

ولا يبحثون باستمرار في كل ما أقول عن قلة الذوق وكأنهم موظفو جمارك يبحثون عن جواوب حريرية. يا للهول، لا! ويقولون «هانو» بهذه الطريقة، وحرك رأسه وقبل أطراف أصابعه متصنعاً كما لو كان مغني أوبرا ثانوياً.

الأمر باختصار أن كلاً من برايس كارتر وهانو رأيا فيما بينهما أنه من الأفضل أن تتناول جويس عشاءها من دون أن تسمع أي شيء يحزنها فيما عدا دعاباتها السخيفة.

ولكن عندما نظرت بقايا الطعام من على الطاولة ووضعت أمامهم القهوة الساخنة، وخيم الظلام على الطريق في الخارج، بدأت تتحدث من تلقاء نفسها.

وقالت: «سأخبركم بما حدث لي، فحتى برايس، الذي سيطير عائداً إلى لندن بسبب عمله، لم يسمع هذه القصة بالتفصيل؛ منذ لحظة وصولي إلى قصر سوفلاك. ولكنني أعتقد أن العبارة التي استخدمتها ذات مرة، جعلت السيد ريكاردو»، قالتها وجّهت له ابتسامة عذبةً عبر الطاولة، واستطردت: «يشعر بقدر كبير من الحيرة. «يجب أن تعود سندريلا إلى منزلها قبل منتصف الليل». كانت هذه هي العبارة، أليس كذلك؟ أثار الأمر دهشته؛ إذ يفترض أن فتاتين أمريكيتين تتجولان بحرية في أوروبا، وفقاً للتصورات السائدة، لا بد أن تكونا من الأثرياء أصحاب الملايين. ولكنني لم أملك قط ثروةً تقدر بالملايين، أو شقيقتي. منذ ثلاث سنوات، لم نتمكن أنا وهي معاً من جمع مال يكفي لشراء سيارة أوستن صغيرة. كنا نعمل موظفين في مكتبة كبيرة في واشنطن، ورغم أن ما ورثناه من ممتلكات في سان دييجو في كاليفورنيا لم يكن كبيراً، فإنه مكّننا بالكاد من الوصول إلى حد الكفاف. كنا فتاتي عمل. كان ثمة أمين المكتبة الرئيس، ومساعد، وست فتيات موزعات لتولى الأقسام حسب الأبجدية.»

كانت ثمة نقطتان مهمتان في قصة جويس وبيل يجب على مستمعيها أن يضعوهما في الاعتبار. الأولى، أن حروف الأبجدية التي كانت جويس مسؤولةً عنها هي من «س» إلى «ف». وكان يجدر بها أن تُلم بالتعرف العملية عن الموضوعات التي تقع ضمن هذه الحروف، وقد كان. الثانية، أن البروف서 هنري بريور، صاحب مختبر العقاقير في ليدز، وصل إلى واشنطن خلال مدة عملها في المكتبة ليعمل على تكوين لجنة دولية لمكافحة تهريب الأفيون. وكانت دراساته تسوقه دائمًا إلى المكتبة، وبما أن الأفيون كان موضوع دراسته؛ فقد كان يقع ضمن قسم جويس وبيل. أصبحا صديقين، وعندما عاد بريور إلى موطنها، ترك خلفه دعوةً ودوّاناً بأنه سيكون رهن إشارة الفتاتين إذا ما ذهبتا إلى إنجلترا. واصلت جويس حديثها: «بعدما رحل البروف서 بريور بمدة قصيرة، اكتُشف النفط في أرضنا الصغيرة وحُفرت بئر. وأصبحت وشقيقتي – لا أقول إننا أصبحنا ثريتين بمفهوم الأثرياء الحالي – ميسورتي الحال. قررنا أن نزور بعض الأجزاء من العالم، فسافرنا من بلدنا لنطوف أوروبا. ولكن جفت البئر منذ عام. وكانت شقيقتي على وشك الزواج والعودة إلى الولايات المتحدة. وكان يجدر بي أن أقرر ماذا سأفعل. كانت خطتنا الأصلية أن نقضي عامين على هذا الجانب من المحيط الأطلسي، وكنت لا أزال أملك مالاً

يكفي لأن أكمل الخطة. هذا إن ظللت فتاةً مهذبة بالطبع». ثم صدحت ضحكتها وقالت: «كان يجدر بي أن أعود إلى بلادي على الفور أنا أيضاً، وأحافظ على ما تبقى لي من مال. ولكنني لم أكن أريد أن أفعل ذلك. كنت أريد أن أكون طائشةً بينما لا أزال شابةً لكي أستمتع بكل لحظة متعة ومرح. بعد ذلك، كنت سأعود إلى قسم من س إلى ف. كنت سأعود إليه هذا الصيف. وكانت المكتبة ستقبل بعودتي مجدداً. كان هذا ما أعنيه عندما قلت للسيد ريكاردو: «يجب أن تعود سنديريلا إلى منزلها قبل منتصف الليل». كان منتصف الليل قد اقترب كثيراً بالنسبة إلى. ولكنني كنتأشعر بقلق متزايد على ديانا، وحصلت على إجازة من واشنطن لكي أوجّل عودتي لشهر آخر».

ارتجلت عندما تذكرت الأيام الفظيعة التي شملها هذا الشهر، ثم عادت تنظر إلى برايس كارتر وابتسمت.

قال السيد ريكاردو في تكلف: «أجل. هذا صحيح تماماً. دائمًا ما تأتي أحلك الساعات قبل بزوغ الفجر».

حدّق برايس كارتر عبر الطاولة محاولاً أن يتأكد من أن أذنيه لم تخدعاه. ولكنهما لم تخدعاه. فقد كان السيد ريكاردو يجلس وتبعد عليه أمارات الإحسان والرضا. فكان قد قاطع بإشارة مختصرة واحدة ارتجاف جويس ويبيل وابتسماتها. وكرر برايس كارتر نظراته إلى مواطنه لما تبقى من الأممية، علىأمل أن يعاود رؤية تصرف أحمق آخر بيعث في نفسه الرضا والتسلي.

واصلت جويس حديثها قائلة: «وصلت إلى قصر سوفلاك قبل أسبوعين من وصولك. وكانت قد دعوت نفسي إلى هناك عبر التلغراف، وعندما قادني جولس أمادييه إلى الشرفة في عصر يوم وصولي، وجدت، بالإضافة إلى ديانا بالطبع، كلاً من إيفيلين ديفينيش، والسيد دو ميراندول وروبن ويبرستر مجتمعين حول صينية شاي. وبعد بعض دقائق، أصبح واضحًا أنهم قد تجمعوا ليُلقيوا نظرةً سريعة على؛ أعني»، وقالت موضحة لهانو: «ليفحصوني».

رد هانو: «عبارة إلقاء نظرة سريعة أفضل. فهي عبارة متداولة بين النخبة في نيويورك. نعم. هل مصدرها هي باوري؟ نعم. حسناً، سأستخدمها».

كان كلُّ من برايس كارتر وجويس ويبيل قد اندمجا بشدة في محيط هانو خلال الأسبوعين الآخرين، واكتفيا بقبول وعده باستخدام تعبيراتهم المألوفة بامتنان، دون الخوض في نقاش حول الحي السكني الخاص برموز المجتمع الراقي في نيويورك.

اقترح السيد ريكاردو قائلاً ببرود: «ربما من الأفضل أن تدع جويس تحكي قصتها دون أن تقاطعها.»

فحنى هانو رأسه، وقال: «من الآن فصاعداً سأعقد لسانني الثثار،» وكان قد استمتع بالمزيد من الأحاديث مع سائق السيد ريكاردو.

قال السيد ريكاردو: «هذا يكفي. أكملي يا جويس!»  
وأكملت جويس.

«خلقت حولي جواً من الاضطراب. فكانت ديانا عصبية، وكانت تغرق أحياناً في عالم الأحلام. وأصبحت فجأةً غريبة عنها. وأصبحت غير مرغوب بي فجأةً بالنسبة إلى إيفيلين والسيد دو ميراندول. وعلى التقىض منهم، أبدى لي رو宾 وبيستر اهتماماً كبيراً. وكان حظي تعسّاً أني أعجبت به منذ الوهلة الأولى.» وتحت عيني السيد ريكاردو الباردتين، كبح هانو جماح نفسه بصعوبة بالغة. «استمرّت هذه العلاقة طوال الليل. وتناول شابان من المنطقة العشاء في القصر، ورقصنا بعد ذلك في الشرفة على الأنغام الصادرة من الجرامافون حتى دقت الساعة الحادية عشرة. كان رو宾 وبيستر يشعر بالاضطراب، فلم أكن أريد أن أرقص معه رغم أنه بارع في الرقص. وبينما كنت أرقص معه، كنت أرى إيفيلين ديفينيش ترمقني في مقت. وعندما كانت قريبةً مني ومن رو宾 وبيستر، رفضت رفضاً قاطعاً دعوته لترقص معه، وقالت رافعةً صوتها حتى يصل إلى رو宾 وبيستر: «الجو حار. يجدر بي أن أذهب إلى الهر.»

ثم هبطت درجات السلم، وانتظرت من دون أن تُدير رأسها، ثم سارت وحيدةً عبر المرج. لم يُد رو宾 وبيستر أي اهتمام. وكانت ملامح وجهه خاليةً من أي تعبير وكأنها ملامح قناع. وضعت ديانا في غرفة المكتبة أسطوانةً جديدةً وأدارتها.

وقلت مخاطبةً رو宾 وبيستر: «يجب أن تتركي. لم آت إلى هنا لأنّي مشكلات. اذهب من فضلك!» وأوّلأت في اتجاه فستان إيفيلين الأبيض الذي كان يشع على العشب المظلم. تبعت عيناً وبيستر الاتجاه الذي تُشير إليه عيناي. ولم أَر في حياتي وجهاً تتصلب عليه ملامح الاستياء مثل تلك التي رأيتها في تلك اللحظة.

وقال: «إنها لا تعرف الفارق بين سيد الرجل وعشيقته، ويجب أن تعرفه.» شعرت بالخوف منه، فتفجّرَ تعبير وجهه على الفور. وأصبح يائساً ومتوسلاً. وقال: «تعتقدين أن هذه كراهية لها! لقد بلغ مني التعب مبلغه. جل ما أبغض في هذا العالم هو أن أجعلك تكرهيني.» ومسحتني عيناه من قمة رأسي حتى أخمص قدمي؛ بطريقة مقينية! كان

يحفظ في ذاكرته شكلي وملابسني. ثم قال بشغف مفاجئ جعلني أُجفل: «كل ما عليك فعله هو أن تقولي كلمةً واحدة، وسألتك هذه الرقصة وأذهب إلى إيفيلين». ولكنني لم أكن لأقع في هذا الفخ. إذا ما قلت الكلمة، كنت — كيف يمكنني أن أصوغ ذلك؟ — كنت سأدخل في علاقة، ولكنني قيدت نفسي بالالتزام. وكان سيأتي لي ويقول متسللاً: «عندما أمرتني بأن أضحي بنفسي، فعلت. والآن، عندما أطلب منك أمراً تافهاً، تخذليني». لا، لم يكن أي من ذلك مفيداً لجويس ويبيل. فأجبت سريعاً: «لا يهمني أن أتدخل على الإطلاق، ولقد رقصت معك كثيراً كما يبدو. وأكره أن أكون لافتةً للنظر. ليلة سعيدة!»

ثم استدرت نحو ديانا وأخبرتها بأني متبعة وأنني سأشهد لأنام. نظرت ديانا إلى اللحظة كما لو أنها ليست واثقةً بمن أكون وما الذي أفعله في منزلها. ثم استفاقت. وقالت: «سأصعد معك إلى غرفتك لأتأكد من حصولك على كل ما تحتاجين يا جويس. كم أنا سعيدة أنك وفرت بعض الوقت لتزوريني في منزلي!»

ثم وضعت ذراعها في ذراعي، أما روبن وبيستر الذي كان يلاحقني خشية أنني قد أتخلى عنه؛ فقد تجرأ على أن يسألني، بصوت متهدج كممثٍ يؤدي دور عاشق في مسرحية موسيقية كوميدية: «ولتكن ستعودين! سأنتظرك هنا. سنرقص رقصة الفالس الرائعة. لقد كتبها شتراوس من أجلي ومن أجلك!»

أسرعت ديانا مصطحبةً إياي إلى غرفتي، وألقت نظرةً سريعةً عليها وقالت: «نعم، لديك كل ما تحتاجين». وفي اللحظة التالية، سمعتها تundo هابطة الدرج.

في ذلك الوقت، كنت أشعر بتعب شديد، وكأي شابة ذات صحة جيدة، غرقت في النوم بطريقه طبيعية بمجرد أن دخلت الفراش حتى لحظة دخول ماريان غرفتي حاملةً القهوة. ولكن، كما تعلم، أتيت إلى قصر سوفلاك لهدف معين، ولم يقل قلقي على الإطلاق مما رأيت تلك الليلة. بل على النقيض. لم تكن ديانا على طبيعتها التي أعرفها، الأمر الذي ألقاني كثيراً. ورأيت أن السيد دو ميراندول من المستحيل التعامل معه، وأن روبن وبيستر لا يُحتمل. ولكن راودني أيضاً شعور بأني ربما كنت أنا المتسببة في ذلك، وأن مؤامرةً كانت تُحاك لإيقاع ديانا وتسبّب حضوري في إفسادها.

لا بد أنني غفوت بينما كنت أفكّر بقلق في هذه المشكلات، ولكنني لم أكن مستغرفة في النوم حتى إن همّة بعض الأصوات تحت نافذتي كانت كافيةً لإيقاظي. كان القمر قد توسط السماء في ذلك الوقت وكانت غرفتي منيرةً لدرجة أنني تمكّنت من قراءة الوقت من

ساعتي دون أن أضيء الأنوار. كانت الساعة تُشير إلى بعض دقائق بعد منتصف الليل. كان صوت الجرامافون قد اختفى. ولم أسمع أي أصوات على الإطلاق فيما عدا تلك الأصوات التي تهمس وتُهمّهم في الشرفة، ومن وقت لآخر كنت أسمع كلمة «صه! صه!» عندما كان صوت أي منهم يرتفع قليلاً. ثم سمعت اسمي يُنطَق. «إنها ستبقى لأسبوعين. إنها ستُسافر من هنا إلى أمريكا مباشرة.»

لم أخطئ صوت السيد دو ميراندول الرفيع الحاد، وكذلك مخارج ألفاظ روبن وبيستر الدقيقة الذي ردَّ على ما قيل. إنها لن تعيق طريقنا. لقد رتَّب ديانا الأمر بحيث تأخذ الغرفة العلوية عن قصد. «سرعان ما سمعت «صه! صه!» من الصوت الثالث.

جلست في سريري. يجب ألا أعيق طريقهم. يجب ألا أعيق طريقهم إلى ماذا؟ أصغيت بكلتا أذني. ولكن خفت الأصوات مجدداً، ولم أتمكن من سماع شيء إلا «صه! صه!» من وقت لآخر غير واضحة.

لم أعد مهتمة بالسلوكيات المهدبة أو غير المهدبة، لم أتمكن من تحمل المزيد من ذلك. فتسلىت خارجَة من الفراش وزحفت على يدي وركبتي حتى وصلت إلى النافذة. ورفعت رأسي بحدٍ شديد للغاية، ونظرت نحو الشرفة. كان ثلاثة أشخاص يقفون عند حافة الشرفة تحت ضوء القمر، ولم يكونوا يقفون تحت شرفتي مباشرة، ولكن نحو اليمين قليلاً، أمام نافذة غرفة الاستقبال. وكانوا السيد دو ميراندول، وروبن وبيستر، وإيفيلين ديفينيش. على الرغم من أن الجرامافون توقف عن العمل، كانت غرفة الاستقبال لا تزال مضاءة، وكانت إيفيلين ديفينيش تراقب الباب المفتوح بعينين ثاقبتين. كانت تقف حارسة مولية ظهرها إلى الحديقة، وكانت هي من يطلق التحذير الهامس باستمرار. لم تكن مهتمةً بمرآبة نافذتي على الإطلاق. كان ثمة شخص في غرفة الاستقبال يقترب من الباب الزجاجي، ولكنه عاد ليبتعد. لا ريب في أنهم كانوا واثقين بأنني أنام سريعاً.

سمعت اسم يوم يُذكر ثم يوم آخر. قال روبن وبيستر: «بالطبع، الأربعاء أو الجمعة. كلما كان أقرب، كان أفضل.»

فرد السيد دو ميراندول: «الأربعاء إذن. سأستغرق بعض الوقت في إخبار الأشخاص المناسبين. ثم سأجهّز كل شيء.»

ولكن كانت ثمة نبرة تردد في صوته. وبذا لي بكل وضوح أن السيد دو ميراندول كان قلقاً. فالأمر، أيًّا كان، يفقد سريته. وكان هذا خطراً. فالأشخاص الذين يعرفونه، يعرفونه

جيداً، ومن المستحيل إنكاره أمامهم، قد يُصررون على الحضور، ولتحقيق أغراضهم الخاصة. وبدأ يوبخ إيفيلين ديفينيش. فكانت قد تحدثت بلا اكتئاث في بوردو، واستغلت امرأة «مخيفة» ذلك وأدخلت نفسها بينهم عنة. ودافعت إيفيلين عن نفسها. سمعت اسم كوريسو، وهز السيد دو ميراندول كتفيه كأنه رجل عاركته الحياة، وقال بوضوح كان غريباً على صوته الحاد العالي النبرة: «أوه، جين كوريسو! أنا لا أرفضها! فوضعها مختلف. ولكن ليس المرأة العجوز!» ثم وصلت عبارة إلى أذني ووختها.

قالت إيفيلين: «ولكن سيرتدى الجميع أقنعة». قال روبن ويبيستر: «فيما عدائي.» واستطرد السيد دو ميراندول حدثه قائلاً: «والمنزل الذي سنستخدمه هو منزلي أنا.» وعلى الفور سمعت: «صه! صه!» بإصرار أكبر هذه المرة.

وقالت إيفيلين ديفينيش: «إنها قادمة.» فقال روبن ويبيستر: «يجب أن أنصرف بسرعة إذن.» ما الذي أوحى إليَّ بأنه استغل هذا العذر لكي ينصرف؟ وقال في عجل: «ليلة سعيدة.» وبينما كان يستدير للسير على طول الشرفة نحو أحجمة الأشجار ومنزله، قيلت جملة كشف الكثير. ربما كنت لأظل أستمع إلى تلميحات وإشارات على مدار ١٠٠ عام دون أن أقترب من كشف الحقيقة قيد أنملة. ولكنها اتضحت أمامي فجأة، محيرةً ورهيبة، فرقدت خائفةً على الأرض متواريةً خلف الجدار.

قال السيد دو ميراندول مطلقاً ضحكة حادة: «ليلة سعيدة يا صديقي جيبور.» ضحك روبن ويبيستر ضحكةً خافتة، واستدار مواجهًا نور القمر بوجه حمل فجأةً أمارات الخبث، وزاد إصراره عندما سمع اعترافات إيفيلين ديفينيش على ما قيل. هذه المرة همست قائلة: «اصمت من فضلك!»، وللمرة الأولى خلال ذلك الحوار الهامس، رفعت عينيها نحو نافذتي. في هذه اللحظة، رقدت على الأرض حتى لا تراوني، آملةً أنها لم تكن قد رأتني حقاً. طمأنت نفسي بفكرة أنها حتى وإن رأتني فستكون واثقةً بأنني لن أستطيع أن أفهم شيئاً من تلميح دو ميراندول.

لم تكن تعرف أنني عملت في مكتبة كبيرة، وأن القسم الذي كنت مسؤولةً عنه من س إلى ف. وحرف «س» يتضمن موضوع «السحر» وكان يجب عليَّ أن ألمَّ إلماً عملياً بهذا الموضوع؛ الكتب التي تحوي معلومات عن موضوع بعينه وعلى أي رف توجد. قال السيد دو ميراندول: «نيافة القدس جيبور! ليلة سعيدة، نيافة القدس جيبور!» كان يضحك وهو يقول الاسم، وضحك روبن ويبيستر وهو يحييه، وربطت الاسم بالأمر الغامض الذي سيحدث يوم الأربعاء القادم. كان ثمة جيبور واحد؛ القدس السمعة الذي كان يُجري

قداسات الشيطان. الأربعاء القادم أيضًا! هذا هو الموعد. الأربعاء أو الجمعة. حدد السيد دو ميراندول أحد هذين اليومين الأسبوع القادم، وهذا اليومان مكرسان لتلك الطقوس الشيطانية. يجب أن أكشف سر ديانا على الفور، وأعرف شغفها، وسبب لامبالاتها؛ نعم، وتنبؤاتي أيضًا. على الرغم منها، أخبرتني عباراتها التافهة التي كتبتها في خطاباتها لي بأن شيئاً من عالم آخر قد تحرر، من العالم الذي تقف روحها عند حافته وحيدة.

رفعت رأسي مجدداً بحدار شديد. ورأيت أن ديانا قد انضمت إلى السيد دو ميراندول وإيفيلين، وأن روبن وبيستر قد اختفى بين الأشجار. وأضحى الثلاثة المتبقون يتهدّثون بانفتاح. وعادوا إلى داخل المنزل بعد بضع دقائق. سمعت الباب الزجاجي ينغلق، ورأيت النور الأصفر يختفي من غرفة الاستقبال ومن أرضية الشرفة. وسلم المنزل وحديقته إلى نور القمر. ولم تكن ثمة أنوار أخرى إلا أنوار تخلّلت أغصان الأشجار المظلمة التي تحف الطريق، أتت من النافذة العلوية لشاليه روبن وبيستر».

حذفت جويس ويبيل من قصتها الرحلات والأوقات العادبة التي ملأت أيام وليلالي تلك المجموعة الصغيرة المقيمة في قصر سوفلاك. وواصلت ذكر الأحداث التي تتعلق بها. كانت قد أرسلت إلى كوفنتري ببناءً على طلب إيفيلين ديفينيش والسيد دو ميراندول الذي لا يغادر منزله أبداً. وأصبح روبن وبيستر ملازمًا لها باستمراً، وكانت السيدة تاسبورو، التابعة، تُمتع نفسها بسلطتها التي اكتشفتها حديثاً. كل ليلة، كان يأتي أشخاص من المنطقة ليتناولوا العشاء ويرقصوا، ولعب القدس فاوريه الورق مرّة أو مررتين في قصر سوفلاك. أما ديانا، فكانت بمعزل عن الآخرين، لأن عصابة أحلامها تعمي عينيها. وصل بها الأمر إلى حد اللامبالاة بخدمة منزلها، وغفلت عن تلك اللمسات الصغيرة التي كانت تقدمها لضيوفها، وبالتالي، وجدت جويس نفسها تتولى تلقائياً مسؤولية إعداد الكوكتيلات والمشروبات الليلية التي تُقدم قبل أن تنقض المجموعة في نهاية الأمسية.

في الليلة الثالثة من زيارة جويس، وقع حدثان مهمان. كانت ترقص مع روبن وبيستر متربدة، وقادها إلى نهاية الشرفة بعيداً عن الآخرين. وتوقف فجأة.

وقال بصوٍت محموم: «لا يمكنني أن أحتمل أكثر من ذلك. يجب أن تأتي إلى الحديقة لتحدي معي. إنني أمر بوقت عصيب». ثم أبعدها عنه، وتحصّنتها عيناه مرّة أخرى بجشع من قمة رأسها حتى أخْمَص قدميها بطريقة شعرت معها أنه أهان شرفها. لوحظ بيديها وقالت ببساطة: «سأتي». واستدارت لتكون بجانبه وهبطت الدرج معه نحو الحديقة.

قالت جويس: «كان الموقف كريهاً، ولكنني خشيت أن يفعل شيئاً مقرضاً يسبّب لي فضيحة، ومن ثم سيكون عليّ أن أرحل من سوفلاك بسببيه. سرنا عبر المرج نحو السياج الذي يفصل الحديقة عن شريط المستنقعات المجاور للنهر، ثم استدرت نحوه. فقال على الفور وفمه يرتعش وتتلاعث كلماته: «كما ترين، لا يمكنني أن أخفي مشاعري أكثر من ذلك. حتى هذه اللحظة، كان من السهل، بل والممتع، ترك مختلف الأمور تسير كما هي، لو كنت تفهمين ما أقصد»؛ لم أجد صعوبةً في فهم ما يعنيه. كانت سمتها المذهلة هي صراحتها، إذا أخذنا هدفه بعين الاعتبار، وأعني بذلك نفسي. ربما لم يدر بخلده قط أنني ربما أؤمن بموضوع آخر يقع ضمن الأحرف من س إلى ف؛ الزواج بأمرأة واحدة.

واستطرد قائلاً: «أصبح الأمر عصيّاً على للغاية. لا يمكنني تحمل إخفاء الأمر ... ولا أريد لهم أيضاً ... أريدك أنت ... وأنت ... وأنت ... وأريد العالم بأسره أن يعرف. جويس! أذرع غرفتي جيئةً وذهاباً نصف الليل مكرراً هذا الاسم. جويس! جويس! كنت أعتقد أن الإنسان لا يمكن أن يحتاج إلى إنسان آخر بهذه القوة الجارفة دون أن يجد ذلك الإنسان الآخر نفسه مدفوعاً للاقتراب. كنت أتوقع سماع صوت خطوات قدميك على الحصى، وأن أرى الباب يُفتح وأجدك تقفين على عتبة وعيناك الواسعتان مليئتان بالتساؤل. كنت أعلم طوال الوقت أنني أحمق، وأن النجاح في العلاقات مع النساء يتطلب أن يحافظ الرجل على عقله، وأن يتظاهر بأنه يفقده. ولكنني لا أستطيع أن أتمالك نفسي. أنا كرجل في الجحيم. لا أريد شيئاً من هذا العالم إلا رشفة ماء؛ أنت يا جويس، أنت!» ومديده المرتعشة نحوه، ثم سحبها، ثم بسطها مجدداً.

كنت متزعجة أيضاً. لم أجرؤ على الضحك لأنني كنت في حضرة حيوان مفترس. وكان هدفي الوحيد هو منع وقوع الكارثة لأطول مدة ممكنة، إلى ما بعد يوم الأربعاء من الأسبوع القادم، أيًّا كانت الوسيلة. غمغمت بي بعض كلمات لا معنى لها: «لم يحدث مثل هذا الأمر لي من قبل. لم يقل لي أحد من قبل إني ضمن من يهمه أمرهم، ناهيك عن أن أكون الأهم»، ولحسن الحظ، في تلك اللحظة جاءت إيفيلين ديفينيش تعود هابطةً الدرج من الشرفة وعبرت المرج نحوها. في تلك اللحظة، كان رو宾 ويبيستر هو من قال: «صه! صه!» انصرفت على الفور، وكانت أشعر بخوف أكبر مما تخيلت، وتسللت إلى غرفة الاستقبال، وكانت خالية.

جلست لبعض لحظات أشاهد الرجل والمرأة يرقصان في الخارج، ثم انضمت إلى ديانا. جلست بجانبها وعلى وجهها ابتسامة محرجة، وبدأت على الفور تتحدث معي في عجل.

قالت: «سأخبرك بأمر يا جويس. أمر لم أخبر به أبداً من أصدقائي بعد. لذا، عليك أن تحفظي به سراً في الوقت الحالي. لا أريد نصاً وتدخلـاً من أناس ليس لهم في الأمر ناقة ولا جمل. وربما لن يعرفوا عن الأمر شيئاً حتى يتم. سأتزوج من روبن ويبيستر».

جفلت مما قالت، ولا ريب في أن وجهي أظهر ذلك جلياً. فقد واصلت حديثها سريعاً: «أنت مندهشة، ولكنك لا تعرفينه حق المعرفة. إنه رائع، رائع بحق».

قلت محاولةً الاعتراض مرتبكة: «ولكن ... لكن ... هل أنت واثقة بهذا القرار ... أعني أنت ثرية، وهو ... يبدو أن لديه صديقات حقاً، أليس كذلك؟»

لم أكن حذرةً تماماً، ولكنني كنت مندهشةً لدرجة أني لم أتمكن من كبح جماح نفسي لأصوغ الكلمات بطريقة مهذبة. ولكن لم يبدُّ أن ديانا شعرت بالإهانة على الإطلاق. بل استقبلت اعتراضاتي بهدوء تام.

وردت قائلة: «أعرف ما تقصدين. إنه على علاقة وثيقة مع إيفيلين ديفينيش. ولكنه يحبني أنا». من المستحيل أن أتمكن من وصف الطريقة اليسيرة والشديدة السفاهة التي كانت تتحدد بها. وشعرت بأنه لا توجد حجة من شأنها أن تثنينا عن قرارها. وقالت: «منذ وصولك يا جويس، كان يبدي بعض الاهتمام بك أيضاً. إنه يُغلف الأمر بالكثير من السواتر لكي يُصعب من إمكانية تخمينه حتى ترغب نحن في كشفه».

قلت لاهثة: «متى ستتزوجان؟»

أجبت: «الشهر القادم». ثم أطل من ملامح وجهها تعبير غريب للغاية، مزيج من الفخر والخوف. وقالت: «لا يمكنني أن أخبرك بكل شيء. لقد جرى انتقامـاً، أنا وهو وبعض أناس آخرين. إنه سر رهيب. كان مخيـفاً في البداية؛ وربما لا زلت خائفةً قليلاً. ولكن بمجرد انحراف المرء في الأمر، فإنه لن يتراجع عنه حتى وإن استطاع. إن ذلك معتقد، ولا ريب في أن الناس الذين لا يفهمونه سيمـسكون بـنا ويرجمونـا، ولكن هناك الكثير جداً من أمثالـنا، ليس هنا فقط، بل في باريس وإيطاليا. والأشخاص الذي يسلـكون الطريق القوية عادةً ما ...» ثم صمتت بحثـاً عن عبارة مناسبـة، وعادت تقول: «ينالون العـقاب، أليس كذلك؟ هذا من ثوابـت هذا العالم أيضـاً: الثورة والشغـف بدلاً من الـزهد، عـالم زاهـي الألوان ومفعـم بالـحياة بدلاً من عـالم رمادي بـارد».

كانت ملامح وجهها قد تغيرت. وكانت تتحدث بصوت خافت أثّر فيه الانفعال، وكانت قَسَمَات وجهها تختلج، وصدرها يعلو ويهبط وكأنها أنهت سباقاً الآن، ويداها تمزقان خيوطاً صغيرة من فستانها. في تلك الغرفة الهادئة المطلة على النهر المتلائِع عبر الحديقة الهادئة، ومع عزف الجرامافون في المكتبة لألحان رقصة الفوكستروت الشهير، جلست كعايدة دفعتها مشاعرها إلى حالة من الحماس المفرط. وفجأة، لطمت عينيها بيديها وانفجرت باكية.

وصاحت فجأةً بصوت بايس وعاجز: «أوه، أنا خائفة، أنا خائفة...» قبل أن أنطق بكلمة، نهضت وأسرعت خارجةً من الغرفة.

ظللت جالسةً في مكانٍ وبارقة أمل تبرغ في ذهني. رأيت أن دو ميراندول وإيفيلين ديفينيши مؤمنان بهذا المعتقد بحق. وكانت أعلم جيداً أن عبادة الشيطان لا تزال موجودةً في كل مكان في عالم غرف الاستقبال بالقدر نفسه من وجودها في العالم المكون من الغابات والأدغال البرية. ووُسم كلُّ من دو ميراندول، المنحط الخائب الرجاء، وإيفيلين ديفينيши، أكثر امرأة عصبية رأيتها على الإطلاق، ليكونوا من أتباعها. أما روين ويبستر، فوضعه مختلف. إنه المتلاعب الخبيث الذي رأى في هذه العبادة سلاحاً وفرصة. سيتمكن من الزواج من ديانا تاسبورو. نعم، ولكنه يريد جاريةً وليس زوجة. ومن منطلق إيمانها بأنه كاهن الشيطان الأعلى، ستكون طيّعةً مثل الطين الجاهز لتشكيله. ويكمّن الأمل الوحيد الذي أمثلكه لأنتمّكن من إفساد خططه المحكمة في نوبة بكاء ديانا المفاجئة والكلمات التي تلتها. إنها خائفة. لذا، من الممكن إنقاذهما. ولكن كيف؟ كنت لا أزال أفكّر في إجابة عن هذا السؤال عندما افتحت الباب المؤدي إلى الرواق وعبرته إيفيلين ديفينيши. وعبرت الغرفة في اتجاهي في خط مستقيم بوجه شديد الشحوب والجمود.

وسألتني: «لقد التقى ديانا الآن خارج هذه الغرفة، وكانت تبكي. ما الذي قلت لها؟»، فأجبتها:

«فلتهتمي بشئونك!»

قالت: «سأفعل»، وأوْمأت لي ونظرة غريبة تُطل من عينيها، ثم خرجت إلى الشرفة. عند هذه النقطة، طلبت جويس المزيد من القهوة، ولم تكن على استعداد للاستمرار في حكي قصتها إلا بعد أن انتهت من شربها وأشعلت سيجارة.

## الفصل السابع والعشرون

### إلهام مستمد من القناع

ولكن حتى في مثل هذا الموقف، لم يستطع هانو إلا أن يتدخل. وقال ملوكاً بيده في الهواء: «لتبيّن كل شيء بمنتهى الوضوح. سأطرح الأسئلة». ردت عليه جويس: «ما هي؟» ومالت نحوه وقطّعت جيئنها قليلاً في تركيز.

كان هناك بعض الأجزاء غير الواضحة في قصتها، كانت تدرك أنها لن تتمكن من الإجابة عنها. على سبيل المثال، لماذا يثير بعض الرجال، من النوع الذي يمقته الرجال الآخرون، الحب الأعمى في قلوب النساء. وما سبب كون عشق الأوثان والآلهة الزائفة سرمدياً. ولم يُنحَّ كل ما هو نقى وطيب السمعة جانباً مفسحاً المجال لكل ما هو كريه. لم تكن تملك أى تفسيرات لتقولها. لم يكن بمقدورها إلا أن تقول: «إن حال هذه الأمور في سوفلاك كالحال في كل مكان». ولكن لم يُثْر هانو أياً من هذه المعضلات المحرية.

وقال: «عندما خرجت للمرة الأولى إلى شرفة القصر، هل رأيت دو ميراندول والسيدة

ديفينيش؟»

«نعم.»

«وهل ألقوا عليك نظرة سريعة؟»

«نعم.»

«وفي تلك الليلة، مع روبن وببستر، هل أعجبت به على الفور؟»

احمرَ وجه جويس وأجابت بخجل: « يؤسفني أني فعلت.»

قال هانو معتذراً: «لم أقصد أن أزعجك. إني أحارو أن أثبت الحقائق في ذهني. والآن، كما سيقول السيد ريكاردو، أكملي من فضلك.»

ولكن صاح السيد ريكاردو معرضاً ومؤنباً. وقال: «جويس، لا تسمحي لهم بمضايقتك. إنه لم يكن يحاول أن يثبت الحقائق في ذهنه. إنها موجودة في ذهنه منذ أيام

عدة. لا، إنه يحاول أن يثبت العبارات في ذهنه، وأؤكد لك أنه سينتقم ويستخدمها بفخر في غير مواضعها.»

لَوْح هانو بيده في تسامح. وقال: «حسناً، حسناً، إن استخدامات هذه العبارات كثيرة. أكمل من فضلك يا آنسة ويبيل!»

وعادت جويس لتكمل قصتها مجدداً. كان شغلها الشاغل هو كيفية إنقاذ ديانا من تلك العصابة الشيطانية، رغمما عنها، وكيفية تفكيرها وجعل أصحابها يوارون وجوههم وأسماءهم في مجاهل الأرض، وكيفية فعل ذلك من دون التسبب لها في الفضيحة والخزي. قالت: «ظللت أفكر طوال الليل، وبزغ الفجر دون أن أتوصل إلى حل. ولكنني توصلت إلى قناعة. يجب أن أعرف بنفسي كل ما سيحدث في أربعة الأسبوع القادم في منزل السيد دو ميراندول. كنت واثقةً بنفسى، ولكنى لم أكن أثق في أي شخص لأحكى له القصة. يجب أن أحفظ جميع الطقوس بالضبط حتى لا يشك أحد أننى أقول الحقيقة. الأمر باختصار هو أنه يجب أن أكون حاضرةً في منزل السيد دو ميراندول، يجب أن أكون شاهدة عيان على ما سيفعلون، وعلاوةً على ذلك، يجب أن أمثل دليلاً لإدانة الأشخاص من قصر سوفلاك الذين يشاركون في طقوس العريبة المرعية تلك. أوه، كنت أعلم يقيناً أن خطتي خطرة؛ أي أنها ستُعرضني للخطر. ولكنني فكرت أنه بمجرد أن أمثل الدليل الذي أريد، فمن مكان بعيد، عندما أصبح في أمان، يمكنني أن أهدم بفضح الأمر برمته، وفي ظل هذا التهديد، يمكنني أن أُملي عليهم شروطى. أوه، أعلم أن هذا لا يتسم بالشجاعة، ولكنني مضطورة لأن أنقذ ديانا إذا أمكن من دون أن أسبب لها أي ضرر.»

قال هانو برفق: «آنسة، إني لأرجو بامتلاك المزيد من هذا الجبن.»

ابتسمت جويس ويبيل له في امتنان. وقالت: «لقد أطربتني كلماتك، وسألتك إلى قصتها. وكانت: «كنت أعتقد أنني قادرة على الحصول على الدليل. وذهبنا سيراً على الأقدام إلى قصر ميراندول في اليوم السابق لنحتسي الشاي ونشاهد المكتبة. سرنا على طول الطريق الذي يمر بمباني المزرعة، وصعدنا التل ودخلنا فناء القصر عبر بوابة صغيرة في السياج العالى. كانت طريقاً طبيعية تبدأ عند قصر سوفلاك، وأصبحت واثقةً بأنه الطريق الذي سُيستخدم يوم الأربعاء. حينئذ، كنت على صلة وثيقة بالبروفيسير بريور، كما تعرفون جميعكم. بينما كان في الجيش، كان يخدم في واحدة من فرق الاستخبارات، ومن بين القصص الكثيرة التي قصها عليًّ عن تلك المدة، كانت القصة الآتية. قبل

انتفاضة الأيرلنديين، كان الألمان يتصلون بالقادة الأيرلنديين عند الساحل الغربي عن طريق غواصاتهم. وكان ضروريًا تحديد هويات هؤلاء القادة، وكان ثمة منزل خالٍ يُطل على جرف منعزل يُشتبه في كونه مكان لقاءاتهم. ولكن، اتّخذ الكثير من الاحتياطات والكثير من الحيطة خلال أوقات انعقاد تلك اللقاءات، ولم يكن لأي غارة أي فرصة في النجاح. ولم تكن لتجد كائناً حيًّا واحداً بالقرب من هذا المكان. ومن ثم، أعد البروفيسير بريور خليطاً من غاز الخردل والورنيش، والذي إذا ما ملسته، فإنه لن يمسك بضر طوال ساعة أو نحوها، ولكن بعد تلك المدة، ستظهر تقرّحات على يديك لا يمكن علاجها طوال ستة أسابيع. نُقل البروفيسير إلى الساحل الغربي على متن مركب صيد رسا في ليلة حالكة عند شاطئ قاعدة الجرف. وتسلّق الجرف وطلى البوابة الصغيرة المؤدية إلى الداخل الأمامي بهذا الورنيش. ولم يكن على السلطات بعد ذلك سوى الانتظار ثم القبض على كلٍّ من تظهر تقرّحات غير قابلة للعلاج في راحة يده. تذكرت هذه القصة خلال الليلة المؤرقّة التي قضيتها، وفي صباح اليوم التالي، أرسلت رسالةً إلى ليذر أطلب منه أن يرسل إلى بعضاً من هذا الورنيش في شحنة مسجلة، وأخبرته بسبب حاجتي لها.

كانت خطوتي التالية أكثر صعوبة إلى حدٍ ما. فبسبب شكوى السيد دو ميراندول من إفشاء سرية الطقوس، كان ثمة ذكر لحضور المجموعة الطقوس مرتدین أقنعة، ومرة أخرى طمأنّني قسم المكتبة من س إلى ف بامتلاكه حلاً جيداً. كنت أتساءل عما إذا كان من المفترض أن يكون القناع كافياً أم أنهم سيتّنكرون تتكراً كاملاً. وأملت أن يفعلوا الأمر الثاني. كان من المنطقي أن أفترض أن تجديداً من هذا النوع يجب أن تُجرى طقوسه في ساعة متأخرة من الليل بعد أن يكون العالم قد خل إلى النوم. وسيجتمع المشاركون سراً، وسيكون من السهل بالنسبة إلى أن أتسلل هابطًا الدرج، ثم أخرج عبر الأبواب الزجاجية لقصر سوفلاك وأصعد التل وصولاً إلى ميراندول مثلما سيفعل الجميع. ولكن بمجرد وصولي، سيتغير الوضع تماماً. يجب أن أكون شديدة الحذر، وأن أفلد ما يفعله الآخرون دون أن أرتكب خطأً يلتف أنظار الجميع نحوّي. ولكن إقامتي في سوفلاك استمرت لأسبوعين كاملين. هل سيكون القناع وسيلة تنكر كافيةً بالنسبة إلى؟ لا سيما فيما يتعلق بروبن ويبيستر، كاهن القدس، الذي يجعلني عيناً أرتبك بشدة عندما تفحصانني بطبع من قمة رأسٍ حتى أخص قدمي. هل أرتدي عباءة تنكر؟ من المؤكد أن أتمكن من الحصول على واحدة وعلى قناع في مدينة كبيرة مثل بوردو بكل سهولة.

فكرت في طريقة لأن أتأكد. كانت غرفة نومي، كما تعلمون، تقع فوق غرفة ديانا. ووُضعت في هذه الغرفة بِناءً على اقتراح من إيفيلين ديفينيش حتى لا أعيق طريقهم ليلة

الأربعاء. ولكن كان هناك سلم حلزوني أمام باب غرفتي يؤدي إلى الطابق الأرضي بجانب باب غرفة ديانا تماماً. تحينت الفرصة عندما خرجت ديانا من غرفتها، وتسللت إليها لأكتشف، إذا ما استطعت، ما الذي سترديه. وفي حال عودتها المفاجئة، فإن الفرار إلى غرفتي سيكون سهلاً.

سُنحت لي الفرصة بعد يومين. ذهبت إيفيلين ديفينيش وروبن ويبرستر إلى بوردو في سيارة صغيرة ذات مقعدين ليتناولوا الغداء هناك ويقضيا اليوم، وفي عصر ذلك اليوم، خرجت ديانا والصيّدة تاسبورو في سيارة كبيرة في زيارة واجبة لعائلة في أركاشون. ومن ثم، فكرت أن الخطر الوحيد هو أن تخرج ماريان من مطبخها وتُمسك بي. لذا، فحصت ملابس ديانا بأقصى سرعة ممكنة. ولكن كان عليًّا، بالطبع، أن أعيد تطبيق وضع كل شيء في المكان نفسه حيث وجدته بالضبط، واستغرق هذا الأمر ثلاثة أرباع الساعة حتى وجدت في قاع أحد الأدراج بدلة صبيانية محملية سوداء، ورداءً كهنوتيًّا قصيراً من المخمل القرمزي، وبعباءة تنكر سوداء لتطييthem. وكان هناك صندوق كرتوني أبيض.

فتحت الصندوق، وحبست أنفاسي. فقد كنت على وشك الصرخ. كان في الصندوق قناع كريه للغاية بشفاه أرجوانية ووجه شاحب وشعر أحمر لامع، تعرفونه جميعكم. وصُعقت. نعم! وجرؤت بالكاد على لمسه. كان متقداً للغاية، والحزن باهٍ جلياً على ملامحه التي تحمل في الوقت نفسه أمارات الشر. بدا وكأنه حي بطريقة ما أو بأخرى».

كانت جويس تتحدث همساً، وكان وجهها شاحباً وجبينها مقطباً، كما لو أنها تعيش لحظة اكتشاف القناع هذه مجدداً. قالت: «انتابني خوف غير عقلاني من أنني إذا لسته، فسوف يهاجمني، سيقفز على وجهي ويسبّ لي ضرراً شيطانياً، وربما يقتلني. شعرت فجأة بأني وحيدة للغاية في تلك الغرفة المشمسة الصامتة، وإذا فجأةً أرى زنبوراً على أحد ألواح النافذة فتشعرت بفزع جنوني. وتملّكني الذعر. وغموري شعور مُلحٌّ بأني يجب أن أهرب، أن أذهب إلى أي مكان بعيداً عن هذا المنزل الملعون، وأن أتركه وكل من فيه خلفي إلى الأبد، قبل أن يفوت الأوان. لعلكم تعرفون ما يفعله العصابيون عندما يتلفتون حول أنفسهم وينظرون خلفهم ليروا ما إذا كان هناك من يقترب من خلفهم متسللاً. وفجأة، رأيت نفسي في المرأة أفعل ذلك، وتكسو وجهي أعني أمارات الرعب. أعاد لي هذا المشهد بعضاً من تعقلي. وشعرت بالخجل من نفسي. وطرأ على فكرة غريبة، كنت في حالة مزاجية تكتنفي فيها الأفكار الغريبة، وهي أنني إذا ارتدت القناع، فسيذهب عني الخوف، بل وقد يهبط على إلهام من شأنه أن يساعدني.

أخرجت القناع من الصندوق بحذر شديد وارتديته. لم يكن يحتاج إلى أي أربطة. فقد كان مناسباً تماماً لمؤخرة رأسه، والتتصق على نحو محكم بوجهه. نظرت إلى نفسي في المرآة. وكان من المذهل أن شخصية مغايرة تماماً أصبحت ملائمة لي مجرد ارتداء القناع. كانت عيناي موجودتين تلمعان عبر الرموش الطويلة الرقيقة المنحنية، ولكنني لم أتمكن من التعرف إليهما أنهما عيناي. كان كل ما عليّ فعله هو أن أرتدي ثوباً لم يرني أحد في سوفلاك أرتديه من قبل، وأن أُعد فيه قليلاً كي يجعلني أبدو أكبر سنًا، ومع وجود قناع مثل هذا على رأسي وجاهي، فلن يمكن لوالدتي نفسها أن تتعرف إلى.

نعم، ولكن لم أكن لأتمكن من الحصول على قناع مثله. فهذا القناع من صنع يد فنان حقيقي، قناع مثالي كأنه أحد قصائد هوراس الغنائية. وهبط على الإلهام في لمح البصر. يمكنني أن أحلف محل ديانا! إن التوب نفسه يوحي بأنها ستشارك حقاً في الطقوس. ستكون مساعدة الكاهن التي تهز المبخرة. إذا ما تمكنت من أن أحلف محلها، وخرجت سالمةً بعد ذلك! فسأمتلك زمام الأمور، ولن يصيب ديانا أي ضرر. يمكنني تهديدهم، ويمكنني فضحهم، وإذا كان القانون يعاقب على ارتكاب هذه الرذيلة، يمكنني أن أساعده في إزالة هذا العقاب، ولن تمس ديانا بسوء. هذا لو تمكنت من أن أحلف محلها! وفي اللحظة التالية للإلهام، وبينما كنت لا أزال أقف أمام المرأة أنظر إليها عبر فتحتي عيني القناع، خطرت بيالي وسائل تنفيذ ذلك. لقد تجسست تلك الوسائل أمام عيني.

لن أقول إنني لم أكن أرتعد رعباً. فقد كنت أرتعد رعباً حقاً. كنت أعلم أنني لن أحصل على مثقال ذرة من رحمة من إيفيلين ديفينيش إذا ما سقطت عاجزة بين يديها. اقشعر جسدي بينما أقف في مكاني. ولكن لم تكن القشعريرة بسبب الخوف وحده. بل بسبب الانفعال أيضاً.

خلعت القناع متربدة؛ فقد تخيلت أنني عندما أخلعه سيختفي الإلهام معه، وستتحول خطتي إلى حماقة. ولكنني لم أفقد أيهما. وظلت أمسك القناع في يدي حتى أصبحت واثقة ببقائهما. ثم أعددت القناع إلى داخل صندوقه الكرتوني، وأعدت كل شيء إلى مكانه، وخرجت من الغرفة خلسة. كان المنزل لا يزال خالياً. ذهبت إلى أريكة عند نهاية الحديقة، وجلست عليها أفكّر في خطتي خطوة بخطوة محاولة أن أفكّر في كل عيوبها، وفي كل احتمال لفشلها. وبالطبع، لم يدر بخالي تلك الجريمة الرهيبة التي أفسدتها تماماً.

جاءت تلك الليلة بشري. فقد خمنت أن إيفيلين ديفينيش لم تكن تذهب إلى أي مكان من دون خزين من الحبوب المنومة. وأخبرتها بعد العشاء بأن النوم يجافيني في

سوفلاك، وأن هذا حدث لأنني لم أكن أتناول العقاقير التي وصفها لي الطبيب، وأنني لا أعلم كيف سأحصل على منوم يستحق أن أتناوله. في البداية، ضحكت إيفيلين ديفينيش مزدريةً براءتي. ولكنها توقفت عن الضحك. ونظرت إلى بي طريقة غريبة، ثم بدت مسحة من السرور على وجهها.

وصاحت قائلة: «يمكنني أن أساعدك بالطبع». كان تخميني صائباً. قالت: «لدي بعض بلورات الكلورال. سأحضر لك بعضًا منها». وأسرعت نحو غرفتها. أعتقد أنها فكرت في أن تناولى منوماً قوياً في ليلة الأربعاء فكرة جيدة. وسانحَ عن طريقهم تماماً. تأكَّد اعتقادِي هذا عندما عادت وفي يدها علبة ورقية صغيرة. وأصرَّت بشدة على أن أُخبرها في الصباح بتأثير هذه البلورات على. وقالت: «يجب أن تذيبها في الماء بالطبع. لقد أعطيتك جرعة صغيرة تحسباً لأي مضاعفات. ولكن من المهم أن تخبريني غداً بتأثيرها عليك».

وعدتها بأني سأخبرها، وأخذت البلورات وذهبت إلى غرفتي. إلا أنني بمجرد أن وصلت إلى غرفتي، خفت أن أستخدمها. ولكن كان يجب أن أستخدمها. لم أكن أعلم أي شيء عن المواد المنومة. لطالما كنت أنام كرضيعة طوال حياتي. لم تكن لدى أدنى فكرة عما إذا كانت الجرعة ضعيفة أم قوية، أو حتى إذا كانت الجرعة التي أعطتها لي قوية للغاية. نعم، كان هذا الخوف يؤرقني بشدة. راقبت البلورات وهي تذوب في الماء تحت ضوء المصباح المجاور لفراشي، وتساءلت عما إذا كنت أذيب كميةٍ تكفي لإزاحتني عن الطريق إلى الأبد. وتخيلت عيني إيفيلين ترمقاني بسخرية: كانت قد رمقتني بقدر كبير من الازدراز. من ناحية أخرى، ربما كانت تُجربَ الجرعات المناسبة، مثلما أفعل تماماً. كانت تحاول اكتشاف كمية الكلورال المطلوبة لكي ينام المرء بعمق ولا يمكن لشيء أن يؤرقه ليلة الأربعاء، مثلما أفعل تماماً. دخلت إلى فراشي، وشربت كوب الماء كاملاً متعجلة. شعرت بالذعر بعدما انتهيت من الشرب، وحاولت بلا جدوى أن أمنع نفسي عن النوم. وكانت أقول لنفسي: «لن أنام. لن أنام». ما ذكره بعد ذلك هو أنني كنت أنظر إلى ساعتي في ضوء النهار وأدركت أن الساعة تُشير إلى الحادية عشرة والنصف وقهوة موضوعة على الطاولة المجاورة لفراشي وقد بردت تماماً. شعرت برأسِي ثقيلاً إلى حدٍ ما، ولكن دون أي أعراض أخرى، وببدأت أشك فيما إذا كانت الجرعة ستكون فعالةً لو كنت بطبيعتي سريعة الاستيقاظ. ومن ثم، كان كل ما قلته إلى إيفيلين:

«نعم، لقد نمت أفضل كثيراً. ولم أستيقظ أكثر من مرة.»

أومأت إيفيلين ديفينيش برأسها.

وقالت: «حسناً، سأعطيك منّما أقوى المرة القادمة. ولكن ليس الآن. إذا ما اعتدت على تناول هذه المواد، فستفقدن تأثيرها. ستحصلين على المزيد من البلورات بعد أسبوع من الآن، إذا ما ذكرتني بذلك.»

بعد أسبوع بالتحديد، سيحل يوم الأربعاء الذي يجب إزاحتني عن الطريق فيه. شكرتها بامتنان شديد على عطفها. لا ريب في أنها اعتتقد أني حمقاء؛ فقد دخلت في شركها بإرادتي.

كانت الخطة تسير على خير ما يرام حتى ذلك الوقت، ولكن كان ثمة إجراء احترازي آخر يجب أن أتخذه. كنت أعلم أن طقوس قداس الشيطان يجب أن تلي قداساً حقيقياً، وكان يجب أن أتعلّمها. لذا، واظبت على الذهاب إلى الكنيسة الصغيرة في سوفلاك طوال الأسبوع التالي، ويسفني أن تركت لدى القدس فاوربيه انطباعاً بأنه بصدّ هداية فتاة من الولايات المتحدة تملك أموالاً طائلة. في الواقع الأمر، كنت أراقب عن كثب كل حركة يفعلها الصبي القروري الصغير الوحيد الذي يؤدي دور مساعد الكاهن. كانت ثمة حركات من الصعب على المرء تذكّرها. فقد كانت تتناسق في بعض الأحيان مع حركات القدس، وفي أحيان أخرى كانت تتناقضها، مثلما يتحرّك الراقصون وشركاوهم، ولا أقصد بذلك الاستهانة بتلك الأمور الدينية. ولكن، بحلول يوم الأربعاء، وبفضل ذهابي إلى الكنيسة والتدريب في غرفتي، شعرت بأنني قد أنجح. في صباح يوم الثلاثاء، وصلت الشحنة المسجلة من ليذر، وبهذا، أصبح كل شيء جاهزاً.»

أخذت جويس ويل شهيقاً عميقاً وكأنها قد وصلت إلى المرحلة الأخيرة من مغامرتها وجلست وعينها تحدقان في الطاولة. كانت ثمة زجاجة من مياه إيفيان تقف في منتصف الطاولة. لست ذراع حبيبها وطلبت كوبًا من هذا الماء.

قال هانو في لطف: «يا آنسة، إذا ما كانت ذكريات تلك الليلة تسبّ لك الإزعاج، فلا تدعينا نزيد من ازعاجك بجعلك تحكينها لنا هنا. فللأسف، سيكون عليك أن تحكها مرةً أخرى.»

ردّت قائلة: «في محكمة الجنائيات. أعلم ذلك، وأعترف لك بأنني خائفة من فكرة حكيها على الملأ أمام الأعين المحدقة بي. ولكن سيساعدني حكيها أولاً بين أصدقائي في الاستعداد لتلك المحنّة. ستصبح قضيّ أكثر ترتيباً وتكرارها أقل تعذيباً.» وشربت كوب الماء كاملاً وواصلت الحكي.



## الفصل الثامن والعشرون

### ليلة الأربعاء

«في يوم الأربعاء، وبعد تناول الغداء، انتحنيت بإيفيلين ديفينيش جانبًا في الشرفة وأفزعتها بشدة عندما قلت لها: «هذه الليلة الموعودة، أليس كذلك؟»

اتسعت عيناهما عن آخرهما في رعب، وشحب وجهها بشدة.

وتعلمت قائلة: «الليلة الموعودة؟ الليلة الموعودة لماذا؟» وانتظرت إجابتي في ترقب.

كنت مستمتعةً بجعلها تنتظر متحيرةً ومهاجةً لأطول مدة ممكنة.

كررت متظاهرةً بالدهشة: «ماذا؟ أوه، لا يمكن أن تكوني نسيت! لا أصدق ذلك.»

ومع كل جملة جديدة أقولها، كانت قدرتها على التظاهر تضعف أكثر فأكثر، حتى أصبح وجهها يُشبه عيني قناع أبيض جامدتين تلمع الكراهية فيهما. ولا ريب في أنني فكرت بينما كنت أنظر لها: «سأنتنّغر على هيئتها تلك». ولكنني أدركت في الوقت نفسه أنني لم أكن حصيفةً بما يكفي. فسارعت بالقول:

«لقد وعدتني بإعطائي منوّماً الليلة يا سيدة ديفينيش. وظللت متشوقةً للحصول عليه طوال الأسبوع.»

عادت الحمراء تكسو وجهها مجددًا. وردت قائلة: «بالطبع، لم أكن قد نسيت. سأعطيك إياه بالطبع يا جويس.» ثم تغيّرت نبرة صوتها. وقالت: «أريد منك أن تسديني خدمةً في المقابل. مجرد خدمة صغيرة. قد أبدو سخيفةً بالنسبة إليك. وربما أنا كذلك حقًا. ولكنني أؤمن بالخرافات.» ثم أسلكت نفسها وكأنها قالت أكثر مما يجب. وعادت تقول: «أريد منك أن تعيريني شيئاً ترددت عليه باستمرار، سوارًا على سبيل المثال.» وأشارت إلى السوار الذهبي الذي يحيط بمعصمي. وقالت: «سأعيده لك في الغد.»

لا ريب في أنني بذلت مندهشة. ولم أتخيل سبب رغبة شخص يؤمن بالخرافات في الحصول على سوار. إنه ليس تميمة، أو شيئاً من المفترض به أن يجلب الحظ الحسن مثل

سوار من شعر الفيل. لم يكن سوى شريط من الذهب به حجر أوبال ناري عند مشبكه. ولكنني فككته وأعطيته إياها.

وقلت في سرور: «بمقدورك الحصول عليه بطبيعة الحال». أخذته إيفيلين ديفينيش من يدي بطريقة أقرب إلى الخطف. ثم نظرت نحوه هي أيضًا في سرور، ولكنه نوع خفي من السرور، كما لو أنني أكثر امرأة حمقاء في العالم لأنني تركتها تأخذ السوار.

انتظرت إلى ما بعد وقت الشاي في الحديقة، فلم تكن قد رُتبت أي جولات في ذلك اليوم، ثم تسللت إلى خارج الحديقة خلسةً لأنمشي، وكان الورنيش معنوي، وفرشاة طلاء صغيرة، وقفاز سميك في حقيبة يدي. سرت بمحاذة طريق التل وصولاً إلى البوابة الصغيرة في سياج حديقة ميراندول الطويل. لم أتمكن من رؤية أحد في نطاق بصري. فارتديت القفاز السميك، وطلت ملاج البوابة وعمودها وعوارضها بدقة وسرعة. ثم لففت الزجاجة والفرشاة والقفاز معًا ودستهم عميقاً داخل السياج في المكان حيث وجدهم السيد هانو، على ما أعتقد».

اكتفى هانو بإيماءة توكيid. فلم يكن ذلك وقتاً مناسباً لقول العبارات الشائعة الاستخدام. وببدأ ضيق غريب يزحف على جمهور جويس الصغير. وشعر كلّ منهم بأنه يشهد بأم عينيه تلك الأحداث التي يسمعها تُقص فحسب. كان كلّ منهم حاضراً في قصر سوفلاك ذي اللون الزهري الفاتح يشاهد الفتاة الوحيدة الرقيقة القلب تشن حملتها على قوى الظلم، الأمر الذي أصابهم بالقشعريرة. كانت هناك تجلس أمامهم، ولكن تفگكت جدران المطعم المتواضع الخشبية ووجدوا أنفسهم يرافقونها في مغامرتها الخطيرة. بينما كنت أرتدي ملابسي لذهب لتناول العشاء، طرقت إيفيلين ديفينيش بباب غرفتي ودخلتها.

وقالت: «إليك المنوم الذي طلبت. لقد أضفت بعض بلورات أكثر من المرة السابقة. ولكن ليس الكثير. سأتناول الكمية كاملةً لو كنت مكانك».

ثم وضعـت العلبة البيضاء في يدي وخرجـت من الغرفة. كانت العلبة أثقل بكثير من العلبة التي أعطـتها لي سابقـاً، وكانت خائفةـ من استخدام ما تحـويه. أذـبت حـوالي ثلاثة أربعـ بلورـات في كـمية صـغـيرـة من المـاء بينما كنت أضعـ اللـمسـات الأـخـيرـة على مـلـابـسي، وصـبـبت المنـوم بـحرـص في زـجاجـة دـوـاء صـغـيرـة، وأـغلـقت الزـجاجـة بـسـدادـتها وأـخـفـيتها في أحدـ الـأـدـارـاجـ. ثم نـزلـت لأـتـناـولـ العـشـاءـ، ووـجـدتـكـ حـاضـراـ». والتـفـتـتـ نحوـ السيدـ رـيكـارـدوـ مـبـتسـمةـ. ثمـ قـالـتـ: «لـقدـ تـسـبـبـتـ لـيـ فيـ صـدـمةـ كـبـيرـةـ بـعـدـ ذـلـكـ، رـغـمـ أـنـكـ لـاـ تـدرـكـ أـنـكـ فعلـتـ،

ولكن في تلك اللحظة، كنت سعيدة برؤيتك. لقد كنت وحيدة من قبل، أما الآن، فثمة شخص يمكن أن يساندني.»

قال السيد ريكاردو شاعرًا بأنه مستعد لفعل أي شيء الآن بعدها لم يعد ثمة خطر محقق: «نعم، نعم! ثقي بأنني كنت سأساندك». ولكنه لم يكن يعرف كيف تسبّب في ازعاج جويس وبيل. لا بد من أن جويس مخطئة. من الطبيعي أن تكون ذكرياتها عن تلك الليلة مشوّشة.

وأصلت جويس حديثها قائلة: «استفضلت في الترحيب بك أنت تحديداً؛ فقد كان جميماً متعصبين في تلك الليلة، باستثناء روبن وبيستر. فقد كان هادئاً وواثقاً كما لو أنه لا يوجد في ذهنه ما يشغل سوى التشكك في أن الأمطار ستهطل في الموعد المناسب لزيادة محصول العنب. أما بقيتنا، فكنا منزعجين، وعندما وصل القس فاوربيه وتحدث عن ملابس القس التي سُرقت، أعتقد أنها كانت جميماً على حافة الانهيار. وأدركت أنني ارتكت خطأً فادحاً عندما صحت: «لست أنا من يوزع البرودة!» وفهم جميع الموجودين في غرفة الطعام، فيما عدا الخدم، والصيّدة تاسبورو، والسيد ريكاردو، تلميحي. لقد بحث بمعرفتي للسر الرهيب الذي يكتنف هذه العائلة الصغيرة بوضوح تام وكأنني وقفت وصحت به بأعلى صوتي. أذكر أن إيفيلين ديفينيش، بعدما ذهب عنها الرعب، نظرت بظفر عبر الطاولة نحو روبن وبيستر. كانت تعبيرات وجهها تقول بوضوح أكبر من الكلمات: «بم أخبرتك؟ إنها تعرف سرنا.»

وبالطبع، كان هناك اجتماع صغير في الشرفة بعد العشاء ضمها هي وروbin ويبستر ودو ميراندول. ولكن لم يكن ثمة ما يجعلهم يعتقدون أنني أعرف ما خطّطوا لفعله في تلك الليلة، أما في الغد، فقد رتّب إيفيلين ديفينيش ما ستفعله بي. خشيت للحظة أنهم قد يؤجّلوا القdas إلى يوم الجمعة. فلم أكن أمتلك عذرًا للتغيير ترتيباتي. وكان يجب أن أرحل في الصباح. ولكن بعدما انتهى الاجتماع، قال دو ميراندول بصوته العالى: «في تمام الواحدة إذن». تبعت كلماته صيحة استثناء خافتة أطلقتها إيفيلين ديفينيش، فأضاف: «غداً»، وضحكوا جميعاً.

لن تتغير الترتيبات إذن. لقد شرحت لكم كيف أني كلفت نفسي خلسةً بمهمة إعداد المشروبات للمجموعة. ذهبت إلى غرفتي عدواً، وأحضرت الزجاجة الصغيرة التي تحتوي على المنوم، ووضعتها داخل منديلي، وعدت إلى غرفة الاستقبال في اللحظة نفسها التي كانت فيها السيدة تاسبيورو تتراءى على ديانا طالبةً منها أن تعد مشروباً ليلىً من أجل

القس. وسيتذكّر السيد ريكاردو أن ديانا كانت آخر من يدخل الغرفة، وطلبت مني براندي مع الصودا. كانت الطاولة موضوعة في مكان جعلني أولي ظهري للغرفة. أزلت سادة الزجاجة الصغيرة، وصبت بعض البراندي في الكوب، ثم أملت الدورق بيدي اليسرى وصبت الصودا في الكوب. في الوقت نفسه، كنت أمسك الكوب على الطاولة بيدي اليمنى، وتمكنت من إفراغ محتويات الزجاجة الصغيرة في كوب البراندي تحت غطاء الضوضاء التي أحدها الدورق. بعد ذلك مباشرة، انصرف القس فاوربيه والأشخاص الآخرون الذين لا يُقيمون في المنزل، وذهب كلُّ منا إلى غرفته. ولم يكن الوقت قد تأخر.» وافقها السيد ريكاردو قائلاً: «نعم. أذكر أن الساعة كانت تشير إلى الحادية عشرة إلا ١٠ دقائق عندما بدأت في الاستعداد للنوم.»

قررت أن أنتظر لساعة ونصف قبل أن أتسلل نازلةً إلى غرفة ديانا. خلعت فستاني وارتديت جوارب سوداء وحذاءً أسود، وارتديت رداء نوم، كل هذا بسرعة محمومة. ولكن لم يتبقَّ لي ما أفعله بعد ذلك، ولم أكن أدرك أن الزمن يزحف بهذا البطء الشديد. وبمرور كل دقيقة من تلك الدقائق التي بدت وكأنها لا نهاية لها، كان إحجامي عن المضي قدماً في المخاطرة التي تنتظرني يزداد. كنت أتخيل نفسي وقد انكشف أمري وتنزع قناعي عن وجهي. وتخيلت إيفيلين ديفينيش تشمّت بي وتُتشبع كراهيتها لي. ولكنني كنت أشعر بأنها، رغم كل ما سبق، ليست في قسوة دو ميراندول بشفتيه الحمراوين ووجهه الضخم البدين. وبدأت أشعر بالنعاشر مجرد رؤية فراشي بملاءاته البيضاء المطوية بعناء. وبدأت أفكّر: «بفرض أنني خلدت إلى النوم، فلن يمكن أن تخرج ديانا من المنزل الليلة. هذا مؤكد، وهذا هدفي الرئيس.»

ولكن، لم يكن هذا الهدف الرئيس بالطبع. كان الهدف الرئيس إفساد أي فرصة أخرى لتكرار ما يحدث الليلة في ظل وجود ديانا. ولكن كانت دعوة الوسائل لي لأنام تزداد إلحاحاً، وكانت تصبح غير قابلة للمقاومة إذا لم تشتعل في داخلي شارة مفاجئة من الخزي عندما فكّرت في أن جميع خططي وقراراتي المحكمة ستذهب هباءً منثوراً إذا لم أظلَّ فاتحةً عيني. فقفزت واقفةً وأطفأت الأنوار. لن أتمكن من البقاء مستيقظةً والملاءات البيضاء والوسائل تصرخ فيَّ ألا أكون حمقاء. أما في الظلام، دون أن أكون قادرةً على رويتها، فسأكون أكثر قدرةً على البقاء مستيقظة. وكانت محظوظةً أنني أطفأت الأنوار. وبعد بضع دقائق، بينما كنت أجلس على حافة الفراش، سمعت صوت خطوات أقدام على الدرج الحجري خارج باب غرفتي. كان هناك من يتنصّت خارج باب غرفتي ليتأكد

من أني نائمة، وربما كان هذا الشخص إيفيلين ديفينيش. وعلى الفور، تيقّظت وأصبحت واثقةً بأنني تأخرت، وأنه كان يجب أن أكون الآن مرتديةً ملابسي وأقف جاهزةً في بيتي المنزل. كنت أخشى أنها قد تدخل غرفة ديانا، وتنصتُ لأسمع صوت باب يفتح ويغلق، أو صوت صرخة فزع، أو صوت أقدام مسرعة. ولكن بعدما مرت بضع دقائق، فتحت باب غرفتي، وكان المنزل صامتاً لدرجة أني شعرت بأنني أستطيع سماع صوت فار يتحرك. كنت قد أغلقت مصاريع النوافذ وأسدلت الستائر عليها عندما صعدت إلى غرفتي أول مرة. أضأت الأنوار مجدداً ونظرت إلى ساعتي. وكانت تشير إلى بضع دقائق قبل الثانية عشرة والنصف. تسلاشت إلى الطابق السفلي وفتحت باب غرفة ديانا بحذر شديد. كانت أنوار غرفتها لا تزال مضاءة، ولكنها كانت مستلقيةً في فراشها بالفستان الذي كانت ترتديه، تتنفس بانتظام وتغط في نوم عميق. وضعت لحافاً عليها، وأخرجت من الدرج البذلة المحمولة، والرداء الكهنوتي، وعباءة التنكر، والقناع، وبينما كنت أستدير نحو الباب، رأيت حزماً ملفوفة بورقبني موضوعة على الطاولة. اعتقدت أنها قد تكون شيئاً يتعلّق بالفستان الذي من المفترض أن ترتديه. فككت الحزمة ووجدت أنها الرداء الكهنوتي الأبيض ذو حواف الدانتيل الذي رأيت مساعد القدس يرتديه في أيام خاصة أثناء القداسات الكاملة المراسم. أضفته إلى كومة الملابس التي معي، وأطفأت الأنوار، وأخذت المفتاح من ملاجئ الباب، وأغلقت الباب خلفي بالمفتاح بعدما خرجت من الغرفة. لم أكن أريد أن تدخل إيفيلين ديفينيش الغرفة في اللحظة الأخيرة وتتجد ديانا نائمة. وإذا ما حاولت فتح الباب، فقد تعتقد أن ديانا قد خرجت حقاً إلى مكان اللقاء وأغلقت بابها حتى لا يبعث أحد بغرفتها.

في تمام الواحدة إلا ١٠ دقائق، كنت قد ارتدت الملابس ووضعت القناع على وجهي، وتسلاشت خارجةً من باب المنزل الأمامي وأسرعت على الطريق نحو مبني المزرعة. كانت هناك سيارة توقف على الطريق دون أن يضيء أي من أنوارها. كان روبن وبيسستر يجلسون دون تنكر خلف عجلة القيادة، وبجانبه امرأة؛ إيفيلين ديفينيش. فتحت الباب بجانبها، ولكنني كنت قوية الملاحظة لأرى أن الحظ كان يحابيني. لوحَت بيدي وكأنني أقول لها: «إجابتي هي لا». وصعدت إلى المقعد الخلفي. لم يُلحّ روبن وبيسستر أو إيفيلين في دعوتهما لأنّ أجلس بجانبهم، وانطلقت السيارة مسرعةً على طول الطريق عابرةً المرعى وصاعدة التل في اتجاه البوابة. تركتهما يخرجان من السيارة أولاً، وكانت لا أزال أقف على عتبة النزول من السيارة عندما سمعت سباباً من وبيسستر وصيحة ضيق من إيفيلين ديفينيش.

تلطخت يدا كل منها ببعض من الورنيش الذي حصلت عليه من البروفيسور، وعندما وصلت إليهما كانا يحاولان فركه من على أيديهما بالمناديل. قال روبن ويبيستر: «انتبهي إلى البوابة. إنها لزجة.» مرت من خلفه وخلف إيفيلين ديفينيش، وركت البوابة بقدمي. كنت أريد من كلّ من يستخدمون البوابة هذه الليلة أن يفتح مزلاجها بيده. كان المدخل الأمامي للمنزل مفتوحاً والمر مضاءً. وأظهر لي الضوء المتسلل عبر الباب أن هناك مجموعات صغيرةً من الناس، وكشف الضوء عن قناع وعباءة ملفوفة كالكفن. كانت هناك أيضاً أنوار في المكتبة في الدور الأرضي، وكانت ظلال أشخاص يتجللون فيها جيئة وذهباء تسقط على الحصى في الخارج. كان التجمع أكبر مما توقعت، ورأيت لوهلة أن ذلك يبعث على الشعور بالأمان، ولكني شعرت بعد بالخوف بسبب زيادة فرص اكتشاف أمري.

قال روبن ويبيستر بهدوء: «من هنا.» ثم قادنا إلى الباحة الخلفية للمنزل. وهناك، كان السيد دو ميراندول في انتظارنا، وصعدنا عبر درج خلفي إلى غرفة صغيرة تقع خلف غرفة الاجتماعات، ويفصل بينهما باب مخفى في ألواح الخشب. كانت ملابس القس فاوربيه الكهنوتيّة موضوعة على أحد المقاعد. وكان السيد دو ميراندول في حالة توتر شديدة. فكان وجهه محمراً بشدة ويداه ترتعشان.

وسأله: «هل أنت جاهزون؟ لقد حان الوقت.»

ضحت إيفيلين ديفينيش بنبرة خافتة وحماسية.

وقالت: «إنها اللحظة التي أنتظرها. أن تكون الأيام الماضية هي الأيام القادمة. وما حدث من قبل، سيحدث مجدداً. وعندما تفorus، سأفوز أنا أيضاً.»

كانت كلمات تشبه كلمات عرافة، أو دجالة تحيط نفسها بهاالة من الغموض، ولكنها قيلت بصوت مفعم بالشغف والصدق إلى حد أدنى لم أشك معها في أنها تمثل العالم بأسره بالنسبة إليها. ثم صاحت بصوت خفيض: «يا سيد الأرض! ثم انت Hibbit في صوت خفيض وأعادت صلاتها مجدداً. «يا سيد الأرض.» ثم رسمت على نفسها بإيمانها علامه الصليب من أسفل إلى أعلى وليس من أعلى إلى أسفل. وقالت: «أعده لي!» ونظرت نحو روبن ويبيستر وعيناها تبرقان خلف قناعها الحريري الأسود. كانت ترتدي عباءة طولية ضممتها بحيث تكون ملفوفة حول جسدها، ولاحظت للمرة الأولى، مصدومة، أن قد미ها في الخف عاريتان. وكررت مناجاتها وكأنها امرأة مجذوبة: «أعده لي.» وأمسكها دو ميراندول من ذراعها.

وقال: «تعالي!» وقادها نحو الغرفة الكبيرة، وأغلق الباب خلفه. سمعت أصوات طقطقة مفاتيح الألتوار الكهربية، وبعد بضع دقائق، سمعت ضوضاء خافتةً لأشخاص يدخلون الغرفة ويجلسون في أماكنهم.

في الوقت نفسه، كان روبن ويستير يقف مثل تمثال حجري وعيناه تحدّقان في الأرض. ثم رفع رأسه وأطلق زفرةً تتم عن الراحة. ثم خلع معطفه الطويل، ورأيت أنه كان يرتدي رداءً كهنوتيًّا. ارتدى قميص الكاهن الأبيض والشال ببطء شديد، وكأنه رجل غارق في أحلامه. ثم أخذ شيئاً من جيب معطفه وأخفاه في كمه. ثم استدار ونظر نحوي. كنت قد خلعت عباءة التذكر. أشار نحو طاولةٍ وضعت عليها مبخرة ذهبية بسلامٍ ذهبيَّة. كانت مليئةً بالبخور في انتظار أن يُشعّله أحد، وكانت هناك عليه ثقاب على الطاولة بجانب المبخرة. أشعلت عود ثقاب وأشعلت البخور وحملت المبخرة في يدي. تصاعد من البخور دخان قاتم السوداد، وملأ الغرفة برائحة حارقة ومسكرة. وطوال ذلك الوقت، لم يرفع عينيه عنِّي. لم تمر لحظة دون أن أتوقع أن أسمعه يصيح: «من أنت؟» ولكنَّه لم يفعل. وقفَت في مواجهته أُورجح المبخرة إلى الأمام والخلف أمام جسدي وبين جسدينا، ولم أكن أراه إلا عبر سحابة من الدخان.

رغم ذلك، شعرت بأنه قد عرف من أكون؛ فقد وقف يحدّق بي بملامح جامدة وعينين لا تطرفان. وفجأة، غمرني شعور جارف بالراحة. فقد أدركت أنه يحدّق بي بعينين شاردتين. لم أكن نصب عينيه من الأساس. وكانت أفكاره منصبةً على نفسه. واختللت شفتاه ببطء عن ابتسامة، وبللهمما بلسانه، وتحسس كمه بيده اليمنى، ليتأكد من وجود ذلك الشيء الذي أخفاه. أدركت حينئذٍ أنه يحاول أن يطبع في ذاكرته تلك اللحظة التي سُحرَّره من ملل عشيقته وطلباتها، كان يطبعها في ذاكرته باستمتاع شهوانِي بطيء.

ثم قال وهو يفتح الباب: «لقد حان الوقت.» وغمرنا ضوء لامع.

تبعدت وأنا أتمتم بدعاء وقلبي يرتعد خوفاً. ولكنني صرفت ذلك الخوف من قلبي حتى لا أخطئ وينكشف أمري. وتخطيت خوفي. أعتقد أن أبخرة البخور أسكرتني. ولكن شعرت في تلك اللحظة بخوف أتمنى ألاً أشعر به مرّةً أخرى ما حييت، كنت خائفةً أن أرى الشيطان نفسه يتجمد في الغرفة بين عباده، بشره وقبقه، ويقتل من يريد بمجرد إشارة من طرف إصبعه. ما الحماية التي سيمنحها لي تنكري حينئذ؟ تقدّمت دائحةً ومصعوقة. وكانت الغرفة تبدو زائفة في عيني. ولكن عادت روتيهما تتضح بعد قليل.

رأيت أن الحضور في الغرفة قد وصل إلى نصف سعتها، وكان الجميع يرتدون أقنعةً وثياباً تخفي معالم أجسادهم. ولكنني من وقت لآخر كنت أرى تحت تلك الثياب بريق كتف بيضاء ولعان حلي. وكان الجميع يُثثرون ويهمسون حتى أصبحت الغرفة مليئةً بأزيز كأزيز النحل. وعندما جثا روين ويبستر على ركبتيه أمام المذبح، وقفت عند جانبه وخلفه قليلاً. كان المذبح عبارةً عن امرأة حية. نعم!

كان ثمة مصباح ضخم معلق من السقف يلقي بضوءٍ ذهبي مبهر. وألقى بضوئه على الشاب الوسيم ذي العينين الزرقاويين اللتين يملؤهما الأسى، والللوحين الجانبيين، وغمر الضوء إيفيلين ديفينيش الراقدة عاريةً تماماً على ظهرها على كفن أسود. كانت عيناهما مغمضتين، ولكن كان صدرها يعلو ويهدّط مع أنفاسها المتلاحقة، وكانت ذراعاها مشدودتين بقوّة بحيث ترسمان مع جسدها المدد علامـة الصليب. حينئذ، فهمـت ماذا كانت تعني بالكلمات التي قالـتها في الغرفة الصغيرة:

«عندما تفوز، سأفوز أنا أيضاً».

تماماً مثلـما فعلـت مـدام دي مـوتيسـبا في الماضي، عندما استـلقت كـذبيحة بين يـدي الأب جـيبور؛ لـتستـعيد حـب عـشيقـها الـملكـي الضـائـع. واستـعادـته حـقاً.

بدأ روـبن وـيبـستر طـقوـس الـقدـاس بـأن غـمـغم صـلاـةً بـالـلـغـة الـلاتـينـية، وـمع استـمرـار الطـقوـس، غـيرـت مـكـانـي من جـانـب إـلـى آخرـ، وـأـنـا أـهـزـ المـبـخـرةـ وأـرـكـعـ. كانـ هـذـا الـقدـاس الـحـقـيـقـيـ، الـقـدـاسـ الـذـيـ كانـ الـخـدـاعـ الـهـدـفـ مـنـهـ. وـعـنـدـما وـصـلـ إلىـ جـزـءـ أـنـ الـخـبـزـ هوـ جـسـدـ الـمـسـيحـ وـالـنـبـيـدـ هوـ دـمـهـ، بدـأـتـ هـوـجـةـ مـنـ السـخـرـيةـ وـالـاستـهـزـاءـ، وجـنـونـ عـبـادـةـ الشـيـطـانـ سـتـحـوـلـ خـلـالـ نـصـفـ سـاعـةـ هـذـهـ الـغـرـفـةـ إـلـىـ مـاـخـوـرـ، زـرـيبةـ تـقـاتـلـ فـيـهاـ حـيـوانـاتـ فـيـ مـعرـكـةـ مـنـ الشـهـوـةـ. بـيـنـماـ كـنـتـ أـتـقـلـ مـنـ طـرفـ الـمـذـبـحـ إـلـىـ طـرفـ الـآـخـرـ وـسـطـ تـابـعـ الـأـدـعـيـةـ الـمـوجـةـ لـلـرـبـ الـحـقـ، وـقـعـ بـصـرـيـ عـلـىـ سـوـارـيـ الـذـهـبـيـ يـلـمـعـ عـلـىـ مـعـصـمـ إـيفـيلـينـ دـيفـينـيشـ، وـنـعـمـ؛ لـطـخـةـ دـاـكـنـةـ مـنـ الـوـرـنـيـشـ ظـهـرـتـ عـلـىـ رـاحـةـ يـدـهاـ. وـتـذـكـرـتـ أـنـهـ قـالـتـ عـنـ نـفـسـهـ إـنـهـ تـؤـمـنـ بـالـخـرـافـاتـ عـنـدـمـاـ اـسـتـعـارـتـ السـوـارـ. وـهـاـ هيـ قـدـ عـادـتـ إـلـىـ أـقـدـمـ خـرـافـةـ فـيـ الـعـالـمـ. إـذـاـ ماـ اـرـتـدـتـ شـيـئـاـ يـخـصـنـيـ خـلـالـ تـلـكـ الـحـنـةـ الـرـهـيـةـ، فـسـوـفـ تـسـتـخـرـجـ مـنـ دـاخـلـيـ جـوـهـريـ وـقـدـرـتـيـ عـلـىـ اـجـتـذـابـ النـاسـ وـتـضـعـهـمـ فـيـ دـاخـلـهـاـ. وـمـعـ اـقـتـرـابـ الـذـرـوـةـ الـمـقـدـسـةـ، تـمـلـكـتـ جـسـدـهـاـ وـأـطـرـافـهـاـ رـجـفـةـ قـوـيـةـ، وـانـفـتـحـتـ عـيـنـاهـاـ وـثـبـتـتـ عـلـىـ صـورـةـ أـدـوـنـيـسـ، وـصـدـرـتـ مـنـ بـيـنـ شـفـتـيـهاـ صـرـخـاتـ مـتـواـصـلـةـ خـرـجـتـ مـبـحـوـحـةـ وـكـانـهـاـ زـمـجـةـ حـيـوانـ. أـمـسـكـ روـبنـ وـيبـسترـ بـالـكـأسـ وـرـفـعـهـاـ فـوقـ رـأـسـهـ، ثـمـ وـضـعـهـاـ بـيـنـ ثـدـيـهـاـ وـانـحنـىـ فـوـقـهـاـ وـقـدـ بـدـتـ

عليه العصبية الشديدة. ذابت صرخات إيفيلين ديفينيش معًا مكؤنةً عوياً واحداً طويلاً، ورجّت التشننجات جسدها من قمة رأسها حتى أخص قدميها، وكانت ثمة حشارة في حلتها، واسترخت ذراعاهما، ثم رقدت ساكتة مرة أخرى. رفع روبن ويبيستر الكأس مرة أخرى، وتوقفت جميع الهمميات. لم أقو على النظر حولي، ولكني كنت واثقة بأني إذا فعلت، فسأرى أن الرعب قد جعل الحاضرين شاحضي الأ بصار كتماثيل حجرية. كنت أقف عند الطرف الأيسر بجانب قدمي إيفيلين ديفينيش، وكان ظهر روبن ويبيستر يحجب بعض الرؤية عنّي. رأيتها يرفع الكأس للمرة الثالثة، وعندئذ، بدأ الحضور يت眠ايلون وينحنون مثل سيقان الذرة في مهب الريح. وببدأت الهمميات مجدداً، أكثر علوًّا وأكثر هستيرية. انحنى روبن ويبيستر والكأس في يده، وسمعت صوت سيلان سائل داخله. وفجأة، صرخت امرأة، وكان هناك صوت إزاحة مقاعد قلبه، وحركات محمومة، وصدر صوت روبن ويبيستر أعلى من صوت الصخب، وكانت تشوبه نبرة ظفر بينما كان يفرد ذراعيه نحو صورة أدونيس والكأس بين راحتي يديه.

قال: «الآن، حي عبادك! هاك قربان يليق بك. تعال! تعال!»  
ولكن رن صوت أعلى من صوته وأكثر منه عنفاً ورعباً، ونطق كلمة واحدة فحسب.  
«اقتلت!»

رأيت روبن ويبيستر يستدير ناحية الغرفة، ورأيت إيفيلين ديفينيش ونصل سكين موجه رأسياً فوق قلبه، وسال الدم على صدرها، وشعرت بنفسي وسط دُوامة من الناس، وسمعت صوتاً يعلو فوق الصخب ويقول بنبرة آمرة:  
«أغلق الباب! لا يخرج أحد!»

خفضت رأسي، ووصلت إلى الباب الصغير في الجدار المغطى بألواح الخشب. وفتحته، وتسللت عبره. كان ثمة مزلاج في جانبه الداخلي. فأغلقته وعدوت على الدرج وأنا أمزق الرداء الكهنوتيعني بينما أعدو. كان الرداء أبيض اللون، وكان سيدل من يلاحظني على مكاني حتى في هذه العتمة. أقيمت الرداء في المدخل الخلفي للمنزل، وعدوت عبر الحديقة، وفتحت مزلاج البوابة بيدي الملفوفة في قطعة من قماش الرداء الكهنوتي، وعدوت هابطةً التل نحو سويفلاك. لم يلاحظني أحد. لم يلحظ أحد هروبي في ظل الفوضى التي حدثت. ولكنهم سيلاحظون هروبي قريباً. أعرف النبرة السلطوية بمجرد سماعها. الصوت الذي قال أمراً: «أغلق الباب! يجب لا يخرج أحد!» أصبحت أعرف الآن أنه كان صوت آرثر تيدون، القاضي. لم أكن أعرف حينئذ إلا أنه صوت رجل اعتاد على إملاء الأوامر وقدر

على السيطرة على انفعالاته. لم أعد خائفةً من السيد دو ميراندول أو روبن ويبيستر. بل أصبحت خائفةً من صاحب الصوت المجهول. خلعت قناعي عن رأسي وأمسكته في يدي. عدوت مروراً بمباني المزرعة، وكانت جميعها مطفأة الأنوار، وصعدت المنحدر المؤدي إلى قصر سوفلاك. ألمّقت نظرةً على منزل ميراندول على التل. كانت الأنوار لا تزال مضاءةً في الغرفة العلوية الطويلة. كانوا لا يزالون يتناقشون هناك، ولكن كانت ثمة سلطة تدير النقاش هذه المرة. ولن يستمر هذا النقاش طويلاً. وفكّرت في أنهم لا بد أن يتصرفوا؛ فمع سلطوية هذا الصوت لتوجيه أفعالهم، سيكون تصرفهم سريعاً وحاسماً.

دخلت إلى المنزل عبر باب غرفة الاستقبال الزجاجي، وتسللت على طول الرواق حتى وصلت إلى غرفة ديانا. فتحت باب الغرفة وأضأت أنوارها. لم تكن قد انقلبت في نومها منذ تركتها. ثم أغلقت الباب من الداخل. يجب أن أخلع عنها ملابسها وأضعها في فراشها الوضع الصحيح. كان هذا ضروريًّا للغاية. فهناك، فوق التل، عندما يصلون إلى عد الحاضرين، فمن المؤكد أنهم سيكتشفون اختفاء مساعدة القس. لا ريب في أنهن قد اكتشفوا اختفاءها الآن، روبن ويبيستر، دو ميراندول، والرجل صاحب الصوت. ولكنهم لن يشعروا بالقلق ما داموا قد اعتقدوا أن المساعدة هي ديانا. وسيفترضون أنها قد هربت، مثلما فعلت أنا، عندما حدث الهرج والمرج.

ولكني فكرت: «لن يمكن لأي من الذين حضروا هذه الجريمة أن يبوح بكلمة واحدة عنها. لن يجرءوا على الاعتراف بأنهم كانوا يساعدون في تنفيذ هذا التجديف الذي لا يُغتفر». كان روبن ويبيستر يدرك ذلك جيداً أثناء التخطيط لارتكابها. لقد أصبحوا جميعهم شركاء في الجريمة، وستُلجمهم رغبتهم الملحّة في التزام السرية التامة. حسناً. من المرجح أن يُضطر الجميع إلى إزالة أقنعتهم. ولا ريب في أنهن سيتفرقون على الفور، وسيبقى اثنان أو ثلاثة منهم لتقرير ما يجب فعله؛ روبن ويبيستر، والسيد دو ميراندول، والصوت. ولكن أتساءل عما قرر هؤلاء الثلاثة أن يخبروا ديانا به. يجب أن يُجهّزوا لها لما سيحدث في الصباح. يجب أن يأتوا إلى هنا الليلة في أقرب وقت، أقرب وقت ممكن. وإذا ما وجدها نائمةً مرتدية الفستان الذي كانت ترتديه خلال الأمسية، فسيعلمون أنني حللت محلها. بدأت العمل. وكان عملاً مضنياً! كان يجب أن أتم الأمر برفق شديد حتى لا تستيقظ. كما أنها كانت ثقيلة الوزن. كان يجب أن أُزيل عنها جميع ملابسها وأن ألبسها ملابس النوم. أتممت الأمر أخيراً، ولكنه استغرق مني وقتاً طويلاً. وكنت أتوقع مع كل لحظة تمر أن أسمع صوت خطوات أقدام في الرواق. وضعتها في فراشها بالوضعية الصحيحة،



كان الصوت المجهول الذي صاح: «اقتل!» هو ما أخاف جويس. فعادت هاربة تحت جُنح الظلام ممسكة بقناعها في يدها.

ثم أطفأت الأنوار، وفتحت الباب، وتركته موصداً دون قفل المزلاج، وتسللت صاعدةً الدرج إلى غرفتي. وأوقفت بابها على نفسي، وأضأت أنوارها، وألقيت نفسي على الفراش. لم أفقد الوعي، ولكن انتابني شعور رهيب! وظللت أبكي حتى خُيل لي أنه من المستحيل أن تكون هناك دموع متبقية في عيني. واضطُررت لأن أحشو فمي بملاءة الفراش لامن نفسي عن الصراخ. وشعرت وكأنني أسقط عبر الفراش إلى بطن هاوية تليها هاوية. وشعرت وكأنني أحضر.

لا أعلم كم دامت هذه الحالة. ولكن بعد وهلة، جلست ولم أشعر بالحاجة إلا إلى شيءٍ وحيد، أن أخرج إلى الهواء الطلق. فمع نوافذ غرفتي المغلقة وبابها الموصد، كنت أشعر وكأنني أختنق في زنزانة. ثم تذكّرت الزورق. كان يأتي إلى سوفلاك ثلاث مرات أسبوعياً ويرحل في الليل عندما يرتفع المد إلى بوردو. ورأيت صاريته ظاهرةً عند المرفأ الصغير اليوم. ربما أتمكن من اللحاق به قبل أن يُبحِر إذا ما أسرعت. وقد يسمح لي القبطان بالركوب إذا ما دفعت له بسخاء. لم ألق بالاً للملابس؛ فلم أكن أفكّر في شيء سوى أن أبتعد عن هذا المنزل لأكبر مسافة ممكنة. أمسكت بعبادة التتكر والقناع، فلم أكن أجروء على تركهما خلفي، وأطفأت أنوار الغرفة وتسللت خارجة. كانت الطريق الأقصر بالنسبة إلى أصل إلى المرفأ عبر الباب المؤدي إلى الشرفة من غرفة ديانا. وكان الباب موصداً ولكنه غير مقفل بالمزلاج. عدوت على الدرج نزواً عبر المرج، وتعثرت في حوض الزهور، ثم واصلت العدو ثم توقفت فجأةً عند نهاية الطريق. لقد رحل الزورق. ألقيت القناع على شجرة. كنت مرتعبةً منه. فقد شعرت بأنه جعلني شريكةً في الجريمة، وشعرت براحة غامرة عندما تحرّرت منه أخيراً. التفتت نحو اليمين وعدوت عبر الطريق لأحتمي بين الأشجار المظلمة. فكّرت في أن الود بماريان وجولس أماديه، ولكن الأمل كان لا يزال يحدوني في أن أتحدث إلى ديانا أولاً، وسيمكنتنا أن نجهز قصّةً تُتقذها من فضيحة المشاركة في الجريمة. فكّرت أني إذا عدت إلى غرفتي مجدداً، وأقفلت بابها ووضعت الفراش خلفه، فسأكون آمنةً حتى الصباح. ولم يكن الصبح بعيد.

ولكن بينما كنت أتسلّل عبر الشرفة، رأيت شيئاً يتحرك خلف نافذة المكتبة؛ أنت، التفت جويس وبيبل إلى السيد ريكاردو. «دخلت من فوري إلى غرفة ديانا، وأغلقت الباب الزجاجي وأضأت الأنوار للحظة. وكانت الغرفة على حالها عندما غادرتها المرة الأولى. لم تتحرك ديانا. ثم سمعت طرقاً. وكانت أصابعه لا تزال على المفتاح. فأطفأت الأنوار. وحان وقت الفرار. إذا كان من يلاحقونني في الشرفة، فسيتوفر لي وقت كافٍ لأصل إلى غرفتي وأحصّنها. أسرعت صاعدةً الدرج الصغير، ودخلت غرفتي. ولكن كان الأولان قد فات. كان رو宾 ويبستر قد قاد الرجال من قصر ميراندول إلى غرفة ديانا. وعثروا على ديانا غارقةً في نوم عميق لا يمكن إيقاظها منه، لم يكن نومها من الممكن أن يحدثه شيء إلا عقار منوم. وأصبح من الجلي أنني حللت محلها. وبينما كنت أتحسّس في الظلام بأطراف أصابعه لأصل إلى مفتاح النور، ووضعت عبارة على رأسي وضغطت يد على فمي. وقدت الوعي حينئذ. وعندما استعدت وعيي، كنت أحمل من سيارة إلى منزل السيد دو

ميراندول. كان هناك ثلاثة رجال، السيد دو ميراندول، وروبن ويبيستر، ورجل كان لا يزال يضع قناعاً على وجهه. حملت إلى قبو، وبينما كان الرجل ذو القناع يقف فوق ليثبتني، أحضر الرجال الآخران مرتبةً وقدر ماء وأشياء من هذا القبيل.



كانت جويس واثقةً بأنها أصبحت آمنة، وتحسست طريقها في الظلام بحثاً عن مفتاح النور. ولكن تحت جنح الظلام، أقيت عباءة على رأسها وفقدت وعيها.

قال الرجل ذو القناع: «سنقرّر مصيرها غداً»، واقشعر بدني. فقد تعرفت إلى صوته. إنه صوت الرجل الذي صاح: «أغلق الباب!» أذكر أن روبن ويبيستر كان آخر من يخرج من القبو، وقبل أن ينصرف، انحنى فوقى وقال: «لا تفقدى الأمل! سأنقذك».

ولكنه لم يكن ليتمكن من ذلك بالطبع. لم أكن آمل أنه يستطيع أن يفعل. كان مجبِّاً على الموافقة على ما يقرّره الآخران.

كانت هناك نافذة ذات قضبان في القبو تحت السقف تسمح بدخول الهواء وطيف من ضوء شاحب. بعد أن طلع الصبح بمدة قصيرة، أحضر لي السيد دو ميراندول بعض الطعام ورجوته أن يطلق سراحه. لا أعلم بمَ وعدته، ولكنه لم يرد علىَّ من الأساس. وفي الليل، جاء تيدون دو ميراندول معاً. ووضعاً الأصفاد في يدي، وكمامَةً في فمي، وربطاً قدمي. وحملني تيدون إلى أعلى الدرج. كانت سيارته تقف أمام الباب مغلقةً السقف ومن دون سائق. وضعني على أرضيتها وغطَّاني بسجادة، وبعد دقيقة أو اثنتين، تحركت السيارة.

أومأ هانو برأسه.

وقال: «تيدون هو الرجل الوحيد الذي كان قادرًا على قيادة سيارته إلى بوردو عابرًا طوقي الأمني دون تفتيش سيارته. ولكن رغم ذلك، اتَّخذ ذلك الرجل البارع احتياطاته. عندما اقترب من بوردو، أَخَذ منعطفًا إلى خارج المدينة، وفي طريق جانبية، نُقلت هذه الآنسة إلى عربة يجرها حصان تقودها صديقتنا العطوف الأرمَلة تشيشول.»

## الفصل التاسع والعشرون

### هانو يستكمل المهمة

هكذا روت جويس وبيل قصتها. وكانت قبل أن تقطع شوطاً طويلاً منها قد وضعت يدها تحت ذراع برايس كارتر مع إيماءة جميلة؛ لكي تطمئن نفسها بلمسته أن الأيام السيئة التي تحكي عنها قد ولّت حقاً. وقبل أن تصل بحكياتها إلى فرارها من منزل ميراندول، كان هو قد أحاط خصرها بذراعه واقتربت هي بجسدها منه. وهكذا ظل الاثنان على هذه الوضعية طوال مدة سرد القصة، ولم يكن حتى سحر زجاجة الشمبانيا الوردية اللذينة التي طلبتها هانو بطريقة عفوية كافياً لأن يفصل بينهما.

صاح هانو: «فليملاً كلُّ منكم كأسه حتى حافتها! هكذا! فلنرفع نخب الآنسة جويس. هل نضرب كعوب أحذيتنا معًا؟ لا! لن نفعل!»

رفع كأسه لينظر إلى محتوياتها في الضوء، وحدّق فيها مترقباً ظهور الفقاعات التي تتصاعد إلى سطح النبيذ، وانحنى لجويس بعطف وإعجاب عميقين باديين على وجهه جعلهم جميعاً يتأثرون، وصاح: «إلى الشابة الشجاعة من حي باوري!

ضحك جويس واحمرّ وجهها وشكّرته عينيها البراقتين. ثم قبّلها برايس كارتر، مؤكّداً فكرة هانو عنه، على شفتيها بجرأة، فزمَّ هانو شفتيه، وأغلق السيد ريكاردو عينيه وكأنه على وشك أن يشرب زيت الخروع، ثم شربوا ما في كتوسهم عن آخرها.

قال هانو: «هذه الشمبانيا! إنها المشروب المناسب لمناسبات كهذه.»

قال برايس كارتر ضاحكاً: «وهذه الشمبانيا رائعة.»

قال السيد ريكاردو بصوٍت لم يسمعه إلا هو: «أكثر مشروب مقِّرٌ على الإطلاق.» وأبدى شجاعةً كافية لأن يشرب منقوع الأعشاب هذا.

قال هانو: «والآن. لقد سمعنا القصة. كل ما تبقى بالنسبة إلى ...» وأمال رأسه نحو برايس كارتر، وقال: «هو أنْ أنْقط الحروف.»

وافقه برايس كارتر قائلاً: «بالضبط»، ولكن لم يكن السيد ريكاردو يتمتع بالقدر نفسه من سماحته.

وقال: «ضع النقاط على الحروف يا صديقي.»

ألقى هانو يديه في الهواء. وقال: «هل سمعت؟ إنه يقول إني صديقه، إلا أنه يسرّعني على الدوام. ولكنني لن أسمح له بذلك الليلة. لا، لا! أنا محقق في جهاز الأمن العام، وأعتقد أنني أفضّلهم على الإطلاق، وأعرف كيفية استخدام العبارات الاصطلاحية جيداً. تضع اللغة النقاط على الحروف؛ أي إن المرء ينقطّها. سأوضح الأمر، لكن نقطتي الكبرى ستأتي في الختام.»

تحدى السيد ريكاردو بنظرة صارمة، ولكنه صمت أمام بشاعة القول بأن اللغة تضع النقاط على الحروف.

وقال: «حسناً! لقد أخرسته. حسناً! في البداية، كان من المفترض أن يرحل الزورق مع المد في تمام السادسة صباحاً. ولكن عندما أسرعت الآنسة جويس لتلوذ به، ما بين الثانية والثالثة صباحاً، كان قد اخترق. ربما دخل به إلى عمق النهر لكي يرسو هناك، أو ربما انجرف الزورق بعيداً عن وجهته. لا منطق في أفعال قبطان الزورق، أليس كذلك؟ حسناً، دعونا نسمع ما يقول! يقول إنه بعد الساعة الثانية بقليل، أيقظه صوت خطوات أقدام شخص ما قفز بخفة من المرفأ إلى سطح الزورق. أخرج رأسه وكتفيه من غرفته الصغيرة، وانحنى روبن وبيسستر نحوه على الفور وقال هاماً:

«لا تُصدر أي صوت، وتعال إلى الشاطئ!»

قاده وبيسستر إلى أجمة الأشجار وعرض عليه سلة مربوطة بالحبال. خُيل إليه أن هناك رجلين يقفان على مقربة منهما، ولكنه لم يكن واثقاً بذلك. لم يخبره روبن بما يوجد في السلة. ولكن عرض عليه تملّك الزورق بأشرعته وحاله وأثاثه، بالحالة نفسها التي هو عليها في المرفأ، إذا ما انطلق على الفور وأغرق السلة الثقيلة عن طريق ربط ثقل بها في وسط نهر جيرونند. يقول القبطان إنه رجل فقير، وكان حلم حياته أن يمتلك ذلك الزورق الجميل، بيل سيمون. أيقظ ابني، وحمل السلة إلى سطح الزورق، ولم تكن ثقيلة على نحو يُثير الشبهات، وألقاها في النهر، وأغرقتها عبر ربط ثقل بها كما قيل له. ولكن أخبر بأن يسرع، ومن ثم، لا بد أنه ربط الثقل بإهمال. ولكن اتضحك الآن أن إرادة الرب هي التي تكشف الجرائم. وبالنسبة إليه شخصياً، كان سعيداً بذلك لأنه متدين بطبيعته ... إلخ. هذه قصة قبطان الزورق، وهي تتفق تماماً مع الحقائق التي نعرفها. لا بد

أن زورق بيل سيمون خرج من المرفأ قبل دقائق معدودة من توقف الآنسة جويس عن العدو عند نهاية الطريق، وَتَرَكَ آثار أقدام واضحة لحذائهما على العشب الطري». التفت هانو نحو جويس وعلى وجهه تعbir جاد. وقال: «انتابتك لحظة من اليأس حينئذ، نعم يا آنسة، ولكنني أريد أن أهنتك على عدم اللحاق بالزورق، على الرغم من قبطانه المتدين بطبيعته. ففي نهاية المطاف، كان سيتتمّلُك الزورق بكل معداته، أليس كذلك؟» ثم هز كتفيه. ولكن لم يكن السيد ريكاردو يميل لتصديق قصة القبطان. ربما كان هذا عيباً يمكن تبريره في شخصيته النزيهة تماماً، وهو أنه بعد كل إحباط يتسبّب فيه هانو، كان لا بد له من التشكيك في مصداقيته وكفاءته وعمره، بل وحتى في حسه الفكاهي وطريقته في طرح القضايا.

وفي تلك اللحظة، قال طارقاً على سطح الطاولة بأنامله وهو يبتسم ببعض العدائية: «أواجه بعض الصعوبة في تصديق أن السلة قد جُلت إلى الزورق خلال تلك المدة القصيرة.»

وافقه هانو قائلاً: «من حقك أن تفعل يا صديقي. ولكن رغم ذلك لا تريد سوى عرقاتي، فقد طرحت سؤالاً. دعنا ننظر في أمر الوقت. في البداية، عادت الآنسة جويس هابطةً للتل. هذا لمسافة كيلومتر واحد تقريباً. ثم جرّدت الآنسة ديانا من ملابسها، ووضعتها في فراشها. آه، آه! هذا أمر ليس باليسير! لن يمكنك فعله بينما تغبني: «تلاؤ يا عمود الفراش الصغير! لا!»

قال السيد ريكاردو في برود: «فقط الجنون من قد يفكر في تعليق كهذا.»  
بعد تجريد ديانا من ملابسها، صعدت الآنسة جويس إلى غرفتها، وكان قد أصابها التعب حقاً، وتکاد تنهار. حسناً! ولكنها شعرت بأنها حبيسة، وحينئذ فقط فگرت في الذهاب إلى الزورق. والآن، انظر إلى الأمر من زاوية أخرى! هناك تيدون، بضمومه وذكائه، وكما لاحظت الآنسة بعد ذلك، اعتياده على إملاء الأوامر، وهناك أيضاً روبن وبستر، بعدما أزاح الوحش الأسود الذي طارده من طريقه، كلها سيسّرعان، سيسّرعان؛ فالصباح قادم من خلف بوردو سريعاً، سريعاً أيضاً. ولم يكن أمامهم وقت يكفي لترتيب الأمور. فأقدموا على التنفيذ. وضعوا السلة في سيارة دو ميراندول. وقادوها إلى أسفل التل مروراً بالمكاتب وخرجوا إلى طريق بوردو. وعلى مسافة نصف كيلومتر من المدخل الرئيس لقصر ميراندول، توجد البوابة التي تؤدي إلى مزرعة سوفلاك. قادوا السيارة إلى داخل المزرعة. أصبحوا الآن قربين من الطريق التي تحفها الأشجار. لم تكن السلة ثقيلة للغاية على

ثلاثة رجال، كما قال قبطان الزورق بصدق. كان لا يزال هناك متسع من الوقت، حتى مع وضع هذه الترتيبات **اليسيرة في الاعتبار**. لم يحتاج الأمر إلى أي تأكيد مع ضغط هانو على هذه الكلمات ليوضح لجميع من يجلسون إلى هذه الطاولة ما يعنيه تماماً. ارتجفت جويس وبيبل وتقلّصت ملامح وجهها في الم.

«نعم، الأمر ليس محبباً يا آنسة، ولكن ما الذي بيديك أن تفعليه؟ كانت هناك لطخة على راحة يد المرأة المسكينة. وبدأت راحات أيدي روبن وبيستر وتيدون تؤلمها وتحرقهما حقاً. وأصبح لحمهما متقرراً. لم يكن ذلك القاضي البارع يُقدم على أي مخاطرات إلا بالقدر الذي تفرضه عليه الضرورة. كان قد شهد انكشاف جرائم بسبب نسيان آخر إجراء احترازي ضروري أو الاستهانة به. لنفترض أن هذه الجثة قد اكتشفت وذلك الجرح الصغير في راحة يدها يماثل الجراح في راحات أيدي روبن وبيستر والسيد تيدون، ستثار حولهما الشكوك، أليس كذلك؟ ومن ثم ...» مثل هانو أنه يقطع يده بأداة حادة على الطاولة لدرجة أن الرجلين قفزا من مكانيهما، وانطلقت صرخة خافتة من بين شفتَي جويس. «منظر قبيح، أليس كذلك؟ ماذَا حدث لهذه اليد؟ من يمكنه التخمين؟ ربما أحرقت أو دُفنت. ولكن أمر السوار غريب، أليس كذلك؟ كان من المقلق اكتشافه، سوار الآنسة وبيبل في تلك السلة. أمر غريب للغاية، ومقلق للغاية. ولكن أصبح الأمر واضحًا الآن، أليس كذلك؟ لقد قُطعت اليد على حافة السلة. ومن المرجح أنهم لم يلاحظوا وجود الجرح من قبل. ثم ...» رفع يده إلى أعلى وقطع الهواء بحافتها، ومالت جويس وبيبل بسرعة نحو حبيبها وتمسكت به.

وقالت راجية: «أرجوك! أرجوك!»

تراجع هانو ببعض التردد وقال: «حسناً، سأتوقف عن تمثيل مشاهد القطع، ولكن كان هناك قطع لليد وانزلق السوار منها إلى داخل السلة. ما الهدف من محاولة استعادته في ظل حاجتهم الملحة لأن يسرعوا؟ لم يكونوا يعرفون أنه سوار الآنسة وبيبل الذي استعارته منها المرأة المؤمنة بالخرافات باعتبارها تميمة. وبهذا تكون قد نَقْطنا أحد الحروف.»

قال السيد ريكاردو معتبراً بصوت خافت: «وضعنا نقطَة على الحرف..»  
قال برايس كارتر بصوت عالٍ: «نَقْطنا. واعذرني، لقد عملت في وزارة الخارجية ونعرف عن اللغة الإنجليزية القدر نفسه الذي يعرفه السيد هانو. أكمل يا سيد هانو! أرجو منك أن تُنْقَط حرفاً آخر من أجلي..»

ولكن تجسّد التسامح في صورة هانو. ورفض أن يدوس على خصمه الطريح أرضاً. ربما رمقه بنظرة ظفَر يسيرة، ثم التفت نحو برايس كارتر.  
وقال: «حسناً. سأنقطع حرفًا من أجلك».

«كيف نجت جويس خلال اليومين اللذين قضتهما في منزل ميراندول؟ لقد غامرا بالكثير، هؤلاء الرجال الثلاثة. كان من الممكن تفتيش المنزل».

قاطعه هانو قائلاً: «أوه، ولكنني لم أكن أملك بعد الحق في تفتيش المنزل. لا بد أن أمتلك السلطة والإذن، ومن كان أفضل من تيديون البارع ليمنحهما لي؟ كان سيُضطرّ أمامي العرّاقيل إذا ما طلبهما منه. وربما كانت هذه الآنسة ستعرض للخطر. فسلكت مساراً آخر. كنت واثقاً بأن الآنسة ستظل حيةً في منزل ميراندول، لا تخافوا!»  
ضحك السيد ريكاردو ساخراً.

قال هانو: «يمكنني فعل ذلك. نعم، يمكنني ذلك! ولا أحد غيري! أنا فقط!»  
رمق السيد ريكاردو جويس عبر الطاولة مبتسمًا. وقال: «إن السيد هانو لا يكون في أفضل حالاته خلال تلك المواقف. وكما يقول، التواضع ليس من شيمه. وكيف فعلت ذلك؟»

قال هانو بجدية أزعجه السيد ريكاردو: «لقد حذّرتم. لقد سمعتني أحذّرهم يا صديقي. لقد أخبرتهم بأنهم لن يستطيعوا تخلص أنفسهم من الموتى. أوه، تيديون يعرف ذلك، ولكنني ذكرته به. كنت قد فرضت طوقاً أمنياً حول المنزل. ماذا كان بيدهم فعله؟ كانت هناك طريقتان فحسب، إما الدفن وإما الحرق. بالنسبة إلى الدفن، كانوا واثقين بأنني سأفحص هذا المنزل بدقة وكأنني مُصلح طرق. وماذا عن الحرق؟ سيُصدر الكثير من الدخان الأسود من المدخنة، لا، لا ... ثم أمسك لسانه فجأة. وقال: «يا آنسة، سامحيني. أستريحك عذرًا. لم يكن ما قلت لطيفاً. فلنلق باللوم على السيد ريكاردو الذي يُثيّرني بضحكاته الساخرة».

تحدّث بندم شديد إلى جويس التي كانت ترمي بوجهه مصدوم شاحب والرعب يملأ عينيها، الأمر الذي جعلهم جميعاً يشعرون بالخجل من أسئلتهم المتحمسة.

قال هانو: «هل تسامحيني؟ نعم. إننا أناس غلاظ القلوب، من دون أي مراعاة. ولكننا نحبك، حتى السيد ريكاردو الذي يعجز اللسان عن وصفه. هل تسامحيني إذن؟»  
ولكن بدا للحظة أن جويس لم تسمع ولم تدرك الرقة الحقيقية المخفية تحت كلماته الحمقاء. وارتجمف جسدها من قمة رأسها حتى أخمص قدميه، ودفنت وجهها بين يديها.

ونحبت بصوت خافت قائلة: «أوه، أوه! الدخان الشيطاني الأسود! أنا!» ثم مالت نحو الأمام لدرجة أنه لو لم يمسك بها برايس كارتر لكان سقطت على الطاولة. تملّك الرعب المجموعة الصغيرة. وملأ هانو كوباً بمياه إيفيان.

وقال: «دعها تشرب هذا بسرعة.» وضع الكوب في يد برايس كارتر المرتعشة. وقال: «جعلها تشرب الماء، وإلا فلن تكون الرجل المناسب لها وسأرفض رباطكم.» قال السيد ريكاردو في لا مبالاة: «اربطكم.» أبعد برايس كارتر يدي الفتاة عن وجهها برفق ورفع الكوب نحو شفتيها.

فقالت وهي تبتسم في ضعف: «أنت عطوف، بل جميعكم عطوفون.» رشفت الماء من الكوب، ثم مدّت يدها البيضاء الصغيرة ووضعتها بطريقة جذابة للغاية في راحة يد هانو الضخمة.

قال: «أنت الآن أفضل، أليس كذلك؟ لقد أنقذتك مجدداً. والآن، اسمعني يا آنسة! سأنقطع الحرف الأخير بنقطة كبيرة واضحة، وسنعود جميعاً إلى بيوتنا.»

جال ببصره حول الطاولة ليجذب الانتباه وهو يبتسم في رضا.

وقال: «أنصتوا! فكّرت في أن كل تلك الشجاعة التي أظهرتها الآنسة، وولاءها لصديقتها، والمحنّة الرهيبة التي مرّت بها؛ لا يجب أن تذهب هباءً منثوراً. لقد جابهت كل هذه المخاطر من أجل إنقاذ صديقتها، ديانا تاسبورو. ومن ثم، سنؤدي، نحن رجال الشرطة، واجبنا أيضاً. سنقول إن روبن وبيستر قد خطّلوا استدرج ديانا إلى مصيدة الشر؛ لذا حلّت جويس وبيل محلها. ولكن يجب أن تنتهي القصة عند هذا الحد. سُيحاكم روبن وبيستر والفيكونت دو ميراندول بتهمة قتل إيفيلين ديفينيش والشروع في قتل جويس وبيل، وأؤكّد لكم أنهما في محنّة لن يتمكنا من النجاة منها. عليك أن تثقي بنا يا آنسة.» ثم نهض واقفاً، ودفع الحساب، وسار عائداً إلى المدينة مع مجموعة رفاقه الصغيرة. أو بالأحرى، سار مع جوليوس ريكاردو. فقد تقهقر الاثنان الآخران خلفهما قليلاً. لفت هانو انتباه ريكاردو إلى تقدمهما البطيء مطلاً الكثير من الضحكات واللكلّات بمرفقه، والإيماءات المرحة، التي لم تكن مقبولةً على الإطلاق بالنسبة إلى شخص متّحفظ مثل السيد ريكاردو. ولكن تغيّرت طباع هانو إلى النقيض تماماً عندما وقف أربعتهم معًا في الشارع تحت عمود الإنارة أمام الفندق. وعندما خلع قبعته، شكرته جويس بصوت دافئ متهدّج، وردّ عليها ببساطة تامة: «لقد أديت واجبي يا آنسة.»



